تاريخ الدولة العربية

في العصر العباسي الثاني

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



منشورات جامعة دمشق

كليـــة الآداب

تاريخ الدولة العربية

في العصر العباسي الثاني

تأليف

د. سهيل زكار   د. سميحة أبو الفضل

جامعة دمشق

١٤٢٣-١٤٢٤ - ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣

Damascus University



فهرس المحتويات

Damascus University



تقـــديـــم

يقتضي البحث في تاريخ الدولة العباسية تقديم عرض موجز لأحوال الخلافة الأمويـــة خاصة في أيامها الأخيرة ، فالخلافة الأموية يعود الفضل في تأسيسها إلى معاويـــة بن أبي سفيان ، وأسس معاوية هذه الخلافة حيث استولى على السلطة ، بعد خلاف معروف أعقب مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وليس لسابقته في الإســـلام أو لأن المســـلمين انتخبوه وارتضوه لهذا المنصب ، وبذلك انتهى ما يعـــرف عـــادة باسم العصر الراشدي أو عصر الحكم المثالي والشورى في تاريخ الإســـلام ، وعـــندما اســـتلم معاوية السلطة جعل عاصمة الدولة دمشق في بلاد الشام. وبلاد الشام عريقة في الحضارة ، فهي ذات موقع خاص وتركيب جغرافي مـــتميز ، وكـــان لموقعها مع تركيبها انعكاسات كبيرة عليها من جميع النواحي البشـــرية والدينية والحضارية والاقتصادية ، فهذه البلاد لامست مناطقها الشمالية مـــنافذ الحضارة الكلاسيكية ، وكانت سواحلها الطويلة نوافذ لها على حضارات سواحل البحر المتوسط ، كما ربطتها حدودها الشرقية بالبادية والبداة بالحضارات القديمـــة لبلاد النهرين ، ثم الهضبة الإيرانية مع الشرق الأقصى ، كما ارتبطت من الجـــنوب مع شبه جزيرة العرب ، وارتبطت عبر سيناء بمصر وأفريقيا ، وعلى هذا كـــانت هذه البلاد ــــ فضلاً عن إبداعاتـــها وتميزها الذاتي ــــ محطة ونقطة التقاء الحضـــارات وأفكار العالم القديم والوسيط وعقائدهما ، ولم يكن التلاقي بين هذه الحضـــارات دائماً سلبياً ، بل كان العكس من ذلك في غالب الأحيان ، على أن هـــذا الـــتلاقي بين الحضارات كان يمكن أن يكون ميزة تنعم بـــها بلاد الشام ،

لكـــن التركيب الجغرافي لهذه البلاد حال دون ذلك ، فنحن نجد الكثير من الجبال والأمـــاكن الـــتي تساعد على أن تعيش المؤثرات كل واحدة على حدة دون أن تـــتفاعل مع غيرها ، لهذا لم تعرف بلاد الشام الوحدة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العقائدية إلا نادراً ، ولذلك لم تكن هذه البلاد في القديم قط قاعدة لدولـــة عظمـــى أو إمبراطورية ، ذلك أن الشروط الأساسية لقيام أي إمبراطورية واســـتمرارها في الوجود أن تتوافر لها قاعدة كبيرة ، بـــها خزان بشري منسجم أفراده ومتعايشون بتوافق من الجهات كافة .

في هـــذه البلاد اتخذ معاوية قاعدة لدولة الإسلام الكبرى ، وكان في عمله هـــذا متحدياً للقواعد الطبيعية ، وكل قاعدة استثنائية تظل قائمة إلى أن يصيبها الخلل الداخلي فتنهار ، ومن يقرأ تاريخ بني أمية يلاحظ أن التاريخ زحف للخلفاء نحو المشرق حتى أننا نجد آخر الخلفاء يتخذ من حران قاعدةً ويتخلى عن دمشق ، وأقـــام معاويـــة دولـــته ، وكان لهذه الدولة أن تعيش ما دامت هناك قدرة على اســـتخدام القوة ، لكن مع حدوث أول خلل في هذه القاعدة جاء انهيار الخلافة الأموية ، وحمل استخدام القوة منذ البداية بذور الخلل والضعف ، فقد كان على الخلافـــة أن ترضـــى دائمـــاً رجال الجيش وبخاصة الشامي منهم بشتى المغريات والامـــتيازات فأكـــثرت من فرض الضرائب وجمع الأموال حتى إنها عملت على بقـــاء العناصـــر غير المسلمة على دينها السالف لأسباب ضرائبية بحتة ، ونتج عن إغـــداق الأموال تشكل طبقة مثرية محتكرة ، كما أن إرضاء الجيش والتفتيش عن مصادر مالية لـــه فيها ثروة وإغراء يمكن أن يفسر لنا من بعض الجوانب مسارات الفـــتوحات زمـــن بني أمية ، ويمكن أن يشرح لنا إخفاق العرب في إنهاء وجود الأمبراطورية البيزنطية .

Damascus University

ومع مطلع القرن الثاني للهجرة كانت الدولة الأموية في غاية الاتساع ، ضمت شعوباً وعقائد وحضارات تحت لواء واحد لأول مرة في تاريخ الإنسانية ، ولم يكن هيّناً أبداً مزج هذه الشعوب وإجبارها على التخلي عن مواريثها ، لذلك ما إن زالت حقبة ضربة الفتح الأول حتى بتنا نرى هذه الشعوب تتحرك ، وجاء تحركها إما بتسمياتها وأفكارها القديمة ، أو بأفكار مزيجة ومسميات جديدة مقتبسة من الإسلام ، كما وجدت تحركات ثورية آلية ذات أهداف إصلاحية بحتة ونظراً لأن الإسلام لم يميز بين معنى العمل الديني والعمل الدنيوي ، فإننا نجد الحركات التي قامت اتخذت تسميات دينية ، وإذا ما استعرضنا جميع الحركات الحادة ، نجد أن غالبيتها نالت تسميات ومظاهر شيعية أو خارجية .

وقبل أن يصبح معاوية خليفة كانت الكوفة في العراق قد غدت مركز الدولة الإسلامية لذلك عندما أصبحت العاصمة في دمشق كانت بلاد العراق الخاسر الأكبر ، وخلال العصر الأموي كانت العراق مركز المعارضة الرئيسي ، وتفجرت غالبية الحركات المعارضة في الكوفة ، وحين انتصر معاوية ونال الخلافة كان نصره نصراً لأسرته من بني أمية ، وكان في الوقت نفسه هزيمة لبني هاشم بزعامة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم أولاده من بعده ، ولهذا ولغيره من الأسباب زعمت الحركات المعارضة الكوفية أبناء علي بن أبي طالب وانتسبت إلى واحد منهم لحكم الكوفة والعراق عامة ، ولم تكن الحالة العمرانية والاجتماعية للكوفة تسمح بوجود أسرار أو تساعد على تحركات سرية وإعدادات الثورة في الخفاء ، وحيث كانت غالبية الثورات خطط لها بالكوفة وهناك فجرت ، فلقد سهل ضربها والقضاء عليها .

وعلى الرغم من عنف الضربات التي حلت بالكوفة فإن روح الثورة فيها لم تخمد وهنا وجد الولاة الأمويون أن عليهم إيجاد حلول دائمة لهذه الحالة ، وكان

الحل الأوفى حظاً الذي توصلوا إليه هو نفي أهل الكوفة وجند العراق من العراق إلى خراسان في المشرق ، وإقامة معسكر تقيم فيه حامية من الجند الشامي ، وشرع في تطبيق هذه الخطة من أيام معاوية ، وواليه زياد بن أبيه ، وأكمل تنفيذها زمن الحجاج ، ففي عهد الحجاج تم بناء مدينة واسط لتكون عاصمة له ، كما نفي الجند العراقي إلى خراسان في حملة فتوحات كبيرة بقيادة عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، وقد ثار هذا الجند ثورة كبرى سفك فيها الكثير من الدماء ، وكانت أن لاقت الإخفاق واستقر الجند الناقمون الآن في خراسان ، وهنا أخذت أنظار أصحاب المطامح والخطط المضادة للحكم الأموي بالتوجه نحو خراسان ، وكانت خراسان مناسبة لبعدها وغناها ولنوعية سكانها وتراثهم .

ولقد استفاد المخططون للثورات من أخطاء سواهم ومن تجاربهم ، وكان من أشهر الحركات الشعبية حركة عرفت باسم الكيسانية ، وقد فجرت هذه الحركة ثورة قادها المختار بن أبي عبيد الثقفي ونادى المختار بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب الذي يعرف عادة باسم ابن الحنفية تمييزاً له عن أبناء الإمام علي من فاطمة بنت النبي ﷺ ، حيث أن أمه كانت من بني حنيفة ، ومع أن ثورة المختار قد لاقت الإخفاق إلا أن الحركة الكيسانية استمرت تعمل بالخفاء فأقامت تنظيماً قوياً ، وأيام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك كان أبو هاشم ~~عبد الله~~ بن محمد بن علي بن أبي طالب هو المسؤول عن الجناح الأكبر للحركة والإمام بالنسبة له ، ويروى بأن هذا الخليفة قد كشف سر الكيسانية ، فاستدعى أبا هاشم إليه ودس له السم ، وفي طريق العودة إلى الحجاز شعر أبو هاشم بدنو منيته ، فعرج في طريقه على قرية الحميمة على مقربة من البحر الميت ، والذي كان من سكانها أحفاد العباس بن عبد المطلب ، وكان زعيمهم محمد بن علي بن

عبد الله بن العباس ، فأقام أبو هاشم لديه ، ولما كان أبو هاشم عقيماً بلا أولاد ، فلقد أعطى محمد بن علي أسرار الدعوة وسماه إماماً من بعده .

وهكـذا انتقلت الـزعامة في الحركة الكيسانية إلى البيت العباسي ، هذا ويستفاد من بعض الروايات التاريخية الأخرى ، أن قوماً من أهل العراق وخراسان شكلوا جماعة سرية ، أو إنهم انفصلوا عن إحدى الحركات وأخذوا يعملون للإطاحة بالحكم الأموي وكان لا بد لهذه الجماعة من أن تزعّم فرداً من أفراد الأسرة القرشية ، على الأخص من بني هاشم ، وأرادوا الابتعاد عن آل أبي طالب، لأنهم أخفقوا حتى الآن في جميع حركاتهم ، ثم لأن أبناء الإمام علي كانوا مراقبين من قبل السلطات الأموية ومرصودة تحركاتهم ، ويبدو أن هؤلاء قرروا اختيار زعيم هاشمي أرادوه أن يملك وأن لا يحكم .

وهكذا وقع الاختيار على محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وأخذ دعاة هـذه الحركة يدعون إلى الرضا من آل محمد بني هاشم ، فعرفت دعوتهم بالهاشمية نسبة إلى هاشم الجد الأعلى للرسول ، وبهذا الشكل أصبح مركز المعارضة للحكم الأموي في بلاد الشام في الحميمة ليس بعيداً عن دمشق مركز الحكم الأموي ، وعلى مقربة من قصور الخلفاء الأمويين ، وكانت الحميمة واقعة على الطريق الموصل بين الشام وشبه الجزيرة ، فكان الدعاة يأتون من المشرق إلى دمشق ومنها إلى الحميمة على هيئة تجار أو حجاج أو رجال أعمال ، وكان اختيار الحميمة غاية في البراعة للتمويه ، ومن الحميمة أخذوا بتوجيه الدعاة وذلك بعد ما أعيد تنظيم الدعوة ، فكان هناك كبار ، وهناك كمن هم أدنى درجة وهكذا ، هـذا وتحوي بعض المصادر أسماء الدعاة وأعدادهم ، وقد استخدمت هذه القوائم حديثاً لتقدم تفسيرات فيها بأن الحركة العباسية حركة فارسية معادية للعرب والعروبة ، أو أن الحركة العباسية حركة عربية موالية للعرب والعروبة تسعى في

سبيل صالحهم ، ويبدو أن الأخذ بمثل هذه التفسيرات فيه انحراف إلى القشور وبعد عن المسائل الأساسية والدوافع الكبرى .

لقد ساهمت عناصر من أمم الدولة الإسلامية في العمل للإطاحة بالحكم الأموي لأن هذه العناصر ابتغت المساواة الاجتماعية ، وأرادت إنهاء الاستغلال الاقتصادي والتحكم الطبقي ، كانت ثورة فقراء العرب ضد الأشراف ، والمحتكرين لمنافع الحكم ، وكانت ثورة فقراء الإيرانيين ضد الدهاقين وكبار الملاك، وكانت ثورة لإقامة مجتمع واحد حسب مثالية أفكار الإسلام وحاجات الناس ، ويمكن استخلاص هذا مما بقي لنا من الأحاديث التي روجها الدعاة ، وغالباً ما دارت الدعاية حول شخصية الإمام ، وكان هو محور الإصلاح في المستقبل ، بدعاية سرية فضفاضة ، وساير الدعاة العباسيون أفكار الدعوات الأخرى التي كانت قائمة ، وسعوا إلى تجنيد جميع القوى لإسقاط الحكم الأموي بأي ثمن ، ولم ينجح الأمويين في كشف التنظيم العباسي ، لأنه كان محكماً من حيث الإعداد والسرية والتحرك ، وساعدت الأزمات التي مرت بها الخلافة الأموية في الربع الأول للقرن الثاني ، وكانت هذه الأزمات اقتصادية ، اجتماعية ، وسياسية ، وآلت إلى حدوث انشقاق داخل الأسرة الحاكمة ، وإلى تصدع بنيان الجند الشامي وخروج بعض قطعاته وثورتها على الحكم المركزي ، وآل المال إلى انحلال الأمور في دمشق ، حتى قام مروان بن محمد الذي كان قائداً من كبار العسكريين ، قام بقيادة قواته واستولى على السلطة ، وحيث ثار هو كان كمن فجر سداً كبيراً ، تدفقت خلفه الثورات فأضعفته ، حتى أتت إحداها فالتهمته ، وكان محمد بن علي بن عبد الله العباسي قد توفي وصارت مقاليد الدعوة إلى ابنه إبراهيم ، الذي عرف باسم إبراهيم الإمام ، وفي عهد إبراهيم دخلت الدعوة العباسية مرحلة حاسمة في حياتها ، ووجه إبراهيم إلى خراسان أبا مسلم الخراساني

الـذي لا نعـرف عن أصله خبراً مؤكداً ، وفوض إليه العمل هناك خاصة على الصـعيد العسكري المقبل ، وأعطاه لواءين دعيا بالطل (أي الندى) والسحاب ، ذلك أن الأرض لا تخلو بقاعها لحظة واحدة من طل أو سحاب ، كذلك لن تخلو أبـداً من إمام عباسي ، وكان لونها أسود ، وهو عكس اللون الأبيض شعار بني أميـة ، ونجـح أبو مسلم في تفجير الثورة في خراسان ، واستغل ما كان فيها من ثورات ، وتمكنت قواته من الاستيلاء على خراسان ثم العراق حيث أعلنت الخلافة الجديـدة ، ومـن العراق توجهت الجيوش العباسية إلى حرب مروان بن محمد ، فهزمـته في معركة الزاب ، وهكذا تم إسقاط الخلافة الأموية ، وقد نجم عن هذا أعمـق الآثـار وأعظـم النتائج ، وأخذت أحداث تاريخ الإسلام تسير في مناخٍ جديدة كما تفجرت مشاكل جديدة .

إن البحث في تفاصيل مجمل أحداث حقبة من حقب التاريخ العباسي ضمن كـتاب مقرر يحاضر بموضوعه عبر عدد محدد من الساعات أمر غير ممكن التنفيذ لذلك ، فالمخرج هو الاختيار ، وهذا ما تم اعتماده بحيث تم اختيار عدد من أبرز قضـايا الـتاريخ العباسـي إنما للحقبة الواقعة ما بعد نهاية القرن الثالث ، وهذا الاخـتيار يقـدم صـورة توضح معالم هذه الحقبة بشكل نافع يتوافق مع الغاية الدرسية وينسجم مع البرنامج المقرر .

ومـن دواعي السرور أن يشاركني في إعداد هذا الكتاب الدكتورة سميحة أبو الفضل .

والله الموفق وله الحمد والمنه

دمشق في ١٩/صفر/١٤٢٣ هـ الموافق ١/٥/٢٠٠٢ م

سهيـل زكـار

Damascus University



الفصل الأول

مدخل تمهيدي عن
الدعوة العباسية وأدوار التاريخ العباسي

Damascus University



سقطت دولة آل مروان من بني أمية سنة (١٣٢ هـ ــ ٧٥٠ م) على أيدي جيوش الثورة العباسية ، وقد جاء هذا الحدث الجلل نتيجة لعدة عوامل تعلق بعضها بحالة الدولة الأموية وسياستها ، ثم بأوضاع التمزق التي حلت في صفوف الأسرة الأموية مع تفرق القرى المؤيدة لها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى بعوامل اتصلت اتصالاً مباشراً بالدعوة العباسية ، هذا وكانت هذه العوامل ــ وما زالت ــ موضوع اهتمام المؤرخين ومثار جدل بينهم ، وقد تم فيها مضى استعراض بعض التفاصيل للتاريخ الأموي ، ومع ذلك فلا بأس من أن نورد هنا بإيجاز أهم العوامل التي قامت بالدور الرئيسي في إضعاف الدولة الأموية وساهمت في انهيارها :

١- إعطاء ولاية العهد لأكثر من واحد ، وما ترتب على ذلك من إثارة البغضاء ، وانقسام الآراء بين أفراد الأسرة الحاكمة .

٢- عودة ظهور روح العصبية بين القبائل ، ثم مسؤولية الخلفاء عن إزكاء روح هذا الصراع بين القبائل ؟، الذي نخر في جسم الدولة وأتى على وحدتها .

٣- تعصب الأمويين للعنصر العربي ، الأمر الذي أدى إلى نمو الإحساس بالاضطهاد عند الموالي ، فبدؤوا يطالبون بالإنصاف والمساواة ، وتعددخروج الموالي مع كل خارج على الحكم الأموي ، إلى أن كانت الثورة العباسية فشغلوا فيها دوراً بارزاً .

٤- ظهور الطبقية بين صفوف العرب أنفسهم ، بخاصة عرب العراق ، فقد احتكرت عناصر الفتح الأول موارد الدولة ، وأصبحت تدعى بالأشراف ، وحالت إلى حد بعيد بين مهاجرة العرب بعد الفتح والمساواة ، مما دفع هذه القوى العربية الجديدة للتقرب مع الموالي ، والانخراط في الثورات المعادية للنظام القائم ، بخاصة ثورات الخوارج ، ثم أنها ظلت دائماً في مواطن أخرى لديها الاستعداد للاستجابة لكل نداء ثوري .

٥- ظهور الأحزاب السياسية والدينية المعارضة ، التي أنكرت حق بني أمية في الخلافة ، وكانت أحزاب الشيعة أبرز هذه الأحزاب وأكثرها نشاطاً وخطراً وبعد الشيعة جاءت فرق الخوارج التي ناهضت الدولة الأموية وناصبتها العداء منذ لحظة قيامها وحتى ساعة سقوطها ، تضاف إلى هذا أحزاب سياسية أخرى مع كثير من القوى الدينية ، التي هزمت مع نجاح الفتح العربي ، فعلت على الانتقام واستعادة مكانتها وتأثيرها .

٦- انغماس عدد من الخلفاء في حياة اللهو والمجون ، وإهمالهم لشؤون الدولة كل هذا في وقت كان فيه الأثر الديني قوياً ، وكانت الحاجة تستدعي عظام الرجال والصفات الخلقية للخلفاء كان سبباً في انتشار التذمر في الناس ، وجعلهم يتقبلون الدعوات التي نادت بقادة من أصحاب السمعة المثالية .

٧- وأخيراً اتساع رقعة الدولة الأموية وعجز الإدارة المركزية فيها عن تطوير نفسها إلى درجة تستطيع بها كفكفة جبروت حكام الأقاليم

Damascus University

وفرديتهم ثم عجزها عن ملاحقة مشاكل المجتمع ورصدها مع تأمين الحلول لها والمقدرة على تنفيذ خطط الإصلاح بشكل مستمر ، تضاف إلى هذا كله حالة التطور الاقتصادي وطبيعة ما ألم بأوضاع ملكيات الأرض في أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثاني .

لعل تلك هي أهم العوامل التي تضافرت على إضعاف الدولة التي لم تستطع أن تحكم عقائدياً ولا بشكل إمبرطوري ، فكان أن تم تدميرها بعدما حكمت لفترة قصيرة من الزمن لم تتجاوز التسعين عاماً علماً بأنه قد توفر لها معظم مقومات الديمومة والاستمرار في سعة الرقعة وضخامة الموارد ، لكن ما ذكرناه بالإضافة إلى أسباب أخرى كعدم استقرار النظام المالي وانتهاج السياسة الإقليمية الضيقة ، واستئثار طبقة بخيرات الحكم وغنائم الفتوح ، أدى إلى هذا السقطة .

وحين سقطت الدولة الأموية ، سقطت الدولة العربية العظمى التي حكمت بقاعاً شاسعة من القارات الثلاث لعالم العصور الوسطى ــ آسيا وأفريقيا وأوروبا ــ وكان سقوطها نهاية المد لتيار التوسع السياسي العربي ، لكنه بداية لمد جديد ثقافي وحضاري وعقائدي في الوقت نفسه .

وكانت الدعوة العباسية التي أسقطت الدولة الأموية ــ من بعض الجوانب ــ إحدى ثمرات الخصام القديمة ، والكراهية التي كانت متأصلة بين البيتين الأموي والهاشمي، وكانت انعكاساً للتنافس بينهما على السلطة والسياسة ، والمصالح الاقتصادية منذ الفترة التي سبقت قيام الإسلام ، وقد أخذت أبعاد هذا الصراع تتأصل مع ظهور النبي ودعوته للإسلام ومعارضة الأمويين العنيفة له . وبعد وفاة النبي بأمد قصير من الزمن ، أي عندما استلم علي مقاليد الخلافة تجدد هذا الصراع ، وأخذ أبعاداً عميقة فيها الكثير من الدماء بدءاً بصفين ، وتثنية في

في مذبحة كربلاء ، ثم فيما تلاها من مذابح أخرى ، زلزلت الأمة زلزالاً شديداً ، وحـــركت مشاعرها بشدة مأساوية ، فوحدت صفوف الشيعة ، وجلبت أعداداً كبيرة من المؤيدين لهم ، وعمل هؤلاء جميعاً على الأخذ بثأر الحسين والانتقام من قتلـــته أفراداً ونظاماً ، وفي الواقع لقد افتتحت كربلاء سجلاً حافلاً سطر بالدماء بين الأسرتين الأموية والهاشمية ، وتمخضت عن ثورات عدة ، بعضها أصاب نجاحاً محـــدوداً ، ولقـــي بعضها الآخر الإخفاق ، ذلك أن الحركات العلوية الأولى التي قـــامت ضد الحكم الأموي كانت عاطفية انفعالية افتقرت إلى التخطيط والعمل المنظم ، لأنها جاهت دولة منيعة الجانب قوية كثيرة الجند .

وفي أواخر القرن الأول للهجرة اتجهت المعارضة الشعية نحو تغيير أسلوها ، وتطويـــر تنظيماها ، خاصة بعد الإخفاقات المتعددة التي أصابت محاولاها لاستلام الســـلطة ، وتجمـــع مصادرنا على القول إنه حدث آنذاك ما يشبه الانقلاب في صـــفوف الحـــزب الشعي ، حيث انتقلت زعامة إحدى أنشط التنظيمات الشعية وأكثرها سرية وحسن تنظيم إلى فرع آخر من فروع الأسرة الهاشمية ، وهو الفرع العباســـي ، نســـبة إلى العباس عم النبي ، الذي كان من ذوي اليسار وأصحاب الـــثروة قـــبل الإسلام ، وكان بذلك حليفاً للمعارضة المكية للإسلام ، فهو قد شارك ضد المسلمين في معركة بدر ، وأسر فيها ، كما أنه أسل حين فتحت مكة ، وأمن الحماية والبقاء لأبي سفيان .

ولم يكـــن للعباســـيين في الواقع ، في الحقب الأولى ، تطلعات إلى استلام الخلافـــة ، فقد كان العباس وأبناؤه شديدي الحماس لعلي ﷺ وحقه في الخلافة ، وقـــاتل العباســـيون الأوائل في صفوف أبناء الإمام علي ، لاستعادة حقهم الذي اغتصـــب ، لكن طموح العباسيين إلى الحكم ما لبث أن ظهر على يد أحدهم ،

وهو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، حيث أصبح زعيماً لإحدى تنظيمات المعارضة الشيعية ، وتم ذلك ـــ حسب ما جاء في غالبية المصادر ـــ صدفة ، فقد زاره أبــو هاشـــم عـــبد الله بـــن محمد ابن الحنيفة ، الذي كان صاحب الدعوة الكيســـانية الشـــيعية وإمامها ، وتوفي عنده، وقبل وفاته عينه ليخلفه في الإمامة ، ذلك أنه كان لا يملك ولداً خاصاً به من صلبه ، وكان الخليفة الأموي ، سليمان بن عبد الملك قد عرف بأمره ، وأدرك خطورة دعوته، فاستدعاه إليه ، ودس لـــه السم ، فمات بالحميمة قرب البحر الميت ، حيث كان يسكن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس .

وأخـــذ صـــاحب الدعوة الجديد يعمل على الحميمة بحيطة وحذر ، في بناء الجهـــاز التنظيمي للدعوة حيث جعل لها مجلساً مؤلفاً من اثني عشر نقيباً مع عدد مـــن الدعـــاة بلغ السبعين ، كان جلهم من اليمانية ، وقد أظهروا حماساً شديداً لـــلدعوة التي عرفت بالهاشمية ، أما بالنسبة إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنيفة أو إلى هاشـــم الجد الأعلى للرسول وآله العلويين والعباسيين ، وأخلص الدعاة لهذه الدعـــوة ، فكانوا يجوبون البلاد الخراسانية التي وقع عليها الاختيار كأرض صالحة للـــثورة ، لـــبعدها وكثرة العناصر غير العربية فيها ، متظاهرين بأنهم تجار وكانوا يراســـلون محمد بن علي في الحميمة ، أو يجتمعون به في مواسم الحج ، معتمدين عـــلى الســـرية التامة في تنقلاتهم واتصالاتهم ، حتى إن البيعة لم تكن تؤخذ باسم العباسيين بل لشخص غير محدد من آل البيت يتفق عليه فيما بعد ، ولذلك طرحوا شعارهم المعروف (الرضا من آل محمد) .

مات صاحب الدعوة محمد بن علي سنة ١٢٦ هـــ قبل أن يحقق أحلامه في إســـقاط الحكم الأموي ، فانتقلت الزعامة إلى ابنه إبراهيم الذي عرف بالإمام ،

فشهدت الدعوة على يديه بداية مرحلة جديدة حاسمة ، انتقلت من السرية إلى دور النشاط العلني ، وقد ساعد على ذلك ظهور شخصية تاريخية أي مسلم الخراساني ، الذي كان يتمتع بثقة الإمام التامة ، لذلك مارس سلطة مطلقة على بقية نقباء الحركة ودعاتها .

توجه أبو مسلم إلى خراسان حاملاً عدة رايات سود أعطاه إياها الإمام وهي التي أصبحت شعار العباسيين وأخذ يتنقل بين قرى هذا الإقليم مؤلباً الناس ضد الأمويين ، معتمداً على ما كان بين العرب في خراسان من تمزق وانقسام ، فهم قد كانوا ، على حد القول أحدهم تعوزهم العاطفة الوطنية ولم يكن أحدهم يعينه سوى المصلحة الخاصة أو بالأحرى مصلحة قبيلته ، ولم يبق مخلصاً للدولة في ذلك الوقت إلا حاكم الولاية نصر بن سيار .

عرف أبو مسلم ، بما أوتي من الدهاء ، كيف يذكي العداء بين نصر بن سيار وزعيم اليمانية جديع بن علي ، الذي عرف بالكرماني ، فوقف إلى جانب الكرماني في هذا الصراع بينه وبين نصر ، وقد أسفر هذا الصراع عن تحطيم النفوذ العربي في هذه الجهات ، وكان المستفيد الأول من ذلك والمنتصر الوحيد هو أبو مسلم حيث دخل مرو بمساعدة ابني الكرماني ، ثم أرسل أحد الدعاة في أثر نصر بن سيار الذي تراجع إلى نيسابور ، وبذلك عمت الثورة أرجاء الدولة الأموية (١٣١ هـ — ٧٤٨ م) ، وسقطت خراسان بكاملها في قبضة أبي مسلم . وما لبث العراق أن ألحق بها بعد معارك عنيفة بين عاملها يزيد بن عمر بن هبيره والجيوش العباسية بقيادة الحسن بن قحيطة ، وأخيراً جاءت الضربة القاضية التي أطاحت بالدولة الأموية في معركة الزاب الحاسمة التي دارت بين آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد وعبد الله بن علي العباسي، وقد أسفرت عن

هزيمة ساحقة للأمويين وفرار مراون ، ثم مقتله فيما بعد سنة (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) وقام القائد المنتصر بتعقب الأمويين وتصفيتهم في كل مكان .

وهكـذا سقط النظام الأموي ، وأبيد معظم عناصر الأسرة الحاكمة ، ولم ينج منها سوى أفراد كان أبرزهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي تمكن من الفرار إلى أفريقية ومنها عبر المضيق إلى الأندلس ، حيث أسس دولة أموية هناك ، وبسـقوط دولـة الأمويين زال ما بقي لدمشق من أهمية سياسية ، وانتقل مركز الخلافـة مرة ثانية إلى العراق ، القريبة من مركز الثورة ومن العناصر الفارسية التي شـغلت دوراً رئيسـاً في قيـام الدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بها بعد أن كانت مضـطهدة في العصر السابق إلى أن تصبح متساوية مع العرب في الحقوق ، وربما أكـثر مـن ذلك ، فقد وصل بها الطموح إلى محاولة السيطرة الفعلية على مراكز الحكم والقوة في الدولة .

وقـد وجـد المؤرخون في قيام هذه الدولة الجديدة ، فاتحة عصر جديد في الإسـلام ، ويـرى فلهوزن أنه بمجيء العباسيين ، انتهت سيادة العرب التي كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام ، وأن الفارسية انتصرت على العربية تحت شعار الأممية الإسـلامية ، ويـرى لويس أن استلام العباسيين الحكم محل الأمويين يمثل نقطة فاصـلة في تـاريخ الإسلام ، ويضع الثورة العباسية في مصاف الثورات العالمية ، ويقارن بين ما كان لها من تأثير في الشرق وما كان للثورتين الفرنسية والروسية في تاريخ العرب .

والواقـع أن دعوة العباسيين التي استخدمت نفوذ آل البيت واستغلت تذمر المـوالي مـن الحكـم الأموي ، كانت بلا ريب ثورة شاملة ، لبت كل المفاهيم السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في العهد البائد ، ونتيجة لذلك جاءت لها

هذه الاستجابة الجماهيرية الواسعة ، وهذا الترحيب العظيم بولادة الدولة المباركة التي قامت لتحقيق المساواة والعدل بين الناس ، ولكن القناع ما لبث أن سقط عن وجـه الحكـم الجديـد ، وكشف هويته على حقيقتها ، فالمبادئ التي نادى بها العباسيون وأقاموا دولتهم على أسسها ذهبت بعد حين أدراج الزياح ، وما لبث العباسيون أن سلكوا السياسة التصفوية نفسها التي سلكها أسلافهم الأمويون ضد خصومهم ، لا بل كانوا أكثر بطشاً وأشد قساوة .

ولقـد نجحت الدولة العباسية ، في حين حالف الإخفاق الحركات الشيعية الأخـرى لأن هذه الدعوة استطاعت أن تستفيد من أخطاء الحركات الأخرى ، وأن تصنع نظاماً للدولة في غاية الإحكام ، وله إمكانات عالية للغاية .

وكـانت غالـبية الحركات الشيعية السالفة قد اعتمدت على مدينة الكوفة وسـكانها ، وكانت الكوفة دائماً مركز التنظيم ومقرتفجير الثورة ، ولم يكن من الممكـن أبداً القيام بأي تحرك سوى في الكوفة ، كما أن الدولة الأموية ندبت إلى الكوفـة أكفـأ عمالها ، ونجح هؤلاء في إثارة التناقضات في مجتمع الكوفة ، كما نجحوا في القضاء على الثورات وبخاصة الكبرى منها ، دون عظيم عناء في غالب الأحيان ، وكان إخماد تحرك الكوفة إخماداً للثورة كلها .

لقـد اختط العباسيون لأنفسهم خطة تختلف عن خطط الثورات السابقة ، حيـث أنهم اختاروا مقراً خاصاً لقيادة الثورة جعلوه في الشام مقر السلطة الأموية وأقـل أماكن الدولة مراقبة وترصيداً ، وبذلك تجنبوا العراق والحجاز لأن هذين البـلدين كانـا تحت الرقابة الدائمة ، وحين اتخذوا من الشام مقر قيادتهم جعلوا مركز نشاط الثورة في أقصى بقاع الدولة وأكثرها ملاءمة للتحرك ، نظراً لطبيعة القـوى التي وجدت فيها ، هذا وفي الوقت نفسه أقاموا مركز اتصال بين أرض

نشاط الثورة ومقر القيادة جعلوه في العراق في الكوفة .

كانت الحميمة قريبة من الطريق الواصل بين الشام والعراق ، وبين الشام والحجاز، لذلك سهل على الدعاة الوصول من العراق إلى الحميمة دون أن يرتاب أحد بهم ، هذا وقد أطلق الدعاة العباسيون شعارات كبيرة غامضة يمكن تفسيرها حسب الأهواء ، كما استغلوا الدعوات كافة والحركات ، ومنّوها بما حلمت به ، لقد كان هدفهم الوصول إلى السلطة ، والإحاطة بالحكم الأموي ، وبعد ذلك يمكن للثورة أن تأخذ لنفسها الطريق المناسب ، وتغيير أسس دعوتها الأولى إذا اقتضت الحاجة ، وهذا ما حصل .

إن وجود مركز الاتصال في العراق أعطى رجالاته دوراً كبيراً في توجيه الأحداث وفي مستقبل نظام الدولة ، وفي قيام نظام الوزارة ، ثم إن استغلال الحركات والدعوات كلها على اختلاف مساراتها قد أتاح السبيل أمام عقائد إيران وبلاد الرافدين السابقة للإسلام للظهور في أشكالها القديمة أو في أشكال جديدة ، وعندما يستعرض المرء التاريخ العباسي يمر به ذكر حركات الشعوبية والزندقة مع كثير من الفرق والديانات ، لقد أصبح دعاة الدعوة العباسية مع الأيام ما يشبه الهيكل العظمي لحزب عائدي كبير ، وصار داعي الدعوة هو المسؤول الفعلي عن هذا الحزب ، وكان داعي الدعاة هذا هو " ضابط الاتصال " بين الإمام والحزب ، وكثيراً ما كان الدعاة يجتمعون للمداولة في كثير من القضايا يتخذون العديد من القرارات ، حيث يخبرون بها الإمام فيما بعد ، فيوافق ويبارك عملهم ، ولقد أعطى هذا الحزب العباسي الفرصة لتكوين نظرية خاصة حول شكل السلطة في المستقبل ، ويبدو أن هذه النظرية أرادت الخليفة أن يملك ولا يحكم ، وأن يكون الحكم في يد الحزب ممثلاً بداعي الدعاة ، الذي بات يعرف بلقب " وزير "

والوزير هو حامل أوزار السلطة عن الإمام ، هذا وتحدثنا مصادرنا أن داعي الدعاة حين قامت الثورة كان أبا سلمة الخلال ، وأنه كان يعرف بوزير آل محمد .

في الحقيقة نحن هنا أمام سؤال نجد أنفسنا ملزمين بوضعه وهو :

هل استعارت الدعوة العباسية من الدعوات الشيعية (الباب ، أو الحجاب) وهي وظيفة أوجدت بسبب اختفاء الأئمة ، أو بسبب عدم وجود أئمة على الإطلاق ، ولضرورة استمرار العقيدة والحزب ، كما سيكون عليه الحال بالنسبة لجماعة الاثني عشرية من الشيعة ؟ من الممكن أن هذا قد حصل ، خاصة إذا سلمنا أن الدعوة العباسية كانت وريثة الدعوة الكيسانية .

هذا ولقد اعتاد المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى أربعة أدوار مميزة حسب أصل القوى السياسية التي سيطرت على الدولة ونوعها وقالوا : كان لا بد لكل أسرة أو قوة تسلمت مقاليد الأمور في الدولة أن تفرض طابعها الحضاري والبشري على الفترة التي حكمت فيها .

وهذا التقسيم فيه تجاوز وتحكم كبيران ، ذلك أن الدولة العباسية أكملت مسيرة الإسلام الحضارية ، وساعدت على تمازج شعوب الدول الإسلامية ، وتكوين الأمة الإسلامية ، وكان العطاء الحضاري في أجزاء الدولة متشابهاً ومتجانساً ، أما من الناحية السياسية فقد مرت الدولة بدورين هما :

١- دور حكم الخلفاء والإدارة المدنية .

٢- دور تحكم الجند .

وعندما استعرضنا تاريخ الدعوة العباسية وتنظيماتها وجدنا أن الحزب العباسي قد أراد أن يحصر السلطان بيديه ، وأن يكون داعي الدعاة هو الحاكم الفعلي للدولة ، وحين دعا أبو سلمة الخلال نفسه بوزير آل محمد ، قبل إعلان

الخلافـة العباسية ونجاح العباسيين في القضاء على الدولة الأموية ، أراد أن يكون الخـليفة يملك ولا يحكم ، ولهذا السبب أخر أبو سلمة إعلان الخلافة بعد احتلال الكوفـة ، وقام بعرض منصب الأمنة على عدد من العلويين ، فرفضوا عرضه ولم يقبـلوا شـروطه وضغط عليه آنئذ أبو مسلم لإعلان الخلافة ولاختيار أحد أفراد الأسـرة العباسية ، وهنا كان من المفروض أن يختار أبا جعفر المنصور ، لأنه كان أكـبر إخوانه سناً وأقواهم شخصية ، ولكن أبا سلمة اختار أبا العباس ، لأنه كان مريضاً ، ضعيفاً ، قبل بشروطه ، لكن ما حدث أنه بعدما استلم أبو العباس الحكم وقـف أبـو جعفر وراء العرض ، وحرك أبو جعفر الجيش ضد الحزب ، فاغتال رجـال أبي مسلم الخراساني أبا سلمة الخلال في وضح النهار بعدما خرج من عند الخـليفة ، فـتمكن الخليفة من تسلم السلطة وحصرها بنفسه ، وعندما يقرأ المرء أخـبار القرن العباسي الأول يلاحظ أن غالبية وزراء هذا القرن قد قتلوا وهم في ذروة سـلطانهم ، ويلاحـظ أيضاً الصلات الوثيقة بين كل الوزراء ، وأنهم جميعاً انحدروا من أصلاب كبار دعاة الحزب العباسي .

وتعـليل هذا الأمر أن الخلافة بعدما اغتصبت السلطة من الحزب ، لم تقض عليه تماماً ، بل بقي موجوداً ، واحتفظ بمنصب الوزارة ، لكنه استمر يحاول دوماً اسـتئثار جميـع سـلطات الدولة فكان الخلفاء يسارعون ــ ساعة الخطر ــ إلى إحداث الانقلابات الداخلية ، ولعل مصرع البرامكة من أوضح البراهين على هذا وكـان الجيـش هو المستفيد الأول من الصراع بين الخلافة والوزارة ، (الحزب) وحاول بعض قادة الجيش منذ ساعة قيام الدولة أن يستبدوا بأمورها ، لكن الخلفاء اسـتطاعوا مـنعهم بوساطة ضرب قادة الجيش بعضهم ببعض كما فعل المنصور حين جعل أبا مسلم الخراساني يحارب عبد الله بن علي ، وكانا يقودان جميع قوات

الخلافـة العباسـية ، أو بواسطة فتح جهات قتال خارجي ، بخاصة ضد بيزنطة ، كمـا فعل هارون الرشيد وابنه المأمون ، أو بواسطة حل الجيش ، وتكوين جيش جديـد ، كمـا فعل المعتصم ، لكن هذه الحلول كانت تسكينية ، فبعد المعتصم سـيطر الجند على السلطة فبدأ الدور الثاني من التاريخ العباسي ، لقد استمر هذا الدور حتى سقوط الخلافة العباسية .

وبعدما تدخل الجند بالسياسة واستلموا مقاليد الأمور ، دخلت السياسة إلى الجيـش ، وتغلغلت بين صفوف الجند ، وحدث أن تضخم الجيش ، وضم عدداً من الأسلحة ، من مشاة وفرسان ونبالة ، وفرسان سيافة ، وفرسان حملة رماح أو مشـاة رماة ، وحملة رماح ، وجاء رجل كل سلاح من هذه الأسلحة من إحدى أمم الدولة ، لذلك كان ما حدث بعدما استلم الجند مقاليد السلطة أن قام صراع بين فئات الجيش، وغذى هذا الصراع رجال السياسة والمطامح وعناصر الأسلحة لذلـك تميز عصر تحكم الجند بعد الاستقرار السياسي وكثرة الانقلابات وتبديل الخـلفاء ، وكـان ترك المعتصم ، ثم الديلم ثم التركمان هم أبرز فئات الجند التي تحكمت بالخلافة ، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الدور الثاني إلى ثلاثة أقسام . ولـنقم الآن بعـد هذا العرض المجمل في الدخول بتفاصيل حوادث ما بعد القرن الـثالث ، وبخاصـة الحقبة التي بدأت بقيام التحكم البويهي . لكن الحديث عن البويهيين يحتاج أولاً إلى تقديم عرض لتاريخ الدولة الزيارية [1] .

---

(1) أخبـار العباس : ١٦٠-٣٧٦ ، الفتوح : ٢/٢١٨-٢٢٨ ، والطبري : ٧/٤٩-٥١، ٣٥٣-٤٥٧ ، تـاريخ الموصـل : ١٠٦-١٦٧ ، تـاريخ خليفة : ٥٦٤-٦٠٨ ، الأخبار الطوال : ٣٦٠-٣٧٠ ، اليعقوبي : ٣٣٨-٣٤٩ ، مروج الذهب : ٣/٢٥٢-٢٦٦ ، مسائل الإمامة للناشئ الأكبر : ٢٦-٣٦ ، تاريخ الخلفاء : ٤٧٥-٥٩٧ ، العيون والحدائق : ٣/١٥٧-٢٣١، الكامل :٤/٢٠٠-٣٣٠، الفخري :

: ١١٣-١٢٠ ، ابن كثير : ١٠/٢٥-٥٥ ، السيوطي : ٢٥٤-٢٥٩ ، الذهب المسبوك : ٤٨-٥٩ ، ابن العدى : ١١٧-١٢٠ ، ابن خلدون : ٣/٢٥١-٢٧٩ ، فلهوزن : ٤٥٥-٥٢٨ ، العرب في التاريخ : ١١٣ ، دولة بني العباس :١/٩١-١٨٩ .

Cambridge medieval History , vol n, 639-641 .

وقف عدد من الباحثين المعاصرين أطروحاتهم لمعالجة الثورة العباسية من هؤلاء M.A. Shaban الذي كتب بالإنكليزية كتاباً دعاه الثورة العباسية The Abbasid Revolution ولم يعالج شعبان في هذا الكتاب مسألة الثورة والإعداد لها . بل أوقف كتابه على دراسة أحوال خراسان في العهد الأموي . وقام فاروق بدراسة الثورة العباسية بأطروحته التي دعاها : The Abbasid Caliphate , 750-486 ثم قام بعد ذلك بإعادة كتابة هذه الأطروحة مع شيء من التوسع في كتب ثلاثة دعاها طبيعة الدعوة العباسية ، والعباسيون الأوائل ، وقد جاء الأخير في مجلدين .



الفصل الثاني

عصر الدولة البويهية

١- الزياريون .
٢- البويهيون

Damascus University



١- الدولة الزيارية :

تعريف بالمنطقة الجغرافية التي امتدت عليها ناحية الديلم :

شملت ناحية الديلم عند القدماء جزءاً من جيلان ، والتي تحدها ولاية قزوين جنوباً ، ومنطقة جالوس " تنكابن الحالية " شرقاً ، وتعد جيلان والولايات الساحلية لبحر الخزر جزءاً من بلاد الديلم ، حيث كان الديالمة يسيطرون عليها .

والديلم هو اسم الجزء الجبلي من جيلان الحالية ، وكان يطلق عليها اسم " يلمان وديلمستان " وهو يقابل الجزء المنخفض والسهلي الذي كان يسمى " جيلان " ويعني مساكن جماعة الجبل ، وقد زال هذا تدريجياً فيما بعد ، وصار اسم جيلان يطلق على الجزء المحصور بين طبرستان وطالش وطارم وقزوين [١] .

تقع بلاد الديلم في الجنوب الغربي لبحر قزوين [٢] ويذكر ابن حوقل [٣] أن منطقة الديلم هذه كانت تتبع أحياناً خراسان ، وأحياناً أخرى أذربيجان ، وذلك قبل ظهور الزيدية الشعية في هذه المنطقة .والواقع أن تحديد هذه المنطقة كان صعباً على من تناول دراستها من الجغرافيين العرب ذلك بسبب طبيعتها الجبلية ، وفي ضوء المعلومات التي أوردها الاصطخري [٤] ، وابن حوقل [٥] ، والمقدسي [٦] ،

---

(1) تاريخ إيران بعد الإسلام ، عباس إقبال م٣ ، ص ٣٣ .

(2) بلدان الخلافة الشرقية ، نقلت عن العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط بغداد سنة ١٩٥٤ م — ١٣٧٣ هـ — ص ٢٠٧ .

(3) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣١٦ .

(4) الاصطخري : المسالك والممالك ص ١٢١ .

(5) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣١٨ .

(6) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٣٥٣ .

Damascus University

ويمكننا أن نحدد بلاد الديلم الأساسية في المنطقة الواقعة بين طبرستان والجبلان، وبحر الخزر ، ومن جهة الغرب بشيء من أذربيجان وبلاد الران .

لقد غلبت على هذه المنطقة الطبيعة الجبلية ، ولهذا صعب السيطرة عليها . كما امتازت بخصوبة تربتها . وكان لكل جبل منها رئيس يستقر في موضع معين. وقد ظل أصحاب هذه الجبال يتوارثونها منذ أيام الأكاسرة [1] باستثناء بعض الحقب القصيرة التي خضعت فيها للحكم الإسلامي ، حيث كانت زعامة هذه المنطقة في يد جماعة منهم يدعون آل جوستان .

وقد عاش الديلم مستقلين ، وكانت لهم آداب وحياة خاصة ، فهم رجال حرب شجعان لم يستطع أحد من الجوار أن ينتصر عليهم ، وغالباً ما لجأ سكان المناطق المجاورة إلى بناء الاستحكامات والقلاع لمنع اعتداءاتهم ، وخاصة في قزوين وجالوس [2] .

الفتح الإسلامي للمنطقة :

بدأ الفتح الإسلامي لطبرستان في عهد الخليفة " عثمان بن عفان "[3] ولكن هذا الفتح لم يستقر حتى العصر الأموي ، إذ أرسل الخليفة " معاوية بن أبي سفيان " حملة بقيادة " مصقلة بن حبيرة بن شبل " ، وقد منيت هذه الحملة بهزيمة ساحقة وبقيت الأمور على حالها إلى أن قام " الحجاج بن يوسف الثقفي " في عهد الخليفة " الوليد بن عبد الملك " وأمر بعض رجاله برسم مصوّر لطرق

---

(1) الاصطخري : المسالك والممالك ص ١٢١ ، ابن حوقل ص ٣٢٠ .

(2) تاريخ إيران : عباس إقبال ص ٣٣ .

(3) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٣٠ ـ ط دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان سنة ١٩٨٣ ، هلال الصابي المنتزع من كتاب التاجي من أخبار الدولة الديلمية ص ١٣ ، تحقيق محمد حسن الزبيدي ط بغداد سنة ١٩٧٧.

ومسالك هذه البلاد ليسهل على جنوده اقتحامها [1] ، وفي عهد الخليفة " سليمان بن عبد الملك " أرسل القائد "يزيد بن المهلب " لغزو طبرستان من جديد ، وعقد صلحاً مع حاكمها المسمى " المرزبان " وبمقتضاه صار عليه أن يؤدي جزية مقدارها سبعمئة ألف درهم سنوياً وأربعمئة وقد زعفراناً [2] . ولكن أهلها ما لبثوا أن نقضوا الصلح في عهد الخليفة " مروان بن محمد " منتهزين كثرة الاضطرابات التي سادت الدولة الأموية في آخر عهدها [3] .

ولم يستقر الفتح الإسلامي في حكم الخلفاء العباسيين بالرغم من المحاولات المتكررة التي بذلت في عهد الخليفة " المنصور العباسي " الذي أرسل جيشاً بقيادة " حازم بن خزيمة التميمي " .

بقيت الأحوال هكذا حتى تغلب عليها طاهر بن الحسين وولى عليها ابنه " عبد الله بن طاهر " وبهذا تهيأت هذه البلاد للدخول في كنف الدولة العربية الإسلامية [4] . وقد اعتنق غالبية أهل طبرستان مذهب الشيعة الزيدية الذي أسسه " الحسن بن زيد " حين تمكن من الاستيلاء على هذه المنطقة آخر عام (٢٥٠ هـ ـ ٨٦٤ م) وطرد منها نواب الخليفة العباسي [5] .

وظلت الدعوة الزيدية منتشرة في هذه البلاد حتى مقتل " محمد بن زيد " [6] ولكن ما لبث أن تمكن " الحسن بن علي الأطروشي " من إقامة ثورة هناك

---

[1] هلال الصابي المنتزع من التاجي ، المقدمة ص ٨ .

[2] البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٣٢ .

[3] هلال الصابئ : نفس المصدر السابق ص ٨ .

[4] البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٣٢ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبرب ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج٤٠ ص ٤١٩ ، ط بيروت ـ لبنان ١٩٧١ م .

[5] الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٥٧٩ ، تحقيق السيد أحمد صقرط ، القاهرة ١٩٤٩ .

[6] نفس المصدر السابق ، الأصفهاني ص ٥٧٨ .

Damascus University

أشعلها الاعتداء على حقوق الذراع على ساداتهم آل سامان . وبهذا خرجت المنطقة من سيطرة السامانيين ، وأعلن الأطروشي نفسه حاكماً على الإقليم في عهد الخليفة " المقتدر العباسي " ، ومن ثم بعث المذهب الشيعي الزيدي من جديد وذلك سنة (٣٠١ هـ / ٩١٣ م) حيث منح الأهالي الأمن [١] .

وكان الناصر الكبير يعيش منزوياً بين الديالمة ، وصرف كل همه يدعو بقية الديلم للإسلام ، وينشر الآداب والأحكام الإسلامية ، لأنه كان مثالاً تاماً للإيمان والعلم والزهد ، فقد اعتنق أغلبية الديلم الإسلام عن طواعية ، كما دخل رؤساء الجيل والديلم الذين يطلبون الشهرة وذيوع السيط في خدمة الدعاة وأخص بالذكر منهم " ليلى بن النعمان " و " حسن بن فيروزان " وابن عمه " ماكان بن كالي " و " أسفار بن شيراوه " و " مرداويج بن زيار " و " علي بن بويه ماهي كير " [٢] .

والجدير بالذكر أنه قبل اعتناق الديالمة الإسلام كانت بلادهم عند المسلمين تعتبر دار الحرب ، أي أنها بلاد كفار يثاب على غزوها ، وكان حكام الري وقزوين وطبرستان يهاجمون الديلم ويسأسرون منهم ويبيعونهم للخلفاء ، ولهذا عرف بعض الديلم بين المسلمين على أنهم غلمان أسرى وموالٍ مثلهم كالزنوج والهند وغيرهم .

ويُعد ظهور العنصر الديلمي بداية لأحداث هامة في تاريخ الخلافة الإسلامية، خاصة في المشرق الإسلامي ، حيث بدأ ظهورهم في ديارهم حول بحر قزوين وفي طبرستان وجورجان . وقد تجاوز ظهورهم سيطرة دولة قوية منهم على هذه

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٤ ص ١٩٨ ط دار الرجاء بمصر .

(٢) تاريخ إيران بعد الإسلام ، عباس إقبال ص (٣٤-٣٥) .

المنطقة ، وهي دولة آل زيار ، حيث امتد نفوذهم تحت زعامة بني بويه على الخلافة العباسية وذلك سنة (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) في عهد الخليفة المستكفي العباسي .

وبدأ الديلم التدخل في الحياة السياسية للدولة الإسلامية منذ أن قامت ثورة " الحسن بن علي الأطروشي " [1] في طبرستان ، وانضم إليه العديد من ثوار الديلم من أمثال " سرخاب بن وهشودان " الذي تولى قيادة جيوش الأطروشي [2] وأخيه الحسن بن وهشودان ، و " ليلى بن النعمان "[3] الذي ولاه صهره الحسن المعروف بالداعي إمارة جورجان [4]، وكان من أهم من انضم إلى صفوف الأطروشي من الديلم القائد " ماكان بن كاكي " الذي تولى حكم مدينة استرباذ نائب عن أولاد الأطروشي [5] وظهر بين رجال " ماكان بن كاكي " رجل ديلمي يطلق عليه اسم " أسفار بن شيرواه " اتصف بسوء الخلق فطرده ما كان من جيشه مما اضطره إلى الاتصال بـ " بكر محمد البسع " نائب آل سامان على مدينة نيسابور وذلك سنة (٣١٥ هـ / ٩٢٧م) ومنذ ذلك الوقت ارتفعت مكانة " أغار " لمناصرته السامانيين ودخوله في طاعتهم [6] ، فأساء معاملة الأمة الزيدية وذلك بعد تمكنه من السيطرة على طبرستان وجرجان وهزيمة القائد ماكان بن كاكي ، هذا إلى جانب اعترافه بسيادة الخليفة الناصر بالله على ما بين يديه من

---

(1) الكرديزي : زين الأخبار ، ص ١٣١ ، ترجمته من اللغة الفارسية إلى العربية عفاف سيد زيدن ،الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م .

(2) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٤٢٠ .

(3) هلال الصابئ : المنتزع من التاجي ص ٥١ .

(4) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ١٦١ ط مصر سنة ١٩١٤ .

(5) هلا الصابئ : المنتزع من التاجي ص ٦٢ .

(6) هلأل الصابئ : المنتزع من التاجي ، نفس المصدر القدم ص ٦٢ .

ممتلكات من قزوين ، إضافة إلى جرجان وطبرستان وذيمان وأبهر وقم وهمذان والكرج وقلعة الموت [1] . وبعد أن اتسعت ممتلكاته أخذ يفكر بالاستقلال فخلع طاعة الأمير نصر الساماني وحاول التشبه بملوك القدس واستدعى أحد أنصاره من بلاد الجيل ، وهو " مرداويخ بن زياد " حيث أسند إليه قيادة جيشه [2] واستطاع بمساعدته قهر الأقاليم . وعندما وصل إلى مرداويخ ما حل بالناس من البلاء والعسف على يد أسفار تعاهد مع " سلار " صاحب شمبران الطرم وتعاهد على قهره والقضاء عليه [3] .

وبناءً على ذلك تم القبض على " أسفار بن سيرواه " وتم قتله في قلعة الموت على يد مرداويخ نفسه [4] الذي أخذ نفوذه في الازدياد ، وسلطانه في الاتساع ، وتمكين من تأسيس دولة قوية توارثها أفراد أسرته من بعده ، عرفت بالدولة الزيارية .

اتساع نفوذ مردايخ :

ارتفعت مكانة مردايخ بن زيار بعد مقتل أسفار بن شيرواه وانضم إليه أكثر رجال أسفار وقوداه ، وذلك لما ظهر لهم من بذله وإحسانه ، فقد تسامح مع الناس ببذله على جنده ، فقصدوه من سائر الأمصار . وبذلك كثرت عساكره وعظمت جيوشه [5] ثم بدأ مردايخ في توسيع رقعة دولته بالاستيلاء على البلدان المحيطة به ، فسار بجيوشه إلى طبرستان ، وأنزل هزيمة بالقائد الديلمي " ماكان بن

---

(1) ابن الأثير : الكامل ج٦ أحداث ٣١٥ هـ ، ص ١٩٦ .

(2) المصدر نفسه ص ١٨٩ .

(3) مسكويه : تجارة الأمم ، ج١ ص ١٦٢ . هلال الصابئ : المنتزع من التاجي ص ٦٥ .

(4) المسعودي : مروج الذهب ، ج٤ ص ٢٩٩ .

(5) ابن الأثير : الكامل ج٦ أحداص سنة ٣١٩ هـ ص٢١٤ .

كاكي " . واتجه منها إلى جرجان التي فر سكانها منها واستولى عليها دون قتال ، وأقام صهره " أبا القاسم " نائباً عنه في حكمها [١] . ثم اتجهت أنظار مردايخ نحو مدينة همذان فأرسل إليها جيشاً تحت قيادة ابن أخته المسمى " أبو الكراديس " لفتحها ، وزاد الأمر صعوبة عليه تدخل الخليفة العباسي المقتدر وإرساله جيشاً بقيادة " ياقوت بن المظفر " وحلت الهزيمة بهذا الجيش ، وتمكن مردايخ من التغلب على هذا الأمير وسار بجيشه باتجاه الري وهمذان وأرغم عساكر الخليفة على الفرار حيث دخلها مردايخ عنوة وأباحها لجنوده لمدة ثلاثة أيام [٢] ، ثم قام بضم همذان ونواحيها إلى بلاد الجيل وما جاوزها . بعدها وجه أنظاره إلى مدينة الدينور [٣] وأخذها القائد " ابن علان القزويني " عنوة ووصلت عساكره نواحي حلوان فنهبت وسبت الأولاد والنساء ، ثم ضم مدينة أصفهان إلى أملاكه بعد أخذها على يد القائد " أبي الحسن محمد بن وهبان الصفعاني " واتخذها مرداويخ منذ ذلك الحين مقراً لدولته [٤] . وهنا لم يجد الخليفة المقتدر العباسي بداً من الاعتراف بسلطانه [٥] ، وبناءً على ذلك شملت دولته قزوين والري وهمذان والدينور وقم وكاشان وأصفهان والأهواز ، وبهذا كون أول دولة ديلمية في تاريخهم .

ولم يقنع مرداويخ بما بين يده وأراد إعادة دولة الفرس إلى أمجادها القديمة بمحاولة الاستيلاء على بغداد وإسقاط الدولة العربية . والمعروف أن مرداويخ كان

---

(1) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ص ٢٢٤ ــ تاريخ إيران بعد الإسلام ص (٣٥-٣٦-٣٧) .

(2) المسعودي : مروج الذهب ، ج٤ ص ٢٩٩-٣٠٠ . تاريخ إيران بعد الإسلام ص (٣٥-٣٦-٣٧) . القذويني: تاريخ كزيده ص ١٣٤ .

(3) المسعودي : مروج الذهب ، ج٤ ص ٣٠١ . تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٩ .

(4) ابن الحذري : المنتظم ، ج٦ ص ٢٤١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٦ أحداث سنة ٣١٩ هـ ص ٢١٥ .

(5) أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ص ٧٣ . ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٤٢٤ .

فارســياً متعصــباً لأبناء جنسه ، وقد ظهرت النَّزعة الإيرانية بصورة واضحة في أواخــر عهــده في محاولة منه للاستقلال ببلدان الخلافة في المشرق ، وبمحاولاته الاســتيلاء على بغداد [1] ، ولكنه على الرغم من امتلاكه لكثير من البلدان ، لم تكن لديه القدرة الكافية لإزالة الخلافة العباسية ، وذلك نتيجة للخلافات الداخلية والكثيرة التي دبت بين صفوف جيشه المقسم إلى عدة عناصر من الجيل والديلم ، والذين رفعهم على حساب العناصر الأخرى كالأتراك ـــــــ والعرب [2] . ومما يقــف دليلاً على ذلك تآمر العنصر التركي في جيشه على الأمير نفسه وقتلوه في أصفهان سنة (٣٢٣ هـــ / ٩٣٥ م) وبذلك قضي على مؤسس هذه الدولة [3] .

وإذا كــانت الدولــة الــزيارية قد بلغت أوج عظمتها واتساعها في عهد مــرداويخ ، فــإن خلفاءه لم يكونوا كذلك ، ولم يبلغوا ما بلغه من نفوذ . وإن الدولــة تقلصــت في عهد بعضهم حتى اقتصرت على منطقة جبلان في عهد آخر أمراء هذه الدولة [4] .

والجديــر بالذكــر وما يهمنا أن الأمير مرداويخ لم يحقق آماله ورغبته في اقــتحام بغــداد والقضاء على الخلافة ، وإعادة مجد الفرس ، بل إنه بادر بطلب الخضــوع للخلافة العباسية ، ولقد اتبع خلفاء مرداويخ سياسة الخضوع للخلافة العباسية في بغداد [5] . ومما يدل على ذلك أن الأمير " بيستون بن وشمكير " أرسل

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ، ج٤ ص ٣٠٢ .

[2] العتبي : تاريخ اليمينين ص ٩٢ . الكامل لابن الأثير ، ج١١ ، ج١٢ ط بولاق ١٩٠٩م .

[3] الصـولي : أخبار الراضي والمتقي ، ص٢ . ابن الأثير : الكامل ، ج٦ أحداث ٣٢٣ ص ٢٤٥ . تاريخ إيران بعد الإسلام ص (٤٠-٤١) .

[4] الأمير فابولس : فابو سنامه ، المقدمة ص ٧ .

[5] ابن خلدون : العبر ، ج٤ ص ٤٢٩ .

Damascus University

في طلب العهد والخلع من الخليفة المطيع لله العباسي [1] . وبذلك لقبه الخليفة بلقب ظهير الدولة ، واكتسب حكم الأمير الصفة الشرعية [2] . وأصبح من المألوف عند تعيين أمير زياري جديد أن يبادر بإرسال الرسل للخليفة للحصول على الاعتراف بشرعيته ، ومثال ذلك عندما اعتلى الأمير " قابوس بن وشمكير " الذي لقّب بشمس المعالي ، وكذلك في عهد ابنه الأمير " منوجهر بن قابوس " الذي لقّب فلك المعالي . وهكذا ... !.

ولا بد في الختام من الذكر بأن الدولة الزيارية قامت على أكتاف مؤسسها " مرداويج بن زيار الديلمي " سنة (٣١٦ هـ / ٩٢٨م) والذي ارتفعت في عهده منزلة الديلم ، إذ كوّنوا أول دولة فارسية ديلمية في طبرستان وجرجان وما جاورها من البلدان توارثها من بعده أخوه " وشمكير بن زيار " وأبناؤه من بعده حتى سنة (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م) .

وأهم ما يميز الحياة السياسية لهذه الدولة علاقاتها الخارجية ، سواء مع الدولة السامانية ، ودولة بويه ، أو دولة الغزنويين والسلاجقة .

وقد اتسمت العلاقات بين الدولة الزيارية السامانية بالعداء بين الدولتين طوال عهد الأمير مرداويج وإبّان المرحلة الأولى من عهد " وشكمير " حتى تم الصلح بينهما ، لهذا ناصر السامانيون بزعامة الأمير " نوح بن نصر " الزياريين محاولة منهم للوقوف في وجه الدولة البويهية الناشئة ، وفرض السامانيون على الأمير " وشكمير " نفوذاً اسمياً وخضوعاً لدولتهم [3] .

---

[1] الكرديزي : زين الأخبار ص ٢٦١ .

[2] ياقوت : معجم الأدباء ، ج١٦ ص ٢٢٠ .

[3] ابن الأثير : الكامل ، ج٦ أحداث سنة ٣٣٣ هـ حتى ٣١١ هـ . أبو الفداء : المختصر ، ج٢ ص ٣٥ ابن خلدون : العبر ، ج٤ ص ٤٣٩ .

العلاقة بين الزياريين وبني بويه :

بـــدأت العلاقة بين الأمراء الزياريين وبين بويه وذلك منذ انضمام " علي بن بويه " إلى صفوف الأمير " مرداويخ " فقد كان أخواه من الجنود المرتزقة في جيش " ماكـــان بن كاكي " الديلمي [١] ، واشتركوا على آمل وطبرستان ونيسابور ، ووصـــلوا إلى مراكـــز متقدمة في جيشه لما كانوا يتمتعون به من حنكة عسكرية ومقـــدرة فائقة . ولما رأوا ما حلّ بقائدهم من هزائم على يد " مرداويخ " فضّلوا تـــركه وخدمـــة غيره ، فاستأذنوا في الرحيل قائلين : " نحن جماعة قد صرنا ثقلاً عليك وعيلاً ، وأنت في ضيق والأصلح لك مفارقتنا إيّاك لنخفّف عنك مؤونتنا ، فإذا تمكنت عاودناك " ، وبناء على ذلك التحق أولاد بني بويه بخدمة مرداويخ في طبرستان ، ولهذا يُعدّ سيد بني بويه ، وهو الذي رفع من مكانتهم بتعيينه على بني بويه والياً على الكرخ [٢] مكافأة له على انضمامه إلى صفوفهم . ولكن علياً هذا اســـتغل تعييـــنه واليـــاً وبدأ في تكوين ملك لنفسه حيث جبى أموالها .كما تطلع لامتلاك المدن المجاورة ، وسيطر فيما بعد على الري ، وكرمان ، وجرجان ، وامتد نفـــوذه على أغلب إيران ، ثم تطلع إلى بغداد وفرض سيطرته على الخلافة العباسية وأقام دولة بني بويه المستقلة [٣] .

وبما أن الدولة البويهية قامت استغلالاً لمؤسس الدولة الزيارية لهذا فإن العلاقة قـــد اتسمت في أكثر أوقاها بالعداء . وبالرغم من أن أفراد هذه الدولة قد نشؤوا في كـــنف مؤسس الدولة الزيارية . فهو الذي رفع من مكانتهم بتولية " علي بن بويـــه " على الكرخ ، إلاَ أن دولتهم ازدادت قوة وبدؤوا يتطلعون للاستيلاء على

---

(1) هلال الصابئي : المنتزع من التاجي ص ١٤ . مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ٢٧٥ .

(2) ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦ ، ص ٢٧٠ .

(3) مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ص ٢٧٨ .

جـرجان وطبرسـتان وقد تمكن عضد الدولة من انتزاعها من يد الأميرقابوس . وتعـد الحقـبة اللاحقة حقبة ضعف بني بويه حيث ظهرت الخلافات والمنازعات الداخلية .

نهاية الدولة الزيارية :

فقـد الأمراء الزياريون نفوذهم وقوتهم بعد حقبة حكم قابوس بن وشكمير وبـدأت عناصر خارجية كالغزنـويين تسيطر على البلاد ثم تلاهم السلاجقـة الذين استولوا على المنطقة ، واعتبر الأمير الزيـاري تابعاً لنفوذهم ، حيث وصل الحـال بآخـر أمـرائهم " كيـلانشاه ابن كيكـاوس " أن اقتصر نفوذه على جيـلان الـتي خـلفه عـليها السلطان ملكشاه السلجـوقي ، وبذلك قضي على دولتهم [1] .

تولّى بعدها الأمير " منوجهر بن قابوس " حكم البلاد خلفاً لوالده في الفترة ما بين (٤٠٣ هـ / ٤٤٢ هـ ـ ١٠١٢ / ١٠٣١م) . واتخذ من مينة استراباذ مقـراً لحكمـه ، وقـام بمراسـلة السلطان " محمود بن سبكتكين " طالباً حمايته والدخـول في طاعـته [2] . إذ لم تكـن لديـه القوة لمواجهة الصعاب الداخلية والخارجية بعد قتل والده قابوس .

ولكن أواصر المودة والصداقة سرعان ما زالت بعد أن بادر السلطان محمود بفرض عدة التزامات على الأمير منوجهر مقابل مساندته . مثل إقامته الخطبة على مـنابر ولايته في جرجان وطبرستان وقومس ودامغان [3] ، إلى جانب دفعه أتاوة

---

(1) الأميرقابوس : قابوسنامه ، المقدمة ص ٧ .

(2) القزويني : تاريخ كزيده ص ١٦٨ . ابن الأثير : الكامل ج٧ أحداث سنة ٤٠٣ هـ ص ٢٦٦ .

(3) العتبي : تاريخ اليمنيين ص ٢٨ ، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٩ .

سنوية تقدر بحوالي ألف دينار [1] . وبذلك خرجت العلاقة من نطاق المودة إلى فرض النفوذ والحماية ، إلى جانب تقديم ألفي رجل من الجيل والديلم للمشاركة في غزواته إلى الهند .

وبعد نهاية الأمير محمود بدأ " منوجهر " التقرب إلى ولي عهده مسعود ليكون عوناً له ، ومحافظاً على ولائه للغزنويين مقابل احتفاظه باستقلال بلاده الداخلي [2] . ولكن الحال تغير بعد وفاة " منوجهر " سنة ٤٢٣ هـ إذ عمل خليفته " دار بن قابوس" على الانفصال عن نفوذ الغزنويين ، وانتهز فرصة مسيرة السلطان إلى غزو الهند وأرسل علاء الدولة بن كاكويه [3] ، واجتمعا على العصيان ، فما كان من السلطان مسعود إلا أن جهز جيشاً بعد عودته مسرعاً من الهند ، وأجبر الأمير الزياري على القرار . وكان هذا سبباً في عزل " دار بن قابوس " وتعيين بديل عنه هو " أنوشيروان بن منوجهر " الذي عمل جاهداً على إعادة العلاقات مع الغزنويين إلى سالف عهدها [4] .

وبناء على ذلك سادت العلاقات الودية بين الأمير أنوشيروان والسلطان مسعود ، فكانت قد جرت العادة بين الأمراء الزياريين على إرسال أبنائهم وأخواتهم إلى البلاط الغزنوي للتأدب بأداب الملوك والأمراء ، مثلما حدث في عصر الأمير عضد المعالي كيكاوس الذي فض أكثر من ثمان سنوات في بلاط السلطان " مودود بن قابوس " الذي أقام في البلاط الغزنوي في عهد محمود بن "

---

(1) نفس المصدر السابق ص ٢٨ .

(2) البيهقي : تاريخ البيهقي : ص [illegible] . تاريخ إيران بعد الإسلام ص (٥٢-٥٣) .

(3) ابن الأثير : الكامل ص ٨ أحداث سنة ٤٢٦ هـ ، ص ٨٣ . تاريخ إيران بعد الإسلام ، عباس إقبال ، ص (٥٢-٥٣) .

(4) ابن الأثير : الكامل ص ٨٣ . البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٤٨٦ .

سـبكتكين . وإن الكثير من المؤرخين يعدون دولة آل زياد قد انتهت بوفاة الأمير أنوشـيراون في سنة (٤٤١ هـ / ١٠٤٩م) ولكن تشير بعض المصادر بأن هناك ثلاثـة أمـراء تولوا الحكم خلفاً لهذا الأمير ، وهم الأمير " اسكندر بن قابوس " والأمير " عضد المعالي كيكاوس " ابن اسكندر صاحب مصنّف قابوشامه ، وابنه الأمـير " كيلانشاه " حيث وصلت الدولة في عهده إلى درجة كبيرة من الضعف والانحطاط ، وبوفاته قضي على هذه الدولة .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في نهاية عهد الأمير أنوشيروان أخذت قوة السلاجقة تظهـر على مسرح الأحداث السياسية ، واستطاعوا الانتصار على الدولة الغزنوية وهـزيمة السـلطان مسعود في موقعة وندانقان في سنة (٤٣٢ هـ / ١٠٤٠م) [١] ، وبالـتالي كانت الخطوة التالية بالنسبة للسلاجقة هي إقامة دولة قوية خلفت الغزنويين في خراسـان ومـا جاورهـا من ممتلكات في إيران وفارس ، وتطلعت هذه الدولة لامتلاك أراضي الدولة الزيارية في كل من طبرستان وجرجان [٢] .

انتهز السلطان طغرل بك السلجوقي فرصة القبض على الأمير " أنوشيروان " عـلى مقدّم جيشه المسمى (أبو كالجار بن ويهان القهوي) حيث أصبحت البلاد مفتوحة أمام أي هجوم خارجي [٣] ، واستولى على المنطقة وأجبر الأمراء الزياريين على تقديم فروض الطاعة والولاء ودفع جزية سنوية تقدر بحوالي مائة ألف دينار ، عـلى أن تقام له الخطبة على منابرهم وتصك العملة باسمه ، وأن يقبل تعيين أحد الـرجال السلاجقة نائباً عن السلطان ، ولا يتصرف الأمير الزياري في أمر من الأمور

---

(1) الـراوندي : راحة الصدور وآية السرور ، ص ١٦٠ ج١ ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون الآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ١٩٦٠م .

(2) ابن الشحنة : روضة المناظر في إخبار الأوائل والأواخر ص ١٥٣ .

(3) ابن الأثير : الكامل ج٨ أحداث سنة ٤٣٣ هـ ص ٣٠ .

Damascus University

إلا بمشورته وطوع أمره .

وبهـــذا أصـــبح خلفاء " أنوشيروان " الثلاثة عمالاً تابعين للدولة السلجوقية ومجـــرّد منفذين لأوامرها ، حتى أن آخر أمرائهم " كيلانشاه بن كيكاولي " اقتصر حكمـــه على مدينة كيلان و جيلان [١] ، وهي المدينة التي خلعه السلطان ملكشاه عن حكمها سنة (٤٧٠ هـــ / ١٠٧٧ م) ، وبوفاة هذا الأمير انقرضت دولة آل زيار ، وأصبحت البلاد تابعة لنفوذ السلاجقة بشكل مطلق [٢] .

والخلاصـــة أن الدولـــة الزيارية التي أسس أركانها الأمير " مرداويج بن زياد الديـــلمي " في ســـنة (٣١٦ هـــ / ٩٢٨م) وخلفه في الحكم أخوه " وشمكير بن زيـــار " الذي توارث أبناؤه حكم هذه المنطقة ، انتهت بسيطرة السلطان ملكشاه عليه سنة (٤٧٠ هـــ / ١٠٧٧م) . وبهذا تم القضاء على هذه الدولة .

ولا بد لي من التنويه بأن هذه الدولة قامت بدور كبير في الحياة الحضارية ، حيث تمّ التمازج بين الحضارة الإسلامية والفارسية وانعكس هذا بدوره على الحياة الـــثقافية ، فظهرت نهضة علمية وأدبية ، وصُنِّفت كثير من المؤلفات سواء باللغة العـــربية أو الفارســـية ، كما ظهرت مصنفات باللهجة الطبرية ، واصطبغ المجتمع الزياري بالصبغة الفارسية ، وخاصة في عهد مؤسس الدولة " مرداويج بن زيار " الـــذي عمـــد إلى إحياء دولة الفرس القديمة وأعاد أمجادها ، وذلك نتيجة لتعصبه بنزعة القومية الفارسية .

ولما كانت الدولة الزيارية قد امتلكت الكثير من سبل الحضارة ، لهذا نلحظ تقدمـــاً كـــبيراً في نظـــم الحكم والإدارة ، وفي المجالات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة وبشكل عام .

---

(1) الأمير قابوس : قابوسنامه ، المقدمة ص ٨ .

(2) تاريخ إيران بعد الإسلام ، عباس إقبال ص ٥٥ .

ـ الأمراء الزياريون :

(1) مردايخ بن زيار حكم من سنة (٣١٥ هـ) .

(2) أبو منصور وشمكير بن زيار (٣٢٣ هـ) .

(3) ظهير الدولة أبو منصور بسيتون بن وشمكير (٣٥٦ هـ) .

(4) شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن وشمكير (٣٦٦ هـ) .

(5) فلك المعالي منوجهر بن قابوس (٤٠٣ هـ) .

(6) أبو كاليجار أنشيروان بن منوجهر (٤٢٠ هـ) .

(7) دار ابن قابوس (٤٢٤ هـ) .

(8) اسكندر بن قابوس عمال (٤٣٤ هـ) .

(9) عظيم المعالي كيكاوس بن اسكندر ـ السلاجقة (٤٤١ هـ)

(10) كيلانشاه بن كيكاوس حكم حتى سنة ٤٧١ هـ) .

Damascus University

البـــويهيـــون

كـــان لإقدام الخليفة المعتصم على إدخال الجند الأتراك في جيشه أثر كبير في إضـــعاف الخلافـــة وزعزعة أركانها فيما بعد ، فمع مرور الأيام أخذ هؤلاء الجند يغلـــبون عـــلى الخلافة ، وأصبح بيدهم تعيين الخليفة وعزله ، واعتدوا على بعض الخـــلفاء ، وقتلوا بعضهم . وأدى ذلك إلى تقطع أوصال الخلافة ، وقيام عدد من الثورات ، ومن الدويلات .

وآل الأمـــر بالخلافة إلى استحداث نظام (إمرة الأمراء) الذي كان يمثل قمة الـــنفوذ للعساكر الأتراك في الخلافة ، لأن السلطة الفعلية في الدولة صارت لأمير الأمراء ، وليس للخليفة إلا المظاهر الرسمية فقط .

وقد سيطر العسكر الأتراك على الخلافة والخليفة مدة من الزمن ، وساعدهم عـــلى قوة نفوذهم عنصر جديد استعانوا به وهو (الديلم) الذين بدؤوا يشاركون في الأعمـــال العسكرية ، وأخذ عددهم بالتزايد ، ونفوذهم بالاتساع حتى وصل (بجكـــم) إلى منصب (أمير الأمراء) ، وبعده وصل (كورتكين) ، وهما ديلميان . وقـــد كان وصول الديالمة إلى جيش الخلافة من أبرز العوامل التي مهدت لظهور البويهيين وسيطرتهم على الأمور ، فالبويهيون أصلاً هم من الديلم .

بلاد الديلم وأصلهم :

تقع بلاد الديلم في الجنوب الغربي لبحر قزوين ، أي شمال الهضبة الإيرانية ،

وهـي بـلاد جبـلية وعرة المسالك ، منيعة ، تحصن فيها أهلها الذين اتسموا " بالقسوة وحب القتال ، والاستقلال ، وقد عد هذا الشعب من قبل سكان الهضبة الإيرانية شعباً أجنبياً ونظر إليه بخوف وحذر ، ولم يستطع حكام إيران في العصور القديمة إخضاع هذا الشعب بشكل عام وفعال " [1] . وقد عرف أهل هذه المناطق أيضاً بالشجاعة والإقدام وغلظ الطباع [2] .

ولم يستطع العرب المسلمون إخضاع الديالمة بقوة السلاح ، ولكنهم اعتنقوا الإسـلام عن طريق الاحتكاك بالمسلمين وبالطرق السلمية ، " وكان هذا الشعب من آخر شعوب المشرق التي خضعت للإسلام " [3] .

فقد دخل بلاد الديلم يحيى بن عبد الله مستجيراً بعد إخفاق ثورة الحسين بن عـلي واستقر بينهم ، وبدأ بنشر الدعوة الزيدية بين الناس ، فجهز الرشيد جيشاً كبيراً ووجه إليه ، فاضطر إلى طلب الأمان [4] .

كما دخل حسن بن زيد العلوي بلاد الديلم سنة (٢٥٠ هـ) ، وأنشأ دولة طبرستان ، وتم دعوة يحيى بن عبد الله .

وحـدد الحسن بن علي الأطروش الدولة الزيرية ، وقاوم النفوذ الساماني في بـلاد الديلم ، وكان في خدمته (بويه) وابنه الأكبر (علي) ، وهما موسسا الدولة البويهية [5] ، لذلك تمكن المذهب الزيدي في بلاد الديلم ، واعتنقه بنو بويه ، وهو مـا كـان لـه أثـر كبير في دولتهم ، وفي علاقاتهم مع الدول المجاورة ، ومع

---

(1) تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي . د. زكار ، ص ٢٧ .

(2) المسالك والممالك للاصطخري ، ص ١٢١ ، وأحسن التقاسيم ص ٣٥٣ .

(3) تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي . د. زكار ، ص ٢٧ .

(4) تاريخ اليعقوبي : ٤٩٢/٢ ، والطبري : ٢٤٢/٨ .

(5) البداية والنهاية : ٦/١١ ، وتاريخ الطبري : ٢٧٣/٩ ، والكامل لابن الأثير : ٣١/٨ .

Damascus University

الخلافة العباسية .

أمـــا نسب البويهيين فقد اختلف المؤرخون فيه ، فمنهم من أعاد نسبهم إلى المـــلك الساساني (بهرام جور بن يزدجرد) [1] ، ومنهم من وصل بنسبهم إلى كبير وزراء بهـــرام وهـــو (مهر نرسي) [2] ، ويبدو أن أصحاب هذين الرأيين يريدون إعلاء شأن البويهيين وتمجيدهم .

ومـــن المؤرخـــين من أرجع نسب البويهيين إلى بني ضبة من العرب ، وهم الذيـــن هاجـــروا إلى بلاد الديلم [3] ، والغاية من هذا النسب منحهم قبولاً عند العرب المسلمين أصحاب الحضارة والسلطة الرسمية آنذاك .

والمـــرجح أن الـــبويهيين من عامة الديلم أصحاب الأصل الفارسي القديم ، ومن أسرة فقيرة منهم . فقد كان بويه بن فناخسرو صياد سمك على بحر قزوين ، وكـــان لـــه ثلاثة أولاد هم (علي والحسن وأحمد) وكانوا يعينونه ببعض الأعمال البسيطة ، كجمع الحطب وبيعه [4] .

واتصـــل (بويـــه) بالدولة الزيدية في عهد الأطروش ، وكان في خدمته ، ثم انضـــم مع أولاده إلى السامانيين ، ثم تركهم وانضم إلى القائد الديلمي (ماكان بن كـــالي) ، واشترك معه في الاستيلاء على طبرستان سنة (٣١٦ هـــ) ، ثم انقطعت أخبار بويه بعد ذلك مباشرة ، ويبدو أنه توفي [5] .

---

[1] الكامل لابن الأثير : ٩٩/٨ .

[2] دائرة المعارف الإسلامية (مجلد ٨) مادة بويه .

[3] مروج الذهب : ٢١٧/٤ ، وصبح الأعشى للقلقشندي : ٣٤٨/١ .

[4] المنتظم : ٢٧٠/٦ ، ووفيات الأعيان : ١٥٨/١ .

[5] الكامل لابن الأثير : ٩٩/٨ ، والمنتظم : ٢٠٨/٦ .

ابتداء الدولة البويهية :

كان أولاد بويه في خدمة (ماكان بن كالي) ، وبعد هزيمته انتقلوا إلى خدمة (مرداويخ بن زيار) ، وهو أحد قادة الديلم البارزين ، وقد أسس ما عرف بالدولة الزيارية .

وقد علا شأن أولاد بويه عند مرداويخ ، فكلفهم بأعمال هامة ، وأظهروا مقدرة وكفاية ، وترقوا في المناصب . ثم أن مرداويخ ولّى (علي بن بويه) على (الكرخ) ، فأحسن ولايتها ، واستمال قلوب رجالها ، وانتزع قلاعاً حصينة من أيدي الخرمية ، وأصاب نجاحاً كبيراً ، وكوّن قوة خاصة له [1] ، مما أثار حفيظة مرداويخ عليه ، وخافه ، وكاد الشر يقع بينهم ، لولا أن المنية أدركت مرداويخ سنة (٣٢٣ هـ) ، وهذا ما فسح المجال أمام علي وأخواته لإنشاء دولتهم وتوسعتها .

وكان علي بن بويه قد استولى على أرجان سنة (٣٢١ هـ) [2] ، وعلى شيراز سنة (٣٢٢ هـ) واتخذها قاعدة له [3] ، كما بسط نفوذه على كرمان .

واستولى الحسن بن بويه على أصفهان والري وهمدان ، وتم ضم الأهواز وأصبهان وطبرستان وواسط إلى البويهيين وهكذا توسعت الدولة البويهية واقتربت من مركز الخلافة في بغداد [4] ، وانضم لها .

وأخذ علي بن بويه ينظم دولته الناشئة ، وكتب الخليفة العباسي الراضي بالله ووزيره علي بن مقلة يطلب تقليداً بإقطاع ما بيده مقابل مبلغ من المال يؤديه

---

(1) تجارب الأمم لمسكويه : ٢٧٧/١ .

(2) الكامل لابن الأثير : ١٠١/٨ .

(3) تجارب الأمم : ٢٩٨/١-٢٩٩ .

(4) المصدر السابق : ٣٠٠/١-٣٢٠-٣٥٢ ، و٤١١/٢ ، والكامل لابن الأثير : ١٥١/٨-١٨٨ .

Damascus University

سـنوياً إلى الخلافة ، فأجابه الخليفة إلى طلبه ، وأعطاه تقليداً بذلك ، فاكتسب به شرعية في حكمه [١] .

وفي هـذه المرحلة كانت الخلافة تحت سيطرة الجند الأتراك الذين لم يتركوا للخـليفة من أمر الحكم شيئاً سوى الاسم فقط ، وكانت أحوال بغداد السياسية تعمها الفوضى ، وكانت المنافسه على أشدها للوصول إلى منصب (أمير الأمراء) .

" وفي سـنة (٣٣٤ هـ ـ ٩٤٥م) توفي توزون أمير الأمراء ، فخلفه في منصبه قائد آخر كان يعرف بابن شيرزاد " [٢] . ثم اشتدت المنافسة على منصب (إمـرة الأمـراء) بين أبي عبد الله البريدي ، وابن رائق ، وأبي الهيجاء الحمداني ، فـازداد الأمـر سـوءً عـم الاضطراب البلاد . وكل ذلك كان ممهداً لدخول البويهيين بغداد .

وفي هذه الظروف تحرك أحمد بن بويه من الأهواز ، ودخل العراق ، ووصل إلى بغـداد سـنة (٣٣٤ هـ) لينهي شغب الجند الأتراك ، والفوضى المنتشرة ، ولكـن الخليفة المستكفي كان قد استتر واختفى ، ولما وصل أحمد بن بويه ظهر الخـليفة من جديد ، واستقبله ، وأعلن أحمد بن بويه مبايعته للخليفة المستكفي ، وأقسـم بالحفاظ على الخليفة وأتباعه ، فقبلها الخليفة ، وعينه أمير الأمراء ، ولقبه (معز الدولة) ، كما لقب أخاه علي بن بويه صاحب فارس وشيراز بلقب (عماد الدولـة) ، ولقب أخاه الثالث الحسن صاحب بلاد الجبل بلقب (ركن الدولة) ، وأمر الخليفة أن تضرب ألقابهم هذه كناهم على الدنانير والدراهم [٣] .

ولكـن أحمـد بن بويه لم يحترم بيعته ، ولم يحافظ على أيمانه التي أقسم بها

---

(1) تجارب الأمم ١/٢٩٨ .

(2) تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي ، د. زكار ، ص ٢٩

(3) تجارب الأمم : ٢/٨٤ .

ووعوده للخليفة ، فلم يمض اثنا عشر يوماً على مبايعته للخليفة حتى أمر رجاله بالدخول إليه في مجلسه ، وكان عنده رسول السامانيين ، فدخل رجلان من الديلم واتجها نحو الخليفة المستكفي ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده ، ولكنهما جذباه وطرحاه أرضاً ، ووضعا عمامته في عنقه ، وساقاه إلى بيت معز الدولة حيث اعتقله هناك ، وأمر بنهب دار الخلافة ، وقبض الديلم على الفضل الشيرازي كاتب الخليفة ، ثم أحضر معز الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر ، وبايعه بالخلافة ، ولقبه (المطيع لله) [1] .

وبذلك ظهر تسلط البويهيين على الخلفاء العباسيين ، وظهر أحمد بن بويه ، وقد سلب الخلفاء كل حقوقهم وأبسطها والتي يتمتعون بها وترمز إلى كيانهم كخلفاء ، من ذلك حق تعيين وزير يعاون الخليفة ، وإقامة الخطبة له في المساجد ، ونقش اسمه على النقود ، وضرب الطبول أمام دار الخليفة في أوقات الصلاة ، والاحتفاظ بالضياع السلطانية ، وتعيين الأمراء والقضاة والعدول وأصحاب الحسبة ونقباء الأشراف وأمراء الحج وخطباء المساجد ومنح الألقاب ، كل ذلك تدخل فيه معز الدولة وفرض رأيه فيه [2] ، بل إنه استولى على جميع أموال وذخائر الخليفة ، وخصص له راتباً يومياً ، ولم يكن يصله بانتظام ، ثم إن أحمد بن بويه قطع هذا الراتب وحدد إقطاعات للخليفة يعيش منها [3] . كما جعل معز الدولة منصب أمير الأمراء وراثياً في الأسرة البويهية ، فاستمر فيهم حتى سنة ٤٤٧ هـ .

---

(1) تجارب الأمم : ٨٦/٢ .

(2) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق للخالدي : ص ٩ .

(3) تجارب الأمم : ٨٥/٢ .

وقد كان معز الدولة زيدياً ، وهو ينظر إلى الخلفاء العباسيين على أنهم مغتصبون للخلافة ، ولذلك لم يكن يحترمهم [1] ، وقد حاول نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ، فأشخص إلى نواحي فارس مخاطباً أحد كبار العلويين ، واقترح عليه أن يوليه الملك والخلافة ، وأنه سيدعمه ويعينه على ذلك ، ولكن هذا العلوي رفض هذا الأمر [2] .

كما أن خواص معز الدولة حذروه من سخط الناس عليه ومخالفتهم له ، لأنهم اعتادوا على الدعوة العباسية والخلفاء من أهل السنّة ، ودانوا بدولتهم وأطاعوا طاعة الله ورسوله [3] ، وأظهر ناصحو معز الدولة له خطر سياسته هذه على مستقبله ومستقبل أمراء بني بويه ، وقالوا له : إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولم أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك قتلوك [4] . وأمام ذلك كله اكتفى معز الدولة بإهانة الخلفاء وتنصيبهم أو عزلهم أو قتلهم كما يريد ، وأخذ يشيع بين الناس مذهبه ، وأمرهم الاحتفال بالأعياد والمناسبات الشيعية [5] ، وهكذا وقعت الخلافة العباسية تحت حكم البويهيين وتسلطهم وغطرستهم .

" ولقد نجم عن استيلاء البويهيين على بغداد نتائج كبيرة ، وردات فعل عنيفة عند القوى السياسية للعراق ، وأعالي بلاد الرافدين ، واصطرع معز الدولة

---

(1) الكامل لابن الأثير : ١٧٧/٨ .

(2) الجماهر للبيروني : ٢٢ ، والكامل لابن الأثير : ١٧٧/٨ .

(3) التكملة للهمداني : ١٤٩/١ .

(4) الكامل لابن الأثير : ١٤٩/٨ .

(5) التنبيه والإشراف للمسعودي : ٢٥٥ ، والتاريخ الإسلامي لأحمد شبلي : ٥٥/٤ .

Damascus University

مع الحمدانيين في الموصل ، ومع البريديين ، ومع القرامطة وسواهم ، وخرج من هذه الصراعات ودولته الجديدة أعز جانباً وأوسع رقعة [1] .

علاقة البويهيين فيما بينهم وتطور السلطة البويهية :

كانت رابطة الأخوة بين أبناء بويه قوية ومتينة ، فيها المودة والاحترام والطاعة ، وهي من العوامل التي ساعدتهم على تحقيق انتصارات رائعة في الميدان العسكري والميدان السياسي ، وتأسيس دولة مترامية الأطراف ، جعلتهم يقتسمون مناطقها الواسعة فيما بينهم ، تاركين لأخيهم الأكبر علي بن بويه السلطان العام والتوجيه [2] ، وهو الذي وضع أساس السلطة البويهية واستطاع بموهبته ومقدرته أن ينجح في تحقيق طموحاته في خضم الصراع المحتدم على النفوذ بين القوى المتصارعة والطامعين في السلطة .

كان علي بن بويه حريصاً على بقاء الرابطة الأخوية بين أبناء بويه قوة متماسكة لأنه كان يقدّر أنّ أي انقسام فيما بينهم سيضعفهم وسيؤدي إلى حروب تهدد كيانهم ، ولذلك وجدنا على بن بويه يجعل ولاية العهد في مناطق حكمه لابن أخيه الحسن بن بويه ، واسمه (مناخسرو) ، لأنه لا وارث له من أولاد [3] .

أما معز الدولة أحمد بن بويه فقد ظل يلي شؤون بغداد والعراق إلى أن توفي سنة ٣٥٦ هـ ، فخلفه ابنه عز الدولة بختيار على منصبه ، " وهذا يعني أن معز الدولة استطاع أن يؤسس في بغداد حكماً وراثياً يتسلط على الخلافة العباسية والوراثية " [4] . وكان أحمد بن بويه قد أوصى ابنه أن يستشير عمه ركن الدولة

---

[1] تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي : د. زكار ص ٣٠ .

[2] تجارب الأمم : ١١٣/٢ .

[3] الكامل لابن الأثير : ١٩٠/٨ .

[4] تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي ، د. زكار : ٣١ .

الحسن بن بويه حاكم فارس وابنه عضد الدولة (فناخسرو) .

ولكن بختيار لم يأخذ بنصيحة أبيه ، بل ساءت تصرفاته وأخلاقه على الرغم من أن مجلسه كان يرتاده العلماء ، وتعقد فيه المناظرات [1] ، إلا أنه عكف على اللهو ، وحاول التخلي عن كبار ضباط الديلم ، وأدخل في الجيش عدداً من العناصر التركية ، فنشب الخلاف بينه وبين ابن عمه فناخسرو وعضد الدولة ، فتحرك الأخير على قواته متجهاً إلى بغداد سنة ٣٦٧ هـ ، واستطاع القضاء على بختيار ، وإدخال بغداد تحت سيطرته ، وصار عضد الدولة سيد الخليفة والخلافة الجديد ، وأمر الخطباء بذكر اسمه في خطبهم .

أبرز صفات عضد الدولة وأعماله الحضارية :

يعد عضد الدولة فناخسرو أعظم ملوك بني بويه ، وأكثرهم نشاطاً وهمة في تحقيق غاياته ، وقد بلغ سلطانه من السعة في الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته ، وهو أول من خطب له على منابر بغداد بعد الخلفاء ، وأول من لقب بشاهنشاه ، أي (ملك الملوك) في الإسلام ، وكان حازماً قاسياً ، فرض الأمن في الدولة ، وكان ميالاً إلى عمارة البلاد ورعاية العلماء والأدباء والشعراء . كما رفع الجباية عن قوافل الحجاج ، واحتفر الآباء على طرقات مكة لخدمة الحجاج ، وجعل حول المدينة المنورة سوراً حصيناً ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها ، وعمر المساجد وعني بالبساتين وإنشاء الجسور ، وبنى البيمارستان العضدي في الجانب الغربي من بغداد ، وأنفق عليه أموالاً طائلة ، فصار كما قال ابن خلطان " ليس في الدنيا مثل ترتيبه ، وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه ، ولما فرغ من بنائه سنة

---

[1] مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي : ١٣٩ .

٣٦٨ هـ عين به أربعة وعشرين طبيباً [١] .

كما بنى قصراً في شيراز غاية في الجمال ، شق فيه الأنهار ، ونصب القباب ، وأحاطه بالبساتين ، فيه ثلاث مئة وستون حجرة ، يجلس كل يوم في واحدة [٢].

وكان ينفق على الورد وفوّارات الماء أموالاً طائلة ، ويعقد مجالس الأنس التي تدور فيها الأقداح والمغنيات [٣] . كما أنفق الكثير من مستلزمات العلوم ، فقصده العلماء ، وصنفوا له الكتب مثل أبي علي الفارسي النحوي ، وابن العباس المجوسي ، فقد وضع له الأول كتاب (الإيضاح في النحو) ، و (الحجة) في القراءات ، ووضع له الثاني (الكناش الملكي) في الطب ، وبنى مكتبة العضدية ، وجلب لها الكتب المختلفة حتى " لم يبقَ كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها " [٤] .

ولم تدم مدة سلطة عضد الدولة على بغداد كثيراً ، إذ توفي سنة (٣٧٢ هـ / ٩٨٣ م) فخلفه في بغداد والعراق ابنه (كاليجار) الذي لقب (صمام الدولة) ، إلا أن الحكم لم يسلم له ، لأن أخاه (شرف الدولة) لم يرض ما حدث ، وكان حاكماً على بلاد فارس ، ودب الخلاف والشقاق بين الأخوين ، وتقدم شرف الدولة الدولة نحو بغداد ، وانتصر على أخيه ودخلها سنة (٣٧٦ هـ) ، واعتقل أخاه صمام الدولة ، وجعله في إحدى القلاع سجيناً .

وفي سنة (٣٧٩ هـ) توفي شرف الدولة ، فولي الأمر بعده أخوه أبو نصر

---

(1) وفيات الأعيان : ٥٤/٤ .

(2) أحسن التقاسيم للمقدسي / ٢٤٩ .

(3) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ١٣٨/٩ .

(4) أحسن التقاسيم : ٤٤٩ .

Damascus University

فيروز وكان يلقب (بهاء الدولة) [1].

وكان بهاء الدولة ظالماً سفاكاً للدماء سيء السيرة ، وواجه مشكلات كثيرة إلا أنه استطاع تجاوزها ، من ذلك عصيان الجند ، ومطالبتهم بالمال ، إلا أنه قوي مركزه وبسط سلطته ونفوذه ، ودام حكمه أربعاً وعشرين سنة ، حيث توفي سنة (٤٠٣ هـ) .

وبعد وفاة بهاء الدولة تولى السلطة ابنه أبو شجاع ، ولقبه (سلطان الدولة) ويبدو أنه كان ضعيفاً ، لذلك سيطر عليه عماله وصار تحت نفوذهم وسيطرتهم ، مما جعل أخاه (مشرف الدولة) يبدأ بالعمل ضده ، فانتزع بعض الأملاك لنفسه ، وأخذ يعمل على التوجه إلى بغداد لإقصاء أخيه ، ونشب الخلاف والصراع بين هذين الأخوين ، واستمر حتى وضع له نهاية سلمية ، إذ اتفق الأخوان سنة ٤١٣ هـ على اقتسام السلطة بينهما فصارت مناطق العراق لمشرف الدولة إلى بغداد ، حيث استقبله الخليفة العباسي .

ولم يعش أخوه سلطان الدولة طويلاً ، إذ توفي سنة ٤١٥ هـ ، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً ، فخلا الحكم لمشرف الدولة الذي لم ينعم طويلاً به ، لأن المنية عاجلته فمات بعد أخيه بعام واحد سنة ٤١٦ هـ ، وأصبح منصب أمير الأمراء شاغراً .

ونشأ خلاف حول توليته أمير جديد ، فبعضهم رأى أن يستمر الأمر بيد (أبو كاليجار) ابن سلطان الدولة ، وبعضهم رأى أن ينتقل إلى أخيهم (جلال الدولة) ، " فاستدعي من البصرة ، وعندما قرب من بغداد خرج الخليفة لتلقيه ، فدخل بغداد سنة ٤١٨ هـ حيث توفي " [2] .

---

[1] أحسن التقاسيم : ٤٤٩ .

[2] تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي : د. زكار ، ٣٣ .

ولم يكن جلال الدولة حازماً في أموره ، فتسلط عليه جند بغداد ، ولاسيما الأتـــراك مـــنهم ، وكانت المناطق الشرقية ، وقد بدأت " تشهد تحولات جديدة وخطيرة في القوى بظهور الغز على مسرح الأحداث في خراسان " [1] .

وبعـــد وفاة جلال الدولة كان ابنه الأكبر أبو منصور الملقب (الملك العزيز) مقيماً بواسط ، فاستدعاه الجند الأتراك إلى بغداد وفاوضوه على مبايعته مقابل أن يدفع إليهم بمبالغ كبيرة من المال ، فلم يستطع تلبية رغباتهم . وفي هذه الأثناء كان (أبو كاليجار) صاحب الأهواز وهو ابن سلطان الدولة قد أعد العدة وجهز قواته فـــتوجه نحـــو بغداد سنة ٤٣٦ هـــ ، واستطاع الحصول على تفويض من الخليفة بـــتولي ســـلطات الخلافة ، وأطلق الخليفة عليه لقب (الملك الرحيم) ، وفي زمنه استشرى المد السلجوقي ، وضعفت أحوال السلطة ، وظهر الشغب والاضطراب حتى أن أحد أصدقاء الملك الرحيم وهو (البساسيري) جاء إليه وجرده من سلطانه ممـــا جعل الخليفة العباسي القائم بأمر الله يكتب إلى أحد القادة السلجوقيين وهو (طغرلبك) طالباً منه القدوم لتخليصه من البويهيين .

وكـــان المـــلك الرحـــيم آخر السلاطين البويهيين ، وقد انتهت أيامه سنة (٤٤٧ هـــ/ ١٠٥٥م) . وبدأت بعد ذلك الدولة السلجوقية .

ومن الملاحظ أن تسلط البويهيين على الخلافة دام على خمسة خلفاء ، وهم المســـتكفي بالله ، والمطيع بالله ، والطائع ، والقادر ، والقائم . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الـــبويهيين كانوا ينظرون للخلفاء العباسيين نظرة احتقار ، ولا يوقرونهم ، وقد سلبوهم كل صلاحياتهم ، ولم يبقَ للخليفة العباسي في زمنهم إلا اللقب فقط بـــل كانوا يتدخلون في تعيين الخلفاء ، فكانوا يعزلون خليفة وينصبون غيره ، كل

---

[2] المصدر السابق .

ذلـــك كـــانوا يقومـــون به ، ولكنهم كانوا يظهرون في الوقت نفسه أمام الناس احترامهم للخلفاء ، لأنهم كانوا يدركون المكانة الدينية للخليفة .

كما استغل البويهيين اضطراب الأمور وشغب الناس ، ليصلوا إلى السلطة ، مســـتغلين أيضاً قوتهم واتحادهم ، فإن الأسباب نفسها أدت إلى زعزعتهم وانهيار سلطانهم وبروز السلجوقيين مكانهم .

أبرز أعمالهم في الدولة :

سعى البويهيون إلى إنجاز بعض الأعمال لخدمة البلاد والناس ، على تفاوت فـيما بيـنهم ، وكانت أبرز تلك الأعمال في خدمة الزراعة والري ، " وكانت الدولـــة دائماً بحاجة إلى مزيد من المال ، لذلك لجأ بعض البويهيين إلى منح الجند إقطاعـــات من الأرض لاستقلالها ، فكان هذا بداية قيام الإقطاع العسكري الذي سيتطور في العصر التالي تطوراً كبيراً ، ويصبح أحد ركائز العمل الزراعي "[1] .

وقـــد أشـــرنا من قبل إلى أن عضد الدولة البويهي يعد أعظم ملوك بني بويه عـــلى الإطلاق ، وهو أكثرهم تمسكاً بالسلطة وخدمة للبلاد والمجتمع ، فقد أفشى الأمن ، ومال إلى عمارة البلاد ، وقرب العلماء والأدباء ، والشعراء ، وحفر الآبار وبنى الأسواق والمساجد في بغداد كما أمر أصحاب المنازل بإعمار بيوته والاعتناء بهـــا ، وأعانهم بأن أقرضهم الأموال لذلك . كما عني بإنشاء البساتين ، واستقدم الغراس من سائر البلاد إلى بغداد ، وأنشأ الجداول والجسور ، كما بنى المستشفيات والبيمارستان العضدي شاهد على ذلك في الجانب الغربي من بغداد .

كمـــا بـــنى عضد الدولة قصر شيراز ، وكان من أجمل القصور ، وأحاطه بالبساتين والأشجار .

---

[1] تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي : د. زكار ، ٣٥ .

وكان عضد الدولة يجري على أهل العلم الرواتب ، وينفق على مستلزمات العلوم وأنشأ مكتبة وجلب إليها الكتب .

كذلك كان بعض ملوك البويهيين وقادهم ، فجلس عز الدين بختيار كان يجمع العلماء وتثار فيه المناظرات في المسائل الكلامية الفقهية [1] .

ومجلس ابن سعدان وزير صمصام الدولة يجيش فيه كثير من مسائل العلوم [2] . ومكتبة ابن العميد بلغت من الشمول والاتساع إلى الحد الذي احتاج فيه إلى تكليف مسكويه برعايتها والإشراف عليها [3] .

وفي زمن شرف الدولة أسس المرصد الفلكي في حديقة قصره في بغداد وكان يرأس هذا المرصد ابن رستم الكوهي [4] .

كما ظهرت في العراق في أواخر القرن الرابع الهجري دور للعلم تحدد فيها مقاعد للطلاب ويحاضر فيها العلماء ، وتلحق بها المكتبات ، مثل الدار التي أسسها الوزير سابور بن أردشير سنة ٣٨٣ هـ بالكرخ غربي بغداد [5] .

كما نشطت الترجمة إلى العربية فنقلت العلوم المختلفة الفلسفية وغير ذلك ، وقد توافد الشعراء على قصور الملوك والقادة والأمراء ، وقالوا فيهم قصائد المدح ولاسيما عضد الدولة ، الذي قصده المتنبي شاعر زمانه ، وغيره من الشعراء .

ومن الظواهر الدالة على حسب بعض ملوك بني بويه للعلم أنهم كانوا يستوزرون الأدباء والشعراء أمثال أبن العميد والصاحب بن عباد .

---

(1) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي : ١٣٩ .

(2) الامتناع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي : ٧٧ .

(3) تجارب الأمم : ٢٨٦/٦ .

(4) القفطي : ٢٣٥-٣٥١ .

(5) النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي : حوادث سنة ٣٨٣ .

Damascus University



الفصل الثالث

الدولة المستقلة من الخلافة العباسية

١- دول المشرق .

٢- دول بلاد الشام والجزيرة .

٣- دول مصر .

Damascus University



مقـــدمـــة :

عـــندما ضـــعفت السّلطة المركزية لخلفاء بغداد ، وسيطر الجند على مقاليد الأمـــور ، أخذت كثير من مقاطعات الدولة العباسية تنفصل لتقيم دولاً مستقلة أو شـــبه مســـتقلة ، ولقد قامت في المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة ، ولقد دان معظمها اسمياً بالطاعة لخليفة بغداد العباسي ، ورفض بعضها الآخر الاعتراف به ، ويمكن تقسيم هذه الدول إلى قسمين :

الـــدول التي قامت شرق دار الخلافة ، والدول التي قامت في غربها ، وأشهر دول المشرق :

- الدولة الطاهرية : (٢٠٥-٢٥٩ هـــ / ٨٢١-٨٧٣ م) .
- الدولة الصفارية : نحو (٢٥٣-٢٩٨ هـــ / ٨٦٧-٩١٠م) .
- الدولة السامانية : (٢٠٤-٣٩٥ هـــ / ٨١٩-١٠٠٥م) .
- الدولة القراخانية : (٣٨٢-٦٠٧ هـــ / ٩٩٢-١٢١١م) .
- الدولة الغزنوية : (٣٦٦-٥٨٢ هـــ / ٩٧٧-١١٨٦م) .
- دولة طبرستان : (٢٥٥-٣٥٥ هـــ / ٨٦٨-٩٦٥م) .

وأشـــهر دول المغـــرب تلك التي قامت في الجزيرة ، والشام ومصر ، وشمال أفريقيا ، وأهمها :

١- الدولـــة الحمدانية في الموصل : (٢٩٣-٣٨٩ هـ / ٩٠٥-٩٩٨م) ، وفي حلب (٣٣٣-٣٩٤ هـ / ٩٤٥-١٠٠٤م) .

والدولـــة المروانية في ميافارقين وديار بكر (٣٧٢-٤٧٨ هـــ / ٩٨٣-١٠٨٥م) .

والدولة العقيلية في الموصل (٣٨٠-٤٨٩ هـــ / ٩٩٠-١٠٩٦م) .

والدولة المرداسية (٤١٤-٤٧٢ هـــ / ١٠٢٣-١٠٧٩م) .

٢- الدولة الطولونية في مصر (٢٥٤-٢٩٢ هـــ / ٨٦٨-٩٠٥م) .

ثم الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨ هـــ / ٩٣٥-٩٦٩م) .

ثم الدولة الفاطمية (٢٩٧-٥٦٧ هـــ / ٩٠٩-١١٧١م) .

٣- الدولـــة الزنكية في الموصل وبلاد الشام (٥٢١-٦١٩ هـــ / ١١٢٧-١٢٢٢م).

ثم الدولة الأيوبية ٥٦١-٦٥٠ هـــ / ١١٦٩-١٢٥٤م) .

٤- الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨-٤٢٢ هـــ / ٧٥٦-١٠٣١م) .

والدولة الإدريسية (١٧٢-٣١٤ هـــ / ٧٨٩-٩٢٦م) .

ودولة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦ هـــ / ٨٠٠-٩٠٩م) .

ودولة المرابطين (٤٤٨-٥٤١ هـــ / ١٠٥٦-١١٤٧م) .

ودولة الموحدين (٥٢٤-٦٦٧ هـــ / ١١٣٠-١٢٦٩م) .

Damascus University

آ- دول المشـــرق

تـــوطئـــة :

تسلم العباسيون الخلافة الإسلامية من الأمويين بعد حروب طاحنة أدت إلى القضاء على الخلفاء الأمويين وخلافتهم .

ومـــن المعروف تاريخياً أن العباسيين استعانوا على الأمويين باستمالة الفرس إليهم ، وإغداق الوعود لهم ، ولذلك انطلقت الشرارة الأولى من خراسان ، وقاد جيوش الحملة أبو مسلم الخراساني .

ولمـــا وصل العباسيون كان عليهم الوفاء بالتزاماتهم ووعودهم التي قطعوها عـــلى أنفســـهم مـــن جانب ، وكان الذين ساعدوهم في حروبهم أكثر طمعاً في التغـــلغل في الســـلطة وجني المكاسب ، ولذلك كان انتصار العباسيين وتسلمهم للخلافة بذرة شقاق بينهم وبين بعض من ساعدهم في انتصارهم .

وورث العباسيون خلافة مترامية الأطراف تمتد من جنوب فرنسا إلى أواسط الصـــين والهند غرباً ، وكان لهذا الاتساع وبُعْد أطراف الخلافة عن مركزها أثر في نشوء الفكر الاستقلالي عند الكثير من القادة وغيرهم .

وكـــان للسياسة التي اتبعها الخلفاء العباسيون ، ولشخصيات هؤلاء الخلفاء المتناقضة أحياناً بين خليفة وآخر ، أثر في ازدياد نمو الفكر الانفصالي عند كثير من

الناس ، ويمكن أن نجمل أبرز القضايا والمؤثرات في سياسة الخلافة العباسية فيما يلي :

١- كان اهتمام العباسيين أكثر بالمناطق الشرقية ، فإن دعوتهم انطلقت منها في البداية ، ولقربها من العاصمة الجديدة (بغداد) .

٢- ضعفت قبضة العباسيين على المغرب مما أدى إلى انفصاله تدريجياً ، وساعد على ذلك وصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس إذ أسس فيها حكومة أموية تحولت إلى خلافة في أوائل القرن الرابع الهجري (٣١٦ هـ) .

٣- نتيجة للتمازج الحضاري والثقافي الذي بدأ يتفاعل تأثرت الخلافة بالنظم الإدارية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة عند الشعوب الأخرى ولاسيما الشرقية ، مما أدى إلى تحللها على مر الأيام .

٤- وقف العباسيون بحزم تجاه الحركات المناوئة ، وهذا ما كان يحملهم أحياناً على الاستعانة ببعض الفئات ضد الفئات الأخرى ، مما ساعد على إبراز ضعف الخلفاء العباسيين وتقليل هيبتهم .

٥- كان لازدهار الحضارة والاقتصاد والثقافة في بداية الخلافة العباسية أثر سلبي على المجتمع إذ ساعد ذلك على ميله إلى الدعة والترف مما أدى إلى تفككه وظهور الحركات الجديدة التي تحمل أفكاراً ومعتقدات لا تتناسب مع ما تطرحه الخلافة العباسية .

٦- تناقضت سياسة الخلفاء العباسيين بتناقض شخصياتهم وراوحت بين القوة والضعف مما أدى إلى تفككها .

٧- استخدم بعض خلفاء بني العباس سياسة القوة والعنف مما أثار عليهم

بعض الفئات المتضررة من ذلك .

٨- كان لامتداد زمن الخلافة العباسية مع اتساعها أثر بالغ في سرعة تفككها .

ومنذ أن وقع الخلاف بين الأمين والمأمون بدأ نجم الخلافة العباسية القوية بالأفول وبدأت بالتفكك والضعف .

وكان لإقدام المعتصم بالله على إدخال الجند الأتراك في جيشه أثر كبير في إضعاف الخلافة وزعزعة أركانها فيما بعد ، فقد غلب هؤلاء الجند على الخلافة وأصبح بيدهم مقاليد الأمور ، وتطاولوا على الخلفاء . وأدى ذلك كله إلى ضعف السلطة المركزية للخلافة ، فنشبت ثورات وحركات انفصالية كثيرة أنهكت الدولة وتجرأ عدد من الأمراء على الانفصال بولاياتهم عن الخلافة العباسية ، فشكلوا دويلات مستقلة ، ومعظمها ناصب الخلافة العداء . وبعضها ظل متصلاً اسمياً بالخلافة .

وآل الأمر بالنتيجة إلى أن استحدث الخلفاء العباسيون نظام إمرة الأمراء الذي كان يمثل قمة النفوذ التركي في الخلافة ، لأن السلطة الفعلية في الدولة له . وقد حكم الأتراك من خلال هذا المنصب ، واستبدوا بالخليفة والناس ، واستمروا على هذه الحال إلى أن انتقل منصب إمرة الأمراء إلى الديالمة البويهيين الذين ما كان حالهم أفضل من حال الترك في التسلطة على الخليفة والناس .

ولذلك كله ، ومنذ أواخر القرن الثاني للهجرة وأوائل الثالث ظهرت دويلات مستقلة في الجناح الشرقي للخهلافة العباسية ، بعضها حافظ علي الولاء للخلافة ، وبعضها الآخر نازع الخلافة ، وناصبها العداء ، وانفصل انفصالاً تاماً .

وبدأت حركة الابتعاد من دولة الخلافة بظهور دولة الطاهريين التي أسسها

طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وحافظت على التبعية للخلافة في بغداد .

ثم أقـام يعقـوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في إقليم بلوجستان ، وامتدت بها لتشمل كرمان وخراسان وغيرهما .

وأعلن الحسن بن زيد العلوي دولة مستقلة في طبرستان من سنة (٢٥٠ هـ/ ٣١٦ هـ) . وفي أثناء ذلك كان السامانيون قد رسخوا قواعد دولتهم في بخارى وما حولها ، وكانت لهم معارك ضارية مع الدويلات المجاورة .

وقـامت الدولة الغزنوية في غزنة على يد قائدها محمود الغزنوي ، وكانت دولة مقاتلة محاربة ، وكان معظم اهتمامها بفتح بلاد الهند .

وقـامت الدولـة القراخانية التي قضت على السامانيين وامتد حكمها مدة طويـلة مـن الزمن . وهكذا نلاحظ أن هذه الدويلات التي انفصلت عن الخلافة العباسية في الجناح الشرقي كانت متعاصرة ومتصارعة ، وقد قضى بعضها الآخر ، وكـانت تتوسـع على حساب جاراتها ، وبقي الأمر كذلك إلى أن وصل نفوذ الديالمة البويهيين إلى بغداد عاصمة الخلافة فتسلطوا على الخليفة والخلافة .

وسـيلقى في هـذا الفصـل الضوء على تلك الدول التي نشأت في الجانب الشرقي الخلافة العباسية ، وسيتناول بالبحث الدويلات التالية :

١- الدولة الطاهرية : (٢٠٥-٢٥٩ هـ / ٨٢١-٨٧٣م) .
٢- الدولة السامانية : (بداية القرن الثالث – ٣٨٩ هـ / ٩٩٩م) .
٣- دولة طبرستان : (٢٥٠-٣١٦ هـ) .
٤- الدولة الصفارية : (٢٥٤-٢٩٦ هـ) .
٥- الدولة الغزنوية : (٣٦٦-٥٨٢ هـ) .
٦- الدولة القراخانية : (٣٨٢-٦٠٧ هـ) .
٧- البـويهيـون : القرن السابع والخامس الهجريان .

الـدولـة الطـاهريـة

كـان لاضـطراب الأمور في الخلافة العباسية أثر كبير في ظهور النـزعات الاستقلالية في مناطق مختلفة ، ولاسيما المناطق البعيدة عن مركز الخلافة في بغداد .

كمـا كـان للخلاف الذي نشأ بين الأخوين الأمين والمأمون ابني هارون الرشـيد وانقسام الناس بينهما أثر واضح أدى إلى استقلال بعض القادة في مناطق حكمهـم ، ولاسيما أولئك الذين ناصروا المأمون وأسهموا في القضاء على أخيه الأمين وتثبيت دعائم الحكم للمأمون ، إذ وجب عليه أن يكافئهم على صنيعهم له فأعطـاهم الإقطاعات ، وولاهم على المناطق ، وكل ذلك كان يعزز في النفوس فكـرة الاسـتقلال عـن الخلافة ، فإذا سنحت الفرصة أعلن هؤلاء انفصالهم ، واسـتقلوا بـإدارة أمورهم في مناطق نفوذهم . وفي مقدمة هؤلاء كان طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية .

مؤسس الدولة :

هو طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان ، أحد القادة والولاة في زمن الأمين والمأمون .

ولـد في مدينة (بوشنج) من أعمال (مرو) نحو عام ١٥٩ هـ ، فهو فارسي الأصـل . وكـان يـلقب (ذا اليمينين) . واختلفت الآراء حول هذا اللقب ،

والراجح أن المأمون أطلقه عليه[1] .

نشأة الدولة الطاهرية :

لقد كان قيام الدولة الطاهرية أول انقسام للخلافة العباسية في المشرق ، وبداية لانفصال الكثير من المناطق واستقلالها عن مركز الخلافة في بغداد .

وإذا كان طاهر بن الحسين هو الذي أعلن استقلاله رسمياً عن الخلافة ، وقطع الدعاء للخليفة في الخطب ، فإن أصول هذه الدولة ترجع إلى جده مصعب بن زريق الذي كان والياً على بوشنج في زمن الأمويين ، ولما بدأ العباسيون بنشر دعوتهم ، كان مصعب هذا مساعداً لأبي مسلم الخراساني ومستشاراً له .

ولما جاء العباسيون استمرت مكانته ثم مكانة ابنه حسين بن مصعب والد طاهر الذي تسلم ولاية (بوشنج) بعد وفاة أبيه ، واستمر فيها حتى وفاته (٢٠٠ هـ / ٨١٥م) تقريباً ، وكان للطاهريين بشكل عام حكم (كرمان) و (الري) و (ما وراء النهر) إضافة إلى خراسان .

فمؤسس الدولة الطاهرية طاهر بن الحسين ينتمي إلى أسرة لها مكانتها المرموقة في الخلافة ، وكان لها نفوذ كبير بين الناس ، وعند الخلفاء ، ولما قدمته هذه الأسرة من خدمات جليلة للخلفاء .

وكان طاهر بن الحسين في بداية أمره رئيس شرطة بغداد وجندها قبل أن يبدأ النزاع بين الأمين والمأمون . ثم ولاّه المأمون على (بوشنج) لما كان المأمون والياً على مقاطعات المشرق العباسي [2] . ولما احتدم الصراع بين الأمين والمأمون وأرسل الخليفة الأمين جيشاً بقيادة علي بن عيسى بن ماهان قوامه أربعين ألف

---

[1] تاريخ الطبري : ٤١٥/٨ ، ومروج الذهب : ٤٧٦/٣ ، والكامل لابن الأثير : ٣٨٢/٦ .

[2] تاريخ اليعقوبي : ٤٣٧/٢ .

مقاتل إلى خراسان لإخضاع أخيه المأمون ، وعندها جهز المأمون جيشاً لملاقاة جيش أخيه وجعل طاهر بن الحسين على رأس هذا الجيش الذي لم يزد عدده عن خمسة آلاف مقاتل .

والتقى الجيشان سنة (١٩٥ هـ) في (الري) ، واستطاع طاهر بن الحسين أن يأخذ علي بن عيسى ومجموعة كانت معه على حين غرة ، فقتله ، وجعل رأسه على سنان رمحه [1]، وأشاع خبر مقتله بين جنده ، مما أشاع الذعر والبلبلة ، فتشتت الجنود وهربوا من المعسكر ، ولما علم الناس بذلك بايعوا المأمون وخلعوا الأمين ، وكان ذلك بداية لنهاية خلافة الأمين وتولي المأمون .

وعندما بلغ المأمون خبر هزيمة جيش الأمين أمر طاهر بن الحسين بالتوجه إلى بغداد للقضاء على الأمين وإنهاء خلافته ، فتوجه إليها ، واستطاع دخولها ، وظفر بالأمين ، وقتله وأنهى خلافته [2] ، وبايع الناس جميعاً المأمون ، وكان طاهر قبل ذلك قد قضى على جيش آخر للأمين بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري سنة ١٩٥ هـ ، بعد أن طرد عمال الأمين من قزوين وكور الجبال [3] .

إن ما قام به طاهر من عمل جليل في القضاء على الأمين وتنصيب المأمون جعل نجمه يلمع في صعود ، ومكانته تتعزز بين العامة والخاصة ، وجعل نفسه تتطلع إلى المناصب العالية ، كما أن عمله أوجب على المأمون أن يكافئه ويكرمه تقديراً لجهوده ، وكان طاهر يطمع بولاية خراسان .

ولكن الشكوك ساورت كلاً من المأمون وطاهر ، فالمأمون خشي من ازدياد نفوذ طاهر بعد انتصاراته ، وطاهر لم ينس أنه قتل أخا المأمون ، وقد يتحرك دمه

---

(1) مروج الذهب : ٣/٤٧٧ .

(2) تاريخ اليعقوبي : ٢/٤٤١ .

(3) مروج الذهب : ٣/٤٧٧-٣٠٥ .

في أي لحظة . وفي غمرة من هذه الأحداث أسند المأمون إلى طاهر بن الحسين مقاتلة جيش نصر بن شبث في الجزيرة الفراتية ، وعهد إليه أمر الشام ومصر . ولكن حركة تمرد قامت في بغداد جعلت طاهر بن الحسين يأتي إليها ويقيم فيها قائداً لشرطتها ، حيث بقي قرابة عام سعى خلاله أن يحصل على ولاية خراسان ، ووسط لذلك صديقه وزير المأمون أحمد بن أبي خالد الذي أقنع المأمون وجعله يولي طاهر بن الحسين على خراسان سنة ٢٠٥ هـ [1] .

ثم كلف المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين بقيادة جيش إلى الجزيرة الفراتية ومصر والمغرب لتثبيت دعائم الخلافة وتسيير الأمور [2] . وقيل في ذلك أيضاً أقوال أخرى [3] .

ولكن طاهر بن الحسين ما إن تولى خراسان حتى ظهرت نوازعه الاستقلالية فصعد المنبر في الجمعة وخطب في الناس ، ولم يدع لأمير المؤمنين ، وأسقط اسمه في الخطبة [4] . ولما بلغ الخبر الخليفة المأمون في بغداد غضب وعاتب أحمد بن أبي خالد على ذلك . ولكن المنية عاجلت طاهر بن الحسين فمات في العام نفسه سنة ٢٠٧ هـ .

وفاة طاهر بن الحسين :

كانت وفاة طاهر بن الحسين سنة ٢٠٧ هـ مفاجئة للناس ، إذ لم يمض قليل من الوقت على قطع اسم الخليفة من الدعاء في الخطب حتى توفي طاهر ، ويرى بعض الباحثين أن للمأمون يد في قتله ، لأنه لما بلغه ما فعل طاهر في

---

(1) الكامل لابن الأثير : ٦/٣٦١ ، وتاريخ الطبري : أحداث سنة ٢٠٥ .

(2) تاريخ اليعقوبي : ٢/٤٥٥-٤٥٧ .

(3) انظر الكامل لابن الأثير : ٦/٣٦١-٣٦٢ .

(4) تاريخ اليعقوبي : ٢/٤٥٧ .

Damascus University

خراســان غضب وعاتب صديقه أحمد بن أبي خالد الذي نصحه بتولية طاهر على خراسان ، ولعلهما دبّرا أمراً قضى على طاهر ، وتشير بعض الروايات إلى احتمال أن يكــون المأمون قد أرسل إليه من دسّ السم له فقتله . ويقولون : إن طاهر بن الحســين صلى العشاء ونام ثم أصابته حمى فلم يصبح من الأحياء . ويرى آخرون أنه مات محموماً من غير سم . وكانت وفاته في مرو عاصمة خراسان [1] .

الحكام الطاهريون :

بعد وصول خبر موت طاهر بن الحسين إلى المأمون أظهر هذا الخليفة ارتياحه لأنــه تخلص من عدو قوي كان يهدد الخلافة والخليفة . ولكن الأقاويل انتشرت بــين الــناس وتشــير بإصبع الاتهام إلى المأمون ، ويبدو أن الخليفة أراد أن يظهر بــراءته من ذلك ويهدئ الغاضبين عليه ، فجعل الولاية على خراسان بعد طاهر لابــنه طــلحة بــن طاهر وولى ابنه الآخر عبد الله بن طاهر على الجزيرة الفراتية إلى مصر [2] .

واستمر طلحة بن طاهر في ولاية خراسان نحو سبع سنين ، يقوي حكمه ، ويبني دولته ، ويهتم بشؤون الدولة بنَزعة استقلالية واضحة ، ولذلك سيّر المأمون قائده أحمد بن أبي خالد على رأس حملة لتأديب طلحة في خراسان ، ولكن طلحة استطاع بحكمته توجيه هذه الحملة لفتح ما وراء النهر [3] .

ولعــل أبــرز الأحداث في عهد ولاية طلحة بن طاهر كان حرب الخوارج (سجســتان) ، فقــد حاربهم حرباً شديدة ، واستطاع القضاء على حركة حمزة الخارجي.

---

[1] انظر : تاريخ الطبري : ٥٩٣/٨ ، والكامل : ٣٨١/٦ ، وتاريخ إيران بعد الإسلام : ١٥ .

[2] الكامل : ١٤٧/٥ .

[3] ابن خلدون : ٥٣٥ .

وتوفي طلحة بن طاهر سنة (٢١٣ هـ) .

بعد وفاة طلحة بن طاهر أسند المأمون ولاية خراسان إلى أخيه عبد الله بن طاهر الذي كان يلي أمر الشام ومصر ، وعندما توفي أخوه طلحة كان عبد الله متوجهاً إلى كرمنشاه لمقاتلة بابك الخرمي . وكان قبل ذلك قد توجه إلى مصر للقضاء على تمرد الأندلسيين الذين كانوا في الاسكندرية ، ونجح في إخماد حركتهم وإجلائهم عنها ، وإعادة الطاعة إلى الخليفة [١] .

ويبدو أن الطاهريين بلغوا من القوة مكانة عظيمة جعلت الخلفاء غير قادرين على منعهم من الاستمرار في حكم خراسان ، ولذلك أبقوهم على ما هم عليه ، وبالمقابل فعبد الله بن طاهر أعلن مبايعته للمعتصم لما استلم الخلافة بعد وفاة المأمون سنة (٢١٨ هـ) . ومن أبرز ما قام به عبد الله بن طاهر محاربته لمازيار بناء على طلب المعتصم ، والإمساك به ، وكشف خيانة الأفشين للخليفة . كما أنه استمر في محاربة الخوارج في خراسان [٢] .

ويرى بعض الباحثين أنه " خلال حكم عبد الله وصلت العائلة أوج قوتها ، وثبت أصولها لدرجة لم يعد معها ممكناً نقلهم لأية ولاية أخرى ، حتى أن المعتصم رغم كرهه لعبد الله لم يجرؤ على عزله ، بل اكتفى بتشجيع الخطط السرية لقتله " [٣] . واستمر عبد الله بن طاهر بن الحسين في الحكم حتى توفي بنيسابور سنة (٢٣٠ هـ) .

وبعد وفاة عبد الله بن طاهر أعطى الخليفة العباسي الواثق بالله ولاية خراسان لابنه طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الذي كان في طبرستان عندما توفي

---

[١] تاريخ الطبري : ١٨١/٧ .

[٢] الكامل : ٢٥٣/٥ .

[٣] دراسات في العصور العباسية المتأخرة : ١٠٩ .

أبوه ، وكان قد أعلن مبايعته للمتوكل بن المعتصم سنة (٢٣٢ هـ) [1] .

قام طاهر بن عبد الله بأمر الولاية على خير وجه ، وبسط نفوذه على خراسان وسيستان ، ودام حكمه نحو ثمانية عشر عاماً ، وكان عادلاً تقياً ، واتصفت علاقته بالخلافة العباسية بالود والاحترام ، وليس في مدة حكمه ما يلفت النظر سوى بعض الحروب الداخلية التي كان يقوم بها لإخماد تمرد ، أو قمع طامع .

وكانت وفاة طاهر بن عبد الله سنة (٢٤٨ هـ) .

ولما توفي طاهر بن عبد الله استلم بعده الحكم ابنه محمد بن طاهر ، بأمر من الخليفة الواثق بالله .

ولكن حكم محمد لم يكن موفقاً لأنه كان رجلاً لاهياً غافلاً ضعيف النفس أساء معاملة الناس ، وتسلط عماله على الشعب واستبدوا وجاروا جوراً شديداً ، فثار الشعب عليهم ، وضعفت الدولة ، مما هيأ الجو لتدخل القوى المجاورة المتربصة بهم .

سقوط الدولة الطاهرية :

لقد كان لتسلط محمد بن طاهر واستبداد عماله ولهوه وغفلته أثر كبير في سقوط الدولة الطاهرية ، إذ اشتدت نقمة الناس على حكامهم ، فتفكك بنيان الدولة الداخلي مما أضعف قوتها وجعلها هدفاً سهلاً للأعداء الذين كانوا يتربصون بها ، فقد سنحت الفرصة لهم للقضاء على هذه الدولة التي كانت على الرغم من استقلالها عن الخلافة العباسية تقوم بأعمال كثيرة لخدمة الخليفة والخلافة ، ولذلك ما إن ضعفت هذه الدولة حتى ازدادت فتن الخوارج والعلويين في سجستان

---

[1] تاريخ اليعقوبي : ٢/٤٨٧-٤٨٨ .

وطبرستان وشرعوا في تخريب الدولة ولم يستطع الجيش الذي أرسله محمد بن طاهر القضاء على تمردهم ، والتف الخوارج والعلويين حول الحسن بن زيد العلوي الذي سيطر على طبرستان سنة (٢٥٠ هـ) وتحالف مع بلاد الديلم والري وجرجان[١] ، وطرد واليها سليمان ابن عم محمد بن طاهر .

كما أن يعقوب بن الليث الصفاري أعلن تمرده على الحاكم ، وقاد قوةً بدأت بالتوسع في أراضي الدولة الطاهرية ، مستغلاً ضعف الحاكم وانشقاق أهله وحاشيته وانفضاض الناس عنه ، فاحتل كرمان وفارس وبوشنج وبلخ وهراة ونيسابور وطبرستان ثم قضى على الطاهريين ، وأخذ محمد بن طاهر وأسرته وأودعهم السجن ثم أرسلهم إلى الخليفة في بغداد [٢] فانتهت الدولة الطاهرية من الوجود ككيان مستقل سنة (٢٥٩ هـ) .

وهكذا انتهت الدولة الطاهرية بعد أن استمرت أكثر من نصف قرن من الزمن ، وكانت خلال ذلك دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تقوم بكثير من الأعمال لخدمة الخلافة العباسية ، لأن سياستها العامة لم تكن تخالف السياسة العامة للعباسيين ، كما أن الحكام كانوا مستمرين في دفع الخراج سنوياً إلى الخليفة ، وبلغ ذلك الخراج سنة (٢٢١ هـ) ثمانية وثلاثين مليون درهم [٣] .

وقد اهتم الطاهريون بشكل عام بالحفاظ على الأمن والاستقرار ، فعملوا على تخفيف حدة الثورات المضادة ، وقاوموا عناصر الاضطراب ، واهتموا بقوتهم العسكرية . كما اهتموا بالزراعة والمزارعين ، وشجعوا على العلم واهتموا

---

[١] تاريخ العصر العباسي : د. أمينة بيطار : ٢٨٢ .

[٢] تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي الثاني : د. زكار : ٥٢ . والكامل لابن الأثير : ٣٦٨/٨ .

[٣] تاريخ العصر العباس : د. بيطار : ٢٨١ . ودراسات في العصور العباسية : للدوري : ١١٠-١١١ .

بالعــلماء [١] ، ولا ســيما في عهد عبد الله بن طاهر الذي كان يقول : " ينبغي أن يــبذل العــلم لأهلــه وغير أهله ، فإن العلم أنفع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله " [٢] .

كما كان عبد الله بن طاهر بن الحسين شاعراً وأديباً ، وعُدّ من أكثر الناس بــذلاً لــلمال ، مــع علم ومعرفة وتجربة ، كما كان فاضلاً وعادلاً ، وأسهم في عمارة نيسابور والسعي في إنجاز مشاريع الري للزراعة .

وهكــذا فقد اتصف حكم الطاهريين بشكل عام بأنهم أهل فضل وأدب ، محبون للشعر والحكمة ، وكان فيهم الأمير أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الــذي سمي (حكيم آل طاهر) لأدبه وفضله [٣] ، ولذلك استمر على شرطة بغداد حتى سنة (٢٦٦هـ) .

وفي النتــيجة فإن الطاهريين كانوا طبقة أرستقراطية مهذبة ، حافظت على مكانــتها وقوتهــا دون أن تظهر فيهم النّزعة الشعوبية ، فهم " رغم تمتعهم بحكم ولايــتهم بشكل وراثي ، واستقرار مركزهم ، إلا أنه لا يمكن اعتبارهم مستقلين تماماً عن بغداد " [٤] .

ولم تبقَ الدولة الطاهرية وحيدة في استقلالها عن الخلافة العباسية ، بل بدأت بعــض الدويــلات أيضــاً بمحاولة الانفصال عن الخلافة العباسية ، كالسامانيين والصــفاريين الذيــن قضــوا عــلى الدولة الطاهرية . وسيأتي الحديث عن هذه الدويلات .

---

[1] تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق : سرور : ٧٩ .

[2] الكامل : ٢٧١/٥ .

[3] تاريخ إيران بعد الإسلام : ألفه إقبال : ١٨ .

[4] دراسات في العصور العباسية المتأخرة : الدوري : ١١٠ .

الـدولـة السـامانيـة

تعـدّ الدولة السامانية من أكبر الدول التي نشأت في المناطق الشرقية في ظل الخلافـة العباسـية ، ومن أطولها أجلاً ، كما أن نفوذها امتد إلى مناطق كثيرة ، وكان لها علاقات متفاوتة مع الدويلات التي نشأت قبل حكم السامانيين وفي أثناء حكمهـم ، وهـذه العلاقات راوحت بين الاتفاق والمهادنة والقتال ، إضافة إلى علاقة الحكام السامانيين المتميزة بالخلافة العباسية ، وقد دام حكم السامانيين أكثر من قرن من الزمن .

أصل السامانيين :

ينحدر السامانيون من التركستانيين الشرقيين ، ولما كانت بلاد ما وراء النهر أرضاً بكراً ، ومياهها وفيرة ، وأشجارها كثيرة ، قدم إليها التركستانيون الشرقيون وأعجبتهم ، فأقاموا فيها الخيام والسرداقات ، ولم تكن فيها مدن بعد ، بل كل ما فيها بعض الرساتيق مثل (نور) و (خرقان رود) و (وردانة) و (بيكند) التي كانت أكـبر المـناطق تجمعاً للناس ، وأكبرها عمارة ، وفيها كانت إقامة أميرهم الذي اختاره الناس من بينهم ويدعى (أبروي) .

وكان مؤسس هذه الدولة سامان خداه ـــ أي سيد قرية سامان ـــ في منطقة بـلـخ وقـد اعتـنق الإسـلام في خلافـة هشام بن عبد الملك ، ويعيد بعض الباحثين نسب هذه الأسرة السامانية إلى أسرة صغدية محلية من أحفاد (جوبين)

البطل الساساني .

وحـــوالي سنة (٨١٩م) عين المأمون أحفاد سامان الأربعة ولاة على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة ، وقد سار ذكرهم بالبأس والنجدة والشجاعة [١] .

وبــلغ عدد الحكام السامانيين تسعة حكام ، دامت مدة ملكهم نحو سنتين ومئة سنة .

وعندما يذكر المؤرخون تسلسل نسب السامانيين يقولون : هم أولاد سامان خـــداة بـــن جثمان بن طغيان بن نوشردين بن بهرام جوبين ، ويصل نسبهم عند بعـــض المؤرخـــين [٢] إلى كيومـــرث أول ملوك العجم على الأر ، وكان يلقب (خداة) وهو اللقب الذي يطلق على أمراء بخارى ودهاقينها [٣] .

ويبدو أن الزمان تنكر لوالد سامان صاحب الجند ، فعمل جمّالاً ، وتنقل في الـــبلاد إلا أنـــه لم يـــنسَ أصله وأنه أمير ، فكان يسعى إلى استعادة مكانته حتى سنحت له الفرصة في زمن المأمون . فلما صار أسد بن عبد الله القسري أميراً على خراســـان ، عامل الناس معاملة حسنة ، ولاسيما الأسر العريقة المعروفة ، ففر إليه جـــد الســـامانيين من بلخ ، وأسلم أمامه ، فأمّنه ، وأعاد إليه ولاية بلخ وسانده وأيـــده في ولايته ، فما كان من الأمير الساماني إلا الامتنان والوفاء ، لذلك عندما رزق بمولود سماه (أسد) تيمناً ووفاءً لولي نعمته أسد بن عبد الله ، وكان أسد هذا جد الأمير إسماعيل الساماني [٤] . وأنجب أسد الساماني خمسة بنين ، هم : نوح ،

---

(1) انظـــر : تـــاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان : ٢٦٢ ، وصورة الأرض لابن حوقل : ٣٣٨ ، وتاريخ بخارى للنرشخي : ١٣٧ .

(2) الشهنامة للفردوس : ٣٧-٣٨ .

(3) صورة الأرض لابن حوقل : ٣٨٨ ، و، وتاريخ بخارى للنرشخي : ٢١ .

(4) تاريخ بخارى : ٨٧ و ١٣٧-١٣٨ .

وأحمد ، ونصر ، ويحيى ، وإلياس [١] .

بدايات الحكم الساماني :

لما خرج رافع بن الليث على هارون الرشيد وانتزع منه ولاية سمرقند ، أرسل الرشيد هرثمة بن أعين لمحاربته ، ولكنه لم يستطع تأديبه وهزيمته ، فقدم المأمون مع أبيه الرشيد إلى خراسان للاطلاع على الأمر والنظر فيه ، فلم يجد وسيلة خيراً من الاستعانة بأولاد أسد الساماني ، فكتب إليهم طالباً مساعدة هرثمة بن أعين ، فاستجابوا لطلبه ، وأعانوا هرثمة حتى أرغم رافع بن الليث على عقد الصلح [٢] .

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأسرة السامانية تظهر إلى الوجود وتستعيد مكانتها فلما انتقلت الخلافة إلى المأمون أمر واليه على خراسان أن يولي أبناء أسد بن سامان ، فأعطى كل واحد منهم مدينة يحكمها ، فجعل نوح بن أسد على سمرقند وأحمد بن أسد على مرو ، ويحيى بن أسد على هراة ، وإلياس بن أسد على الشاش وذلك سنة (٢٠٢ هـ) .

ثم أخذ الأمراء السامانيون يتوارثون حكم تلك المناطق ويوسعون مناطق سيطرتهم ويحظون بتأييد الخلفاء العباسيين ، لأن السامانيين كانوا دوماً يعلنون ولائهم ووفاءهم للعباسيين .

إلا أن مدة حكم أولاد أسد بن سامان وأحفاده لم تكن مستقرة تمام الاستقرار ، بل حدثت فيها حروب واضطرابات وفتن ، واختلف الأمراء فيما بينهم ، ونشبت حروب كادت أن تقضي عليهم ، حتى استقرت الأمور بيد الأمير

---

[1] العبر لابن خلدون : ٤/٧١٣ ، ولم يذكر النرشيخي إلا أربعة . تاريخ بخارى : ١٠٥ .

[2] تاريخ الطبري : ٨/٣٧٣ ، وتاريخ اليعقوبي : ١-٢/٤٢٥ .

إسماعيل بن أحمد الساماني .

وهذه أبرز الأحداث التي جرت أثناء حكم السامانيين ، تبين علاقاتهم بمن حولهم .

علاقات السامانيين وأبرز الأحداث في حكمهم :

كان المأمون قد جعل طاهر بن الحسين قائداً لقواته ، كما ولاّه شرطة بغداد وإليــه تنسب الدولة الطاهرية التي نشأت إلى جوار السامانيين ، وكانت بدايته مع السامانيين طيبة ، لأنه خلع عليهم ولايات بعض المدن . إلا أن هذه العلاقة ساءت مـع اسـتمرار الدولتين ، وكان لا بد لدولة أن تقضي على الأخرى ، فكان أن قضت الدولة السامانية على الطاهريين كما سيتبين لنا فيما بعد .

وفي أيام الطاهريين كان نصر بن أحمد بن أسد بن سامان والياً على سمرقند ، وقـد أرسل أخاه إسماعيل إلى بخارى بعد ظهور فتنة فيها بقيادة الحسين بن محمد الخارجي ، فذهب إسماعيل واستطاع أن يعقد اتفاقاً مع الحسين هذا على أن يكون إسماعيل أميراً على بخارى والحسين خليفة له ، دون قتال .

وأقـام إسماعيل مدة في بخارى ثم حصلت جفوة بينه وبين أخيه نصر أدت إلى قتال ثم صلح ، ثم عادت الجفوة ونشبت معركة بينهما انتهت إلى شيء من الوفاة [(1)]

ومن الأحداث التي ظهرت أثناء حكم السامانيين حركة الشيعة بطبرستان ، وحـركة الخوارج بسجستان [(2)] ، وكان لحركة الشيعة قوة ونفوذ ، وخاصة في المـدن الكـبرى مثل سمرقند ، ولم تستطع الدولتان الطاهرية والسامانية أن توقف هـذه الثورة التي استولت على خراسان وهددت الخلافة في بغداد ، وأنشأت ما عُرف باسم الدولة الصفارية .

---

(1) تاريخ بخارى للنرشخي : ١١٥ .

(2) تاريخ سني ملوك الأرض : ١٧٠-١٧٧ ، والكامل لابن الأثير : ٤١٣/٧ و ٤١٨ .

ومن الأحداث التي جرت أيضاً الاضطراب الذي جرى نتيجة سوء استخدام السلطة التي أعطيت إلى محمد بن طاهر حفيد عبد الله الطاهري ، فقد كان والياً على طبرستان ، فأوكل الأمور إلى رجل نصراني يدعى جابر بن هارون ، فتعسف في سلطته وأساء إلى الناس ، مما أثارهم عليه ، فتحركوا بقيادة الحسن بن زيد العلوي ، واستولوا على السلطة منه سنة (٢٧٠هـ) ، مما حمل الخليفة في بغداد على إرسال جيش أعاد الأمور إلى ما كانت عليه [١] .

وفي سنة (٣٠١ هـ) اندلعت ثورة ضد السامانيين قادها الحسن علي الأطروشي وكان زيدياً فاستولى على طبرستان وأخرجها من حكم السامانيين واستمال الناس إليه [٢] .

كما أن الخلاف بين السامانيين والصفاريين والحروب بينهم أضعف الدولتين ووقف المؤرخون من هذا الصراع موقفاً مؤيداً في الغالب [٣] ، وقد أشرنا إلى هذا الصراع في الحديث عن الدولة الصفارية ، وسيمر شيء منه في حديثنا عن أمراء الدولة السامانية .

ويبدو أن الملك الذي أسسه الأمير إسماعيل الساماني لم يستطع خلفاؤه من بعده المحافظة عليه ، بل اضطروا أحياناً إلى التخلي عن بعضه أو التنازل عنه للمناهضين لهم .

وعلى جميع الأحوال فقد ظل السامانيون تابعين رسمياً للخلافة في بغداد ، مع تمتعهم بالسيادة التامة داخل منطقتهم . وعندما كان ينشأ نزاع بين حاكمين

---

(1) البلدان لليعقوبي : ٣٠٧-٣٠٨ ، والتاريخ له : ١-٢/٥٠٧ ، وأخبار أئمة الزيدية : ١٩-٢٠ ، وتاريخ الطبري: ٢٧١/٩-٢٧٣ .

(2) الكامل في التاريخ : ٨١/٨ وما بعدها .

(3) تاريخ بخارى للنرشخي : ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٣٩ .

فإنهما في الغالب يعودان إلى الخليفة في بغداد ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ولاسيما المنازعات التي جرت بين السامانيين والبويهيين ، ومع كل هذا فقد كان للسامانيين قوتهم وهيبتهم العسكرية التي تفرض آراءهم واحترامهم على الآخرين ، ولعل هذا من الأسباب المهمة التي حملت بعض مؤرخي الفرس على تسمية السامانيين بلقب (أمير المؤمنين) [١]

إضافة إلى كل ما ذكر فإن هناك عدد من الفتن الاضطرابات التي كانت تظهر هنا وهناك فتثير القلاقل في الدولة السامانية ، وتضطرب الأمور ، وكان الأمراء السامانيون يتصدون لها ويقضون عليها ، وربما احتاجوا إلى مساعدة ، فكانوا يستعينون بالخلفاء أو بغيرهم لإعادة الأمور إلى نصابها . هذا إضافة إلى الخلافات التي كانت تنشأ بين أفراد الطبقة الحاكمة من السامانيين ، والتي كثيراً ما كانت تنتهي بالحروب والاقتتال ، ومع ذلك استمرت هذه الدولة أكثر من قرن من الزمن .

وسنشير إلى بعض هذه الاضطرابات في حديثنا عن أمراء الدولة السامانية وأبرز الأحداث التي جرت أثناء مدة حكمهم .

أمراء الدولة السامانية :

١- حكم نصر بن أحمد بن أسد وأخيه إسماعيل بن أحمد :

أشرنا سابقاً إلى أن المأمون ولّى أبناء أسد على المناطق الشرقية من الخلافة ، وظل الأمر كذلك حتى جعل الخليفة المعتمد الولايات كلها تحت سيطرة نصر بن أحمد بن أسد الساماني سنة (٢٦١ هـ) لكون أفضلهم وأقدرهم على إدارة البلاد [٢] .

---

[1] سياسة نامة لنظام الملك : ٤٤ .

[2] تاريخ بخارى : ١٣٨ ، والكامل لابن الأثير : ٢٧٩/٧ ، وتاريخ سني ملوك الأرض : ١٧٢ .

Damascus University

وفي أثناء حكم نصر اضطربت أمور بخارى التي لم يكن فيها أمير ، وحاول يعقوب بن الليث الصفار أن يستولي عليها ، وجرت أحداث كادت تدمر المدينة ، فاستعان أهلها بنصر بن أحمد الذي أرسل أخاه إسماعيل ، ولاه عليها ، فحكمها بالحكمة والعدل ، وقام بعدد من الإصلاحات ، واستقرت البلاد .

وظلت الأمور جيدة بين الأخوين نصر وإسماعيل مدة ، ثم أوقع الوشاة بينهما ، وحصلت جفوة وقطيعة دامت ثلاثة عشر شهراً ، ثم اصطلحا بعد ذلك [1] .

ولم يدم الوفاق طويلاً ، وساءت العلاقة من جديد ، ولم تفلح وساطة رافع بين هرثمة في البداية ، وتوجه نصر بجيشه إلى أخيه ، إلا أن رافع بن هرثمة منع الاصطدام واستطاع أن يصلح بينهما سنة (٢٧٢ هـ) .

ثم أعاد إسماعيل إلى مناهضة أخيه ، وأمسك المال عنه ، فتوجه نصر بجيوشه نحو بخارى ، فهرب أخوه منها ، وانتهى الأمر بصلح جديد على أن لا يكون إسماعيل أميراً على بخارى بل يولى فقط على الخراج . وكان ذلك سنة (٢٧٣ هـ) [2] .

ولم يمضِ أكثر من عام على هذا الصلح حتى أمتنع إسماعيل من جديد عن دفع المال ، فتوجه نصر بجيشه ، واقتتل الأخوان ، ودارت الدائرة هذه المرة على نصر وكاد يُقتل ، إلا أن أخاه إسماعيل حماه وتقدم منه وقبل يده معترفاً أنه الصغير [3] . فاستحسن الناس ذلك منه وولاه نصر على بخارى من جديد ، وعاد نصر إلى سمرقند ، وهدأت الأمور بينهما حتى توفي نصر سنة (٢٧٩ هـ) ، فعين

---

(1) الكامل في التاريخ : ٢٨١/٧ ، وتاريخ بخارى : ١٠٩-١١٠ .

(2) الكامل في التاريخ : ٢٨١/٧ ، وتاريخ بخارى : ١١٤-١١٥ ، وزين الأخبار للكرديزي : ٢٢-٢٣ .

(3) الكامل في التاريخ : ٢٨٢/٧ ، وتاريخ بخارى : ١١٥ .

الأمير إسماعيل خليفة له على ما وراء النهر ، وظل أخوه الأكبر وابنه تابعين له ، وذلك في عهد المعتضد بالله سنة (٢٨٠ هـ) .

وظل إسماعيل بن أحمد الساماني يبسط نفوذه على الولايات المجاورة بالتدريج حتى أخضع معظم الولايات الشرقية له .

وقد استمر حكم إسماعيل حتى توفي سنة (٢٩٥ هـ) [1] .

٢- حكم أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد :

بعد وفاة إسماعيل بعث الخليفة المكتفي بعهد الولاية إلى ابنه أبي نصر أحمد بن إسماعيل الذي كان والياً على جرجان من قبل والي الري وطبرستان المسمى (فارس أو بفارس الكبير) . وبدأ أحمد ولايته بحملة عسكرية قادها لتأديب فارس الكبير الذي امتنع عن دفع ما يترتب عليه من الأموال لما علم بوفاة إسماعيل .

ولما هزم أحمد هذا المتمرد استمر في مسيره إلى الري ثم إلى سجستان وأعادهما إلى ملكه [2] .

وفي أثناء ملك أحمد بن إسماعيل ثار عليه الناس ، وانتفض عليه أهل سجستان ، وعدد من أقربائه الأمراء ، وصاحب العلويين بطبرستان ، وغيرهم . وانتهت حياته بمقتله غيلة سنة إحدى وثلاث مئة للهجرة [3] .

وعرف عن هذا الأمير أنه كان محباً للعلم والعلماء وللغة العربية ، ولذلك أكرم عمال الدولة المتقنين للغة العربية ، مما أثار عليه سخط حراسه .

---

[1] الكامل لابن الأثير : ٢٢٦/٨ ، وتاريخ بخارى : ١١٧، ١٣٣ ، ووفيات الأعيان : ١٦١/٥ ، وسير أعلام النبلاء : ٩٢/١٧ ، والبداية والنهاية : ١٠٦/١١ .

[2] الكامل لابن الأثير : ٥٨/٨ ، وتاريخ بخارى : ١٢٥-١٢٧ ، وأخبار الأئمة الزيدية : ٨٩، ٩٧ ، ٢٢٦-٢٢٧ .

[3] الكامل لابن الأثير : ٦٠/٨ وما بعدها .

Damascus University

٣- حكم الأمير السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل :

بعد مقتل الأمير أحمد تسلم الإمارة على خراسان وما وراء النهر ابنه نصر بن أحمد بن إسماعيل في العام (٣٠١ هـ) ولقب بالأمير السعيد ، وكان حدثاً لم يدرك الحلم ، ولم يتجاوز الثاني سنوات العمر . ولذلك اضطربت الأمور ، وانتشرت الفوضى بين الناس ، وحاول البعض الانشقاق . وهذا ما حمل بعض المخلصين للأمير على مساعدته في إدارة البلاد ، فتولى الوزارة محمد بن أحمد الجيهاني ، وقيادة العسكر حموية بن علي ، فاستطاعا تثبيت دعائم الحكم والسيطرة على مجريات الأمور والقضاء على الفتن والاضطرابات .

وقد حاول إخوة الأمير نصر الخروج عليه ، فلم ينجحوا ، كذلك حاول الأمير إسحاق عم والد نصر ، وابنه منصور بن إسحاق الاستقلال بحكم سمرقند ونيسابور ، ولكنهما أخفقا [1] .

كما أعلن والي سجستان الحسين بن علي المرور وذي العصيان ، وحاول نشر مذهبه بين الناس ، وأرسل أتباعه يتبنون المذهب في بخارى ، وبيكند ، ونخشب وهراة ومرو الروذ ، واستطاع أحد دعاته الوصول إلى مجلس الأمير الساماني وصار من المقربين لديه ، ثم تقبل الأمير الدعوة واعتنق المذهب القرمطي [2] ، وصار الداعية محمد النخشبي وزيراً للأمير بيده صلاحيات واسعة .

وغضب الناس مما آل أمير الأمير وانتشار القرمطية ، فذهبوا إلى قائد الجيش محتجين ، فحاول هذا القائد تنبيه الأمير على وصلت إليه الأمور من الاضطراب ، فلم يستمع إليه ، وحاول قائد الجيش أن يدبر مكيدة للقضاء على الأمير واستلام

---

[1] الكامل في التاريخ : ٨/٧٨-٨٠ ، وتاريخ بخارى : ١٢٧-١٢٨ ، وزين الأخبار : ٢٨-٣٠ .

[2] سياسة نامة : ٢٣٢-٢٣٣، ٢٣٨-٢٣٩ ، والآثار الباقية للبيروني : ٣٣١-٣٣٢ .

الحكم ، إلا أن الخبر بلغ الأمير وابنه نوحاً ، فقتلا قائد الجيش ، ثم تخلى الأمير عن الحكم لابنه نوح الذي أعلن أنه غير راضٍ عن تصرفات أبيه ، فبايعه الناس أميراً عليهم (1) .

ودام حكم الأمير نصر بن أحمد لولاية خراسان ثلاثين عاماً ، وكان قد بنى لنفسه صومعة قبل وفاته قرب باب القصر أمضى فيها بقية حياته .

٤- حكم الأمير الحميد نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل :

بلغت الإشارة إلى الأحداث التي جرت في آخر عهد الأمير نصر ، وأدت إلى عزله من الإمارة ، واستلام ابنه نوح مقاليد الحكم بعده .

وقد اجتمع قادة الجيش وأولوا الأمر وبايعوا نوحاً بعد أبيه لما يعرفونه عنه من سيرة حسنة وأخلاق حميدة ، فكان حليماً وكريماً ، ولذلك لقبوه بالأمير الحميد.

وقد وعد الأمير نوح بن نصر قادة جيشه والناس بتنفيذ رغباتهم وسياسة البلاد بالعدل والحكمة ، ثم أمر بوضع القيد في رحل أبيه ونقله إلى السجن ، ثم تفرغ للقضاء على الوزير النخشبي (٢) .

ولما قام الأمير نوح على أمر البلاد جعل محمد بن أحمد وزيراً له ، وكان هذا الوزير يعرف بالحاكم الجليل .

ولم يستقر الأمر للحاكم الجديد ، واستمرت الاضطرابات ، وتعددت الفتن والمحن ، وظل الأمر كذلك حتى وفاة الأمير .

فقد أشار النرشخي إلى محاولة إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الساماني ، وهو

---

(1) سياسة نامة : ٢٣٦، ٢٣٩-٢٤٠ ، والفهرست لابن النديم : ٢٣٩-٢٤٠ .

(2) سياسة نامة : ٢٣٦-٢٣٧ .

Damascus University

عم الأمير ، الاستيلاء على الحكم ، وجرت بينهما حروب لم تنته باستلامه الحكم ، بل ظلت الإمارة بين نوح [١] .

ولما قلل وزيره من عطاءات الجنود غضب قادة الجيش وضغطوا على الأمير فاضطر إلى تسليمهم الوزير ، حيث قتلوه سنة (٣٣٥ هـ) [٢] .

وكان الأمير نوح قد ولى أحمد بن حموية قائد جيش أبيه على سمرقند ، إلا أنه عاد ثانية فعزله ثم ألقى القبض عليه وقتله .

وفي خوارزم خرج عبد الله بن إشكام على الأمير الحميد ، وقصد مدينة مرو فأمر نوح بالقبض عليه ، ولكن عبد الله رجع عن فعلته ، فعفا عن الأمير .

ووجه الأمير جيشاً إلى الري بقيادة أبي علي بن محتاج استولى عليها واستقر بها ، فخشي منه الأمير وأمر بعزله وتوليه أخيه مكانه [٣] . فتوجه ابن محتاج إلى نيسابور ، ثم إلى مرو ، وجمع حوله عدداً كبيراً من الجنود ، ومع ذلك طلب مصالحة الأمير وأرسل ابنه المظفر عبد الله ليكون رهينة عن الأمير نوح ، وذلك سنة (٣٣٧ هـ) [٤] .

ويلاحظ المتتبع لأخبار فترة حكم الأمير نوح أنها لم تستقر له ، ولم تهدأ الأمور إلا سنة (٣٤١ هـ) أي قبل وفاته بنحو سنتين . فقد كانت البلاد في ضائقة مالية لم تسمح باستخدام القوة ، حتى قيل إن الأمير استقرض من الناس خراج سنة مقدماً [٥] .

---

(1) تاريخ بخارى : ١٢٩ ، والكامل في التاريخ : ٨/٤٠٣-٤٠٤-٤٤٠ ، ٤٥٨ .

(2) دستور الوزراء لغياث الدين خواندمير : ٢٠١٣ .

(3) تاريخ بخارى : ١٢١ ، ١٢٩-١٣٠ ، والعبر لابن خلدون : ٤/٧٢٤-٧٢٥ .

(4) الكامل لابن الأثير : ٨/٤٦٢ ، ٤٩٣ ، ٥٠٧ ، والعبر لابن خلدون : ٤/٧٤٥-٧٤٦ .

(5) العبر : ٤/٧٤٦-٧٤٧ .

وتوفي الأمير الحميد نوح بن نصر بن أحمد الساماني سنة (٣٤٣ هـ) ، فكانت مدة حكمه اثنتي عشرة سنة . وقد أنجب نوح خمسة بنين ، هم : عبد الملك ، ومنصور ، ونصر ، وأحمد ، وعبد العزيز . وفي أثناء ملكه أخذ نوح من الناس البيعة لأبنائه من بعده ، فاستلم الولاية بعده ابنه عبد الملك [١] .

٥- حكم الرشيد عبد الملك بن نوح بن نصر :

كان عبد الملك بن نوح أكبر إخوته ، لذلك استلم الولاية بعد أبيه ، ثم عين محمد بن عزيز وزيراً له ، وكان محمد بن عزيز حكيماً مديراً حتى صار ملاذاً لأصحاب السيف والقلم . كما عيّن قائداً جديداً للجيش هو بكر بن مالك الفرغاني .

وجرت في عهد هذا الأمير أحداث كبيرة واضطرابات فتن . من ذلك أنه قاتل البويهيين بقيادة ركن الدولة بن بويه في خراسان والري ، وبقيادة علي بن بويه بن ركن الدولة في أصفهان سنة (٣٤٤ هـ) [٢] .

ولما استلم المطيع الخلافة العباسية أعطى ولاية خراسان لأبي علي الصاغاني مما أثار حفيظة عبد عبد الملك ، فحاول منع ذلك ، إلا أن شغب جنوده عليه منعه منه.

وفي عهد عبد الملك استولى ركن الدولة البويهي على طبرستان وجرجان بعد أن غادرها وشمكي إلى بلاد الجبل [٣] .

وبدأ يبرز نجم قائد حرس الأمير عبد الملك المدعو (ألبتكين) ، واستطاع أن يقضي على قوة الوزير وقائد الجيش ، مما اضطر الأمير إلى إعطاء ألبتكين ولاية خراسان [٤] .

---

[١] تاريخ بخارى : ١٣١ ، وزين الأخبار : ٣٦ .

[٢] الكامل في التاريخ : ٥٠٨/٨ ، ٥٣٥ ، والعبر لابن خلدون : ٧٥١/٤-٧٥٢ .

[٣] الكامل في التاريخ : ٥٠٩/٨ .

[٤] أحسن التقاسيم للمقدسي : ٣٣٨ ، والعبر : ٧٥١/٤ .

وعاجلت المنية الأمير عبد الملك ، فمات فجأة ، مما أثار بعض الاضطرابات والفتن ، وتعرضت البلاد في غمرة ذلك للحريق والنهب . ولانت وفاته سنة (٣٥٠ هـ) ولقب بالرشيد أبي الفوارس [1] .

٦- حكم منصور بن نوح بن نصر :

اجتمع الأمراء والقادة بعد وفاة الأمير الرشيد عبد الملك ، واستقر رأيهم على تولية أخيه منصور بن نوح بن نصر ، وسانده في ذلك أيضاً حاجبه ورفيقه منذ صباه (فائق) .

وبعد استلام منصور الإمارة اضطربت مكانة قائد الحرس ألبتكين) ، وحصلت جفوة بينه وبين الأمير ، ولم يستطع ألبتكين التودد للأمير وإزالة ما في نفسه من غضب ووحشة .

وقوي موقف الأمير بعد أن عقد صلحاً مع ركن الدولة بن بويه ، وتزوج ابنته ، مما جعل البويهيين يساندون الأمير منصور ، ونشأت علاقة طيبة بين السامانيين والبويهيين ، واستطاع الأمير منصور بعد ذلك الاستيلاء على الديلم وعقد الصلح معهم .

ويبدو أن حقبة حكم الأمير منصور كانت أهدأ من فترات متقدميه ، ومرت أكثر سلاماً ، على الرغم من بعض التغييرات التي حصلت في البلاد . فقد عزل بعض الولاة والقادة ، وتولى غيرهم مناصبهم ، وعلى الرغم من أن قائد الحرس البتكين أسس مملكة مستقلة لنفسه في (غزنة) سنة (٩٦٢ م) . وعلى الرغم من كل ذلك فإن مدة حكم الأمير منصور كانت أهدأ من سابقيه ، ولا سيما بعد ما سلّم الوزارة لأحمد بن محمد الجيهاني .

---

[1] تاريخ بخارى : ١٣١ ، وزين الأخبار : ٤٥ .

ودامت مدة حكم الأمير منصور بن نوح خمس عشرة سنة ، وكانت وفاته سنة خمس وستين وثلاث مئة ، وقيل سنة ست وستين . وكان حاكماً عادلاً منصفاً حكيماً ولعل هذه الصفات هي التي ساعدت على جعل حكمه أهدأ من سابقيه [1] .

٧- حكم نوح بن منصور بن نوح :

بعد وفاة الأمير منصور تولى الحكم ابنه نوح ، وكان صبياً لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة ، وحاول الأمير الجديد أن يبقى وزير أبيه محمد بن أحمد الجيهاني في الوزارة ، ولكنه اعتذر متعللاً بكبر سنه ، فجعل (عبد الله بن أحمد العتبي) وزيراً له ، وأسند الحجابة إلى أبي العباس قاسم / وساعدهما في تسيير الأمور أبو الحسن (فائق) .

ومع بداية حكم الأمير نوح نشأ خلاف وانشقاق بين القادة أدى في النهاية إلى مجموعة من الاضطرابات .

فقد كان أبو الحسن سيمجور والي خرسان معترضاً على إعطاء الوزارة للعتبي ، ويرى أن صغير ، ومع أن العتبي حاول استرضاءه ومصالحة إلا أنه ظل يحمل له الكره ، واشتد الخلاف بينهما ، عند ذلك تدخل الأمير الذي كان معجماً بوزيره ، وعزل سيمجور وولى مكانه أبا العباس تاش حسام الدولة .

وقام الأمير نوح بعدد من الحملات العسكرية والمعارك مع أعدائه والمنشقين عنه لتثبيت حكمه . فأرسل قائده أب الحسن (فائق) لحرب البويهيين . ووجه ابن أخته الحسين بن طاهر لمحاربة خلف بن أحمد الليثي .

---

[1] الكامل لابن الأثير : ٥٤٤/٨ ، والعبر : ٧٥٢/٤ ، وتاريخ بخارى : ١٣٢-١٣٣ ، وزين الأخبار : ٤٤-٤٥ .

كما أنه أمر واليه أبا العباس تاش أن يجهز حملة ويسير مع فخر الدولة الديلمي وشمس المعالي قابوس بن وشمكير لمساعدتها على استرجاع حكم جرجان وطبرستان من مؤيد الدولة البويهي ، ثم عزز الجيش بجنود جدد بقيادة وزيره العتبي وتم له النصر المؤزر مما رفع من شأن هذا الوزير فأوغر صدور حاسديه [1] .

وقد اتفق سيمجور المعزول مع القائد (فائق) للقضاء على الوزير العتبي ، وبلغ الوزير هذا الخبر ، فأعلم به الأمير ، فوضع له حراساً ، ومع ذلك استطاعا الإيقاع بالوزير وقتله وهو متجه إلى قصر الأمير ، وعم الحزن جميع البلاد .

واضطر الأمير نوح إلى استدعاء ، وإليه أبي العباس تاس إلى بخارى ليقوم مقام وزيره المقتول ، إلا أنه تآمر مع سيمجور وفائق للتفرد بحكم بعض المناطق ، إلا أن هجوم البويهيين نحو خراسان أوقف هذا التآمر ، وظل يحاول اغتنام الفرص حتى لحق أخيراً بفخر الدولة البويهي الذي أعطاه مجموعة مدن يحكمها ، وظل حتى توفي سنة (٣٧٧ هـ) .

وبعد وفاة أبي العباس بقليل توفي سيمجور والي خراسان ، فقام بالولاية بعده ابنه أبو علي ، واستطاع كسب رضا الناس وأخوته . ثم كاتب الأمير نوح بن منصور طالباً منه إقراره على الولاية ، ففعل الأمير ذلك وضمر له الغدر ، ثم أمر قائده فائقاً بمقاتلته ، فانهزم فائق ، وتفوق أبو علي مما حمل الأمير الساماني على زيادة عطاءاته وتوسيع سلطته على نيسابور ومدن أخرى ، ولقب نفسه : (أمير الأمراء المؤيد من السماء) ، ثم حاول غزو بخارى فأخفق وتراجع ، ثم زين للترك غزوها [2] .

---

[1] الكامل في التاريخ : ٥٧٧/٨ ، والعبر لابن خلدون : ٧٥٦/٤ ، وتاريخ بخارى : ١٣٤ ، وزين الأخبار: ٥١ -٥٣ ، وسياسة نامة : ٤٠ .

[2] العبر : ٧٦٢/٤-٧٦٣ ، وتاريخ بخارى : ١٤٥ .

وجهز بغراخان ملك الترك جيشاً للهجوم على بخارى ، إلا أن حملته لم تصل إلى بخارى ، لأن قائدها مات في الطريق .

وحاول أبو علي بن سيجمور وفائق من جديد التآمر ضد الأمير نوح واستعانا عليه بفخر الدولة البويهي ، وتوجهت الجنود نحو الأمير في بخارى ، فاستنجد نوح بالأمير سبكتكين وابنه محمود ، فأعاناه بجيش استطاع أن يهزم فائقاً ومن معه ويعيد سلطة الأمير نوح على حراة ونيسابور وجرجان سنة (٣٨٤ هـ) [١] .

ثم استطاع الأمير نوح أن يسحب أبا علي بن سيجمور بالحيلة ، ولكنه هرب ، وهرب فائق إلى ملك الترك من جديد يحرض على غزو بخارى ، إلا أن المنية هذه المرة وافت الأمير نوح بن منصور سنة (٣٨٧ هـ) .

وكان حكم الأمير نوح بداية النهاية لحكم السامانيين في بخارى وما وراء النهر .

٨- حكم منصور بن نوح بن منصور :

بعد موت الأمير الساماني نوح استلم الحكم بعده ابنه أبو الحارث منصور ، وساعده في تدبير شؤون البلاد (بكتوزن) ، وولي الوزارة له أبو المظفر محمد بن إبراهيم الذي كان يعرف بصفاء الطبع ونقاء الذهن ، وقيل إنه تولى الوزارة بناء على طلب الأمير ناصر الدين سبكتكين ، إلا أنه بعد ذلك طلب إعفاءه وتوجه إلى نيسابور وأقام فيها يقرأ ويتعلم ويؤلف حتى وفاته [٢] .

ومع هذه الاضطرابات والحروب استغل ملك الترك الجديد أيلك خان

---

[1] تاريخ بخارى : ١٤٦-١٤٨ ، والعبر : ٧٦٣/٤-٧٦٥ .

[2] تاريخ بخارى : ١٤٦-١٤٨ ، وزين الأخبار : ٦٤-٦٦ ، ودستور الوزراء : ٢١٧ .

Damascus University

الظروف ، ووجه حملة إلى بخارى للاستيلاء عليها ، ولكن أهلها استبسلوا بالدفاع عنها بقيادة الأمير منصور الساماني واستطاعوا رد القوات التركية .

واستمر التآمر على الأمير منصور وجاءه هذه المرة معن وثق به وأكرمه وهو قائده (بكتوزين) الذي اتفق مع فائق ، وقبضا على الأمير منصور في الطريق وسملا عينيه سنة تسع وثمانين وثلاث مئة للهجرة . فانتقلت الولاية إلى أخيه عبد الملك .

٩- حكم عبد الملك بن نوح بن منصور ونهاية الحكم الساماني :

بعد سمل عيني الأمير منصور انتقلت ولاية بخارى والحكم الساماني إلى أخيه عبد الملك بن نوح ، إلا أن حكمه لم يدم طويلاً إذ لم يحكم أكثر من سبعة أشهر وبعض الأيام .

وفي أثـناء حكمــه قرر يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يعود بجنوده إلى بخـارى للانـتقام من فائق وبكتوزن اللذين أساءا إلى ولي نعمته وصديقه الأمير الساماني منصور فتقدمت جيوشه واستولى على خراسان .

إلا أن فائقـاً وبكـتوزون هربا إلى ملك الترك أيلك خان واتفقا معه على حـرب عبد الملك أمير بخارى ، فتوجهت قواتهم واستولوا على بلاد ما وراء النهر سـنة (٣٨٩ هـــ) ودخل بغراخان إلى بخارى ، وجاءه أولاد الأمير عبد الملك للســلام عليه فقيدهم واستولى على ما لديهم من أموال ، ودخل قصر الإمارة ، وحــاول الأمـير عبد الملك التخفي والفرار ، إلا أن جنود بغراخان قبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وظل مسجوناً حتى مات .

وبوفــاة الأمير عبد الملك بن نوح الساماني في سجنه انتهت الدولة السامانية وانقضى عهدها ومجدها بعد أن بلغت من القوة والعظمة مبلغاً كبيراً ، واستطاعت هذه الدولة أن توطد ملكها وتحافظ عليه على الرغم من كل الفتن والاضطرابات

والــتآمر والحــروب الخارجية التي واجهتها ، واستطاعت هذه الدولة أن تتصدى لجميع المنشقين وأن تواجه جميع الطامعين بها ، ودامت هذه الدولة أكثر من قرن مــن الزمن ، وإذا أخذنا البدايات الأولى تكون هذه الدولة قد قاربت مدتها القرن والنصــف من الزمن ، وتعاقب عليها الأمراء من بني سامان الذين غلبت عليهم القوة والشجاعة الحزم والحكمة ، وتقريب أهل العلم وحب العلماء [1] .

النظام الإداري والعسكري في الدولة السامانية :

لا بــد لكــل دولة من نظام يضبط أمورها ، وقوانين تسيرها ، ولما استقل الســامانيون وأسســوا دولتهم وضعوا لها الأسس والقوانين والمناصب التي تضبط الأمور وتدير البلاد على وجه حسن .

ويــرجع النظام الإداري والعسكري في الدولة السامانية إلى ما أسسه الأمير إسمــاعيل الساماني على أرجح الأقوال ، ويظهر من هذا النظام أن الحاجة وطبيعة الدولــة كانت وراء إحداث المناصب الإدارية والعسكرية ، ويمكن تلخيص هذه المناصب على الشكل التالي :

١- **الأمــير** : وهو ساماني ورأس الدولة والحاكم المطلق الصلاحيات ، لا يحاســبه أحد حتى الخليفة في بغداد ، لأن تبعية هذا الأمير للخليفة تبعية اسمية فقط .

وكان نظام الإمارة في الدولة السامانية وراثياً بين الإخوة والأبناء حسب ما تمليه الظروف وقوة الأشخاص ومساعديهم أو ضعفهم .

وقد أطلق السامانيون على أمرائهم ألقاباً مختلفة على غرار ما كان يطلق على الخلفاء العباسيين ، ومن ألقابهم : (ملك الملوك) وهو لقب الأمير نوح بن منصور

---

[1] العبر : ٤/٧٦٥ ، وتاريخ بخارى : ١٤٧-١٤٩ ، وزين الأخبار : ٦٦ ، دستور الوزراء : ٢١٢ .

و(الملك السديد) لقد أبيه منصور ، و (الأمير الرشيد) .

٢- **الوزير** : يعين من قبل الأمير ويساعده في إدارة الأمور وتنظيم البلاد ، ويكـــون الوزيـــر عـــلى رأس العمال والمتصرفين . وظهرت في الدولة السامانية بعض الأسر التي كثر فيها الوزراء مثل آل الجيهاني ، والعتبي ، والبلعمي .

٣- **الوالي** : منصب شغله أحياناً بعض أفراد الأسرة الحاكمة في المناطق ، أو السامانيين . وكان يعينه الأمير على المدن والمناطق ويفرض عليه الخراج وغـــيره ، وربما قوي بعض الولاة فحاول الانشقاق عن الدولة . ويعد الوالي منصباً إدارياً وعسكرياً في المناطق .

٤- **قـــائد العســـكر** : منصب عسكري لقائد الحملات والمعارك ، وكان هـــذا المنصـــب يقوي أو يضعف ويهزل حسب قوة صاحبه وحسب قوة الأمير .

٥- **حـــاجب الحجـــاب** : وهـــو أعلى المناصب العسكرية في الدولة وهو منصب خاص بوالي خراسان الذي كان يحمل لقب (إسفهلار) أي قائد الجيـــش ، ويســـميه المقدسي (صاحب الجيش) ، ومركزه بنيسابور ، ومهمته الإشراف على جميع أملاك السامانيين .

٦- **الوكيـــل** : يشـــرف على شؤون البلاط الداخلية ، وهو منصب مهم لاقتران بالأمراء والوزراء .

٧- **صـــاحب الحـــرس** : المنصـــب الثاني من حيث الأهمية في البلاط بعد حاجب الحجاب ، وهو منصب قديم في الدولة الإسلامية أنشأه معاوية بن أبي سفيان.

٨- حـــرس القصر : مجموعة مؤلفة من مئتي رجل على الأقل تختص بحماية القصـــر .

٩- نقيـــب الحـــرس : وهـــو قائد مسؤول من خمسين حارساً من حراس القصـــر .

١٠- قاضـــي القضـــاة : رئيـــس هيئة القضاء والقضاة ، موكل بأمورهم وتعيينهم .

١١- المحتســـب : يعين إلى جانب القاضي في كل مدينة لمراقبة البضائع ، والعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١٢- رئيـــس المدينـــة : منصب وراثي في الغالب توكل إلى صاحبه مهمة إدارة المدينة ورعاية مصالح الناس ، وأصحابه في الغالب من الأسر المحلية المشهورة.

١٣- الخواجـــة : وهـــو منصب رئيس ديوان الرسائل أو ديوانة الإنشاء ، وهـــذا يعني أن صاحبه يرأس أهل القلم ، ويأتي في أعلى الهيئة الديوانية ولـــه شارته الخاصة . ويتوجب على صاحب هذا المنصب أن يتحلى بـــالأخلاق الحميـــدة ، وربما لُقّب (عميد الملك) أو (خواجة عميد) . والموظف الذي يقوم بتنفيذ الأوامر يلقب (العارض) ويخضع في تصرفاته لصاحب الشرطة .

١٤- الأســـتاذ ورجـــال الديـــن : وهم طبقة العلماء والفقهاء ، يرأسهم الأستاذ ، وكان لهم شأن كبير لدى القادة والعامة .

١٥- الخطيـــب : منصب ديني يصل إليه الإنسان بعد اجتياز اختبار لحفظه القرآن ولعلمه ولولائه .

١٦- المشرف : وهو منصب المراقب ، يقوم عليه رجال يعتمد عليهم ، لأن مهمتهم الإحاطة بكل ما يجري في البلاط . وعلى المشرف أن يعين نائباً له في كل ناحية ومدينة للإشراف على تحصيل الخراج ومراقبة الأمور .

وهناك مناصب أخرى وطبقات لها مكانتها في الدولة السامانية ، كالعسكر والبواب ، والفرسان ، وصاحب البريد ، وصاحب الخبر ، والسعادة على الطرق ، والرسل .

أما فيما يتعلق بنظام الدواوين فقد كان لنظام الديواني المعمول به في الدولة السامانية متطوراً إلى حد كبير ، ويذكر النرشخي عشرة دواوين كانت موجودة في الدولة السامانية ، وهما :

١- ديوان الوزير .
٢- ديوان صاحب الخزينة (المستوفي) .
٣- ديوان عميد السلطان .
٤- ديوان صاحب الشرطة .
٥- ديوان صاحب البريد .
٦- ديوان الصاحب المؤيد .
٧- ديوان المشرفين .
٨- ديوان الأملاك الخاصة (أملاك الأمير) .
٩- ديوان المحتسب .
١٠- ديوان الأوقاف وديوان القضاء [١] .

---

[١] تاريخ بخارى : ٤٤ .

الحياة الاقتصادية :

معـــروف أن الحياة الاقتصادية تقوم على الزراعة والتجارة والصناعة ، وهذا ما سنحاول أن نبنيه باختصار .

فمن حيث الزراعة تنوعت طبيعة البلاد التي كانت خاضعة للدولة السامانية مما أعان على تنوع منتوجاتها . فالبلاد فيها السهول الواسعة الخصبة ، وفيها الجبال الوعـــرة ، وفيها الأنهار الكثيرة ، ومياهها غزيرة ، إضافة إلى الوديان الصخرية ، ومـــناخها شـــديد الـــبرودة بشـــكل عـــام مما كان يؤثر سلباً في خراب بعض المواسم أحياناً .

ونتـــيجة لاخـــتلاف الطـــبيعة بين بلد وآخر فقد تنوعت المحاصيل الزراعية وتعـــددت ، وتفاوتت من مدينة إلى أخرى ، مما أدى إلى وجود أنماط مختلفة من الحياة تتفاوت بين المدن والقرى من جانب ، وبين مدينة وأخرى من جانب آخر وقـــد أثر هذا التفاوت في التركيب السكاني للبد ، فتعددت اهتماماتهم ، وتنوعت أعمالهم ، فعملوا بالصناعة ومهروا بالتجارة ، ومارسوا الزراعة والرعي ، وكانوا عـــلى شـــأن كبير من العلم والفقه ، ونضرب المثل في البأس والقوة والشجاعة ، وكـــل هذا يوحي باقتصاد لا بأس به وازدهار حضاري وثقافي متوقع . ولا سيما أن إنتاج المناطق يكفيها ويزيد في العادة . وفي بلاد ما وراء النهر إنتاج فائض من الفواكـــه والمـــزروعات الأخـــرى ، حتى إنهم يجعلونه علفاً للدواب في كثير من الأحيان .

واستوجبت طبيعة البلاد وانتشار الحيوانات والمواشي كالبغال والإبل والحمير والأغنام ، وهذا مما أسهم في الحركة الاقتصادية .

كما أن أراضي الدولة السامانية اشتملت على معـــادن مختلفـــة كالفضـــة

والذهب والزئبق والحديد ، ومعاون بنجهير الوفيرة ، إضافة إلى النوشادر الذي يضاهي ما في سائر بلاد الإسلام ، وكل ذلك أغنى الصناعة الاقتصاد في الدولة السامانية .

ونشطت في الدولة السامانية التجارة ، وتعددت البضائع المتداولة بين الأقاليم والناس ، كل يتاجر بما عنده ، حتى تجارة الرقيق إذ كانوا يأتون بها من الأتراك المحيطين هم . وكانوا يجلبون المسك والخرخيز من التيبت ، بينما كثر في (الصغانيان) الأوبار والفراء والبزاة ، وهكذا كل مدينة كان فيها شيء يتاجر به أهلها ويحملون إلى المناطق الأخرى .

أما الصناعة فقد ذكر النرشخي [1] أنه كان ببخارى دار صناعة تقع بين المدينة وسورها قرب المسجد الجامع ، وكان ينسج فيها البسط والسرداقات واليزديات (نوع من القماش الفاخر) والوسائد وسجاجيد الصلاة ، والبرود التي يكثر الخلفاء من شرائها واستخدامها .

وكان ببخارى صناع مهرة مخصصون لهذا العمل ، وكان التجار يأتون من الولايات ليأخذوا من تلك الثياب ، كما كانوا يحملون (الزندنيجي) إلى الشام ومصر والروم . كما كانوا يصنعون الكاغد (القراطيس) اشتهرت به سمرقند ، كما اشتهرت نيسابور بالمنسوجات الحريرية والكتانية وكثرة أسواقها التجارية ، وهكذا وجد أيضاً في كل مدينة إنتاج صناعي وأسواق تتناسب مع الإنتاج الزراعي والحيواني لها .

ومن خلال ذلك كله يتبين لنا أن مناطق الدولة السامانية كانت تتمتع بمحاصيل زراعية وفية ومتنوعة ، وبثروة حيوانية ومعدنية كثيرة ، جعلت إنتاجها

---

[1] تاريخ بخارى : ٣٧ .

ومواردها المحلية تحقق اكتفاءً ذاتياً من الناحية الاقتصادية ، إضافة إلى كونها مصدراً للتجارة والتبادل وكسب الأرباح .

ومما لا شك فيه أن الصناعة في الدولة السامانية قد تأثرت بصناعة أهل الصين ، إضافة إلى أنه يوجد ما يشير إلى تأثر صناعاتهم أيضاً بالصناعة المصرية التي وصلت إليهم عن طريق بغداد وفارس ، ولاسيما صناعة الأنسجة الدبيقية التي انتشرت صناعتها في خوارزم ، والثياب الأشمونية التي ورد ذكرها عند المقدسي .

وقد ضربت النقود في بلاد السامانيين وكانت من الفضة في البداية ، ثم مزجت الفضة بمعادن أخرى ، وضبت أيضاً من النحاس .

وكل ذلك يعطينا صورة عامة عن الحياة الاقتصادية في الدولة السامانية .

أهم العطاءات الحضارية والثقافية في الدولة السامانية :

إن ما تقدم عن الدولة السامانية من مكانة وقوة يحملنا على الحديث عن مكانتها الحضارية وما قدمته للبشرية من تقدم في العلم والعمران والجوانب الأخرى .

وواضح مما سبق أن بخارى كانت مركز الدولة السامانية ، لذلك تجمع فيها العلماء والتجار والصناعيون وكبار الدولة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن اللغة الفارسية التي كاد استخدامها يتلاشى بسبب سيطرة اللغة العربية ، ظلت مستخدمة على نطاق شعبي في المناطق الشرقية للخلافة العباسية ، بل بدأت تعود للاستخدام الثقافي منذ مطلع القرن الرابع الهجري من خلال الحركات الشعوبية والإقليمية التي ظهرت محاولة الاستقلال عن الخلافة وبناء دولة مستقلة ، وهذا أدى إلى عودة الحياة إلى اللغة الفارسية التي جعلت الحرف العربي مادة للكتابة بها .

ومما ساعد على عودة الحياة إلى اللغة الفارسية الأمير نوح بن منصور الذي طلب من الشاعر الدقيقي أن يصوغ (الخدينامة) أو كتاب الملوك شعراً ، ثم جاء الفردوسي ونظم الشاهنامة .

وقد برز في زمن السامانيين عدد من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة أمثال ابن سينا ، والفارابي ، والبيروني ، والخوارزمي ، والفردوسي ، والسرافي ، وغيرهم . وشهدت الدولة السامانية تطوراً حضارياً في البناء والعمارة ، وبرز فيها المعماريون الذين بنوا القصور والحصون والقلاع وغير ذلك ، كما شهدت ظهور عدد من الفنانين والموسيقيين .

ونشطت أيضاً حركة الترجمة من الفارسية إلى العربية ، فترجم عدد كبير من التراث الفارسي ، كما حاول عدد من العلماء التأليف بالفارسية ، والترجمة من العربية إلى الفارسية . ولاسيما في عهد الأمير محمود بن سبكتكين الذي جعل الفارسية اللغة الرسمية في عهده .

كما حظي الأدب والفكر والعلماء في البلاط الساماني بعناية الأمراء واهتمامهم وتشجيعهم ، فاستقبلوا الأدباء والشعراء والعلماء في مجالسهم ، وأكرموهم ، ومن لم يحضر منهم راسلوه وسألوه عما عنده من علم ، من ذلك أن الأمير نوح بن منصور الساماني كتب سنة (٣٥٠ هـ) إلى أبي سعيد السيرافي النحوي يسأله عن بعض المسائل في النحو الأدب [1] .

كما حظي أدب الجغرافيا عند السامانيين بعناية كبيرة . ففي رحاب دولتهم وفي مدينة بلخ عاش الجغرافي أبو زيد البلخي المتوفي سنة (٣٩٤ هـ) ، وحظي برعاية الوزير أبي عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني ، وقد خلف البلخي مؤلفات

---

[1] بغية الطلب لابن العديم ، ويتيمة الدهر للثعالبي : ١٠١-١٠٤ .

كثيرة في فنون متعددة .

ويبدو للباحث أن الدولة السامانية كانت ملاذاً لكثير من الشعراء والأدباء والفلاسفة والعلماء ، مما يوحي بتوفير حركة ثقافية وحرية فكرية ونهضة علمية .

وسنقف عند بعض العلماء والأدباء المشهورين الذين عاشوا في كنف السامانيين لنتحدث عنهم وعن أعمالهم ، وأهم كتبهم مما يعين على كشف بعض الجوانب الحضارية للدولة السامانية .

١- ابن سينا :

أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البلخي ثم البخاري . فيلسوف وطبيب وعالم . نشأ في ظل الدولة السامانية ، ثم الغزنوية والقراخانية ، وذلك في فترة العصر الذهبي للفكر الإسلامي .

ولد ابن سينا لأب صيرفي انتقل من بلخ إلى بخارى ، وأخذ علومه عن علماء عصره وتنوعت معارفه بين الطب والأدب والفلسفة والرياضيات وغير ذلك .

تنقل ابن سينا بين المدن ، ولما وصل إلى همذان عينه شمس الدولة وزيراً له ، وظل ابن سينا بين حل وترحال وتعليم وتأليف حتى مات وله سبع وخمسون سنة ترك ابن سينا كتباً كثيرة ظلت قروناً من الزمن مرجعاً لأهل العلم والمعروفة من أهمها : القانون في الطب ، والشفاء في الفلسفة ، والإلهيات ، والهداية ، وترجم كتاب إقليدس في الهندسة ، ووضع عدة أزياج فلكية ، وله دراسات مبتكرة في الحركة والطاقة والفراغ والضوء ، ورسالة في المعادن .

وقد ترجم معظم كتبه إلى اللغات الأخرى ، ولاسيما اللاتينية ، وقد تركت فلسفة ابن سينا أثراً عظيماً في فلسفة القرون الوسطى ولا سيما كتابه (النفس). كما ظل كتابه (القانون في الطب) مرجعاً أساسياً للدراسات الطبية في

أوربة طوال ستة قرون من الزمن .

٢- أبو الريحان البيروني :

هو محمد بن أحمد الريحان البيروني الخوارزمي (٣٦٢ هـ ـ ٤٤٠ هـ) ، فيلسوف رياضي ومؤرخ ، وجغرافي رحال ، ولغوي وشاعر ، وفلكي ، وعالم طبيعيات .

ومن أعلام الدولة السامانية وعلمائها البارزين ، وإليه انتهت الزعامة العلمية أقام في الهند قليلاً ، ثم عاد إلى وطنه (جنوبي) ، وعظم شأنه في نفوس أمراء خوارزم وطبرستان ، ثم طلبه محمود الغزنوي للإقامة عنده ففعل .

وحظي البيروني بمودة الأمير مسعود بن محمود الغزنوي الذي أغدق عليه الأموال والهدايا .

وقد ألف البيروني عدداً من المؤلفات العظيمة والمبتكرة ، منها : (الآثار الباقية في التقاويم والأعياد عند الفرس وأهل الشام واليونان واليهود ..) ويعد هذا الكتاب دراسة موضوعية لعادات الأمم قبله .

ومن كتبه أيضاً : (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) ، وقد دون فيه ما سمعه وخص به أحوال الهند الفلكية وأديانها .

كما ترجم البيروني عدداً من الكتب من السنسكريتية إلى العربية ، ومن العربية إلى السنسكريتية ، من ذلك أصول الهندسة لإقليدس ، والمجسطي لبطليموس .

ومن مؤلفاته أيضاً (الاستيعاب في صنعة الإسطرلاب) و (الجماهر في معرفة الجواهر) ، و (تواريخ الأمم الشرقية) و (القانون المسعودي) في الهيئة والنجوم والجغرافيا وغيرها كثير .

Damascus University

وتوفي البيروني سنة (٤٤٠ هـ) ، وهو أحد أبرز علماء الدولة السامانية ثم الغزنوية ، وقد ترك أثراً واضحاً في الحضارة الإنسانية عامة من خلال كتبه وآرائه ونظرياته ويعده كثير من الباحثين أن يضاهي لنبتز وليوناردو دافنشي عند الغربيين[1].

٣- الفردوسي :

هو حسن (وقيل : منصور) بن محمد أبو القاسم الطوسي ، الفردوسي .

ولد في مدينة طوس قرب مشهد حوالي سنة (٣٢٢ هـ) ، وكان أبوه فقيراً بعمل لدى السامانيين . ولما بلغ ابنه سن التعلم اشتغل بالعلم ، وعكف على قراءة الكتب ، ونبغ به ، ونظم الشعر ، فلمع اسمه وبرز حتى سمع به السلطان محمود الغزنوي .

وكان الفردوسي مهتماً في البحث عن الآثار القديمة ، فاسترعى انباهه كتاب (الخدايسنامة) ، فقرر أن يحول قصص هذا الكتاب النثرية إلى شعر ، وسمى كتاب الجديد (الشاه نامه) أي كتاب الملوك ، فصار هذا الكتاب ملحمة الفرس القومية ، لأنه يتحدث عن تاريخهم وتاريخ ملوكهم وأخبارهم .

وقد وصل الفردوسي إلى بلاط الأمراء السامانيين وكان مقدماً عندهم ، ثم وصل إلى بلاط السلطان محمود الغزنوي الذي أغدق عليه المال والهدايا .

وقد حصلت جفوة بين السلطان الغزنوي والفردوسي ، هرب بعدها الشاعر إلى أمير طبرستان ، ثم أمير قهستان الذي كان معجباً بشعره ، ثم إلى مازندان ، ثم إلى بغداد وفيها كتب قصته (يوسف وزليخا) . ثم عاد إلى مسقط رأسه طوس وفي طريقه توفي وهو ابن ست وسبعين سنة .

---

[1] انظر ترجمته في : تاريخ حكماء الإسلام : ٧٢ ، ومعجم الأدباء : ١٨٠ ، وبغية الوعاة : ٢٠ ، والأعلام للزركلي : ٣١٤/٥ ، وقصة الحضارة : ١٨٣/٢/٤ .

ويعد كتابه (الشاه نامة) أعظم مؤلفاته ، وهو ملحمة الفرس الأولى ، وقد أعجب به نولدكه ، وأدباء الشرق والغرب ، وهذا الكتاب يضاهي الإلياذه والأوديسة . وهكذا يكون الفردوسي واحداً من أبرز شعراء الدولة السلمانية ، وواحداً ممن أسهموا في حكة إحياء اللغة الفارسية ، وهو أحد الكبار في تاريخ الحضارة الإنسانية عامة [1] .

٤- الخوارزمي :

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، أديب شاعر ولغوي وعالم رياضي معروف . ولد في خوارزم ونشأ فيها ، ثم تنقل في البلاد يأخذ عن العلماء ، ويلتقي المشهورين والأمراء . وورد على بخارى حاضرة السامانيين وصحب الوزير أبا علي البلعمي ثم فارقه وهجاه .

ووصل إلى نيسابور فأقام عند أميرها ثم حبسه أميرها ، ثم أطلق سراحه وكانت علاقته بالأمراء على هذه الشاكلة ، يلقاهم ويقربونه ثم يسجنونه . ومن الذين لقيهم بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات المشهورة ، حيث جرت بينهما مناظرة ظهر فيها تفوق بديع الزمان على أبي بكر الخوارزمي ، فتأثر لذلك وحمله في نفسه ، ولم يطل به الوقت حتى توفي سنة (٣٨٢ هـ) .

ويعد الخوارزمي أحد فرائد الدهر ، وهو صورة مشرقة من صور الازدهار الحضاري والثقافي في الدولة السامانية ، وأشهر ما ألفه الخوارزمي شعره ورسائله [2] .

---

(1) انظر ترجمته في : كشف الظنون : ١٠٢٥ ، وقصة الحضارة : ٢/٤/٢٣٤-٢٣٥ ، والتنبيه والإشراف للمسعودي : ١٠٤ ، والآثار الباقية للبيروني : ٩٩ .

(2) انظر ترجمته في : يتيمة الدهر : ١١٤/٤ ، ووفيات الأعيان : ٤٠٠/٤ ، والوافي بالوفيات : ١٩١/٣ ، ومعجم الأدباء : ١٠١/١ ، وقصة الحضارة : ٤/٢/١٨٠-١٨١ .

٥- أبو زيد البلخي :

أحمد بن سهل أبو زيد البلخي ، أحد العلماء الأفذاذ في الدولة السامانية .

ولـد في بلخ ونشأ فيها يحصل العلم والمعرفة ، حتى نبغ فيهم وعلت شهرته واتصـل بوزراء الدولة السامانية وعلى الأخص محمد بن أحمد الجيهاني وزير نصر بن أحمد الساماني .

تـنوعت معـارف البـلخي ومشاركته ، فقد شارك في الطب والطبائع ، وأصول الدين ، والفلسفة ، والنجوم .

وقـد بـلغ أمير بخارى خبر أبي زيد وعظم علمه وثقافته ، فاستدعاه إليه ، ولكـن أبـا زيـد امتـنع من عبور النهر إلى بخارى ، وظل حتى وافته المنية سنة (٣٢٢ هـ) .

وخلف أبو زيد عدداً من المؤلفات تزيد عن السبعين منها (القرابين والذبائح) و (فضل صناعة الكتابة) و (مصالح الأبدان والأنفس) و (رسالة حدود الفلسفة) و (ما يصح من أحكام النجوم) و (فضيلة علوم الرياضيات) .

وقد سبق علماء البلدان في الإسلام كافة إلى استعمال رسم الأرض في كتابه (صور الأقاليم الإسلامية) .

ويلاحـظ الباحث من أسماء مؤلفاته تنوع معرفته وعمق إسهامه في الحركة الثقافية التي ازدهرت في بلاد ما وراء النهر في زمن الدولة السامانية [1] .

---

[1] انظر ترجمته في : معجم الأدباء : ٣/٦٤ ، والفهرست : الفن الثاني ، المقالة الثالثة ، والأعلام : ١/١٣٤ .

Damascus University

دولـــة طبـــرستـــان

في ظـــل الضـــعف والـــتفكك الذي أخذ يصيب الخلافة العباسية والخلفاء العباســـيين منذ أوئل القرن الثالث للهجرة ، ظهرت النوايا الانفصالية عند بعض القـــادة وبعض الفرق والمذاهب ، وساعد على ذلك ترامي أطراف الخلافة وتعدد شـــعوبها واختلاف مذاهبهم ، ولذلك وجدنا عدداً من الدول تعلن انفصالها رسمياً أو ضـــمنياً في شـــرق الخلافة وغربها ، كما أن المناطق البعيدة عن مركز الخلافة كانت ملاذاً للمضطهدين أو الفارين أو الرافضين لسياسة الخلافة .

وضـــمن هذه الظروف نشأت دولة طبرستان في المنطقة الشرقية للخلافة بين مجموعـــة من الدويلات المستقلة كالطاهريين والسامانيين والغزنويين والصفاريين ، ودامت هذه الدولة قرابة القرن من الزمن .

بداية دولة طبرستان :

دخـــل العباسيون بلاد طبرستان سنة (١٤٤ هـــ) وكان القائد الذي فتحها أبو الخصيب حيث أخرج منها الأصبهبذ خرشيد بن دادبز زمهر وأخضعها لسلطة العباســـيين ، وظلت تابعة للخلافة العباسية حتى عام (٢٥٠ هـــ) وهو العام الذي ظهر فيه الحسن بن زيد العلوي منشقاً عن الخلافة .

تقـــع طبرستان جنوب بحر الخزر (قزوين) ، فهي بعيدة عن مركز الخلافة ، ولذلـــك لمـــا هُزم الشيعة الحسنيون في موقعة (فخ) أمام جيش الخلافة العباسية في

أواخر القرن الثاني للهجرة ، فرّ أحد قادتهم وهو يحيى بن عبد الله إلى بلاد الديلم ، وطبرستان ، وبدأت هذه المناطق تستقطب الفارين فيها وتنتشر المذهب الشيعي بينهم ، فصارت موطناً مهماً لمعارضة الخلافة العباسية .

" وظلت طبرستان رغم ميولها الشيعية خاضعة للحكم العباسي ، مرتبطة إدارياً بولاية خراسان " [1] .

وكانت طبرستان تحت ولاية الطاهريين ، وذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر والي خراسان كان قد قضى على حركة يحيى بن عمر الذي ثار على الخليفة المستعين في الكوفة ، فكافأه الخليفة بإقطاعة بلاد طبرستان والديلم ، وكان عليها سليمان بن عبد الله بن طاهر ، إلا أن المسيطر عليه أحد قادته وهو محمد بن أوس البلخي الذي فرق أولاده على المقاطعات ومدن طبرستان فعاثوا فيها فساداً واضطهاداً وجمعاً للأموال ، وساءت سيرتهم بين الناس والرعية . مما جعل الناس يتذمرون وتململون ويفكرون في الخلاص مما هم فيه من سوء ، " وبدأت عوامل الثورة تتفاعل في نفوس الطبريين ، وكتبوا إلى سكان الديلم الذين كانوا متأثرين أيضاً بالمبادئ نفسها ، وخاضعين للظروف نفسها ، فتحالفوا معهم ، وبذلك قوي أمرهم ، وصار بإمكانهم مصارعة السلطة والصمود أمامها " [2] .

وكانت البداية في محاولة جابر بن هارون الذي أرسله محمد بن عبد الله بن طاهر لجبي الأموال من طبرستان ، حيث أرهق الناس وأساء إليهم وحاول الاستيلاء على ممتلكاتهم ، فهب بعضهم لرده والدفاع عن أملاكهم ، وكان في مقدمة الثائرين أخوان هما محمد بن رستم وجعفر بن رستم ، فقد جمعا الناس

---

[1] تاريخ الدولة العباسية : د. زكار : ٥١ .

[2] المصدر السابق : ٥١-٥٢ .

ووقفا في وجه جابر بن هارون الذي هرب إلى سليمان ابن عبد الله .

ولم يقف غضب الطبريين عند هذا الحد ، فاستمروا في ثورتهم ، وتحالفوا مع الديلم ، وكان لا بد لهم من زعيم وقائد وغيرهما يجتمع الناس حوله ، ويكون له ثقل ديني إضافة إلى قوته ، وهذا ما ليس عندها ، وكان هذا الشخص لا بد أن يكون من العلويين ليلتف حوله الناس ، وبعد تفكير " أرسل ابنا رستم محمد وجعفر إلى رجل من الطالبيين المقيمين ... يقال له محمد بن إبراهيم ، يدعوانه إلى البيعة له ، فأبى وامتنع عليهم ، وقال لهم : لكني أدلكم على رجل منّا هو أقوم بما وعدتموه إليه مني . فقالوا : من هو ؟ فأخبرهم أنه الحسن بن زيد" [1] .

وكان الحسن بن زيد مقيماً في الري ، فأرسل إليه ابنا رستم يدعوانه إلى البيعة له وأخبراه بما عزم الناس عليه من الثورة على الخلافة والاستقلال لرفع الحيف والظلم عن العباد ، وأوغر صدره على الخلافة العباسية التي اتهموها بمناهضة آل البيت وظلم العلويين ، فوافق الحسن ، وقدم إليهم ، فاجتمع الطبريون والدَّيلم على مبايعته قائداً لهم وذلك سنة (٢٥٠ هـ) .

أمراء دولتهم طبرستان وأبرز الأحداث :

١- الحسن بن زيد العلوي :

يتصل نسبه بعلي بن أبي طالب ، فهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وقد أشرنا قبل قليل كيف تم استدعاؤه ومبايعته من قبل أهل طبرستان سنة (٢٥٠ هـ) .

وقد شرح في جمع الناس وتوسيع سلطته ، واقتتل مع محمد بن أوس وهزمه واستولى على (آمد) ، وهرب محمد بن أوس إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر ،

---

[1] تاريخ الطبري : ٥/٣٦٤ . (ط. دار الكتب العلمية) .

كان والياً على (سارية) للطاهريين ، فجمع جمعاً وأراد محاربة الحسن بن زيد ومن معـه ، والتقى الجيشان على مشارف المدينة ، وهُزم سليمان ، فهرب إلى جرجان تاركاً أهله ومتاعه في المدينة التي دخلها الحسن وضمها إلى ملكه .

ولما استقرت طبرستان بيده ، جهز جيشاً وقاده إلى الري للاستيلاء عليها ، فدخـلها وطرد عامل الطاهريين منها ، وولّى عليها رجلاً من أتباعه هو محمد بن جعفر.

ولمـا بلغت الخلافة هذه الأخبار أرسل الخليفة جيشاً إلى همذان ليحول دون استمرار جيش الحسن بن زيد بالتوسع ، كما أن قائد الطاهريين محمد بن عبد الله جهـز جيشاً بقيادة محمد بن مكيال وأرسله لاسترداد الري ، إلا أن قوات الحسن بن زيد ألحقت الهزيمة بهذا الجيش .

قـال الطـبري : " كر سليمان بن عبد الله راجعاً من جرجان إلى طبرستان وشَـخَص من آمل ، وخرج بجمع كثير وخيل وسلاح ، فتنحى الحسن بن زيد ولحـق بالديلم ، فكتب إلى السلطان ابن أخيه محمد بن طاهر بدخوله طبرستان ، فقُـرى كـتابه ببغداد ، وكتب نسخة ذلك المستعين إلى (بغا) الصغير مولى أمير المؤمـنين بفـتح طبرسـتان على يد محمد بن طاهر وهزيمة الحسن بن زيد ، وأن سـليمان بـن عبد الله دخل (سارية) على حال من السلامة وأنه ورد عليه ابنان لقارن بن شهريار مولى أمير المؤمنين يقال لهما : مازيار ورستم في خمس مئة رجل وأن أهـل (آمـل) أتوه منيبين مظهرين إنابتهم مستقلين عثراتهم ، فلقيهم بما زاد سكونهم وثقتهم " [1] .

وفي سنة (٢٥٣ هـ) توجه جيش من الخلافة بقيادة موسى بن بغا لقتـال

---

[1] تاريخ الطبري : ٥/٣٨٣-٣٨٤ .

الحسن بن زيد ، والتقى الجيشان في قزوين ، وكان الحسن بن زيد قد استجمع قوته وجيشه بعد هزيمته السابقة ، فانتصر على جيش الخلافة ، ثم استرد الري سنة (٢٥٦ هـ) ، وبعد سنة استطاع أن يستولي على الكرخ (٢٥٧ هـ) . ثم تقدم إلى جرجان فحاول عامل خراسان الطاهري محمد بن طاهر إرسال جيش ليحول دون تقدم جيش الحسن بن زيد فلم يثبت أمامه ، ودخلت قوات الحسن مدينة جرجان .

وكان لا بد لجيش الحسن من أن يصطدم مع الصفاريين الذين كانوا في الوقت نفسه قد أسسوا دولتهم واستقلوا بأنفسهم عن الخلافة ، وحاولوا أن يثبتوا أقدامهم في المنطقة ويفرضوا قوتهم وسيطرتهم ، ولا سيما أن مناطق نفوذ هذه الدويلات التي نشأت كانت متصلة وقريبة من بعضها البعض .

وفي سنة (٢٦٠ هـ) توجهت قوات يعقوب بن الليث الصفاري إلى طبرستان لمقاتلة الحسن بن زيد ، ويشير ابن الأثير إلى سبب ذلك بقوله : " إن عبد الله السجزي كان ينازع يعقوب الرئاسة بسجستان ، فقهره يعقوب ، فهرب منه عبد الله إلى محمد بن طاهر بنيسابور ، فلما سار يعقوب إلى نيسابور هرب عبد الله إلى الحسن بن زيد بطبرستان ، فسار يعقوب في أثره ، فلقيه الحسن بن زيد بقرية (سارية) ، وكان يعقوب قد أرسل إلى الحسن يسأله أن يبعث إليه عبد الله ويرجع عنه ، فإنه إنما جاء لذلك لا لحربه ، فلم يسلمه الحسن ، فحاربه يعقوب ، فانهزم الحسن ومضى نحو (السر) وأرض الديلم ، ودخل يعقوب (سارية) و (آمل) ، وجبى أهلها خراج سنة ، ثم سار في طلب الحسن ، فسار إلى بعض جبال طبرستان ، وتتابعت عليه الأمطار نحواً من أربعين يوماً ، فلم يتخلص إلا بمشقة شديدة "[1] .

---

[1] الكامل في التاريخ : ٢٦٨/٧ ، وانظر تاريخ الطبري : ٤٩٩/٥ .

ولكـــن الحســـن بن زيد أعاد جمع قوته من جديد ، وفي سنة (٢٦١ هــ) هاجم قوات الصفار ، وتمكن من استرجاع طبرستان ، والري ، والديلم ، ثم ضم إليه جرجان وهكذا توسع سلطانه ، وزادت دولته التي عرفت بدولة طبرستان .

وقد ساعدت الظروف على نشأة دولة طبرستان ، فإضافة إلى الرغبة بالثورة التي كانت في نفوس الناس وقتها كانت هناك ظروف مساعدة ، فالخلافة العباسية في بغـــداد كانت منشغلة بالقضاء على ثورة الزنج التي قامت في جنوب العراق ، والطاهـــريون الذيـــن كانوا ذراع الخلافة في تلك المناطق كانوا يعانون من الخطر الصـــفاري المتنامي إضافة إلى خطر الحسن ابن زيد ، ولم تسعفهم قوتهم بالتصدي لهاتين القوتين ، ولذلك ظهرت إلى الوجود دويلة طبرستان ، واستمر على رأسها الحســـن بــن زيـــد حتى وفاته سنة (٢٧٠ هــ) ، فاستلم بعده أخوه محمد بن زيد العلوي .

٢- محمد بن زيد العلوي :

بعد وفاة الحسن بن زيد (٢٧٠ هــ) استلم أمر الدولة أخوه محمد بن زيد ، وكـــانت قـــد جـــرت بعض الأحداث فيعقوب بن الليث كان قد استولى على خراســـان ، ثم استردها منه السجستاني ، ثم توفي يعقوب واستلم أخوه عمرو بن الليث السلطة .

وكـــانت قزوين تحت سلطة الخليفة العباسي ، وعليها قائد من قبل الخليفة (كوتكين) ، فأراد مواجهة محمد بن زيد ، فجمع قوته سنة (٢٧٢ هــ) وزحف إلى الـــري ، فواجهه محمد بن زيد بجيش كبير ، والتقى الجمعان ، ودارت الدائرة عـــلى جيـــش محمد بن زيد الذي انهزم وقُتل منه الكثير ، وأسر منه نحو ألفين ، واستولى كوتكين على الري وفرق قواده على مناطقها .

ولما تسلم القيادة رافع بن هرثمة ، وهو من قواد الطاهريين ، توجه أيضا إلى محمد بن زيد في جيش كبير ، وقاتله ، واستخلص منه طبرستان وجرجان ، وهرب محمد بن زيد إلى بلاد الديلم وظل الأمر كذلك حتى سنة (٢٨٢ هـ) ، ففي تلك السنة صالح رافع بن هرثمة محمد بن زيد ، وبايعه وصار في جملة أتباعه ، وأطاعه ، في سبيل أن يعينه على مواجهة عمرو بن الليث الصفاري . إلا أن عمرو بن الليث هاجم رافع بن هرثمة وقضى عليه ، وأحكم سيطرته على خراسان ، ثم طلب من الخليفة المعتضد ولاية ما وراء النهر ، فأعطاه إياها ، ووصلت الأخبار بذلك إلى إسماعيل بن أحمد الساماني ، وكانت تحت سيطرته ، فجهز جيشه وعبر نهر جيحون ، وقاتل عمرو بن الليث وهزمه ثم عاد إلى عاصمة ملكه بخارى . إلا أن عمرو بن الليث زحف من جديد على بلخ ، فتوجه إليه إسماعيل الساماني ، وقاتله ، وأسره ، ثم أرسله إلى الخليفة في بغداد سنة (٢٨٨ هـ) .

وضمن هذه الأحداث كان محمد بن زيد ينظر ويراقب ويستعد ، ولما قُضي على عمرو بن الليث ظن محمد بن زيد أن البلاء وقد خلت له فتوجه من طبرستان إلى خراسان ، ولما وصل إلى جرجان في طريقه ، جاءه رسول إسماعيل الساماني يحذره من الاستمرار فيما هو عازم عليه ، فلم يقبل التحذير ، واستمر في طريقه ، فبعث إسماعيل الساماني جيشاً بقيادة محمد بن هارون الذي استطاع بحكمته ودهائه أن يهزم جيش محمد بن زيد ، ويجرحه جروحاً شديدة أدت إلى وفاته سنة (٢٨٧ هـ) ، " فدفن بباب جرجان ، وقبره هناك معظم "[1] .

واستمر محمد بن هارون في سيره حتى وصل إلى طبرستان واستولى عليها ، وألقى القبض على زيد بن محمد بن زيد ، وأرسله إلى الوالي الساماني في بخارى ،

---

[1] مروج الذهب : ٤/٣٠٠ .

ولما كثرت حروب الديلم وكثر شغبهم ، حاربهم إسماعيل الساماني سنة (٢٨٩ هـ) وانتصر عليهم ، وملك طبرستان وجرجان وخراسان وأعادها جميعاً إلى ملك السامانيين ، وبذلك توقفت مسيرة دولة طبرستان إلى حين عودتها على يد الأطروش .

" ويقال إن زيد بن محمد بن زيد ملك طبرستان من بعد ذلك إلى أن توفي ، وملكها من بعده الحسن بن زيد " [1] .

٣- الأطروش :

هو من ولد عمر بن زين العابدين الذين كان منهم داعي الطالقان أيام المعتصم [2].

وهو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمرو بن زين العابدين . دخل بلاد الديلم ، وكان أهلها يعتنقون مذاهب مختلفة كالمجوسية وغيرها ، فبقي فيهم نحو ثلاثة عشر عاماً يعلمهم ويدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم منهم الكثير ، وقام ببناء عدد من المساجد ، ونشر بينهم مذهب الزيدية ، ثم جمع أنصاره ودعاهم إلى المسير إلى طبرستان وكانت بيد السامانيين عليها محمد بن نوح الساماني والياً من قبل أحمد بن إسماعيل الساماني المقيم في بخارى ، وكان حسن السيرة بين أهلها ، ولكنه مات وتولى بعده محمد بن إبراهيم فأساء سياسة الناس ، فاستغل الأطروش هذا الأمر ، وحرض الناس ودعاهم للخروج معه ، فأجابوه ، وسار والي طبرستان محمد بن إبراهيم لمواجهتهم ، فالتقى الجيشان ، وأسفرت المعركة عن هزيمة له ولجيشه ، واتجه الأطروش إلى (سالوس) ، ثم استولى على طبرستان [3] ، وسمى

---

(1) تاريخ ابن خلدون : ٣٠/٤ .

(2) المصدر السابق .

(3) الكامل لابن الأثير : ٨٢/٨ .

نفســه الناصر ، وذلك سنة (٣٠١ هـ) ، واستمر في حكم طبرستان بعد ذلك ثلاث سنوات حيث توفي سنة (٣٠٤ هـ) عن عمر يقارب تسعاً وسبعين سنة .

٤- الحسن بن قاسم :

لما توفي الأطروش ولي مكانه صهره الحسن بن قاسم ، وكان يلقب بالداعي الصـغير " وبعـض الناس يقولون هو الحسن بن محمد أخي الأطروش ... وليس بصحيح وإنما هو صهره " [1] .

وقــد اســتولى الحسن بن قاسم على الري ، وأخرج منها أصحاب الأمير الســاماني السعيد بن أحمد ، كما استولى على قزوين وزنجان وقم وغيرها ، وقد أسلم قيادة الجيش إلى رجل من الديلم اسمه (ماكان كالي) ، واستقرت له الأمور ، وبدأ يسوس الناس بالعدل ، وأمر أصحابه بالعدل والابتعاد عن ظلم الناس ومعاقرة الخمر ، فلم يعجبهم ذلك وأخذوا ينتظرون الفرص المناسبة للخلاص منه وخلعه .

وفي أيــام الحســن بن قاسم أيضاً ظهرت فتنة (أسفار بن شيرويه) الديلمي الــذي ظهــر أمره وعظم شأنه حتى استولى على طبرستان بمساعدة (مرداويخ بن زيار) وكان الحسن وقتها في الري ، فبلغه استيلاء الديلمي على طبرستان ، فتوجه إليه بمن معه من القوات فالتقى الجيشان عند (سارية) واقتتلوا قتالاً شديداً ، وانهزم الحســن وقائده (ماكان كالي) ، وقتل الحسن في هذه المعركة سنة (٣١٦ هـ) ، وبذلك تم القضاء على الحركة العلوية الزيدية في طبرستان .

وهكــذا انتهت الدولة العلوية الزيدية في طبرستان ، وقد لاحظنا أن ما قام العلويين في طبرستان وما جاورها هو أقرب إلى الثورة منه إلى إنشاء والدولة ، ومما لا شــك فيه أنهم كانوا يسعون إلى الانفصال عن الخلافة وإنشاء دولة مستقلة في

---

[1] تاريخ ابن خلدون : ٣٢/٥ .

طبرستان ، إلّا أن مسيرتهم لم تكلل بالنجاح ، وكانت مساعيهم متعثرة ، وقد لاحظنا أن دولتهم توقفت فترات مختلفة ، أمام الصفاريين ، وأمام رافع بن هرثمة نحو ثلاث سنوات ، وكذلك أمام السامانيين ، فلم يستطيع الزيديون ترسيخ دعائم دولتهم ، وكانوا دوماً في حالة حرب وقتال ، ولذلك لم يكتب لهذه الدولة ، أو الثورة ، أن تعيش طويلاً .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الدولة استمرت في الدولة الزيارية التي قادها مرداويخ بن زيار .

Damascus University

الدولة الصفارية

سلفت الإشارة إلى أن الدولة الطاهرية انتهت على يد يعقوب بن الليث الصفّاري الذي بدأ يستقل بالمناطق التي احتاحها وسيطر عليها ، وينفصل بها عن الخلافة العباسية معلناً بذلك قيام دولة جديدة في الجناح الشرقي للخلافة على أنقاض الدولة الطاهرية وكانت هذه الدولة هي دولة الصفّاريين .

الصفّاريون :

تعود نشأة الصفاريين إلى يعقوب بن الليث ، ثم أخيه عمرو بن الليث ، وهما فارسيان كانا قرب مدينة (بُست) بسجستان . ويُقال كان أبوهما الليث يعمل صفّاراً في سجستان ، ثم مال إلى اللصوصية ، فسرق يوماً خزنة درهم بن نصر أمير سجستان في قصة ترويها كتب التاريخ ، وصار بعدها صديقاً للأمير الذي قربه إليه ، ثم استخدمه في ديوانه ، وبعد ذلك ولاّه أمر العسكر . ولما توفي الليث انتقل أمر ما كان بيده إلى ابنه يعقوب الذي بدأ يظهر على مسرح الأحداث [1] .

وكان يعقوب بن الليث قد عمل في بداية أمره مع رجل صفار (أي يصنع الأواني من الصفر وهو النحاس) ، ومن هنا جاء لقبه (الصفّاري) فيما قال بعضهم وهو الأرجح في سبب هذا اللقب .

---

[1] أخبار الدول : ٤١٩/٢ .

وتشير بعض الروايات إلى أن يعقوب بن الليث كان في بداية أمره خارجياً [1]، ثم نشأ خلاف بينه وبين الخوارج أدى إلى قتل أخيه طاهر بن الليث ، فاعتزلهم يعقوب ، وانضم إلى خاله (كثير بن رقاق) ، وأظهر الزهد والتقشف .

وقام رجل بسجستان ، وتطوع لقتال الخوارج يدعى صالح بن نصر المطوعي) ، فانضم إليه يعقوب ، وقاتل معه ، وبدأ شأنه يتعظم بين هؤلاء المطوعة منذ سنة (٢٣٧ هـ) .

ولما مات صالح المطوعي تولى أمر المطوعة بعده (درهم بن الحسين) ، الذي حاول أن يسترد سجستان التي خسر حكمها قبله قائد المطوعة (صالح) أمام طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان ، ففشل (درهم) في استرداد سجستان ، وأسره حاكمها ، وأرسله إلى الخليفة في بغداد . ولكن الخليفة أطلقه بعد حين ، وعاد (درهم) وظهر عجزه عن استرداد سجستان ، فأوكل الأمر إلى يعقوب بن الليث [2] الذي كان نجمه قد سطع ، وقوته العسكرية قد ظهرت كما أشرنا . ولذلك بدأ يعقوب بمقاتلة الخوارج ، وهزمهم هزيمة منكرة جعلته أكثر قوة [3] ، وبدأ يتوسع في المناطق الشرقية من الخلافة العباسية على حساب الولاة الضعفاء ، والدول التي كانت أعلنت استقلالها عن الخلافة كالطاهريين والسامانيين .

أهم الأحداث في عهد يعقوب بن ليث :

أشرنا إلى أن يعقوب بن الليث الصفاري هو المؤسس الحقيقي للدولة الصفارية التي أعلن استقلالها عن الخلافة رسمياً سنة (٢٥٤ هـ) ، ولكن سبق هذا

---

(1) تاريخ بخارى للنرضخي : ١٠٧-١٠٨ .

(2) أخبار الدول : ٤١٩/٢ .

(3) الكامل لابن الأثير : ١٨٤/٧ .

الإعـــلان ، وأعقـــبه مجموعة من الأحداث الهامة التي كانت يعقوب بن الليث مشاركاً فيها وقائداً لها .

فإضـــافة إلى مقاتلة الخوارج التي تقدمت الإشارة إليها ، قام بمقاتلة (الحسين بـــن زيـــد) الذي كان يتزعم الحركة العلوية ، وذلك بدءاً من سنة (٢٥٠ هـــ) وما بعدها .

كمـــا أنـــه تصدى لجيش الطاهريين الذي أرسله محمد بن عبد الله بن طاهر بقيـــادة واليه على (هراة) محمد بن أوس الأنباري ، وهزمه ، واستولى على (هراة) و (بوشنج) سنة (٢٥٣ هـــ) [١] .

وكـــان ليعقوب أطماع في (كرمان) و (فارس) ، وكان علي بن الحسين بن شـــبل واليـــاً عليها ، فتوجه يعقوب إلى (كرمان) لمقاتلة أميرها وقائده طوق بن مغـــلس) ، وكـــان الخـــليفة العباسي المعتز قد كتب إلى الحسين بولاية كرمان ، وكذلـــك ولّى يعقوب بن الليث عليها بقصد الإيقاع بينهما ، وهذا ما حصل ، وأســـفرت المعـــارك عن انتصار يعقوب سنة (٢٥٥ هـــ) [٢] ، فهرب علي من (شيراز) إلى بعض مضايقها ليكمن ليعقوب ، فلحقه يعقوب ، واقتتلا قتالاً شديداً قُتل فيه علي ، واستولى يعقوب على شيراز .

كمـــا أن يعقوب بن الليث عاد إلى فارس ليطرد منها (الحسين بن الفياض) الذي عينه الخليفة أميراً عليها ، واستطاع القضاء عليه سنة (٢٥٧ هـــ) .

وفي هـــذه الأثـــناء بعث الموفق إلى يعقوب بولاية (بلخ) و (طخارستان) ، فوليهمـــا ثم قـــرر العودة إلى سجستان لملاحقة عبد الله ابن السنجري الذي تمرد

---

(١) الكامل لابن الأثير : أحداث سنة (٢٥٣ هـــ) .

(٢) الكامل : ١٩١/٧ ، وتاريخ سني ملوك الأرض : ١٧٠ ، وتاريخ بخارى : ١٣٨ .

على يعقوب ونازعه الملك ، وحاول استخلاص سجستان لنفسه ، ولم يصمد السنجري أمام يعقوب ، فهرب واحتمى عند محمد بن طاهر الذي أجاره ورفض أن يسلمه ليعقوب. فتوجه إليه بجيش قاتله وهزمه فقضى يعقوب بذلك على الدولة الطاهرية ، واستولى على قاعدتهم نيسابور سنة (٢٥٧ هـ) وقيل (٢٥٩ هـ) ، وأرسل إلى الخليفة العباسي المعتمد يبرر له سبب حملته هذه ، ويدعي أن الناس قد استجاروا به لإنقاذهم من جور الطاهريين [1] .

ولكن يعقوب على الرغم من انتصاره لم يظفر بالسنجري الذي هرب إلى طبرستان ، والتجأ إلى أميرها الحسين بن زيد العلوي ، فأجاره وحماه ، وكان ذلك حجة ليعقوب ، فتوجه جيشه إلى طبرستان ، وقاتل الحسين بن زيد ، وهزمه ، واستولى على طبرستان و (آمد) سنة (٢٦٠ هـ) . ولم يستطع القبض على السنجري [2] الذي هرب من جديد إلى (الري) والتجأ إلى أميرها .

إلا أن أمير (الري) أدرك أن يعقوب بن الليث مصمم على أخذ السنجري ، وأنه لا يستطيع منعه من ذلك ، فسلمه إلى يعقوب ، فقتله ، واستقر يعقوب [3] ، وبذلك بدأت تتضح ملامح الإمارة الصفارية التي انتشرت فوق أراضي (سجستان ونيسابور ، وكرمان ، وهراة ، وبوشنج ، وطبرستان ، وخراسان ، وفارس) ، وأذعن لأمير الصفاريين ملك (المولتان) ، وملك (الرخج) ، وملك (الطبسين) ، وملك (زابلستان والسند ومكران) [4] .

وجرت عدة حروب في بلاد فارس والأهواز بين أميرها من قبل الخليفة

---

[1] تاريخ العصر العباسي / د. أمينة بيطار : ٢٨١ .

[2] الكامل : ٢٦٨/٧ ، وتاريخ الطبري : ٥٠٨/٩ .

[3] الكامل : ٢٦٨/٧ ، والطبري : ٥٠٨/٩ ، وتاريخ ابن خلدون : ٦٩٠/٤ .

[4] تاريخ العصر العباسي : د. بيطار : ٢٨١ .

Damascus University

المعـتمد (موسى بن بغا) وقادة جيشه ، وبين (محمد بن واصل) من جهة و الزنج مـن جهة أخرى . وكان يعقوب بن الليث يراقب الوضع باهتمام ، ولما تفاقمت الأمـور على موسى طلب إلى الخليفة إعفاءه ، فأعفاه . فسار نحوها من الأهواز ، واعـتزل محمـد بن واصل الحرب ليفسح المجال أمام زالي بلاد فارس للقضاء على يعقوب ، ولكنه لم يستطع ، ودخل يعقوب بلاد فارس دون قتال يذكر ، ثم قضى على كل من كان يتعاون مع محمد بن واصل [1] .

غـير أن توسع يعقوب في تلك المنطقة لم يلق ارتياحاً عند الخليفة المعتمد في بغـداد ولذلك أنكر عليه سوء تصرفه ، واستوقف حجاج خراسان وما حولها في بغـداد ، وبيّن لهم غضبه على يعقوب ، وقرأ عليهم كتاباً يلعنه فيه . ولما بلغ هذا النـبأ إلى يعقوب استشاط غضباً ، وجمع قواته ، وتوجه لمقاتلة الخليفة في بغداد ، فوصـل بجيشه إلى الأهواز ، وأدرك الخليفة حرج الموقف وقوة جيش الصفاريين ، ففاوضـه ، وأذعـن لمطالبه ، وأعطاه ما يريد وهو ولاية خراسان وبلاد فارس ، ومـا كـان مضـموناً لولاية طاهر بن الحسين ، إضافة إلى شرطة بغداد ، كما اضـطر الخـليفة إلى قـراءة كـتاب ينقض فيه ما جاء في كتابه الأول الذي قرأ على الحجاج [2] .

وعلى الرغم من ذلك فإن يعقوب لم يتراجع عما جاء من أجله ، واستمر في مسـيره نحـو بغداد ، عند ذلك وجه إليه المعتمد جيشاً كبيراً بقيادة أخيه الموفق أوقف تقدم جيش الصفاريين ، وهزم يعقوب الذي هرب بمن بقي معه إلى واسط (٢٦١-٢٦٢ هـ) وغنم جيش الخليفة غنائم كثيرة جداً .

---

[1] الكامل : ١٩١/٧-١٩٣ و ٢٦٨ . وابن خلدون : ٣٩١/٤ .

[2] تاريخ الإسلام السياسي والثقافي : لحسن سإبراهيم : ٦٥/٣ ، وابن خلدون : ٦٨٩/٤ .

وبقي الأمر متوتراً بين يعقوب والخلافة في بغداد ، وحاول الخليفة استرضاءه من جديد ، وأرسل رسولاً إليه وهو في (جنديسابور) يسترضيه ، وكان يعقوب بن الليث قد ألم به مرض شديد ، إلا أنه رفض مصالحة الخليفة ، وطرد رسوله ، وتوعده بالشر إن هو برئ من مرضه ، ولكن المنية عاجلته فمات سنة (٢٦٥ هـ) [1] تاركاً الحكم من بعده إلى أخيه عمرو بن الليث الصفاري .

حكم عمرو بن الليث :

قيل إن عمرو بن الليث كان في بداية أمره مكارياً ، ثم بدأ يساعد أخاه ويشاركه في معاركه ، ولذلك تسلم الحكم بعد وفاة يعقوب (٢٦٥ هـ) . وكان عمرو أكثر حكمة وتقديراً للأمور ، فبعث مباشرة كتاباً إلى الخليفة المعتمد يعلن فيه ولاءه له وطاعته ، فرضي عنه ، وأمر أخاه الموفق أن يبقي عمرو بن الليث على ما كان عليه أخوه يعقوب ، فولّاه تلك المناطق ، وهي خراسان وأصفهان وفارس والسند وكرمان ، وغيرها من المناطق ، إضافة إلى شرطة بغداد ، وخلع عليه الهدايا والأعطيات [2] .

ويقال إن عمرو بن الليث لما تولى الحكم أحسن التدبير والسياسة، مع بقاء النّزعة الاستقلالية عن الخلافة ، ولذلك ما لبثت العلاقة بينه وبين الخليفة في بغداد أن ساءت ، فأعلن المعتمد خلعه من الولاية ، وقلّد الحكم لمحمد بن طاهر بن الحسين ، وأمر الناس أن يعلنوا عمراً على المنابر ، وذلك سنة (٢٧١ هـ) ، وأمره بإخلاء خراسان لمحمد بن طاهر ، فامتنع عمرو عن الاستجابة للخليفة ، ونشبت الحرب من جديد بينه وبين جيوش الخليفة سنة (٢٧٤ هـ) التي كان يقودها

---

[1] تاريخ الإسلام السياسي والثقافي : لحسن إبراهيم : ٧٠/٣ .

[2] الكامل : ٣٠٠/٧ ، ٣٠٧ ، والطبري : ٥٤٩/٩ .

Damascus University

الموفــق أخــو الخليفة ، وباءت جهود الموفق بالفشل ، ولم يستطع الاستيلاء على سجستان وكرمان [1] .

ولم تمـــض الأمـــر بيسر ، ولم تستقر أحوال عمرو بن الليث ، لأن رافع بن هرثمة الذي أخذ الولاية من أمير الطاهريين على العصيان على عمرو ، وتوجه بمن معـــه لمقاتلته والتقى الجيشان ، واقتتلا ، وأسفرت المعركة عن هزيمة جيش رافع ومقـــتل رافـــع نفســـه في المعركة ، وأخذ عمرو بن الليث رأس رافع وأرسله إلى الخليفة في بغداد سنة (٢٨٣ هـــ) ، فسرّ الخليفة بذلك ، ورضي عمرو ، وأضاف إلى حكمه ولاية ما وراء النهر ، وأرسل إليه الخلع واللواء [٢] .

نهاية الدولة الصفارية :

لقد حاول عمرو بن الليث المحافظة على ما بيده من ملك بالسياسة والقوة ، واعـــتنى بـــتطوير جيشه وزيادة قوته ، فقد بلغ عدد جنوده أكثر من سبعين ألف مقـــاتل ، ولكـــن السامانيين الذين كانوا قد أسسوا دولتهم على مقربة من دولة الصفاريين ، لم يمهلوه طويلاً ، واصطدمت أطماعه وطموحاته بحقوق حاكم بلاد مـــا وراء الـــنهر الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني . فما إن انتهى السامانيون من معاركهم الداخلية مع الزنج وغيرهم حتى جمع أميرهم كلمتهم ، ووحد صفوفهم ، واسترضى الناس جميعاً ، وصار مستعداً لمقاتلة الصفاريين .

وسنحت له الفرصة عندما ألح عمرو بن الليث على الخليفة كي يمنحه ولاية مـــا وراء النهر ، فأجابه الخليفة ولبّى طلبه ، وأصدر أمراً بخلع الأمير إسماعيل بن أحمـــد الســـاماني . وعند ذلك جمع الأمير الساماني قواته وتوجه لمقاتلة الصفاريين

---

(1) الكامل : ٧/٣٠٠-٣٠١ ، والطبري : ٩/٥٤٤ ، والمنتظم : ٦/٧٧ .

(2) ابن خلدون : ٤/٦٩٩ ، والكامل : ٧/٤٢٦ ، واتلطبري : ٩/٣٢٨ ، وتاريخ بخارى : ١٣٩ .

الذيـــن تجمعـــوا في نيسابور ، وتقدمت قوات إسماعيل ، وعبرت نهر جيحون ، وقاتـــلت الصفاريين بقيادة عمرو بن الليث ، فانهزم عمرو ، وقُتل قائده محمد بن بشـــير ، وتراجع عمرو بقواته إلى سجستان . ولكن السامانيين لحقوا به إلى بلخ ، وحـــاول عمـــرو طلب المفاوضة والصلح ، فرفض الأمير الساماني ، وقاتلوه قتالاً شـــديداً شـــتت جيشه وهزمه ، ووقع عمرو أسيراً في قبضة السامانيين ، فأرسله الأمير إسماعيل مقيداً إلى الخليفة المعتضد في بغداد سنة (٢٨٧ هـــ) حيث أودع في الســـجن ، وبذلك كانت بداية النهاية للدولة الصفارية التي دامت أقل من نصف قرن من الزمن[1] .

وبعـــد أســـر عمـــرو بن الليث تولى قيادة الصفاريين حفيده طاهر بن محمد بن عمـــرو بن الليث ، وحاول الحفاظ على ملك أجداده ، إلا أنه لم يكن لـــه من الأمر شيء وقبض عليه وعلى أخيه يعقوب بن محمد (٢٩٨ هـــ) وبعث بهما إلى بغداد [2].

النتـــائـــج :

لعل من أهم الأسباب التي ساعدت على سقوط الصفاريين معاداتهم للخليفة في بغداد ، ومحاولة التوسع على حساب أملاك الولاة المجاورين لهم ، هذان الأمران أديـــا في الـــنهاية إلى إرهاق الصفاريين أولاً ، وكثرة أعدائهم ثانياً ، مما أدى إلى زعـــزعة ملكهم والقضاء عليهم . كما أن الأطماع الكثيرة لدى الصفاريين أدت إلى ضعفهم وهزيمتهم أيضاً أمام الدولة السامانية القوية المجاورة لهم .

وأبرز ما تميز به الحكم الصفاري القوة العسكرية ، وانتشار الأمن الذي أدى

---

(1) تـــاريخ الدولـــة العـــربية : د. زكار : ٤٣ ، وابن خلدون : ٧٠٣/٤-٧٠٥ ، والطبري : ٧٦/١٠ ، والكامل: ٤٨٦/٧ ، ٤٩٠ ، وتاريخ بخارى : ١١٨ .

(2) تاريخ الإسلام السياسي والثقافي : ٧٢ .

إلى اطمئنان المواطنين في تنقلاتهم وحياتهم ، وهذا بدوره ساعد على ازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

وكانت علاقة الصفاريين بالخلافة متأرجحة بين التوذد والمسالمة حيناً ، وبين العداء والقتال حيناً آخر . فقد أظهر يعقوب بن الليث الطاعة للخليفة في بغداد أول أمره ، وبرز مظهر المدافع عن الخليفة والخلافة ، والمنفذ لأوامره [١] ، فلما قويت شوكته أمر يعقوب الناس أن يذكروا اسمه مع اسم الخليفة في الخطبة .

كما أن أخاه عمرو بن الليث نقش اسمه على الدنانير ، ولم يرسل الصفاريون فائض خراجهم للخلفاء العباسيين ، مما أثار عليهم غضبهم .

وكان ليعقوب بن الليث سياسة في الإنفاق اعتمدها ، وهي سياسة التقشف التي تحفظ له ماله ، فما كان ينفق في الأمور التي تستهلك ماله واقتصاده ، وهذا ما جعل خزائنه دائماً ممتلئة بالأموال .

كما أنه عمد إلى إيجاد أتباع مخلصين له يحسن تدريبهم ليكونوا عوناً به ، مع العدالة والمساواة بين أتباعه ، مما أكسبه حبهم وولاءهم [٢] .

أما عمرو بن الليث فقد كان حكيماً حليماً ، يرعى الناس ويحترمهم أكثر من أخيه ، فقد منع الناس أن يضرب أحدهم الآخر دون إذن الأمير ، وكان حريصاً على معرفة ما يدور بين قواده ، لذلك كان يشتري المماليك الصغار ويربيهم ، ويهبهم لقواده ، ويجري عليهم الجرايات الحسنة سراً ليعلموه بأحوال قواده .

وهكذا فقد كانت دولة الصفاريين من الدول التي نشأت واستقلت عن الخلافة العباسية في جناحها الشرقي في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة .

---

(1) تاريخ سني ملوك الأرض : ١٧٠-١٧١ .

(2) مروج الذهب : ٢٢٩/٤ ، وفيه عدد من القصص حول ولاء الناس له .

الدولـــة الغـــزنويـــة

تعتبر الدولة الغزنوية واحدة من الدول التي نشأت في المنطقة الشرقية للخلافة العباســـية . وقـــد نشأت في بداية أمرها في ظل الدولة السامانية ، شاركت هذه الدولـــة في نهاية السامانيين والاستيلاء على أملاكهم ومناطق حكمهم إضافة إلى حملة الأتراك .

وقـــد توســـعت الدلوة الغزنوية وامتد نفوذها حتى الهند وحدود الصين وما وراء النهر وخراسان وبلاد الترك ، ودام حكم الغزنويين منذ بدايتهم حتى سقوط دولتهم أكثر من قرنين (٣٦٦-٥٨٢ هـ) .

أصل الغزنويين :

يعـــود الغزنويون في نسبهم إلى سبكتكين الغزنوي ، وهو في بداية أمره كان جـــندياً تحـــت من مدينة (غزنة) في أفغانستان اليوم تحت قيادة ألبكتين ، ثم أخذ يـــرتقي في المناصب حتى علا شأنه وبرز نجمه وكثرت أعماله وقوته ، وارتفعت منزلـــته عند الأمير الساماني وبدأ يستلم المناصب حتى أخذ الولاية وغيرها ثم بدأ بالانفصال عن السامانيين .

نشأة الدولة الغزنوية :

قلنا قبل قليل أن الدولة الغزنوية تعود في نشأتها إلى مؤسسها الأول سبكتكين الغـــزنوي الـــذي جندياً تحت قيادة ألبكتين ، كما أشرنا في حديثنا عن أحداث

الدولـــة الســـامانية [1] أن ألبكتين كان قائد الحرس في أيام الأمير الساماني السعيد منصور بن نوح ، ثم فكر بالانشقاق عن السامانيين ، وتآمر عليهم ، ثم هرب إلى خراسان واستقر بها ، وأنشأ قوة عسكرية لحمايته تعينه على قضاء مآربه والتعاون مع المنشقين عن الدولة السامانية ، وكان سبكتكين واحداً من جنود ألبكتين ، ثم أخذ يترقى في المناصب نتيجة لما عرف عنه من قوة وشجاعة وطاعة شديدة لأولي الأمر حتى صار واحداً من أبرز قواد العسكريين في غزنة .

ولما توفي ألبكتين حظي سبكتكيمن بحب الأمير الساماني السعيد منصور بن نـــوح واهـــتمامه وتقديره ، فولاه علي خراسان ، وولى محمود بن سيمجور على نيسابور سنة خمس وستين ومئتين للهجرة (٢٦٥ هـــ) .

وأظهـــر سبكتكين طاعة شديدة للأمير وإخلاصاً له ، وحسن إدارة وحكمة فيمن ولي عليهم فازدادت مكانته علواً وازداد نجمه سطوعاً .

ولمـــا تعرضـــت بخارى لمحنة الأتراك الأولى وغزاها بغراخان واستولى عليها وخـــرجت من يد الأمير الساماني نوح ، خرج نوح منها ، ولما علم بعودة الأتراك من بخارى نتيجة لموت قائدهم ، رجع نوح إلى بخارى واستعاد حكمه عليها ، ثم عـــلم بمـــا جرى من تآمر بعض قادته عليه وتعاونهم مع الأتراك ، لذلك استدعى سبكتكين ليستعين به في القضاء عليهم وليعينه على إدارة البلاد ، وهكذا سنحت الفرصة من جديد لهذا القائد كي يعلن طاعته ووفاءه للأمير ، وليقوم بأعمال تعلي من شأنه وتزيد من نفوذه وسلطته .

وبـــادر سبكتكين لتلبية طلب الأمير الساماني ، ونجح في المهمة التي أوكلت إليه واستطاع القضاء على قوة أبي علي بن سيمجور ، وفائق وقوات البويهيين التي

---

[1] انظر أحداث في هذا الكتاب .

ساندتهم سنة (٣٨٤ هـ) . وتتبعهم إلى نيسابور . فكافأه الأمير الساماني نوح على إخلاصه بأن ولاه على خراسان ومناطق أخرى ، وجعل قيادة جيوش نيسابور وخراسان بيد ابنه محمود بن سبكتكين . فأخذ سبكتكين الولاية وبدأ يستبد بها ، ويتوسع من خلال حكمه لها [1] ، ثم أسهم في القضاء على السامانيين واستولى على بخارى منهم وورث حكمهم وجعل البلاد حكماً وراثياً لأولاده من بعده .

أهم الأحداث في الدولة الغزنوية :

من الأحداث التي جرت مع الغزنويين وهم ما زالوا في التبعية للسامانيين ما جرى مع فائق وابن سيمجور ، فبعد هزيمتها أم جيوش الأمير الساماني والغزنويين استغلا عودة القوات إلى بلادها ، وتوجها بالقوات لمقاتلة محمود بن سبكتكين بظاهر نيسابور واستطاعا هزيمته قبل وصول العدو إليه سنة (٣٨٥ هـ) .

ولما علم سبكتكين بذلك جهز حملة وتوجه إلى نيسابور ثم لحقه ابنه محمود بجنوده وهزموا أبا علي وفائقاً ، تم القضاء على قواتها واسترداد نيسابور وغيرها من سيطرته .

ونشأت فتنة بين محمود بن سبكتكين وبين أخيه إسماعيل ، استطاع أن يفرغ منها منتصراً وأن يعيد ملك غزنة له ، ثم علم أن بكتوزون صار والياً على خراسان فطلب من الأمير منصور الساماني أن يعطيه ولاية خراسان مذكراً إياه بخدماته وإخلاصه للسامانيين ، فحاول الأمير إرضاءه بولاية ترمذ وبلخ ، فرفض ، وتوجه بقواته إلى نيسابور ، فقاتل بكتوزون وهزمه وأخرجه منها سنة (٣٨٨ هـ) ، وتملكها محمود بن سبكتكين على جيوشها .

---

[1] العبر لابن خلدون : ٤/٧٧١-٧٧٢ .

ولما علم الأمير الساماني بذلك خرج من بخارى لمناجزة محمود في نيسابور ، وتحاشى محمود الصدام مع الأمير فخرج إلى مرورذ وأقام بها . وفي هذه الأثناء تآمر من جديد بكتوزون وفائق على الأمير الساماني ، فأخذاه وسملا عينيه وولوا مكانه أخيه عبد الملك سنة (٣٩٠ هـ) .

ووصلت أخبار ما جرى إلى محمود بن سبكتكين فتوجه إلى مرو حيث لقي قوات بكتوزون وفائق (٣٩٠ هـ) ، وتفرق الجمع فذهب عبد الملك إلى بخارى بصحبة فائق وولاه على نيسابور ، وتوجه أبو القاسم بن سيجمور إلى قهستان ، وظل محمود بن سبكتكين يتتبعهم من مكان إلى آخر فتوجه إلى نيسابور ، ثم مرو فبخارى واستقر بخراسان ، وأعلن انشقاقه عن السامانيين ، وخطب للخليفة العباسي القادر .

كما استولى سبكتكين على ولاية بست بعد سقوط الدولة الصفارية وضمها إلى ملكه وكتب الولاية بعده لابنه محمود بن سبكتكين .

وكان سبكتكين محباً للإسلام مكثراً للجهاد في سبيل الله ، ولذلك بدأ يغزو بلاد الهند ويضم إليه منها كل المناطق التي يفتحها وينتصر عليها ، ولما توجه إليه ملك الهند بجمع عظيم ، وهزمه سبكتكين وأسره وأذل جيوش الهند .

قتال سبكتكين مع إيلك خان :

كنا إيلك خان قد تملك على أمم الترك بعد موت بغراخان ، وعاوده حلم سلفه في الاستيلاء على بخارى ومناطق السامانيين ، فتوجه بقواته نحو بخارى وعليها الأمير نوح ، فاستنجد نوح بسبكتكين ، فجمع جيوشه وتوجه لمساعدة الأمير نوح ولحقه ابنه محمود بن سبكتكين بمن معه ، وتزاحفت القوات ، إلا أن الأمير نوح احتفظ بقواته لحمايته ، ولم يرسلها لمساعدة سبكتكين ، وفي هذه

الأثناء توفي نوح سنة (٣٨٧ هـ) وفي هذه السنة أيضاً بعد أن انتهى الأمر بين إيلك خان وسبكتكين ، مرض سبكتكين وتوفي ودفن بغزنة .

فاجتمع الجند فبايعوا إسماعيل بن سبكتكين وهو أصغر من أخيه محمود ، وولوه أمرهم في غزنة ، فبدأ يدير البلاد ويغدق العطاء على الجنود الذين تمادوا في التطاول عليه والأخذ منه ، حتى تراجعت البلاد وضعفت هيبتها ، ونشأ خلاف بين إسماعيل وأخيه محمود ، فتوجه محمود من نيسابور بقواته يعينه عمه وأخوه نصر إلى غزنة ، ونشبت حرب شديدة بين الأخوين انهزم فيها إسماعيل بعد سبعة أشهر من حكمه (٣٨٨ هـ) ، ولكن محمود عفا عن أخيه وأشركه في الحكم ، واستقامت الأمور والبلاد لمحمود بن سبكتكين الذي لقب نفسه باسم السلطان .

ضم الغزنويين لسجستان :

كان السامانيون قد جعلوا خلف بن أحمد والياً على سجستان ، فأخذ هذا الوالي يمكن نفسه ويتقوى لينشق عن السامانيين الذين انشغلوا عنه بالتفتن الداخلية والحروب الخارجية ، وهذا ما زاد من قوته واستبداده بحكم سجستان .

وكانت أخباره ونواياه قد بلغت سبكتكين أبا محمود ، إلا أنه كان مشغولاً بالجهاد في بلاد الهند ، ولما عاد منصراً أراد تأديب هذا الوالي المستبد ، إلا أن المنية وافته دون أن يفعل ذلك .

واستمر خلف على نواياه ، وبدأ يتحالف مع ابن سيجور ، مرة ، ومع أيلك خان مرة أخرى ، ومع بفراجق أخي سبكتكين مرة ثالثة . ولما فرغ محمود بن سبكتكين مما هو فيه من حروب وقضاء على المتمردين توجه إلى خلف بقواته ، فهرب وتحصن في قلعة عالية ، فحاصره محمود حتى لاذ بالطاعة (٣٩٠ هـ) .

عند ذلك تركه محمود بن سبكتكين ، وجمع قواته من جديد وتوجه للجهاد في بـــلاد الهند ، وقاتل ملكها (جيبال) ، وانتصر عليه وفتح مناطق كثيرة في بلاد الهند ضمها إلى سلطته .

وفي غيـــاب السلطان محمود عن خلف بن أحمد أظهر الأخير زاهداً في الدنيا وترك أمر سجستان إلى ابنه طاهر بن خلف ، ثم حاول أن يسترد الملك والانقلاب عـــلى الســـلطان محمود فرفض طاهر ذلك ، فغضب أبوه واستقدمه إليه ثم قتله . وخشي قواد طاهر على أنفسهم فراسلوا السلطان محمود يعلمون بما يجري ويعلنون الطاعــــة لـــه ، فتوجه إلى خلف من جديد ، وهرب خلف ثانية وتحصن بحصن (الطاق) في جبل شاهق فحاصره محمود ثم قاتله ، ولما رأى خلف أن لا نجاة لـــه طـــلب الأمـــن وبـــذل الأمـــوال ، فعفا عنه محمود وتركه يذهب إلى الجوزجان (سنة ٣٩٣ هـــ) ليمضي بقية حياته فيها حيث مات سنة (٣٩٩ هـــ) .

ورجـــع الســـلطان محمـــود إلى غزنة بعد أن ترك أحمد الفتحي والياً على سجســـتان ، وكان أحد قواد أبيه سبكتكين . وما إن وصل محمود إلى غزنة حتى بـــلغه انقـــلاب أحمد عليه ، فوجه جيشاً بقيادة أخيه نصر بن سبكتكين ، فقاتل قـــوات الـــوالي أحمد وهزمه وأعاد فتح سجستان ليستقر ملكها بيد الغزنويين إذ أضاف السلطان محمود ولاية سجستان إلى أخيه نصر والي نيسابور .

غزو جديد للسلطان محمود إلى بلاد الهند :

بعد أن فرغ السلطان محمود من أمر سجستان عاد من جديد إلى همه القديم الـــذي بدأ به أبوه سبكتكين من قبل واستمر عليه ابنه ، وهو الجهاد في بلاد الهند وفـــتح مناطقها ، فجهز جيشاً وتوجه إلى بلاد (بـــهاطية) ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً انتصر فيه عليهم وانتحر ملكهم ، فعاد السلطان محمود عنها ، وترك فيها من يعلم

أهلها الإسلام .

وفي عودتــه أراد غزو (الملتان) وكان مضطراً للمرور بأرض (أندبال) ملك الهــند فطلب منه السماح لــه بالمرور ، فرفض ، فوجه قواته إليه ، وقاتل أنديبال ومــن معــه وهــزمه ، وفــر المــلك إلى كشمير ، ثم توجه السلطان محمود إلى الملتان وفتحها .

وتوجــه بعد ذلك إلى (كوكير) وقاتل أهلها وحاصر قواتهم مدة طويلة ، ثم صالح ملكها بعد أن علم أن قوات الترك تريد غزو خراسان .

ولما فرغ السلطان محمود من قتال أيلك خان ، عاد من جديد إلى الهند سنة (٣٩٨هــ) ، ولقيه ابن ملك الهند فهزمه وانتصر عليه ، واستولى على قلعة (هيم نقــرا) وما فيها ، ثم عاد إلى غزنة . ثم رجع السلطان محمود على رأس المئة الرابعة إلى الهند وأوقع بها ، فصالحه ملكها على جزية وشروط من السلطان .

حرب السلطان محمود مع أيلك خان :

ســلفت الإشارة إلى أن أيلك خان توجه إلى بخارى ، وبعد ذلك تم التفاهم بيــنه وبين السلطان محمود ثم زوجه ابنته ، إلا أن الحال لم يبق على ما هو عليه ، فاستغل أيلك خان خروج السلطان محمود إلى الهند ، وأرسل جنوده إلى خراسان (٣٩٠ هــ) ولما بلغ السلطان محمود هذا الخبر ترك بلاد الهند وتوجه إلى بلخ ثم مــرو فخراسان ، وبدأت قوات أيلك خان بالتراجع ، فاستعان بقريبه (قدر خان بــن بغراخان) ملك (الختل) ، فأنجده بجيش كبير بقيادته ، وتوجها إلى السلطان محمود في بلخ ، وكان قد أخذ حذره وعلم بما يجري ، ولتقى الجمعان ، واشتدت المعركة ، وكان النصر حليفاً للسلطان محمود وجيشه .

وعاد إيلك خان وفي نفسه أمور من هذه الهزيمة ، وكان أخوه (طغان خان)

يعـــتب عليه لأنه تورط في هذه المعركة ، وساءت الأمور بينهما ، وراسل طغان خـــان السلطان محمود وأخبره أنه بريء من فعل أخيه ، ولما مات أيلك خان سنة (٤٠٣ هـــ) ، وولي الأمـــر على الترك طغان خان صالح السلطان محمود وصار عوناً لــه في حروبه إلى أن مات سنة (٤٠٨ هــ) وولي أخوه أرسلان خان الذي استمر على ولائه للسلطان محمود .

وفي ســنة (٤٠٨ هــ) عاد إلى غزو الهند ، وفتح مدينة (بادين) ثم عاد إلى غزنة بما حصل عليه من غنام .

ثم توجــه بعــد ذلك إلى صاحب (تينشرة) وكان طاغياً فقاتله وانتصر عليه وعاد إلى خراسان .

ثم عــاد مــن جديــد إلى الهند بعد أن ضم إلى ملكه خوارزم ، ففي سنة (٤٠٩ هـــ) توجه إلى كشمير فدخلها منتصراً ، ثم توجه إلى قنوج وغيرها من المــناطق الهندية وهي تتساقط أمامه ويهرب ملوكها وأمراؤها ، أو يستسلمــون لـــه ويقدمــون المعــونــة والهدايا والغنائم . وبعد ذلك عاد إلى غزنة بنى فيها مدرسة ومسجداً .

ثم بــلغ السلطان محمود أن والي قنوج والملك بيدو قد خرجا عن طاعته في الهند ، فتوجه إليهما ، وفي طريقه قضى على طوائف الأفقانية من كفار الهنود ، ثم تــابع إلى بيــدو) فهزمه ، وعزز الله نصر السلطان المجاهد محمود الذي بعد ذلك النصر من جديد إلى غزنة .

وكــان للهنود صنم يسمونه (سومنات) جعلوه على شاطئ البحر يعظمونه ويجــون إليه من كل جانب ، وكانوا كلما هزموا أمام السلطان محمود أعلنوا أن هذا الصنم ساخط عليهم ولذلك هُزموا . فأراد السلطان أن يحطم كبير أصنامهم

فغادر غزنة سنة (٤١٦ هـ) متوجهاً إلى (سومنات) ، وفي طريقه كان يفتح ما لم يفتحه من مناطق الهند ، ويحطم ما فيها من أصنام ، حتى وصل إلى (سومنات) فحطمه وقتل من الهنود مقتلة عظيمة ، ثم عاد إلى غزنة سنة (٤١٧ هـ) .

ثم عاد من جديد وفتح مدينة (نرسي) وهي أعظم مدن الهند سنة (٤٢١ هـ) .

وبعد وفاة محمود وتولي ابنه مسعود الحكم انتفض ملك الهند (أحمد ينال) وعصى أمر السلطان فتوجه إليه مسعود وأعاده إلى سلطته سنة (٤٢٥ هـ) .

ولما انشغل السلطان مسعود من جديد بمقاتلة الغز والقضاء على فتنهم في خراسان وغيرها ، عاد ملك الهند أحمد ينال تكين إلى إعلان العصيان ، وتمرد على السلطان الغزنوي ، وجمع الجيش استعداداً لمقاتلة السلطان . وبلغ الخبر للسلطان مسعود ، فجمع جيشاً ضخماً وأرسله إليه سنة (٤٢٦ هـ) ، فقاتله ، ولم يستطع الثبات ، فهرب وتوجه إلى (بهاطية) ، ثم هرب إلى جزيرة انقطع فيها عنه المدد والطعام فضعف من معه ، وقتل أحمد نفسه .

استيلاء الغزنويين على باقي المناطق الشرقية :

كانت خوارزم تابعة للسامانيين يضعون فيها الولاة ، إلى أن تسلمها مأمون بن محمد ، فأعلن ولاءه للغزنويين ، وصاهر السلطان محمود الغزنوي ، ثم حاول بعض الناس الإيقاع بين السلطان والوالي ، إلى أن فسد ما بينهما ، ونشأت معركة أدت إلى هزيمة والي خوارزم ومقتله على يد بعض جنوده ، واستيلاء قوات السلطان محمود عليها .

وكانت بلاد الغور المجاورة لغزنة بيد أناس مفسدين كفرة ، يتعرضون لناس ويعتصمون بالجبال ، فقرر السلطان محمود تأديبهم وضمهم إلى سلطته ، فقاد

جيشاً سنة (٤٠١ هـ) وتوجه إليهم فهزمهم ، وغنم مغانم كثيرة وضمهم إلى سلطانه ، ثم توجه لغزو (قصران) سنة (٤٠٢ هـ) بعد أن تمرد ملكها على دفع ما يتوجب عليه ، فبادر الملك بإعلان الطاعة ودفع ما عليه ، فعاد السلطان محمود إلى عاصمته غزنة .

أما الري وبلاد الجبل فكانت تحت حكم مجد الدولة بن فخر الدولة ، وكان ضعيفاً مستهتراً ، وكانت أمه تسير البلاد ، فشغب الناس عليه وطمعوا فيه ، فكتب إلى السلطان محمود يستنجده ويستعين به على ما هو فيه ، فأرسل السلطان محمود جيشاً سنة (٤٢٠ هـ) ودخل الري وقبض على من فيها من القادة والأمراء وعلى واليها مجد الدولة ، واستولى على أموالهم .

ثم توجه إلى قزوين فملكها ، واستولى على قلاعها ، وقضى على من فيها من الباطنية والمعتزلة ، وأحرق ما فيها من كتب لهم ومن كتب الفلاسفة .

وأدرك ملك الجبل (منوجهر بن قابوس) أنه لا يقوى على مواجهة السلطان محمود ، فهرب إلى الجبال وتحصن بها ، ثم بذل المال للسلطان فرضي وعفى عنه ، وبعد موته وليها ابنه أنوشيروان بن منوجهر ، وأعلن الولاء والطاعة للسلطان محمود فأقره على ولاية الجبل وخطب له من الجبل إلى أرمينية .

وتابع مسعود بن محمود التوسع في تلك المناطق فاحتل زنجان ، وأبهر ، وأطاعه ملك أصفهان ، ثم بقي مسعود في الري والياً لأبيه .

وأشرنا من قبل إلى أيلك خان ملك الترك كان قد استولى على بخارى من السامانيين سنة (٣٩٠ هـ) ثم رجع عنها ، وبسبب الخلافات والأحقاد والأطماع بين أرسلان بن سلجوق وبين أيلك خان و تكين والأعمال العدائية التي كانوا يقومون بها ضد الغزنويين ، قرر السلطان محمود حسم هذا الأمر لمصلحته ،

فقـاد جيشاً من بلخ وتوجه به إلى بخارى سنة (٤٢٠ هـ) ، فهرب تكين ولحق بـه أيـلك خان ، ودخل السلطان محمود بخارى ، ثم بسط نفوذه على سمرقند ، وتابع إحياء الغز يقتل منهم ويفرض عليهم طاعه والجزية ، وحبس أميرهم أرسلان بـن سـلجوق ، وأجلاهم عن ضواحي بخارى ، وصار الولاة والأمراء يسيؤون معاملـتهم ويـتعدون على أموالهم وأولادهم . ولما زاد ذلك عليهم توجهت فرقة مـنهم إلى كرمان ، ثم أصفهان ، وطائفة أخرى إلى جبل بكجان عند خوارزم ، وأخذوا يفسدون كل ما وصلوا إليه .

فأرسـل السلطان محمود إلى والي أصفهان علاء الدولة كي يردهم ويقضي على تمردهم ، فلم يستطع وهزموه ، وتوجهوا إلى أذربيجان .

كمـا أمر السلطان محمود والي طوس أن يرد من توجهوا نحوه منهم ، فبدأ يحاربهم ويطاردهم نحو سنتين ، ثم جاء السلطان محمود فقضى عليهم وشردهم .

ولما استلم مسعود الحكم بعد وفاة أبيه جعل الغُزّ تحت سلطته واستخدمهم ، ولمـا اضـطر مسـعود الاتجاه إلى الهند لمقاتلة ملكها المنشق ، تمرد الغز على والي خراسـان (تاش) ، فبطش بهم وقتل أميرهم وشردهم . فتوجهوا نحو الدامغان ، ثم سمنان ، ونهبوا وخربوا كل ما مروا به في طريقهم . ولم يستطع تاش أن يوقفهم ، بـل هزموه وقتلوه ، وتوجهوا إلى الري وهزم جيش واليها أبي سهل الحمدوي ، وظلوا يتحركون في البلاد ويعيثون فيها الفساد ولا يقدر عليهم أحد حتى وصلوا إلى ما بين الموصل ، وديار بكر فأقاموا هناك .

أبرز الأحداث في زمن السلطان مسعود :

ومـن الأحداث التي جرت في عهد مسعود ما كان من أمر والي أصفهان . فقد كانت أصفهان بيد (فناخسر مجد الدولة بن بويه) ، ثم أخذها منـه السلطـان

محمود وجعل فيها ابنه (مسعود) وأنزل معه علاء الدولة بن ماكويه .

ولما خرج مسعود من أصفهان تفرد بحكمها علاء الدولة وانشق عنه ، فعاد إليه مسعود فأعادها ثانية . ولما سمع (قناخر) بوفاة السلطان محمود عاد ثانية بجمع من الديلم والأكراد واستولى على أصفهان ، ثم جاء علاء الدولة واستلمها مستغلاً وفاة السلطان محمود ، إلا أن الأمير مسعود أرسل قواده وفتحوا أصفهان وما حولها عنوة وأعادوها إلى ملك مسعود الغزنوي .

وفي سنة (٤٢٢ هـ) أرسل السلطان مسعود جنوداً لمؤازرة أبي العساكر في قتاله مع أخيه عيسى حول ملك (التيز ومكؤران وكرمان) واستطاع أبو العساكر وقوات مسعود أن يلحقوا الهزيمة بعيسى وقواته ، وخضعت لهم هذه المناطق ، فملكها أبو العساكر ، وأعلن الولاء والطاعة ، وخطب فيها للسلطان مسعود .

وفي سنة (٤٢٦ هـ) توجه السلطان مسعود إلى جرجان بعد عودته من حرب الغز ، وأعاد إلى طبرستان إلى حكمه بعد أن حاول حاكمها الانفلات والانشقاق عن مسعود .

وفي هذه السنة كان طغرلبك وأخواه الذين كانوا يقيمون في أحياء الغز في بخارى يعمل على الاستقلال والعصيان ، ونشأ خلاف بينهم وبين حاكم بخارى أدى إلى نزوجهم باتجاه خراسان ، فمروا بخوارزم ، وغدر بهم حاكمها ، فتوجهوا إلى نيسابور حيث أقاموا هناك .

ولما علم السلطان مسعود بما جرى ، جمع قواته وتوجه من غزنة إلى خراسان سنة (٤٣٠هـ) ، واسترضى بعض ملوك الخانية ، ثم شرع يلاحق العصاة والمنشقين ويقتل منهم ما استطاع ، ويستولي على أموالهم ويأخذ الغنائم ، وهم يهربون من مدينة إلى أخرى .

وظـل السـلطان مسعود يتابعهم حتى وصل إلى نيسابور سنة (٤٣١ هـ) بقصد الاستراحة لمتابعة القتال في فصل الصيف . وجرت مراسلات بين السلطان مسعود وطغرلبك لم تسفر عن اتفاق ، وظل الخلاف قائماً .

ثم أغـارت قـوات طغرلبك ومن معه من السلاجقة على قوات السلطان ، واسـتمرت الحالة بين كر وفر ، وقوات السلطان يدب فيها الهلع والتفكك نتيجة الإرهـاق مـن كثرة الأسفار والحروب ، وشعر السلطان مسعود بخطورة الموقف وتململ جنوده منه فرجع إلى غزنة في شوال (٤٣١ هـ) ، وبدأ طغرلبك بمهاجمة المناطق الغزنوية ، فتوجه إلى نيسابور واستولى عليها سنة (٤٣١هـ) وسيطر على كل ما فيها.

ثم توجـت قواته وقوات السلاجقة إلى هراة وسيطرت عليها ، ثم إلى بلخ . وفي هـذه الأثناء أرسل السلطان عساكره لمساندة ولاته في بلخ وباقي الأقاليم ، وجـرت معارك شديدة ، انهزمت فيها قوات السلاجقة . ثم أرسل السلطان ابنه مـودود بقوة جديدة من غزنة سنة (٤٣٢ هـ) توجه إلى بلخ وجرت معه عدة مناوشات .

وبعـد أن أرسـل السـلطان مسعود ابنه نحو بلخ ، جمع ما تبقى عنده من العسـاكر وتوجه إلى الهند من جديد ، ومعه أخوه محمد ، وكان القادة والناس قد ضجروا من السلطان وكثرة أسفاره وحروبه فتآمروا فيما بينهم أن يخلعوه ويولوا أخـاه محمداً . وفعلاً أثناء عبور السلطان لنهر جيحون ، انشق جماعة من الجنود ، ونهـبوا الخـزائن ، وقبضوا على السلطان ، وجاء أخوه محمد واتفق معه على أن يـتركه يعيش في إحدى القلاع بكرامة ، ورجع محمد بن محمود إلى غزنة سلطاناً عليها ، وسلم ابنه أحمد أمر الدولة .

وكـان أحمد بن محمد الغزنوي فيه هوج واضطراب ، فأضمر في نفسه أن يعتقل عمه مسعوداً واختلق حيلة ، ثم قتله . كما أن العساكر طمعت في السلطان الجديـد ، وعرفوا ضعفه ، فأخذوا بنهب الخزائن والفساد وترويع الناس وتخريب البـلاد ، واسـتمر الأمـر على هذه الحال عدة أشهر ريثما وصل الأمير مودود لقتال عمه .

مقتل السلطان محمد ومبايعة مودود :

كـان الأمير مودود بن مسعود في خراسان مع قواته التي أرسلها أبوه لمقاتلة السلاجقة ، ولما بلغه ما جرى لأبيه من عزل وقتل ، وما يجري في غزنة من شغب واضـطراب ، جمع عساكره وتوجه إلى غزنة في شعبان (٤٣٢ هـ) لقتال عمه ، ولمـا وصل لقيه عمه ، ثم انهزم أمامه ، فألقى القبض عليه وعلى ابنيه أحمد وعبد الـرحمن ، وعـلى القائد أنوش تكين البلخي وغيرهم من القادة ، ثم قتلهم جميعاً باستثناء عبد الرحمن بن محمد عفا عنه لأنه كان يحسن معاملة أبيه مسعود في القلعة في آخـر أيامه . وتسلم مودود السلطنة . وكان لمودود أخ أرسله أبوه مسعود إلى الهند وجعله أميراً عليها سنة (٤٢٦ هـ) . ولما سمع بخبر موت أبيه جمع عساكره وأخذ البيعة لنفسه وأعلن الانشقاق عن أخيه والرغبة في قتاله ، إلا أن ماله لم يدم إذ مات قبل أن يلتقي الأخوان وأصبحت السلطنة لمودود بلا منازع .

وفي هـذه الحالـة مـن الاضـطراب ثار أهل خراسان وأهل هراة وأعلنوا انشقاقهم عن ملك الغنويين .

أبرز الأحداث في زمن مودود بن مسعود :

كانت خوارزم موطناً للفتن والتآمر لذلك كانت تخرج من طاعة السلطان ثم يعيدها إليه بين الفترة والأخرى حسب قوة السلطان وأطماع ولاتها وأمرائها .

وظل الأمر كذلك حتى تسلم مودود السلطنة ، وكانت خوارزم بيد ابن عم طغرلبك في قوة من عساكره ، وقد أعلن واليها مسالمة السلطان خوفاً من قتاله .

أما خراسان فتملكها الغز واستولوا عليها ، واستولى طغرلبك على جرجان وطبرستان ، وخرجت مناطق أخرى عن السلطة الغزنوية ، فبعث السلطان مودود قسوة إلى خراسان سنة (٤٣٥ هـ) ، فلاقاها ابن واليها ألب أرسلان واقتتلوا وهزم جيش الغزنويين وعاد إلى غزنة ، فأرسل السلطان جيشاً آخر انتصر على الغز وشردهم .

وفي هذه السنة (٤٣٥ هـ) تجمع ثلاثة من ملوك الهند على قتال المسلمين ، فجمع قائد عسكر المسلمين هناك قوته ، وسانده السلطان مودود بقوة جديدة ومدد من غزنة ، واستطاع أن يهزمهم ويستولي على أملاكهم .

واستمرت الأحداث في زمن مودود حتى توفي سنة (٤٤١ هـ) ، فانتقل الأمر إلى ابنه ، الذي لم يحكم سوى خمسة أيام ، وطرد بعدها ، وبايع الناس والقادة عمه عبد الرشيد .

وفي هذه الأثناء تمت سيطرة السلاجقة على خراسان .

وكان الأمير مودود قد جعل سجستان تت سلطة صديقه وحاجبه طغرل ، ولما ولي عبد الرشيد أشار طغرلبك عليه أن يستعيد سجستان ، فكلفه بذلك ، وتحركت العساكر ، واستطاع طغرلبك أن يهزم الجيوش المنشقة ، وأن يستولي على سجستان ، وكتب إلى السلطان عبد الرشيد بذلك ، وطلب منه الإذن والمدد لغزو خراسان . فأمده السلطان بالعساكر ، إلا أن طغرلبك حدثته نفسه بتولي السلطة ، فتوجه إلى غزنة وأسقط سلطانه عبد الرشيد ثم حاصره في قلعته ، ثم أمسك به وقتله ، وتزوج ابنته .

Damascus University

وفي هـذه الفترة كان على الهند أمير اسمه (خرخيز) ، ولما سمع بما جرى في غزنة أغضبه ذلك ، وأنكر على أهلها سكوتهم على طغرلبك ، وكاتبهم وحرضهم ووعدهم بالمساعدة ، فسمعوا ودخلوا على مجلس طغرلبك وقتلوه .

وبعـد خمسة أيام من مقتل طغرلبك وصل خرخيز إلى غزنة ، وجمع القواد وأعيـان البـلد وبايع (فرخاذ بن مسعود) سلطاناً على غزنة ، وأعانه على تدبير الدولة ، وجعل نفسه تحت تصرفه .

فلما علم داوود أخو طغرلبك ما جرى لأخيه ، وكان على خراسان ، جمع جيشاً توجه به إلى غزنة ، فخرج له خرخيز وقاتله وهزمه .

ثم حـاول خرخيـز اسـتعادة خراسان فجهز جيشاً واتجه إليها ، وكثرت المناوشات والحروب حول هذه المدينة وغيرها .

وبـدأت قوة الغزنويين تضعقف بينما كانت قوة المنشقين تزداد قوة ، وقد اغتـنم ألب أرسلان الفرصة وجهز قوة ، وبدأ يسيطر على المناطق المحيطة بها ، ثم وصل إلى غزنة وفتحها وجعل عليها (شهاب الدين الغوري) الذي حكمها بشيء من العدل وحسن السيرة ، وامتد نفوذه إلى الهند ، فأرسل جيشاً لقتال خسروشاه سـنة (٤٧٩ هـ) ، واستطاع أن يقضي عليه ، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية بسقوط آخر ولاتها بعد أن سقطت عاصمتها غزنة .

الملامح الحضارية في الدولة الغزنوية :

ومـن تسلسـل الأحـداث نستطيع القول : إن الدولة الغزنوية في بدايتها دولـة عسكرية قامت على القوة ، وقد ولي الأمر فيها عدد من الولاة والسلاطين الذيـن عـرفوا بشـجاعتهم وفروسـيتهم ، وإلى جـانب القوة برزت ملامح حضارية كثيرة .

فقد لاحظنا أن السلاطين الغزنويين اعتنوا ببناء دولتهم ، ولذلك أظهروا في البداية الطاعة والولاء للأمراء السامانيين معلنين بذلك عن رغبتهم في البقاء تحت سلطتهم في دولة واحدة ، ولما استحال ذلك أعلنوا قيام دولتهم .

واستطاع الغزنويين خلال قرنين من الزمن أن يبسطوا نفوذهم ويثبتوا دعائم ملكهم ، ويقضوا على حركات التآمر والانشقاق .

وفي أثناء ذلك كانت لهم عناية فائقة بعمارة المدن ، وقد لاحظنا السلاطين يبنون البيوت والأسواق والمساجد والمدارس ، ويحثون قادتهم على البناء والعمران حتى توسعت عاصمتهم غزنة ، وصارت ملاذاً للتجار والعلماء .

كما أن العلم والعلماء كان ضمن الاهتمامات المميزة للسلاطين الغزنويين ، وقد رأينا السلطان محمود بن سبكتكين ينشئ مسجداً ، ويستقدم إليه الكتب من أنحاء الدولة وغيرها ، وينفق عليه وعلى طلبة العلم فيه . وكذلك كان يستقدم العلماء والأطباء والأدباء والشعراء إليه ويغدق عليهم العطاءات والهدايا ، فازدهر في زمنه العلم وانتشر بين الناس وأحسن العلماء بهذه العناية فزاد نشاطهم وإنتاجهم .

واستمر الحال كذلك في عهد السلطان مسعود الذي كان كأبيه محباً للعلم وأهله ولم يعرف عن السلاطين الغزنويين غير حبهم للعلم وأهله ، إضافة إلى قوتهم وسعيهم الحثيث في الجهاد .

ولذلك نستطيع القول أن الدولة الغزنوية قد أعطت زخماً جديداً للحركة العلمية والثقافية والتجارية وحركة البنيان في شرق الخلافة الإسلامية ، مما أسهم في استمرار تقدم هذه الحركة على الرغم من كثرة الحروب فيها .

سلاطين الدولة الغزنوية :

١- سبكتكين :

كان سبكتكين مملوكاً تركياً من مماليك (ألبكتين) أحد قادة الدولة السامانية ثم أخذ يترقى في الوظائف ، وعرف منه أنه ذو عقل راجح ورأي سديد ، وشجاعة نادرة وهذا ما جعله يبرز ويشتهر بين الناس وتعلو مترلته عند القادة .

ولما استقر ألبكتين في غزنة قرَّب سبكتكين إليه ، ولما مات ألبكتين لم يخلف أحداً وراءه للملك فاستقر رأي العسكر على تولية سبكتكين على قيادتهم في غزنة لحسن سيرته ونبل أخلاقه .

ولاحظنا أن سبكتكين بدأ بالطاعة والولاء والمساندة للسامانيين ، إضافة إلى حبه للجهاد في بلاد الهند ، وقد أمضى حياته كلها على هذا المنوال ، وهو مؤسس الدولة الغزنوية .

توفي سبكتكين سنة (٣٨٧ هـ) ودفنا بغزنة . وكان عادلاً كريماً محافظاً على الوفاء والطاعة ، شديد الحرص على الجهاد في سبيل الله .

وكان قبل وفاته قد جعل الخلافة بعده لابنه الصغير إسماعيل .

٢- إسماعيل بن سبكتكين :

هو الابن الأصغر لسبكتكين ، وكان أبوه قد كتب العهد له بعد وفاته ، فكان ذلك ، وبايعه جنود غزنة في البدء ، ثم أخذوا يلحون عليه في الطلب ويملون عليه رغباته ، فاضطر أن يرضهم ويكثر العطاءات لهم حتى نفدت أموال الخزينة ، واضطرب أمر البلاد ، فتوجه إليه أخوه محمود ، وقاتله ثم حاصره ، وأخذ الملك ولكنه أشركه معه في الحكم ، وأبقاه معيناً له في تدبير الأمور وقيادة الجند .

ولم تدم ولاية إسماعيل بن سبكتكين أكثر من سبعة أشهر .

٣- محمود بن سبكتكين :

هو المؤسس الفعلي للدولة الغزنوية ، وهو أكبر أولاد سبكتكين . قاد الجيوش في زمن أبيه ، وكان عوناً له وللدولة السامانية في محاربة المنشقين وتأديب الخارجين عن الطاعة والمتآمرين ، وقاد عدة حملات لجهاد الهند في زمن أبيه ، وكان أولى بالولاية من أخيه ، إلا أن أباه كتبها لأخيه الصغير إسماعيل ، ثم أخذ الحكم منه وبدأ يتوسع في المناطق المجاورة له ويبسط نفوذه حتى صار أقوى سلطان وأعظم قوة في منطقته .

وهو أول من تلقب بلقب (السلطان) ، وكان يطلق عليه أيضاً لقب (محطم الأصنام) لكثرة الأصنام وبيوت العبادة التي حطمها وخربها في بلاد الهند وغيرها كما لقب بـ (الغازي) لكثرة مجاهدته الكفار في الهند وما حولها .

كان محمود فارساً قوياً وشجاعاً مقداماً وحكيماً مدبراً ، حسن السيرة ، نبيل الأخلاق ، كثير الحروب والفتوحات والانتصارات .

وكان السلطان محمود حريصاً على تطبيق شعائر الإسلام ، ولذلك لما أراد الاستقرار في غزنة بعد جهاده في الهند بنى فيها مسجداً جامعاً ، واعتنى ببنائه ، فجلب الرخام من الهند ، وفرشه بالمرمر ، وزينه بالذهب ، وأشرف على بنائه بنفسه .كما بنى أمام بيته مقصورة تتسع لثلاثة آلاف رجل .

وبنى إلى جانب المسجد مدرسة استقدم إليها العلماء والكتب من كل مكان فحوت كتباً كثيرة ، وأجرت الأرزاق فيها على الطلاب والمدرسين .

كما أمر قادته بالبناء حول المدرسة والمسجد ، حتى اتسعت المدينة وكثر بنائها وعظم شأنها ، فكانت غزنة في زمنه تحتوي " على مربط ألف فيل " .

وكان السلطان محمود محباً للعلم والعلماء ، مكرماً لأهل العلم ، شديداً على

المـــارقين والمنشقين محباً للجهاد ، بطش بالباطنية ، ونفى أهل الاعتزال ، وأحرق كـــتب الفلسفة والنجوم التي تثير شكوك الناس وتضعف العقيدة والإيمان ، وجمع غـــير ذلـــك مـــن الكتب الكثير أكثر من مئة حمل . ولذلك كان بيته محط أنظار العلماء الذين قصدوه من سائر الأقطار .

واتصـــف السـلطان محمود بالشجاعة ، والقوة ، والعدل ، والرفق بالرعية والإحسان لهم ، وكثرة الغزو والجهاد .

تـــوفي سنة (٤٢١ هـــ) وقبل وفاته كتب وصية لابنه محمد بالحكم ،و هو أصغر من ابنه مسعود ، فوقع فيما وقع فيها أبوه من قبل .

٤- محمد بن محمود بن سبكتكين :

استلم الحكم بعد موت أبيه سنة (٤٢١ هـــ) ، وهو أصغر من أخيه مسعود إلا أن أبـــاه كان مقبلاً عليه ومحباً له ، ووصل إلى غزنة بعد أربعين يوماً من وفاة أبيه ، فاستلمها وأطاعه الناس والجند ، وخُطب له من أقاصي الهند إلى نيسابور .

إلا أن الأمـــر لم يـــدم له إلا بضعة أشهر ، حيث توجه إليه أخوه مسعود ، وأقصـــاه عـــن الحكم واستلم الأمر بنفسه ، وبايعه قادة الجند ، وحبس أخاه في قلعة (بكياباد) .

ثم أن السـلطان مسعود استعان بأخيه محمد ، ورافقه في بعض غزواته . ولما كان الناس قد ضجروا من السلطان مسعود لكثرة حروبه وغزواته قرروا الانقلاب عـــليه وتوليـــة أخيه محمد ، وكان ذلك لما توجه السلطان مسعود من غزنة لغزو الهـــند ، فانقلـــبوا عـــليه ، وأمسكوا به ، وبايعو أخاه محمداً ، فتسلم السلطة ، وأرســـل أخـــاه مسعوداً إلى إحدى القلاع ليقيم فيها ، وكان ذلك في أوائل سنة (٤٣٢ هـــ) .

ولم تدم مدة حكم هذا السلطان كثيراً ، إذ قام مودود بن مسعود بجمع أصحابه والموالين لأبيه ، وتوجه لمقاتلة عمه ، واستطاع أن يهزمه ويقتله ويقتل قواده ، وبذلك انتهت حياة محمد وحكمه في أواخر سنة (٤٣٢هـ) ، واستلم الحكم مودود .

٥- مسعود بن محمود بن سبكتكين :

استلم الحكم بعد إقصاء أخيه محمد في أواخر سنة (٤٢١ هـ) ، ووصل إلى غزنة في منتصف سنة (٤٢٢ هـ) ، ووفدت عليه رسل الملوك والأمراء من جميع المناطق بالتهنئة والهدايا ، وملك البلاد وعظم شأنه وسلطانه ، وتابع ما كان عليه جده وأبوه من أعمال وفتوحات لترسيخ دعائم الدولة الغزنوية وإعلاء شأنها وزيادة قوتها وهيبتها .

" وكان السلطان مسعود شجاعاً كريماً غزير الفضل ، حسن الخط ، سخياً محباً للعلماء ، مقرباً لهم ، محسناً إليهم وإلى غيرهم من ذوي الحاجات ، كثير الصلات والعطاء والجوائز للشعراء ، حليت تصانيف العوم باسمه ، وكثرت المساجد في البلاد بعمارته . وكان ملكه فسيحاً ، ملك أصفهان وهمذان والري وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وبلاد الداورن وكرمان وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور ، وأطاعه أهل البر والبحر " [1] .

وقتل السلطان مسعود على يد ابن أخيه ، بعد أن عُزل عن الملك وأقام في قلعة (كيدي) سنة (٤٣٢ هـ) .

٦- مودود بن مسعود :

تسلم السلطة بعد أن ثار على محمد ، وتابع مسيرة أبيه في إرسال الجيوش

---

[1] العبر لابن خلدون : ٨٢٣/٤ .

للفتح ومحاربة العصاة والمنشقين لتثبيت دعائم السلطنة ، وكان قوياً شجاعاً عادلاً.

توفي سنة (٤٤١ هـ) بغزنة وولي الأمير بعده عمه عبد الرشيد .

٧- عبد الرشيد :

تسلم أمر السلطنة الغزنوية بعد وفاة السلطان مودود بن مسعود ، وكان الأمر قد انتقل إلى ابن مودود خمسة أيام فقط ثم بايع الناس عبد الرشيد فجاء وتسلم غزنة ولقب نفسه (سيف الدولة) وقيل ليقب (جمال الدولة) . وفي زمنه استقرت خراسان بيد السلاجقة .

وقد تآمر طغرلبك عليه ، وتوجه إليه في غزنة ، ثم حاصره وقتله وتولى الأمر بعده وتزوج ابنته كرها .

٨- فرخاد بن مسعود :

بعد أن اتفق الناس وأمير الهند على مناهضة طغرلبك ، قتلوه ، وجاء خرخيز ملك الهند إلى غزنة ، وجمع القادة وأهل الري ، وبايعوا فرخاد بن مسعود أميراً على غزنة .

Damascus University

الدولة القرخانية

تعـد الدولة القرخانية الوريث الذي ورث حكم السامانيين ، ثم الغزنويين . فقـد نشـأت هـذه الدولـة نحو سنة (٣٨٢ هـ) واستمرت حتى أوائل القرن السـابع الهجـري (٦٠٧ هـ) ، والقرخانيون هم الذين أضعفوا السامانيين ثم اسـتولوا على عاصمتهم بخارى ، وقضوا على دولتهم ، ثم كانت لهم أحداث مع الدولة الغزنوية .

أصل القراخانيين :

القـرخانيون هـم الأتراك ، ولا يكاد أحد يعرف نسبهم الحقيقي إلى أين ينـتهي، وإن كـان أفـرادهم يدعـون أنهم " من نسل أفراسياب البطل التركي الأسـطوري للشاهنامة ، ولكن يبدو أنهم كانوا في الواقع عبارة عن البيت الحاكم لإحـدى المجموعات التركية المعروفة باسم القرلق ، وهي مجموعة قد قامت بدور هام ومؤثر في التاريخ القديم للترك سكان السهوب " [١] .

وقـال ابن خلدون : " كان هؤلاء الترك ملوك تركستان ، ولا أدري أولية أمرهم بها " [٢] .

---

[1] تاريخ الدولة العربية : د. كار : ٤٦ .

[2] العبر : ٨٣١/٤ .

وكـــان ملوك الترك يلقبون باسم (أيلك خان) ، ولذلك كانوا يعرفون باسم الأيـــلك خانية ، " ولكن بما أن الكثر من أفراد هذه الأسرة استعملوا كلمة (قره) الـــتي تعـــني أســـود أو شديد القوة ، رديفاً لأسمائهم فقد أطلق المستشرقون اسم القراخانية على هذه الأسرة ، وهكذا فإن اسم القراخانية إذاً هو اسم محدث بديل لأيلك خانية " [1] .

وقد اعتنقت هذه الأسرة الإسلام في زمن متأخر ، وفي أواسط القرن الرابع الهجـــري العاشر الميلادي ، وتلقب ملوكها بألقاب إسلامية ، واستبدلوا أسماءهم بأسماء إسلامية ، " ويظهر أن بغراخان جد فاتح بخارى هو أول من اعتنق الإسلام وتســـمى باســـم (عبد الكريم) " [2] . وفي تاريخ ابن خلدون " أن أول من أسلم مـــنهم (ســـبق قراخان) وتسمى عبد الملك ، وكانت له تركستان ... ولما أسلم مـــلكهم عـــبد الكريم سبق أقام على ملكه بتلك الناحية ، وكان يطيع بني سامان هو وعقبه " [3] .

نشأة الدولة القراخانية وأبرز أحداثها :

أشـــرنا إلى أن القراخانيين هم ملوك الترك المجاورين للدولة السامانية ، وبدأ أمرهم عندما بدأ ولاة السامانيين يتآمرون للانشقاق عن الدولة السامانية منذ عهد الأمير نوح بن منصور ، فلما انتقض أبو علي بن سيمجور على الأمير نوح راسل مـــلك الترك بغراخان ، وحسّن لـــه غزو بخارى ، وأطمعه فيها ، وأعلمه بضعف أمـــرائها السامانيين ، فاقتنع بغراخان بذلك ، وبدأ يستولي على ملك السامانيين شيئاً فشيئاً ، فوجه الأمير نوح جيشاً لرده ، إلا أن بغراخان هزم جيش السامانيين

---

[1] تاريخ الدولة العربية : د. زكار : ٤٦ :

[2] المصدر السابق .

[3] العبر : ٨٣١/٤-٨٣٢ .

ولكن بغراخان ملك الترك مرض في طريقه إلى بخارى فغادرها عائداً إلى بلاده ، ثم عاجلته المنية ومات سنة (٣٨٢ هـ) ، فعاد الأمير نوح إلى بخارى أميراً ، وكان ذلك بداية تحرك القراخانيين نحو السامانيين .

ولما توفي بغراخان وليس الأمر بعده أخوه أيلك خان سليمان ، وتلقب باسم (شهير الدولة) ، وبدأ يثبت قواعد ملكه في تركستان وما حولها ، ويقوي جيشه ، ويعد العدة للانطلاق والتوسع ، وقد جاءه بعض قواد السامانيين من جديد يحرضون على غزو السامانيين ، وفي مقدمة هؤلاء (فائق) . وكانت الأحداث والاضطرابات تتوالى في بخارى عاصمة السامانيين وما حولها ، فقد استدعى الأمير نوح مولاه في غزنة سبكتكين مستعيناً به واختلف بعض قادته سنة (٣٨٥ هـ) ، ثم مات سبكتكين ، واتفق القادة وخلعوا الأمير وسملوا عينيه سنة (٣٨٩ هـ) ، وكل هذه الأمور تجري على مرأى من أيلك خان ومسمع منه ، فوجد الفرصة سانحة لمعاودة الهجوم على بخارى وتوسيع ملكه ، واتخذ نصرة أمير بخارى عبد الملك ومساعدته حجة له ، وجمع قواته وتوجه إلى بخارى فوصلها أواخر سنة (٣٨٩ هـ) ودخلها ، ثم أخذ أميرها عبد الملك وحبسه ، وبقي في محبسه حتى مات كدراً . كما حبس بقية إخوته وأقربائه من الأمراء السامانيين ، فقضى بذلك على الدولة السامانية وبسط نفوذه على بخارى وما حولها .

إلا أن الأمير الساماني (إسماعيل بن نوح) استطاع الهرب من محبسه سنة (٣٩٠ هـ) وتوجه إلى خوارزم[1] وجمع حوله بقايا السامانيين ومن يواليهم ثم توجه إلى بخارى وهزم من فيها من عساكر أيلك خان وهربوا أمامه فلحقهم ، فلقيه أيلك خان بجمع من جنوده ، واستمر الحال بين قتال وانتقال من مدينة إلى

---

[1] الكامل لابن الأثير : ١٥٦/٩ .

أخـــرى حتى سنة (٣٩٣ هـــ) حيث التقى أيلك خان من جديد مع إسماعيل بن نوح ومن معه من الترك الغزية ، فالهزم أيلك خان ، ثم الهزم أيلك خان ثانية أمامه سـنة (٣٩٤ هـــ) في سمرقند فتراجع أيلك خان وجمع الأتراك وتوجه من جديد إلى إسمـاعيل بـن نوح ، فالتقى الجمعان في (أشروسنة) ، والهزم الأمير الساماني وسار في الآفاق ، وتآمر الناس عليه وقتلوه .

قتال أيلك خان مع الغزنويين :

كـانت قـد انعقـدت معاهدة بين أيلك خان وأمير الغزنويين محمود بن سبكتكين ، إلا أن الناس أوقعوا بينهم ، وبدأ أيلك خان ينتظر الفرصة للانقضاض عـلى الغـزنويين ، وسنحت لـه الفرصة سنة (٣٩٦ هـــ) عندما توجه محمود الغـزنوي إلى إحـدى غزاوته في الهند ، فأرسل أيلك خان جيشاً إلى خراسان ، وآخـر إلى بلخ ، فتراجع قواد الغزنويين إلى غزنة ، وبلغ الخبر محمود الغزنوي ، فعاد إلى غزنة ، وجمع الجنود من جديد ، وتوجه لمقاتلة الأتراك ، فهزمهم ، تتبعهم إلى بـلخ ، فـترمذ ، وهـراة ، وأبيورد ، وجرجان ، ثم خراسان ، وملك كل هذه البلاد .

ولم يسـكت أيلك خان على ما أصابه من الغزنويين ، فراسل قدر خان بن بغراخان ملك الختن سنة (٣٩٧ هـــ) واستنجده ، فأمده بجيش كبير ، وتوجه من جديـد نحـو خراسان ، فسبقه إليها محمود بن سبكتكين ، وحشد فيها قواته ، والتقت القوات وجرت معركة شديدة الهزم فيها أيلك خان وقدر خان .

وكان أيلك خان قد ولّى أخاه طغان خان على إحدى المدن ، ولما بلغ طغان خان أخبار القتال بين أخيه والغزنويين ، أرسل إلى أمير غزنة يعتذر له عما بدر من أخيه أيلك خان وينتصل منه ، فغضب أيلك خان وأرسل جيشاً لمقاتلة أخيه سنة

(٤٠١ هـ) ، إلا أن الثلوج الكثيرة منعته من الوصول إليه [١] .

وتوفي أيلك خان سنة (٤٠٣ هـ) ، فولي بعده أخوه طغان خان ، وتصالح مع سلطان الغزنويين ، وهدأت الأحوال قليلاً . وتوجهت جهود القراخانيين لمقاتلة الأتراك الذين جاؤوا من الصين .

ومات الملك طغان خان سنة (٤٠٨ هـ) وولي أخوه أرسلان خان .

ولما تسلم الملك أرسلان خان بعد موت أخيه طغان خان ، خاف أمير سمرقند التركي يوسف بغراخان هارون بن سليمان ، فبعث إلى أمير الغزنويين يستنجده ، فأرسل إليه جيشاً وأعانه على أرسلان سنة (٤٠٨ هـ) .

ولكن يوسف اصطلح مع أرسلان خان ، واتفقا على قتال الغزنويين ، فالتقى الجيشان وانهزم الترك أمام الغزنويين من جديد .

أحداث أخرى في الدولة القراخانية :

كان أحد ولاة الدولة القراخانية ويدعى (قراخان) وقد ولي بلاد الترك في تركستان وساغون [٢] ، وقام بعدة فتوحات في الصين ، وبقي حتى وفاته سنة (٤٢٣ هـ) . وخلف بعد وفاته ثلاثة أولاد (أبو شجاع أرسلان خان ، وبغراخان ، وشرف الدولة) ، وقد ولّى أبناءه على المناطق التي كانت تابعة له ، فوقعت فتنة بين الأخوين أرسلان خان وبغراخان ، انتصر فيها بغراخان على أخيه وتولى البلاد بنفسه ، ثم عهد بالملك لولده الأكبر (حسين جعفر تكين بن بغراخان) فغضبت زوجته لأنها كانت تريد أن يكون الملك لولدها الأصغر (إبراهيم) ، فقتلت بغراخان بالسم ، وخنقت أخاه أرسلان في سجنه ، وملّكت

---

(1) الكامل : ٢٢٢/٩ .

(2) العبر : ٨٣٧/٤ وما بعدها .

ابنها إبراهيم سنة (٤٣٩ هـ) ، ولكن ملكه لم يدم طويلاً ، لأنه أراد محاربة ملك تركستان (نيال تكين) ، فهزمه (ينال) وقتله . وكان الخلاف مستفحلاً بين أولاد بغراخان ، فتوجه والي سمرقند (طقفاج خان) وأخذ الملك منهم .

وقام طقفاج خان ثم أولاده من بعده بالسيطرة على كثير من المناطق ، وجرت حروب وأحداث كثيرة ، وكانت الأمور تهدأ حيناً وتضطرب أحياناً ، إلى أن استقرت الأمور واستقامت للسلطان ملكشاه الذي أخذ يضم المناطق إليه ، فسار إلى ترمذ وضمها سنة (٤٦٦ هـ) ، ثم سار إلى سمرقند ، ثم عاد إلى خراسان [١] .

وفي هذه الأثناء كان الملك ينتقل من والٍ إلى آخر من القراخانية إلى أن وصل طغراخان بن يوسف قدرخان إلى الحكم واستمر به نحو ست عشرة سنة [٢] . وولي بعده ابنه طغرل تكين شهرين فقط ، وجاء بعده هارون بغراخان بن طقفاج نوراخان واستمر حكمه عشرين سنة ، حيث توفي سنة (٤٩٦ هـ) [٣] .

نهاية الدولة القراخانية [٤] :

في أواخر القرن الخامس الهجري كانت الدولة القراخانية قد أنهكتها الحروب والفتن والانشقاقات والدسائس . كما أن الولاة القراخانيون قد استعانوا بالترك القارغالية والغز ، فقويت شوكة هؤلاء وأخذوا يهددون القراخانيين ويتجرؤون عليهم ولاسيما بعدما قتل أرسلان ابنه نصرخان وأحد القادة واسه (محمد بن أبي شجاع) لأنهما تآمرا على أرسلان سنة (٥٢٤ هـ) .

---

(1) العبر : ٤/٨٣٩-٨٤١ .

(2) العبر : ٤/٨٤١-٨٤٢ .

(3) العبر : ٤/٨٤٢ .

(4) ينظر العبر : ٤/٨٤٥-٨٤٩ .

وكـــان مـــلك الصين (كوخان) قد طمع بأملاك القراخانيين وتوجه إليهم بجيش كثيف انضم سنة (٥٢٢ هـــ) إليه طوائف من الترك (الخطا) ، ووصل إلى كاشغر ةغيرها ، ولما رجع ملك الصين استمر الترك (الخطا) في محاربة القراخانيين وأخذوا يستولون على المدن واحدة بعد الأخرى ، ووصلوا إلى ما وراء النهر سنة (٥٣١ هـــــ) وعليها محمود خان بن أرسلان خان ، فهزموه ، وهرب إلى سمرقند وبخـــارى ، واستنجد بمن حوله من الولاة ، وجمع الجموع واستعد لملاقاة (الخطا) من جديد ، ولقيهم سنة (٥٣٥ هـــ) ، وكان القارغلية قد استنجدوا بملك الصين فأرسل قواته ، والتقى جيش القراخانيين وعليه محمود خان وسنجر وجيش الصين وفيـــه ترك (الخطا) والقارغلية ، سنة (٥٣٦ هـــ) ، ونشبت معركة قوية شديدة هزم فيها جيش القراخانيين وسيطر على البلاد ملوك ترك (الخطا) . وبذلك انتهت الدولة القراخانية .

أبرز ملوك الدولة القراخانية :

١- بغراخان :

كـــان بغراخان ملكاً على الترك في المناطق الشمالية والشرقية المحاذية لدولة السامانيين ، وكان ملكه في أيام نوح بن منصور ملك السامانيين في بخارى . وقد حاول بعض ولاة السامانيين وعلى رأسهم (أبو علي سيمجور) التآمر مع بغراخان ضـــد السامانيين ، ومنذ ذلك العهد بدأ تطلع القراخانيين إلى الاستيلاء على بلاد الســـامانيين ، وقد قام بغراخان بحملة ضد السامانيين ، إلا أن المنية عاجلته فمات سنة (٣٨٣ هـــ) . قال ابن خلدون : " وكان ديناً فاضلاً محباً للعلماء وأهل الدين مكرماً لهم ، متشيعاً ، وكان موالياً لآل رسول الله ﷺ " [1] .

---

[1] العبر : ٤/٨٣٢-٨٣٣ .

٢- أيلك خان :

هـــو أيلك خان بن سليمان شهير الدولة ، أخو بغراخان ، تسلم الملك بعد أخيـــه سنة (٣٨٣ هـــ) واستقام له ملك تركستان ، ثم توجه إلى بخارى طمعاً في ملك السامانيين سنة (٣٨٩ هـــ) ، وكان سبباً في انقراض الدولة السامانية .

واســـتمر مـــلك أيلك خان حتى سنة (٤٠٣ هـــ) حيث توفي بعد أن قام بحروب كثيرة وتحالفات مع الغزنويين [١] .

٣- طغان خان :

هو أخو أيلك خان ، تسلم الملك بعده واستمر حتى وفاته سنة (٤٠٨ هـــ) وكانت له حروب متميزة ضد الترك الذين جاؤوا من الصين بأعداد هائلة . قال ابن خلدون : " وكان محباً لأهل العلم والدين " [٢] .

٤- قراخان يوسف بن بغراخان :

ولي سمرقند في زمن أرسلان خان ، ثم انتفض على أرسلان سنة (٤٠٩ هـــ) وملك تركستان وساغوت ، واستمر في الحكم حتى وفاته سنة (٤٢٣ هـــ) . وكان عادلاً حسن السيرة بين الناس ، كثير الجهاد [٣] .

---

[1] العبر : ٤/٨٣٢-٨٣٦ ، والكامل لابن الأثير : ٩/٢٤٠ .

[2] العبر : ٤/ ٨٣٦ ، والكامل لابن الأثير : ٩/٢٤٠ و ٢٩٧ .

[3] العبر : ٤/٨٣٧-٨٣٨ .

ب ـــ دول بلاد الشام والجزيرة

أحوال بلاد الشام :

الشـــام عند الجغرافيين العرب هو صقع يحده من الشرق الفرات ومن الغرب الـــبحر المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ، ومن الشمال الثغور مــع بيـــزنطة التي تتوغل طويلاً حتى ما بعد طرسوس في تركيا اليوم ، وقد جعل العرب المسلمون ، بعد فتحهم للشام ، هذه البلاد خمسة أجزاء أو مناطق عسكرية أطـــلق على كل منطقة منها اسم جند ، وهي جند فلسطين ، و جند الأردن ، و جـــند دمشق ، و جند حمص ، و جند قنسرين ، ومن حيث الواقع العلمي كان عمر هذا التقسيم قصيراً واستمر نظرياً ليس أكثر [1] .

ســـكن الشـــام قبل قيام الفتوحات الإسلامية عدد من القبائل العربية كان أكـــثرها ـــ تبعاً لروايات النسابين العرب ـــ منحدراً من أصل يماني ، ومن أشهر هـــذه القـــبائل قبيلة كلب ، ولقد استقرت كلب في جنوب بلاد الشام وكان لها دورهـــا الـــبالغ الأهمية في العصر الأموي ، كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القـــبائل إلى شمال بلاد الشام ، ولقد كانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال مـــن أصل قيسي ، وكان أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة (٦٤ هـــ ـــ

---

[1] صـــورة الأرض لابـــن حوقـــل ، ١٥٣ ، الأعلاق النفسية ١٠٢ ، مختصر كتاب البلدان (٩١-٩٢) ، الاصطخري : ٤٢ ، أحسن التقاسيم : ١٨٦، معجم البلدان ، مادة شام .

٦٨٣ م) بعـد وفاة الخليفة الأموي ، يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس بقوى كلب ، ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط ، ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن ، وكانت قبيلة كلاب أكـبر القـبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فر زعيمها زفر بن الحـارث شمـالاً واعتصـم في قرقيسيا (البصيرة في سورية حيث يلتقي بالخابور بالفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم خليفة مروان أن يقسره على مثل هذا الاعـتراف [1] ، ولعـل مـن أهم نتائج هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام إلى قسـمين : شمـالي تسكنه القبائل القيسية وبخاصة كلاب وتسيطر عليه ، وجنوبي تسـكنه القـبائل اليمانية وبخاصة كلب وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة دارين ، دار بني كلب في الجنوب ودار بني كلاب في الشمال وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة تقع جنوب حمص وغالباً ما كانت عند الرستن على نـهر العاصي .

لقـد كـانت كـلاب كما ذكرنا قبيلة قيسية وكلب يمانية وتبعاً للنسابين العـرب، انحدر العرب من أبوين : واحد جنوبي وآخر شمالي . ومن العجيب أن تقطـن القبائل الشمالية شمال بلاد الشام ، ومتبعين بذلك نمط التقسيم الذي كان موجـوداً في الجزيـرة العـربية ـــ الوطن الأم ـــ قبل الإسلام . ويتساءل المرء ، أحـدث هذا بعامل الصدفة ، أم تم عن قصد وعمد ، أم أن القضية كلها عبارة عن جزء من أسطورة الأنساب العربية المخترعة ؟ .

إن قضـية الأنساب العربية مع تشكل القبائل العربية قبل الإسلام وتأثر هذا التشـكل بالهجـرة بعـد الفتوحات الإسلامية بحاجة إلى دراسة علمية في ضوء

---

[1] انظر تاريخ خليفة : ٣٢٦/١ ، الطبري : ٥/٥٤٠-٥٤٢ .

Damascus University

الدراســات الاجتماعية الحديثة وقوانينها ، إنما يبدو أن من الأنساب التي ساعدت عــلى تركيــز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد الشام واستقروا في جنوبها قبل الفتوحات الإسلامية ، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه إلى الشام عن طريق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام .

المهم أننا لن نسمع بعد معركة مرج راهط بسكن أية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام والعكس صحيح أيضاً ، ومع مرور الزمن عدت قبيلة كلاب شمال بلاد الشــام دياراً لها وعدّت أي تحرك قبلي من الجنوب عملاً عدائياً موجهاً ضدها ، ويــلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما أقام الكلابيون الدولــة المرادســية في حلب ، فقد دخلت الدولة المرادسية في صراع مستمر مع الخلافــة الفاطمية ، واستعان الفاطميون دائماً بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب ، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية ، لأن جنودها كانوا كلبيين وليس لسبب حماية حلب فقط . ويمكن إيجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصينة ، شاعر المرادسيين ، وفي ما عمله المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي حينما أرسل من القاهرة في سنة (٤٤٨ هـــ / ١٠٥٦م) لمساعدة الاسيري في ثورته ، فبعدما وصل المؤيد في الدين إلى دمشق جاءته التعليمات من الوزير في القاهرة بتجنيد قوة كلــبية واصطحابــها معه والتوجه شمالاً إلى حلب ومنها إلى الرحبة ، حيث كان البساســيري ، ولقد تجاهل المؤيد أوامر القاهرة وأرسل ثمال بن صالح أمير حلب ليســمح له بدخول أراضيه ، لأنه كان يعلم أن اصطحاب قوة كلبية وإدخالها إلى ديار أبي كلاب سيؤدي إلى إخفاق مهمته .

ويــلحظ المــرء منذ القرن الخامس / الحادي عشر أن اسم الشام بات يطلق أحياناً على القسم الشمالي منه ، وكلمة الشام الأعلى لتعني القسم الجنوبي ، روى

غـرس النعمة محمد بن هلال الصابئ ـ في تاريخه ـ بأن السلطان ملكشاه كتب في سـنة ٤٧١ هــ / ١٠٧٨م) إلى أخيه تتش (أن لا يتعرض إلى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب .

لقـد كانت مدينة حلب دائماً مركزاً لشمال بلاد الشام وفيها تقام عدد من الدويـلات المستقلة ، ولقد كانت دمشق كبرى مدن جنوب بلاد الشام ، وأقول كـبرى وليـس مركزاً لأن الجنوب انقسم إلى قسمين : قسم فلسطيني ومركزه الدولة ، وكان النفوذ فيه لقبيلة طيء ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقي لقبيلة كلب ولقـد كـان الصراع دائماً بين دمشق وحلب ، وكانت بلاد الشام ممزقة دائماً سياسياً ، ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها أبداً وغالباً ما تورطت في مشاكل ذات صلة بمصر وسياستها .

الدولة الحمدانية :

يعـود الحمدانيون في أصلهم إلى قبيلة تغلب ، وكانت هذه القبيلة من أشهر القـبائل العـربية وأكبرها ، وكانت تقطن أعالي منطقة الجزيرة قبيل قيام الإسلام وأثـناء فترة الفتوحات ، وكانت تدين بالنصرانية ، ولقد رفضت تغلب بعد الفتح دفـع الجزية ، وسبب ذلك مشكلة كبرى للخلافة ، عالجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن ضاعف ضريبة الصدقة عليها ، وأن لا تقوم بتعميد أولادها .

ولقد حافظت قبيلة تغلب على مكانتها في العصر الأموي ، إنما تأثرت هذه المكانـة بتدفق قبائل جديدة من شبه الجزيرة ، وكذلك تأثرت بما شهدت منطقة الجزيـرة في أواخـر العصـر الأموي وأثناء الحكم العباسي المبكر ، من ثورات وحـركات سياسية وبخاصة ثورات الخوارج ، وأثناء هذه الحركات ظهرت بين صـفوف تغـلب أسرة زعامة هي الأسرة الحمدانية ، وقامت الصلات بين هذه

الأسرة والخلافة العباسية منذ عهد المعتضد ، وعمل أفراد هذه الأسرة مع الخلافة ضد الخوارج ، ثم بشكل أنشط وأوسع ضد القرامطة ، وأثناء ذلك تكونت شخصية الأسرة الحمدانية ، وأصبحت تشكل إحدى القوى العسكرية لكن الصغيرة للدولة العباسية ، واستخدمت الخلافة هذه القوة في أكثر من مناسبة وبقعة وقد وطد هذا من مكانة الحمدانيين وورطهم في قضايا الدولة العباسية ، وأخذوا ينجذبون أكثر فأكثر نحو السلطة ونحو بغداد .

دولة الموصل :

اتخذ أوائل أفراد الأسرة الحمدانية من مدينة ميافارقين مركزاً وتطلعوا في الوقت نفسه نحو الموصل ، وسعوا للسيطرة عليها ، فكان أن يتحقق ذلك سنة (٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م) إذ عين الخليفة المكتفي الأمير أبا الهيجاء الحمداني والياً على الموصل ، ولم يستطع أبو الهيجاء أن يولي الموصل عنايته الكلية ، بل اهتم بمشاكل الصراع في بغداد وانجرف مع تيارات السياسة في بغداد صعوداً وهبوطاً ، وهكذا فقد قضى معظم وقته في بغداد ، واضطر بسبب ذلك أن ينيب ابنه الأكبر الحسن (الذي عرف فيما بعد باسم ناصر الدولة) في إمارة الموصل .

وهنا لا بد من الاستطراد في الحديث عن ناصر الدولة وحكمه من أن يظل ، ولو بسرعة ، على أهمية الموصل ومكانتها ، لقد كانت الموصل بسبب موقعها الجغرافي مدينة هامة ذات موارد اقتصادية كبيرة ، كانت تأتيها من الزراعة والتجارة ، وهي كمدينة تقع وسط سهل خصب ، يمدها دجلة بالماء ، وهي قريبة من البادية وقبائلها العربية ، وهي لم تكن بعيدة عن الأراضي البيزنطية لكنها منذ قيام الدولة العباسية كانت دائماً وثيقة الصلة ببغداد ومشاكل العراق السياسية ، أي أنها كانت قطعة من العراق ، وقد بقيت هكذا حتى نهاية النصف الأول من

القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، فعند ذلك تحولت لتصبح قطعة من بلاد الشام تشارك في مشاكلها .

لقـد أصبحت الموصل في تلك الفترة جسراً يوصل للسيطرة على شمال بلاد الشـام مـن ثم الجنوب ، ذلك أن القرن الخامس قد شهد هجرة التركمان بقيادة السـلاجقة الذين جاؤوا من المشرق ، فكانت الموصل المحطة الأولى للانطلاق نحو بـلاد الشام والانقضاض عليها ، وفي تاريخ قيام الدولة الزنكية والحروب الصليبية مثال مبرهن على صحة هذا .

ومع أن الموصل كانت قبل القرن الخامس قطعة من العراق إلا أنها شاركت جـزئياً وبشـكل فعال ومؤثر أحياناً في الحياة السياسية لبلاد الشام ، لكن هذه المشاركة كانت جزءاً من المشاركة في الصراع من أجل السيادة والسلطة في عالم الخلافة العباسية .

إمرة ناصر الدولة :

أصـبح الحسـن بن أبي الهيجاء أميراً للموصل بعد أبيه ، ويمكن عده الباني الفعـلي لـلدولة الحمدانية هناك ، لكنه كان مثل أبيه ، لقد انغمس في مشاكل الصـراع من أجل السلطة في بغداد ، وكان أثناء ذلك يساعده أخوه علي ، يقود قواته ، ولم يبرهن علي في جميع المعارك التي خاضها لصالح أخيه على تمتعه بمواهب عسكرية ، ذلك أنه خسر معظم المعارك التي خاضها .

ولقد نجح ناصر الدولة لفترة قصيرة من الزمن في تسليم منصب إمرة الأمراء في بغداد ، لكنه أكره على ترك بغداد والعودة إلى الموصل ، وعندما وقعت بغداد في حـوزة الـبويهيين قام نزاع بين هذه الأسرة وناصر الدولة ، وقد اضطر ناصر الدولـة أثـناء هـذا الصراع إلى إخلاء الموصل ، واللجوء إلى حلب ، وفي سنة

(٣٥٢١ هـ) عـزل معز الدولة البويهي ناصر الدولة عن إمارة الموصل وعين مكانه ابنه أبا تغلب فضل الله ، وعندما ضعف ناصر الدولة بسبب شيخوخته ضيق ابنه أبو تغلب عليه وأعرض عن مشورته ثم قام أخيراً في سنة (٣٥٦ هـ) بسجنه في إحدى القلاع ، وقد توفي ناصر الدولة ي سجنه سنة (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) .

وقبل أن يتوفي ناصر الدولة كانت مقاليد الموصل في يد ابنه أبي تغلب الذي لقب نفسه بالغضنفر ، وبعد وفاة ناصر الدولة قام صراع بين أولاده ، وقد أضعف هـذا الصـراع قـوة الأسرة الحمدانية ، وقد استغل هذا الخلاف من قبل الدولة البويهية ومن قبل عناصر أخرى محلية في الجزيرة ، كان أبرزها قبيلة عقيل وجموع أكـراد ميافارقين ، وفي سنة (٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م) استطاع البويهيون احتلال الموصـل ، وجـاء هـذا كنهاية فعلية للدولة الحمدانية ، وفي سنة (٣٧٩ هـ / ٩٨١ م) حـاول الحمدانيون إستعادة الموصل في يد قبيلة عقيل ، ورثت أملاكها الدولة العقيلية والدولة المروانية الكردية .

دوّلة حلب وإمرة سيف الدولة :

بعدمـا قامت الدولة الإخشيدية في مصر ، قام الإخشيد بمد نفوذه إلى بلاد الشام ، ولقد دخلت حلب (٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م) في حوزة الدولة الإخشيدية ، ولقـد عين الإخشيد أحمد بن سعيد بن عباس الكلابي والياً على حلب ، وفي هذه الفـترة وصلت شمال الشام والجزيرة جموع جديدة من بداية شبه الجزيرة العربية ، وضـمت هذه الجموعات مجموعات من قبيلة كلاب ، وقبيلة نمير ، وقبيلة قشير ، وقبيـلة عقيـل ، ولقـد سببت هذه الهجرةن فوضى سياسية كبيرة في شمال بلاد الشام والجزيرة .

وهكذا لم تستقم الأمور للإخشيد فـي حلب ، وفـي سنـة (٣٢٧ هـ

٩٣٩ م) ، فــو الخليفة الراضي إلى محمد بن رائق أمور حلب ، فجاء إلى حلب وانــتزعها من نواب الإخشيد ، ولكن الإخشيد استرد حلب وقام محمد بن رائق سنة (٣٣٢ هــ / ٩٤٤م) نتيجة للصراع على إمرة الأمراء في بغداد بالالتجاء إلى ناصــر الدولة في الموصل ، وقام ناصر الدولة بقتل محمد بن رائق ، ومد بصره نحو بلاد الشام يريد السيطرة على القسم الشمالي منها ، وهكذا حصلت المواجهة بين الحمدانيــين والإخشــيد ، ولم تكــلل جهود ناصر الدولة الأولى بالنجاح وأبقى للإخشيد ولاية حلب في يد أحمد بن سعيد الكلابي.

وكانت قبيلة كلاب متميزة بالتمزق والخلاف بين رجالاتها ، وقد دفع هذا بعــض أمراء كلاب إلى السفر نحو الموصل ، فاتصلوا بعلي بن عبد الله أخي ناصر الدولة ، ودعوه للقدوم إلى حلب ، وتسلّم مقاليد الأمور فيها ، وكان علي الذي عــرف باسم سيف الدولة حاكماً لمدينة نصيبين ، فعرض الأمر على أخيه ، فوافق بعد تردد وتحرك سيف الدولة نحو الشام ، واستطاع دخول حلب دون مقاومة في (٨ ربيــع الأول سنة ٣٣٣ هــ / ١٧ تشرين الأول ٩٤٤ م) . وهكذا بدأ عهد جديد في تاريخ شمال بلاد الشام .

ولم يقبل الإخشيد باستيلاء سيف الدولة على حلب ، وقام صراع بين سيف الدولة والإخشيد ، وجر هذا الصراع سيف الدولة إلى السيطرة على دمشق ، لكن الدولة الإخشيدية استطاعت إيقاع الهزيمة في صفوف الدولة ، ولم تكتف بانتزاع دمشق منه ، بل انتزعت مدينة حلب منه لفترة قصيرة ، وأخيراً عقد اتفاق في سنة (٣٣٦ هــ / ٩٤٧ م) بين الدولة الإخشيدية وسيف الدولة ويمكن عد هذه السنة البداية الفعلية لقيام الدولة الحمدانية في حلب .

والتفت بعد هذا سيف الدولة إلى دولته فوطد أمورها ، وأقام لنفسه بلاطاً

فخمـاً أراد أن يضاهي به بلاط بغداد وغيرها من مراكز ديار الإسلام ، وجمع في هـذا البلاط عدداً كبيراً من العلماء في كل فن والشعراء ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء المتنبي ، ولقد استخدم سيف الدولة رجال بلاطه للدعاية له . والواقع أن شـهرة سيف الدولة وعظمته قائمة على ما صنعه رجال بلاطه من دعاية لـه ، وليست نابعة من أعمال جليلة قام بها ، وتمت في عصره .

لقـد شـغل سيف الدولة معظم وقته في الأعمال الحربية ضد الإمبراطورية البيزنطية وكانت هذه الإمبراطورية تعيش فترة استضافة وتجميع قوة ، وقد تهيأ لها عـدد مـن القـادة والأباطرة العظام ، وقد خاض سيف الدولة بإمكاناته القليلة حـروباً طويلة ضد هذه الإمبراطورية ، ولم تكن هذه الحروب حروباً هادفة ، بل امتازت بأنها كانت مجرد غارات بدون هدف واضح سواء أكان دفاعياً أم هجومياً ولقـد نجمـت عن سياسة سيف الدولة العسكرية ، وتكوينه لبلاطه عدة نتائج خطـيرة ، فـلقد احتاج بلاطه واحتاجت حملاته إلى نفقات كبيرة للغاية ، وقام سيف الدولة بجمع هذه النفقات من المصادرات ، والضرائب الثقيلة ، ولقد شكا الناس من معاصريه من ثقل ضرائبه وغلظة إدارته المالية ، وبرز هذا بشكل واضح في كتابات ابن حوقل الجغرافي والمهبلي صاحب كتاب المالك والممالك الذي كتبه الخـليفة الفـاطمي العزيز ، وتجلى في كتاب سير الثغور للطرسوسي وغير ذلك . ومفيـد هنا أن نسوق ما قاله المعز لدين الله الفاطمي في رسالة لـه أرسلها لجوهر الصقلي (بنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب يـتظاهرون بالكـرم وليـس لواحـد منهم كرم في الله ، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا الآخرة) .

ولقد اضطرت سياسة سيف الدولة المالية بقايا قبيلة تغلب ، وكان عددها يقدر

بنحو عشرة آلاف ، وكانوا يدعون بني حبيب ، اضطرهم إلى ترك الجزيرة والهجرة إلى داخل الأراضي البيزنطية والتخلي عن الإسلام وتبني النصرانية والحرب مع بيزنطة ضد المسلمين .

ونظراً لانعدام القاعدة القبلية لحكم سيف الدولة فقد قام بتجنيد عدد كبير من الغلمان الأتراك الديلم ، مثلما جرت العادة في بغداد ، ولم تنفعه قواته هذه وقام بعض قوادها في أواخر عهد سيف الدولة بالثورة عليه ، وآل الصدام مع بيزنطة إلى تمكنها من احتلال جميع مناطق الثغور الحصينة وأخذها لطرسوس وأنطاكية وأخيراً تمكن البيزنطيون في سنة (٣٥١ هـ / ٩٦٢ م) من اختراق مدينة حلب ، عاصمة سيف الدولة ، ولقد دمر الجيش البزنطي هذه المدينة تدميراً مريعاً ، وجمعوا منها غنائم هائلة الكمية ، وأخذوا عدداً كبيراً جداً من الأسرى ، وأثّر سقوط حلب في سيف الدولة تأثيراً كبيراً سبب مرضه الشديد ، كما سبب له كثيراً من المشاكل ، ولقد انفرط عقد دولته ، وأخذت الثورات تتفجر ضده في كل مكان ، واستمر الضغط البيزنطي عليه يبغي تصفية دولته نهائياً وأصيب سيف الدولة بالفالج ، وفي صفر من عام (٣٥٦ هـ / كانون ثاني ٩٦٧ م) ، اشتد مرض سيف الدولة فتوفي في حلب ، وحمل تابوته منها إلى ميافارقين فدفن فيها .

إمرة سعد الدولة الشريف :

عندما توفي سيف الدولة كان ولده سعد الدولة ، أبو المعالي شريف في ميافارقين مع والدته ، فاستدعي إلى حلب فقدمها ودخلها وتسلم منصب الإمرة فيها ، كلن مقاليد الأمور كانت في يد حاجب أبيه قرغوية ، وفي مطلع عهد سعد الدولة ثار ضده خاله أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان في منطقة حمص ، وتمكن سعد الدولة من القضاء على الثورة وقتل خاله الشاعر المشهور ، ولم

يتوقف نشاط بيزنطة وأعمالها ضد بلاد الشام زمن سعد الدولة ، وكان على رأسها الإمبراطور نقفور فوقاس ، وقد أضعف ذلك حكم سعد الدولة وقام قرغويه بالاستيلاء على الأمر في حلب ومنع سعد الدولة من الدخول إلى المدينة ، وكان ذلك سنة (٣٥٨ هـ / ٩٦٨م) واستطاع سعد الدولة تكوين قوة قادها ضد حلب فحاصرها ، فاستنجد قرغويه ببيزنطة واستغل البيزنطيون الفرصة فاستولوا على أنطاكية وعلى حلب أيضاً ولم يتركوا حلب إلا بعد وضع معاهدة مفصلة احتفظ ابن العديم مؤرخ حلب بنصها ، وتعد هذه المعاهدة من أهم وثائق القرن العاشر وفيها مواد سياسية وتجارية واجتماعية ودينية هامة للغاية .

وظلت حلب تحت حكم غلمان سيف الدولة حتى ما بعد سنة (٣٦٦ هـ / ٨٧٦ م) حيث استطاع سعد الدولة العودة إليها ، ولقد خاض سعد الدولة بعض المعارك ضد بيزنطة لكنه استنجد بها أكثر من مرة لحمايته من المخاطر التي جاءته من دمشق وغيرها ، ثم تعرض للخطر الفاطمي وفي لجة الفوضى والاضطرابات توفي سعد الدولة سنة (٣٨١ هـ / ٩٩١ م) فخلفه ابنه أبو الفضائل سعيد .

إمرة سعيد الدولة :

أصبح سعيد الدولة أميراً على حلب غداة وفاة أبيه ، ولكنه أصبح أميراً بالاسم فقط ، حيث أن مقاليد الأمور آلت إلى يد غلام جده واسمه لؤلؤ ، وتمتاز فترة حكم أبي الفضائل سعيد الدولة مع الفترات التي تلتها ، بمحاولات الخلافة الفاطمية الملحة والمتكررة للاستيلاء على حلب ومنع الفاطميين من أخذها وقد بقي أبو الفضائل في منصبه حتى توفي مسموماً في سنة (٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م) ، ويعد موته هذا تاريخياً فعلياً لانتهاء الحكم الحمداني في حلب .

وبعدما توفي حكم لؤلؤ لفترة وجيزة باسم طفلي سعيد الدولة وكانا يدعيان

بأبي الحسن وعلي وأبي المعالي شريف ، ثم قام بنفيهما إلى مصر وأعلن نفسه حاكماً منفرداً لحلب ، وساعده في حكمه ابنه منصور ، ويعد حكم لؤلؤ مع ابنه فترة انتقال مرت ما بين زوال الدولة الحمدانية وقيام دولة جديدة أخرى في حلب هي الدولة المرداسية ، وأهم ما حدث زمن لؤلؤ وابنه منصور كان محاولات قبيلة كلاب بزعامة صالح بن مرداس السيطرة على حلب [1] .

الدولة العقيلية في الموصل :

حكمت الجزيرة في أوائل القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد من قبل الدولة الحمدانية في الموصل ، وأيام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عقيل إلى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة كما أسلفنا الحديث ، وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة (٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م) سهل القضاء عليها ، ورثتها دولتان واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية ، وأخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية .

استولى في سنة (٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) محمد بن المسيب العقيلي علي نصيبين وبلد ، ثم ضم بعد سنة الموصل إلى أملاكه وذلك بعدما قتل الأمير الحمداني أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني [2] ، واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب و لكن ما لبثت أن عزلته في سنة (٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م) . وباشر البويهيون حكم الموصل بأنفسهم ، ولكنهم فقدوها في سنة (٣٨٦ هـ / ٩٩٢ م) ، وباشر البويهيون حكم الموصل بأنفسهم ، لكنهم فقدوها في سنة

---

(1) من أجل تاريخ الدولة الحمدانية في الموصل وحلب يمكن الرجوع إلى المصادر التالية : تجارب الأمم وذيله كتاب العيون ، كتاب الكامل في التاريخ ، تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ، تاريخ الفارقي ، بغية الطلب وزبدة الحليب ، ابن العديم ، أخبار سيف الدولة لكنار ، ودحيوان المتنبي ، ديوان أبي فراس الحمداني .

(2) انظر ذيل مسكويه ١١٧٦-١٧٩ ، الكامل ٩٨/٧ ، دولة بني عقيل في الموصل ٥٠-٥١ .

(٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) حين تمكن المقلد بن المسيب أخو محمد من الاستيلاء عليها وإقامة الدولة العقيلية[١] ، إلى أن اغتيل في سنة (٣٩١ هـ / ١٠٠٠م) [٢].

وخلف عقب اغتياله من قبل ابنه قرواش الذي ظل يحكم حتى سنة (٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) حين سجنه أخوه بركة ، وحكم قرابة السنة ثم توفي ، وهنا أجمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران أميراً جديداً ، فأخرج قريش عمه قرواش بن المقلد من السجن ودبر قتله .

ولقد كان قرواش بن المقلد من أعظم شخصيات عصره البدوية فقد كان أديباً ، شاعراً ، وهاباً ، على دين الأعراب وجاهليتهم ، وقد جمع بين أختين في الزواج ، فلامته العرب على ذلك لأنه محرم بالإسلام ، فقال (خبروني بالذي نستعمله مما تبيحه الشريعة ، وكان يقول في مجالسه : ما على رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم وأما الحاضرة فلا يعبأ بها الله) ، وقد استطاع قرواش أن يقيم علاقات شبه متوازية بين الخلافتين العباسية والفاطمية [٣]، وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لأول حملة غزية الأمر الذي سنأتي على ذكره بالتفصيل بعد قليل.

وحكم قريش بن بدران حتى سنة (٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) حيث خلفه ابنه مسلم بن قريش أعظم شخصيات الأسرة العقيلية ، وعقب مقتل مسلم خلفه أخوه إبراهيم في سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) ولم يطل حكم إبراهيم وسقط في الصراع مع السلاجقة ، وتوزع إمارة الموصل ولدا أخيه محمد وعلي ، وبقي الحال هكذا حتى أزال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائياً في سنة (٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م) .

---

(١) ذيل مسكويه ٢٨٠-٢٨٤ ، الكامل ٧/٢٨١-٢٨٢ .

(٢) ذيل مسكويه ٣٨٩-٣٩٠ ، الكامل ٧/٢٠٩-٢١٠ .

(٣) دولة بني عقيل بالموصل : ٧٥-٥٨ .

الدولة المروانية :

لقد ذكرنا بأن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالإضافة إلى الدولة العقيلية الدولة المروانية الكردية ، فقد سكنت المناطق الواقعة إلى شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الكردية ، وغالباً ما كانت هذه القبائل تغير على الأراضي البيزنطية ، ولقد ظهر من بين أفرادها عدد من الغزاة الذين تجمعت حولهم عصابات خاصة ، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، فاستغل باذ ضعف الدولة الحمدانية ، ثم ضعف السلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي (٣٧٩ هـ / ٩٨٣ م) ، فأخذ يقيم لنفسه دولة ، فاستولى على أهم بلدان منطقة ديار بكر ، مثل آمد ، ونصيبين وميافارقين (ودخل باذ الموصل واستولى عليها ، وقويت شوكته ، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وإزالة الديلم عنها ، وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد اصحاب الأطراف) وأثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل ، وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان من أهمها واحد سنة (٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) ، فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية [1] .

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن أخته الحسن بن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله (٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) ، وفي زمن الحسن توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر، وبعيد مقتله خلفه أخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة (٤٠١ هـ / ١٠١١ م) ، وهنا خلفه أخوه أحمد الذي عرف باسم نصر الدولة ويعد نصر الدولة المرواني من أشهر حكام

---

[1] ذيل تجارب الأمم : ١٧٦-١٧٨ ، تاريخ الفارقي : ٤٩-٥٨ . الكامل : ٧/١٢١-١٢٢ ، ١٤٢-١٤٣

الأسـرة المـروانية ، وقد استمر حكمه لمدة زادت عن الخمسين عاماً ، استطاع خلالهـا أن يرفع من مكانة الدولة المروانية ، وبالتالي أن يبسط نفوذها حتى على بعـض مـن جورجيا الحالية (في الاتحاد السوفيتي) ، ولقد أحسن استغلال الموقع الاسـتروَاتيجي لديار بكر الذي كان يتحكم بطر المواصلات والتجارة بين العراق وبلاد المشرق الإسلامي من جهة وبلاد الشام والأناضول من جهة أخرى .

كمـا تمكن ببراعته السياسية وحكمته الدبلوماسية من المحافظة على دولته ، وعـلى اسـتمرار حكمه بين قوى متعادية كان كل منها يطمع ويسعى للتوسع والسـيطرة ، ولقد كانت علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد جيدة ، وكذلك كـانت علاقته مع الإمبراطورية البيزنطية أيضاً مع الخلافة الفاطمية ، حيث كانت العلاقات طيبة رغم أن آل مروان كانوا سنة وكانت رعيتهم على العموم شوافعة.

لم تكن العلاقات بين الدولة المروانية والدولة العقيلية في الموصل على العموم جيدة ، ومع ذلك فقد جهد نصر الدولة في تجنب الاصطدام المباشر أو المستمر مع عقيلي الموصل فتنازل لهم سنة (٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) عن مدينة نصيبين ، كما دفـع لهم الجزية لفترة من الزمن ، وكانت علاقة نصر الدولة بالدولة المرداسية في حـلب طيـبة بشكل عام ، وكذلك كان الحال بالنسبة لعلاقاته بالقوى البدوية الأخرى التي كانت موجودة في الجزيرة كقشير أصحاب قلعة جعبرا ، وقبيلة نمير ، أصـحاب حـران ، ولقـد استطاع نصر الدولة التخفيف من آثار مضار هجرة الـتركمان على بلاده ، فقام بمراسلة طغرلبك واعترف له بالسلطة والسيادة وأقام الخطبة باسمه .

كـانت آمد وميافارقين وحصن كيفا أشهر بلدان الدولة المروانية فازدهرت في عهـد نصـر الدولة ازدهاراً كبيراً وشهدت قيام نهضة ثقافية وتطور اقتصادي

عظيم ، ويقدم لنا المؤرخ ابن الأزرق والفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافــارقين) صورة جيدة عن هذا الرفاه الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح وأصول عربية وإسلامية .

وبعـــد وفـــاة نصر الدولة في سنة (٤٥٣ هـــ / ١٠٦١م) قسمت أراضي دولـــته بـــين أولاده ، وبـــدأت قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار والضعف ، واســـتمرت آخذة بالاضمحلال شيئاً فشيئاً حتى تمكن السيلاجقة أخيراً من القضاء عليها نهائياً سنة (٤٧٨ هـــ / ١٠٨٥ م) [١] .

الدولة المرداسية في حلب :

أســـس هـــذه الدولـــة صالح بن مرداس ، أمير قبيلة كلاب في مطلع القرن الخامس للهجرة ، وحتى نفهم تاريخ هذه الدولة علينا أن نتعرف أولاً على قاعدتها القبلية ، مع الأوضاع القبلية في شمال بلاد الشام والجزيرة ، وقبيلة كلاب صاحبة هـــذه الدولـــة كـــانت إحدى مشاهير قبائل عرب ما قبل الإسلام ، ولقد هاجر قســـم مـــنها بعد قيام الإسلام إلى بلاد الشام ، وقطن هذا القسم شواطئ الفرات الشـــامية [٢] ، ومـــد نفوذه وسيطرته على شمال بلاد الشام حتى جاء القرن الرابع للهجرة / العاشـــر الميلادي ، ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى أوضاع الخلافة العباســـية وقوتهـــا آنـــذاك ، ثم إلى الـــتأثيرات الحضارية التي لا بد قد خضع لها الكلابيون ، إنما أصابت قبيلة كلاب منذ مجيء القرن العاشر للميلاد تغيرات كبيرة ففـــي هـــذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاطهم في شبه الجزيرة العربية والشـــام والعـــراق والجزيرة ، وصلت إلى شمال بلاد الشام وأعلي الجزيرة موجة

---

(١) صـــورة الأرض : ٢٩٥ ، ذيـــل تجـــارب الأمم : ١٧٨-١٨٠ ، الكامل : ٣/٧ : ١-١٤٤ ، تاريخ الفارقي : ٥٩ .

(٢) صبح الأعشى : ٣٤٠/١ ، قلائد الجمانات : ٢١٦ .

كـبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة ، وهي : كلاب وعقيـل ونمـير وقشير وخفاجة ، وبعد فترة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها ، فعقيل قامت بسكن منطقة الموصل ، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها حيث استطاعت آمد وراثة الدولة الحمدانية وإقامة الدولة العقيلية مكانهـا ، أمـا نمير فقد اتخذت من منطقة حران والرها دياراً لها ، واتخذت من حـران مركزاً لنفوذها ، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسو التي تبدل اسمهـا إلى قلعة جعبر نسبة إلى جعبر بن سابق أحد شيوخ قشير الذين حكموها ، ويقـول ابن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة ، واصفاً حال الجزيرة في أيامـه : " وبالجزيـرة براري ومغاور وسباخ بعيدة الأقطار تنتجع الملح والأشنان والقـلي ، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، أهل خيال وغنم ، وإبل قليلة ، وأكـثرهم مفصـلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة ، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير : بني قشير وعقيل من بني نمير وبني كلاب ، فـأزاحوهم عـن بعض ديارهم بل جلها ، وملكوا غير بلد وإقليم منها كحران وجسـر منـبج والخـابور والخانوقـة وعربان وقرقيسا والرحبة ، وفي أيديهم ، ويتحكمون في خفائرها ومرافقها [1] .

وكمـا استقرت قبائل عقيل ونمير وقشير في الجزيرة ، فقد استقر الكلابيون الجدد في شمال بلاد الشام مع إخوانهم الكلابيين القدماء ، لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر بسلام ، بل إن هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعـض الدمار لأراضي شمال الشام والجزيرة ، وقد هيأت الفوضى السياسية التي

---

[1] صورة الأرض : ٢٠٥ . انظر أيضاً جمهرة ابن حزم ٢٧٤-٤٧٥ . بغية الطلب أبا صوفيا : ٤٨٢-٤٨٤ . ابن خلدون : ٥٤٥/٤ . صبح الأعشى : ٣٤٠/١-٣٤٣ .

نشأت الفرصة لظهور عدد من المغامرين مثل المتنبي الشاعر ، والأصغر والفارابي ، كما أكرهت عدداً من القبائل القديمة في الجزيرة وبخاصة بقايا قبيلة تغلب إلى الهجرة على الأراضي البيزنطية ، ويتحدث ابن حوقل عن خروج بني حبيب " بذرياتهم وعبيدهم ومواشيهم ، وخفهم الذي يمكن بمثله النقلة ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغضب لعقارهم في نحو عشرة آلاف فارس " إلى الأراضي البيزنطية حيث استقروا ثم تنصروا بأجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم ".

ذكر ابن العديم أن قبيلة بني نمير وصلت الجزيرة في سنة (٣٠٩ هـ / ٩٢١م) ، كما روى أنه في (٣٢٠ هـ / ٩٣٢م) وصلى كلاب إلى شمال بلاد الشام ، وبين أن قبيلتين من هؤلاء الكلابيين الجدد وهما سبيعة وذؤبة بعد أن نحرا الشام الشمالي .

لقد تألفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجوم ، ولا بد أن قدوم المهاجرين الجدد واختلاطهم بالقدماء قد أثر فيها فغير من تركيبها إنما على العموم تميزت هذه القبيلة مثلها مثل بقية قبائل عامر بن صعصعة بتحكم روح الفوضى والفرقة بينها ، فلقد آثر الكلابيون وغيرهم دائماً التمزق ولم يدينوا بإخلاص لقائد واحد ، ولقد كانت لديهم (مثلهم) الخاصة في الإخلاص السياسي .

وكانت جميع بلاد عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية ، ونحن لا نعرف مدى التعقل الجدي بهذا المذهب ، سوى أن بعض الأسماء الشيعية مثل علي ، وعليان ، وعلوان ، وجعفر تبناها بعض أفراد هذه القبائل ، وفيما خلا هذه الأسماء التي كانت قليلة جداً ، فإن أسماء الكلابيين والقشيريين والغمريين والعقيليين كانت عربية صرفة وغير متأثرة بالأسماء التي عم انتشارها

بعـــد قيام الإسلام ، خاصة الأسماء المركّبة التي تبدأ بعبد وتنتهي باسم أو صفة من صفات الله [1] .

استولى في سنة (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م) صالح بن مرداس على بلدة الرحبة (قرب الميادين في سورية) على الفرات ، وبعدما فعل هذا اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القاهرة ، وكانت الرحبة من أكثر مدن الشام أهمية نظراً لموقعها الاستراتيجي الخطر ، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات ، وهذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية ، كما كانت قريبة من العراق غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضاً ، ثم أن البادية كانت وثيقة الصلة بها ، وفي البادية أقامت العشائر البدوية التي شغلت أعظم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام ، وبإيجاز لقد كانت الرحبة أول محطة نحو الشام للبداة من شبه الجزيرة العربية ، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام أو جزءاً من الجزيرة ، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس ، ولقد حافظت الرحبة على أهميتها هذه ومكانتها حتى أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، حيث حلت محلها مدينة الموصل التي كانت قصبة ديار بكر بيعة التي كانت إحدة كور الجزيرة الثلاث : ديار بكر ، وديار مضر ، وديار بيعة ، والجزيرة كانت أصلاً تشتمل على البلاد التي بين دجلة والفرات (mesopotamia) ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب قسماً من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات من بر الشام إلى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها .

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة [2] وكانت دائماً متورطة في مشاكل

---

[1] صورة الأرض : ١٩١-١٩٢ .

[2] أحسن التقاسيم : ١٣٥-١٣٧ ، المسالك والممالك لابن خرداذبة : ٩٤-٩٧ ، الأعلاق النفسية : ١٠٦ ، مختصر كتاب البلدان : ١٢٨ ، الأصطخري : ٥٢ ، صورة الأرض : ١٨٩ ، معجم البلدان آثار البلدان للقزويني : ٣٥١ ، تقويم البلدان : ٢٧٣ ، بحنة الدهر : ١٩٠ .

العـــراق السياســـية وغرها ، وقلما كان لها أثرها في مشاكل الشام ، وظل الحال كهذا حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلاذي عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغزمن اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وكانت الموصل أول محطة لهم نحو الشام وسبّب هذا تحولاً هاماً في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءاً من الشام أو تورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمال بلاد الشام وربما على الشام بأسره .

ويمكـــن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية والدولة الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا :

وبعدما احتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو حلب ، فتورط مـــن أجلها في صراع طويل أسفر في سنة (٤١٥ هـــ / ١٠٢٥ م) عن احتلال حـــلب وإقامـــة الحكم المرداسي فيها ، ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب شمـــال بلاد الشام بل انتزع بعض أجزاء الساحل الشامي من الفاطميين وساهم في العمـــل من أجل طرد الفاطميين من الشام ، فذهب ضحية مطامحه حيث قُتل في ســـنة (٤١٩ هـــ / ١٠٢٩ م) ، في معركة الأقحوانة ، في وادي الأردن قرب طـــبرية [1] ، ومقـــتل صالح لم يقض على وجود الدولة التي أقامها ، فقد احتفظ أولاده بحكـــم حـــلب ، ثلاثة منهم بعده على نحوٍ متوال وهم : نصر ثم ثمال ، ثم عطية ثم حكم بعد عطية حفيد صالح محمود بن نصر بن محمود . وأخيراً سابق بن محمود الذي سقطت الدولة المرداسية في زمنه .

بعد وفاة ثمال في سنة (٤٥٤ هـــ / ١٠٦٢م) دخلت أول جماعة غزية بلاد

---

(2) معجم البلدان .

الشـام ثم تبعـتها موجات أخرى سبّبت تدمير بلاد الشام ، كما سبّبت سقوط الدولة المرداسية وعملت على إزالة القوة العربية من الشام .

لقـد كـانت الدولـة المرداسية دولة بدوية ، وتطبعت بالأخلاق العربية ، وبـالمفهوم العربي البدوي من الحكم ، لذلك ازدهرت في ظلالها الحضارة العربية وثقافتها ، ففي زمن المرداسيين وفي ظلهم عاش المعري ، وكتب نثره ونظم شعره وكذلـك فعل ابن أبي حصينة الشاعر ، وابن سنان الخفاجي الكاتب والشاعر ، وأخـيراً ابن حيوس كبير شعراء الشام في أواخر القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي .

ولقـد كانت علاقات الدولة المرداسية بالخلافة الفاطمية سيئة على نحو عام عـلى الرغم من أن المرداسيين قد اعترفوا اسمياً بسلطان خليفة القاهرة ، ولم تكن لهـم أية علاقة حتى ما قبل (١٠٧٠م) بالخلافة العباسية ، ولكن في الوقت الذي اعـترف فيه المرداسيون بسلطان الفاطميين كانت علاقاتهم بالإمبراطورية البيزنطية جيـدة عـلى نحـو عام ، وغالباً ما وضع الأمراء المرداسيون أنفسهم تحت حماية الإمبراطورية البيزنطية ، ودفعوا جزية سنوية لقسطنطينة .

اعـتادت بيـزنطة أن تقيم دولاً بدوية أو دويلات صغيرة على حدودها ، لحمايـة هذه الحدود من غارات البدو على نحو عام ، ولتكون هذه الدول حاجزاً بين بيزنطة وقوى كبرى أخرى ، وعلى هذا فقد عملت بيزنطة على حماية الدول البدوية التي أقامتها وعلى مساندتها بالمال ، وغير ذلك من الأسباب ، أما أن تدفع دولة بدوية الجزية البيزنطية ، فلا بد أن تلك حالة شاذة لها أسباب غير اعتيادية ، ويعود سبب دفع بعض المرداسيين الجزية للإمبراطورية البيزنطية إلى وجود التهديد الفـاطمي الدائـم ، ثم إلى طبيعة قبيلة كلاب من فوضى وتمزق وعدم إخلاص ،

وعدم انقياد لزعيم واحد .

دويلات الساحل الجنوبي لبلاد الشام :

بعدما سيطر الفاطميون على مصر ، تابعوا زحفهم إلى الشام فدخل جنوبه مع سواحله في حوزتهم ، وكان للفاطميين أسطولهم القوي الذي مكنهم ، لفترة ، مع حامية دمشق وقوات فلسطين من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا الساحل التي كان أهمها طرابلس وصور ، وصيدا وعكا ، وفي النصف الثاني للقرن الخامس عشر الميلادي ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم ينحسر ، وقد أفسح هذا المجال لقيام بعض من أنواع (الجمهوريات) المستقلة في كل من طرابلس وصور .

تسولى عين الدولة بن أبي عقيل قاضي صور عليها ، وامتنع بها من الاعتراف بالنفوذ الفاطمي ، وعقب موته ولي صور أولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة (٤٨٢ هـ / ١٠٨٩م) ، حيث جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم وإعادتها للحظيرة الفاطمية [1] .

لقد كانت الدولة التي قامت في طرابلس أطول عمراً وأبعد شهرة وأكثر أهمية من دولة صور ، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي أبو طالب الحسن بعد سنة (٤٦٠ هـ / ١٠٦٩م) ، بعد وفاته في سنة (٤٦٣ هـ / ١٠٨٢م) استبد ابن أخيه جلال الدولة أبو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس ، ولقد استطاع جلال الدولة الحفاظ على استقلال طرابلس وحماها ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة بعد وفاة جلال الدولة خلفه أخوه فخر الملك أبو علي الذي ظل محتفظاً بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة (٥٠٢ هـ / ١١٥٩م) [2] .

---

[1] ابن العقلاني : ٩٦-٩٧-١٢٠ ، الكامل : ٨/١٥٠ .

[2] انظر طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي : ٦٤-٦٧ .

دول مصــــر :

الدولة الطولونية :

أســـس هـــذه الدولـــة في مصر أحمد بن طولون في النصف الثاني من القرن الـــثالث للهجرة ، وكان من أصل تركي ، ومن مواليد سامراء المدينة التي كانت تعـــج بالعسكريين الأتراك ، فتأثر بجوها إلى حد كبير ، وكان لذلك تأثير كبير في مجـــرى حياتـــه ، ثم تـــولى ألى مهامه السياسية عندما جاء إلى مصر نائباً لواليها (بايكـــباك) الذيـــك كان أحد البارزين حينئذ في البلاط العباسي ، وكانت مصر حـــين قدمهـــا تعاني من التمزق والاضطرابات الداخلية ، فعمل ابن طولون على إنقاذهـــا مـــن الفوضـــى والانهيار الاقتصادي ، واستغل سير الأحداث لمصلحته ومـــا يـــتوافق مع طموحه الكبير للاستقلال بهذه البلاد ، والقيام بأثر بارز تحت سلطان الخلافة .

وجـــاءت الظروف لتمهد الطريق أمام ابن طولون لبلوغ ما طمح إليه ، فلم تكـــد تمضي فترة وجيزة حتى قتل سيده صاحب مصر ، فأسندت هذه الولاية إلى قـــائد تركي آخر هو يارجوخ) وكان ابن طولون متزوجاً من ابنته ، فأقره الوالي الجديـــد في مركزه ، وبذلك أتيحت الفرصة أمامه لتحقيق طموحه في حكم هذه البلاد ، فبدأ يتصرف وكأنه الوالي الشرعي لها ، وما لبث أن أصبح الحاكم الرسمي بعد موت (يارجوخ) واعترف به الخليفة .

والواقع أن ابن طولون على الرغم من انتمائه إلى مجموعة العسكريين الأتراك المســـوولة عن انهيار الحكم في عاصمة الخلافة اختلف سلوكه السياسي تماماً عن ســـلوك أقرانه أو الأتراك ، فقد بذل جهود عظيمة من أجل بناء دولة قوية ، تمثل فيها الاستقرار والانتعاش الاقتصادي خير تمثيل .

ولم يتوقف طموح ابن طولون عند حدود مصر ، فسرعان ما اتجه بأنظاره إلى الشام ، وهذا أمر كاد أن يكون حتمياً بالنسبة للسياسيين الذين حكموا مصر خلال الأدوار التاريخية ، وقد ساعده على تحقيق هذه السياسة التوسعية ، وما كان يجابه الحكم المركزي في بغداد من أزمات داخلية خطرة ، وبذلك نجح ابن طولون في إقامة دولة مستقلة تمتد من العراق إلى برقة غرباً ، وكانت دولة قوية متماسكة بفضل ما تميز به مؤسسها من بعد في النظر وميل للإصلاح .

ولكن السياسة التوسعية هذه جرت إلى صدام بينه وبين الموفق حيث تمكن هذا الأخير على الرغم من الانتصارات التي حققها ابن طولون من إثارة الأمراء في البلاد والثغور عليه ، وإظهاره أمام الناس بمظهر الخارج عن الخلافة ، وبذلك استطاع الموفق أن يعزل صاحب مصر في المناطق التي استولى عليها دون أن يمكنه من القيام بالأثر الذي كان يطمح إليه ، وهو مد نفوذه السياسي ليشمل الخلافة نفسها .

وبعد موت ابن طولون (٢٧٠ هـ / ٨٨٣م) خلفه ابنه خمارويه في حكم مصر والشام ، وورث عنه الصراع ضد الخلافة العباسية الممثلة بالموفق ، فما كاد هذا الأخير ينفض يديه من ثورة الزنج حتى بادر بإرسال جيش للقضاء على الطولونيين ، فاستولى على الشام وتابع سيره متعقباً خمارويه حتى الحدود المصرية ، ولم ينقذ الطولونيين إلا القائد سعد الأيسر الذي كمن للموفق وتمكن من هزيمته ، وانتهى الأمر لخمارويه وأولاده من بعده .

وقد ظلت الدولة الطولونية تشغل أثرها البارز الذي أراده لها مؤسسها أحمد بن طولون حتى موت خمارويه سنة (٢٨٢ هـ / ٨٩٥م) . ومنذ ذلك التاريخ عصفت بهذه الدولة رياح التمزق والتنافس بين أمراء البيت الطولوني ، كما هبت

عـليها ريـاح الأخطـار الخارجية بظهور الدعوة الفاطمية في المغرب والدعوة القرمطية في الشام ، ولم يتمكن خلفاء خمارويه من مجابهة هذه الأخطار ، وأظهروا عجـزاً ظاهرياً في مجابهتهم للقرامطة ، وتنبهت الخلافة العباسية لذلك فعملت على استعادة مصر إلى سلطانها المباشر قبل أن يتسرب إليها الخطر القرمطي [1] .

الدولة الإخشيدية :

كـانت تشهد كل فترة انتقالية يتغير فيها الحكم من سلطة إلى أخرى بروز بعض المغامرين الذين كانوا يرقبون سير الأحداث باهتمام ويستغلونها لمصلحتهم ، وكـان من هؤلاء محمد ابن طغج بن جف مؤسس الدولة التي قامت على أنقاض دولة الطولونيين ، وعرفت بالإخشيدية نسبة إليه ، والإخشيد كلمة تركية كانت تطـلق عـلى ملوك فرغانة في بلاد ما وراء النهر ، وكان جده (جف) في عداد الأتـراك الذين بدؤوا يتوافدون على عاصمة الخلافة في عهد المعتصم ، فخدم في جيـش الخـليفة كما خدم أبوه في جيش ابن طولون وتولى إمارة الشام في عهد خمارويه ، وقد ظل هذا المنصب حتى سقوط الحكم الطولوني فانتقل مع ابنه محمد (الإخشيد) إلى بغداد حيث مات فيها .

وفي تلك الأثناء كانت مصر تتعرض لخطر الفاطميين فاشترك محمد بن طغج في الحمـلة العسكرية التي أرسلها الخليفة لقتال الفاطميين ، وأبدى شجاعة فائقة حتى صار مقرباً من قائد الحملة ، ولم يكن يُعوز هذا الرجل الطموح ، فأخذ يرنو إلى مصر ويأمل في السيطرة عليها ، معتمداً على اجتذاب العناصر التركيـة فـي

---

[1] تحـوي كتب التاريخ العامة مادة جيدة عن الدولة الطولونية ، هذا ونملك سيرة لأحمد بن طولون هذبها البلوري ، كما أن هناك تراجم في غاية الجودة لكل من أحمد بن طولون وخمارويه بن أحمد ثم جيش بن خمارويه ، وردت في بغية الطلب لابن العديم ، وكتاب المقفى للمقريزي ، وهي تراجم جديرة بالدراسة والنشر .

عاصمة الخلافة واكتساب عطف الخليفة ....

وقد جاءته الفرصة بعد تولي الخليفة الراضي في وقت كانت فيه مصر تنوء بمشاكلها ، وهي فترة أشبه ما تكون بالفترة التي سبقت حكم ابن طولون ، لذلك كان لا بد من رجل قوي يتولى أمر هذه البلاد لتكون قادرة على صد هجمات الفاطميين ، فكان أن عهد الخليفة إلى محمد بن طغج بحكم مصر ولقبه بالإخشيد بناء على طلبه .

وليس ثمة شك في أن الإخشيد تأثر بسلطة ابن طولون إلى حد كبير ، سواء في الإصلاحات التي قام بها في الداخل أم في سياسته الخارجية حين تطلع إلى تأمين حدوده الشمالية والسيطرة على بلاد الشام ، ولكن سياسته الشامية كانت مثار متاعب لا حد لها .

فقد فرضت عليه مجابهة أمير الأمراء ابن رائق الذي كانت له السيطرة على جنوب بلاد الشام ، والأمراء الحمدانيين المسيطرين على شمالها ، وعلى ذلك فإن حروباً طويلةً كانت تنتظره في الشام من الطرفين ، فضلاً على هموم الجبهة الغربية الناجمة عن تهديدات الفاطميين ، ولقد اشتدت المعارك بين الإخشيد وخصمه العنيد ابن رائق دون أن يحقق أحدهما نصراً حاسماً ، على أن الرجلين توصلا في النهاية إلى عقد صلح يقضي باقتسام جنوب الشام بينهما ، ثم سارت الظروف لمصلحة الإخشيد في الشام ، فبعد فترة وجيزة من المعاهدة قتل خصمه ابن رائق على يد الحمدانيين ، وبذلك صار باستطاعته أن يتحرك بحرية أكثر ، فاستغل هذه الفرصة واستولى على دمشق ، ليصبح في موقف المجابهة مع الحمدانيين ، على أن سيف الدولة تصدى للجيش الإخشيدي الزاحف شمالاً وأوقع به هزيمة قاسية وطرد الإخشيديين من دمشق ، ولكن ذلك لم يدم

طويـــلاً فسرعان ما انتقم الإخشيد لنفسه وحقق انتصاراً باهراً على الحمدانيين في معركة جرت عند حمص وظلت قواته تتقدم شمالاً حتى هددت عاصمتهم حلب ، ثم تـــراجع عنها إلى دمشق بعد اتفاق بين الطرفين يقضي باقتسام الشام بينها لقاء ضريبة سنوية .

وتصـــدى الإخشيد أيضاً لحملات الفاطميين وأصاب نجاحاً كبيراً في إبعاد خطرهم عن مصر ، وعلى صعيد الجبهة البيزنطية كان الطابع العدائي هو المسيطر عـــلى علاقاتـــه مع البيزنطيين على الرغم من محاولة هؤلاء التحالف معه ، ولكن الإخشيد ظل على ولائه للخلافة حتى مات سنة ٣٣٤ هـــ / ٩٤٥ م ، فترك لابنه أبي القاسم أونورجور دولة قوية سادها الرخاء وعمها الاستقرار .

كـــان أبـــو القاســـم صغير السن حين توفى الله أباه فتولى الحكم نيابة عنه مربيه (كافور) وهو من أصل نوبي أسود الوجه كان قد اشتراه سيده الإخشيد ثم أعتقه ليصبح من كبار القواد في الدولة .

وقـــد حكم كافور وصياً نحو اثنين وعشرين عاماً حتى إذا مات أونورجور أصـــبح هـــو الحاكم الرسمي من قبل الخليفة ، وكان مثال الحاكم المخلص لسيده والمتفاني في خدمة دولته وازدهارها .

كانت متاعب كافور السياسية تنحصر في الجبهة الغربية إذ نشط الفاطميون في هجمـــاتهم واشـــتدت وطأتهم على حدود دولته ، والواقع أن كافوراً اتجه إلى مهادنـــة الفاطميين في كثير من الأحيان ، وحرص على إقامة توازن في علاقاته مع الخلافـــتين العباســـية والفاطمية بإعلان ولائه للأولى والمهادنة مع الثانية ، غير أن جهوده السياسية وإن كانت قد أخرت لبعض الوقت تحقيق أطماع الفاطميين فإنها لم تقـــض عليها نهائياً ، وعلى العكس من ذلك فهي قد أتاحت لهؤلاء التسلل إلى

الدولـــة الإخشيدية والدعوة لمذهبهم بين المصريين ، وبذلك أصبحت البلاد مهيأة دعوياً وسياسياً لغزو فاطمي مرتقب بين يوم وآخر حتى جاءها أخيراً بعد سنة من موت كافور على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـــ /٩٦٩م [1] .

---

(1) يحوي تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي مادة غنية عن الدولة الإخشيدية وحروبها مع الحمدانيين ، كما أن ابـــن العـــديم أثبت في كتابيه : زبدة الحلب وبغية الطلب مادة فيها تفاصيل عن الإخشيديين في الشام اســتقاها من مصادر شامية وعراقية على السواء ، أضف إلى ذلك أننا نجد لدى مسكويه وابن الجوزي وابن الأثير والمقريزي مادة إخبارية هامة عن الدولة الإخشيدية وسقوطها على يد الدولة الفاطمية .

الفصل الرابع

قيام الدولة السلجوقية

Damascus University


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

العرب والترك :

سُكنت السهوب الواقعة وراء نهر جيحون من قبل شعوب بدوية كان معظمها من الترك أو المغول ، ولقد استطاعت هذه الشعوب أن تقيم خلال فترات التاريخ الطويلة عدداً من الإمبراطوريات ، كما هاجرت مجموعات منها إلى الشرق الأوسط وإلى أوربا ، وأحدثت هذه الهجرات تأثيرات كبيرة للغاية في شعوب العالم القديم والوسيط وبلدانهما.

دولة الخزر :

وبعد قيام الإسلام اصطدم العرب بالترك على جبهتين : جبهة خراسان ثم ما وراء النهر ، وجبهة الخزر وراء أرمينية ، وكانت للخزر إمبراطورية كبرى على رأسها حاكم بلقب خاقان ، ولقد كان الصراع مع الترك أقسى صراع لاقاه العرب ، وكانت جبهة الخزر أعنف جبهة قاتل عليها العرب ، وقام حكام الخزر في القرن الثامن باعتناق اليهودية ، فغدت إمبراطوريتهم إمبراطورية يهودية بقيت حية حتى ما بعد القرن العاشر إذ قضى عليها الروس والمغول قضاءً تاماً ، ولقد حمت إمبراطورية الخزر هذه أوربا وصانتها من دخول العرب إليها ، كما أن يهودها قد تفرقوا في أنحاء أوربا بعد القضاء عليها ، فاندمجوا مع بقايا يهود أوربا فكثر عدد هؤلاء وعلى هذا فغالبية يهود أوربا ، أصلهم خزري وليس بشرقي ألبتة

التركمان وشعوب الغز :

أنهى في عام (٤٦٦ هـ / ١٠٧٣م) محمود بن الحسين الكاشغر تأليف أول

معجم عربي تركي سماه ديوان لغات العرب ، وحينما كان الكاشغري يصنف كتابه هـذا كانت الدولة السلجوقية تُحكم من قبل السلطان ألب أرسلان ثاني سلاطنة السلاجقة ومن أكثرهم شهرة وعظمة ، وقبيل ذلك كان ألب أرسلان ما يزال أميراً يافعاً صنف له كتاب اسمه ملك نامه تحدث فيه صاحبه عن أخبار التركمان والسلاجقة ، وذكر " أنه استفاد أنسابهم وأحسابهم من الأمير اينانج بك ، إذ كان أسنَّ القوم أعرفهم بأنسابهم وأحسابهم " [١] .

ويقدم هذان الكتابان بعض المعلومات شبه الأسطورية عن التركمان قبل تبنيهم الإسلام من ذلك ما يتعلق ببعض العقائد والعادات ، فمن العقائد على سبيل المثال أن " الترك تزعم أن أرواح الموتى تجتمع في كل سنة ليلاً فتدخل الأمصار التي كانت فيها حياة أجرامها وتزور أهاليها ، فمن صادف ذلك الدوي ليلاً مات " ، " والترك تزعم أن الجمعين إذا تلاحما ، فقبل ذلك الجن الذي يسكن ولاية هذين الجمعين يتحاربان تعصباً لصاحب ولايتها من الإنس فمن ظفر منهما يكون الظفر لصاحب ولايته غداً ، ومن انهزم منهما ليلاً تكون الدبرة على الملك الذي يسكن هذا الحزب من الجن في ولايته ، وجيوش الترك تتستر في ليلة الميعاد وتدخل الخيام توقياً من وقع نبال الجن " [٢] .

ومن بعض الأخبار الأخرى يمكن تلمس آثار عقائد طوطمية وشامانية :

" ذلك أن الترك أخذت أسماء اثني عشر صنفاً من الحيوان وسمت به اثني

---

[1] وصلنا كتاب الكاشغري كاملاً ، وقد طبع في ثلاثة مجلدات في الأستانة سنة ١٣٣٣ هـ ، ولم يصلنا كتاب ملك نامة إلا في بعض النقول عنه ، انظر بغية الطلب ، أحمد الثالث ٢٨٦ ــ ظ .

[2] لعل وجود الاعتقاد بالجن لدى المسلمين كان من الأسباب التي ساعدت على اعتناق التركمان لهذا الدين لتوفر هذه العقيدة لديهم ، ولربما استغلت هذه العقيدة من قبل الدعاة الصوفية الذين سببوا تحول التركمان إلى الإسلام .

عشـــرة سنة " ، والترك تزعم في كل سنة منها حكمة ويتفاءلون بها ، فتقول : إذا كـــانت سنة (أوديلي) أي سنة البقر تكثر فيها الحروب كما أن البقر نطاحاً ، إذا دخـــلت ســـنة الدجاج يكثر فيها الطعام ولكن يقع بين الناس التشويش ... وإذا دخلت سة التمساح تكون الأمطار والخصب لأن مسكنه الماء ، وإذا دخلت سنة الخنزيـــر يكـــثر فيهـــا البرد والثلج والفتن ... ولقد كانت غالبية أسماء رجالات الـــتركمان الـــتي وصلتنا هي أسماء حيوانات من جوارح الطير وغيرها من ذلك : جغـــري أي الصـــقر ، وطغـــريل وهـــو طائر أعلى منزلة من الصقر ، وأرسلان أي أسد ...

ويبدو أن الغز كانوا في القرن العاشر شاكانيين ، وهذا يمكن استخلاصه من كـــتابات الجغرافيين والرحالة العرب ومن أخبار بعض المؤرخين " [1] ، ولعل في طـــبيعة الـــتطور الذي أصاب الصوفية الإسلامية بعد قيام الإمبراطورية السلجوقية دليلاً على أن هذه الشامانية لم تزل باعتناق الغز للإسلام بل جاءت معهم وقامت بتأثيرها ، فمن المعروف أن الشامان هو كاهن أو رجل دين ، وهو منجم وطبيب وساحر له القدرة على القيام ببعض الخوارق ولا تزول هذه القدرة بزوال الحياة بل تنتقل معه إلى القبر ، ومعروف أن الصوفي بعد القرن الحادي عشر لم يصبح رجل ديـــن فحسب بل يفهم السحر ويمارسه وينبئ بالمستقبل ، ويشفي من الأمراض ، ولـــه القـــدرة عـــلى فعـــل الخوارق ـــ الكرامت ـــ وتستمر هذه القدرة حتى بعيد الوفاة [٢] .

---

[1] انظر الكاشغري: ١/٢٣٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣/٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، مختصر كتاب البلدان : ٣٢٩ ، الكامل : ٨/٩٨ .

[2] هـــذه مســـألة هامـــة تحتاج إلى مزيد من البحث ، وكتاب Mercea elide بالفرنسية والمترجم إلى الإنكليزية باسم . Shamanisn Archoie techniques of Ecatasy , Lonolon 1964 -

وأخـــيراً يمكن من الكاشغري تحصيل بعض المعرفة فيما يتعلق بعادات الصيد عند الترك ، وأمور القتال لديهم مع إيلائهم استخدام القوس ، أهمية خاصة ، ثم ما يتعـــلق بالخمر وطرق تحضيره الخاصة ، كما أن هناك بعض الأساطير ذات الصبغة الأخبارية العالمية مثل تلك التي تتعلق " بالإسكندر ذي القرنين " وغير ذلك [1] .

إن الموطن الأصلي للشعوب التركية هي بلاد ما وراء النهر التي كانت مناطق تابعـــة ، إما للاتحاد السوفياتي أو للصين الشعبية ، ولقد عرف الجغرافيون العرب ذلـــك ، وعدوا تركستان جزءاً من منطقة بلاد ما وراء النهر ، وطبعاً عنوا بالنهر نهر جيحون oxus الذي أصبح يعرف منذ العصر المغولي باسم anodorya وبعرف الجغـــرافيين العرب شملت منطقة ما وراء النهر جميع الأصقاع الواقعة بين جيحون والصين ، وقد قطنت من قبل البداة الأتراك والمغول [2] .

لقـــد كـــان جيحون في كثير من العصور أكثر من حد جغرافي ، فقد كان بالنسبة للفردوسي صاحب الشاهنامة حداً تقليدياً متفقالً عليه بين إيران وتوران ، وكمـــا أن هناك تمايزاً وعداوة أصيلة بين الماء والنار ، كذلك هي العداوة والتمايز بـــين الإيرانيين والتورانيين ، وحديث هذه العداوة ووقائعها هو الموضوع المسيطر على الشاهنامة [3] .

= هـــو خير كتاب أعرفه يعالج الديانة الشامانية معالجة علمية جيدة وقراءة هذا الكتاب قد تساعد على فهـــم بعض مشاكل التاريخ الفكري للإسلام وحلها ، كما تساعد أيضاً على فهم تاريخ المغول الذين تحركوا بزعامة جنكيز خان .

(1) الكاشـــغري : /٤١-٤٢ ، ٥١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٦٩ ، ٣٠٣ ، ٣/٢٠٤- ٣٠٧ .

(2) مختصـــر كتاب البلدان : ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداضبه : ٣٦ ، صورة الأرض لابن حوقل : ٣٨١ ، الأعلاق النفيسة : ٢٩٥ .

Heetud AL-A'lan, 94 , 99 . Turb'estan., 64 , 65 .

(3) الشاهنامة ، الترجمة العربية : ١/٤٢-٤٣ ، ١٠١ ، المسالك والممالك لابن خرداذبة : ١٥-١٦ .

وعلى الرغم مما قاله الفردوسي من أن دول إيران قد قامت خلال عصورها التاريخية بالدفاع عن حدودها الشمالية الشرقية ضد غزوات البدو سكان السهوب فإن التمايز بين الإيرانيين والتورانيين لم يكن قط بهذه الحدة نفسها ، فلقد عرف هـذان الشعبان بعضهما بعضاً منذ زمن طويل ، وأقاما علاقات متعددة الجوانب وتـنوعة الوجوه بينهما ، وهي بلا ريب لم تتسم دائماً بالصراع والروح القتالية ، ولقـد كان هناك دائماً ترك يقطنون إيران ممن هاجروا إليها ، أو جلبوا أو خلفوا بعد كل غزوة قام بها بداة السهوب .

لقد ذكرنا أن معظم سكان السهوب الواقعة في أعالي جيحون ووراءه كانوا مـن أصل تركي أو مغولي ، ولقد قامت في بلاد ما وراء النهر التسلل والتغلغل في السهول الإيرانية أو الهندية أو الهجرة إليها .

ولقـد كان هناك في أوائل العصور الإسلامية عناصر تركية تسكن ما نعده الآن شـرق أفغانسـتان مع قبائل غزية وخليجية تجوب الهضيبة الواقعة بين كابل وغـزنة ، وهكذا كان سكان التخوم الشرقية لخراسان دائماً ممزوجين بالأتراك . ونجـد صـدى هذا عند الجاحظ في قوله : " أنَّ الخراساني والتركي أخوان ، وأن الحيِّـز واحـد ، وأن حكـم ذلك الشرق ، والقضية على ذلك الصُّقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت ، وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لا تكن متساوية فإنها متناسبة ، وكـلهم خراسـاني في الجمـلة وإن تميـزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجـوه ... وأنَّ اخـتلاف الـتركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلي والزنجي والحبشي فضلاً عما هو أبعد جوهراً وأشد خلافاً ، بل كاختلاف ما بين المكي والمدني والبدوي والحضري

والسهلي والجبلي ، وكالاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي "[1] .

ولقد كانت لمراكز الحضارة والحياة المستقرة في بلاد ما وراء النهر صلات وثيقة مع البداة الأتراك سكان السهوب ليس فقط جغرافياً وإنما اقتصادياً وحضارياً وسياسياً ، وعند قيام الفتح الإسلامي كانت بلاد ما وراء النهر ممزقة سياسياً ، وكانت المدن ومراكز الاستقرار فيها تحكم من قبل الدهاقين أو التجار ، ولقد قاومت هذه العناصر الحاكمة دائماً ، بسبب مصالحها ، أي تدخل خارجي مباشر وأية محاولة لتبديل الأوضاع السائدة ، واهتمت بتأمين سلامة طرق القوافل واستمرار الحركة التجارية وتدفق البضائع والأرباح وحقق هذا بإقامة علاقات طيبة مع سكان السهوب البداة ، وعندما كان يقوم أي تهديد أو عدوان خارجي أو عندما كانت تحدث أية مشاكل داخلية كان هؤلاء الحكام من التجار والدهاقين يستصرخون البداة الأتراك ويعتمدون على مساعدتهم ، وبإمكاننا أن نسوق مثالاً يبرهن على هذا كله ما ذكره الفرشخي صاحب تاريخ بخارى ، أثناء حديثه عن قيام هذه المدينة وسكانها وتطورها فيقول : " واجتمع الناس من كل صوب ، وازدهر ذلك المكان وأقبل الناس من ناحية التركستان ، وكان بهذه الولاية كثير من الماء والشجر والصيد فأعجب هؤلاء الناس بها وأقاموا فيها ، وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون الخيام والسرادقات فتجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر ، واختاروا من بينهم واحداً اسمه " أبروي " نصبوه أميراً عليهم .

وبعد مدة كبر " أبروي " وسلك طريق الظلم في هذه الولاية فلم يستطع الناس الصبر طويلاً ، وفر الدهاقين والأغنياء منها إلى التركستان ، أي الشرق ،

---

[1] رسالة في مناقب الترك : ٥-٦ .

حيـــث بنوا شبه مدينة سموها " حموكت " لأن دهقاناً عظيماً اسمه " حموك " كان رئيـــس تلك الطائفة التي ذهبت إلى هناك ... ثم أرسل الناس الذين بقوا في بخارى رســـولاً إلى عظمـــائهم طالبين النجدة من جور " أبروى " فتوجه هؤلاء العظماء والفلاحـــون (الدهـــاقين) إلى ملك الترك ، واستنجدوا به فأرسل ابنه مع جيش عظـــيم، فـــلما وصل إلى بخارى قبض على " أبروى " وقيده ثم أمر فملؤوا جوالاً بالزنانـــبير وأدخـــلوا فيه " أبروى " حتى مات . وأفد رسولاً إلى حمكت لإعادة هـــؤلاء الذين هربوا من بخارى مع نسائهم وأطفالهم ، ثم صدر فرمان باعتبار كل عائد من حموكت من جملة الخواص لأن كل من كان غنياً ودهقاناً كبيراً كان قد فر وبقي المعدمون والفقراء " [1] .

لقد كان هناك علاقات تجارية كبيرة بين العالم الإسلامي والترك قبل تحولهم إلى الإســـلام وبعده ، ويعود إلى التجار فضل نقل بعض صور الحضارة الإسلامية مـــع الدين الإسلامي إلى أوساط البداة سكان السهوب ، وإنما كان يبدو ، يعود فضل نشر الإسلام بين سكان السهوب إلى جهود عدد من رجال الدين المتصوفة على نحو خاص لا إلى جهود رسمية موجهة [2] .

ونتـــيجة لوجود العلاقات الحربية والسلمية والاقتصادية مع الترك فقد توفر لدى المسلمين خاصة منذ القرن العاشر بعض المعلومات عن قبائل وجماعات الترك الذيـــن كانوا عبارة عن " عدة أجناس وعدة ممالك ، ولكل جنس مملكة منفردة ، ويحارب بعضهم بعضاً ، وليس لها منازل ولا حصون ، وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة ، ومساميرها سيور من جلود الداوب والبقر وأغشيتها لبود ، وهم أحذق

---

[1] تاريخ بخارى : ١٩-٢١ .

[2] انظر أحسن التقاسيم : ٣٢٥-٣٢٦ .

قــوم يعمل اللبود ، لأنها لباسهم وليس بتركستان زرع إلا الدخن ، وإنما غذاؤهم ألــبان الحجور ويأكلون لحومها وأكثر ما يأكلون لحوم الصيد ، والحديد عندهم قليل ، وهم يعملون سهامهم من عظام " [١] .

وأهــم المجموعات التركية التي عرفها العرب دعوها باسم التغزغز أو الآغز على نحو عام باسم الغز ، فهم " عرب الترك ... وهم رماة الحدق " [٢] .

ويبدو أن الغز كانوا في القرن تالعاشر متحدين سياسياً لذلك كانوا أقل شأناً من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية .

ويــبدو أيضــاً أن الغــز كانوا حتى القرن الثامن عندما أصبح لهم نوع من الزعامة الخاصة عبارةً عن قبائل تابعة للإمبراطورية الخزرية .

وفي نهايــة القرن الثامن قام هؤلاء الغز ، وقد أصبح لهم زعامتهم الخاصة ، فــتحركوا غرباً عبر سهوب سيبيريا نحو الأوراك وإلى الفولغا ، وجنوب روسيا ، وأغــاروا في عهــد الخليفة المأمون على أشد وسنة ، وهكذا وصلت أخبارهم إلى أسمــاع العلماء والكتاب المسلمين فأخذوا بالاهتمام بذكرهم ، ومنذ ذلك الوقت أخــذ الغز يتحركون إلى قرب الأراضي الإسلامية وباتجاهها ، وعندما قام الرحالة العــربي ابــن فضلان في (٣٠٩-٣١٠ هــ / ٩٢١-٩٢٢م) برحلته نحو الفولفا قــابل ورأى جماعات من الغز ، ولقد وصف ابن فضلان حالة الفقر والتعاسة التي كــان يعاني منها هؤلاء القوم ، كما ذكر بأن زعيمهم كان يحصل لقب يبغو في حــين أن القائد العسكري عندهم كان يعرف بسباشي ــ أي صاحب الجيش ، وكان هناك قائد أدنى مرتبة منه دعي باسم ينال [٣] .

---

(1) الأعلاق النفسية : ٢٩٥ .

(2) مختصر كتاب البلدان : ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه : ٣٦ ، الأعلاق النفسية : ٢٩٥ .

(3) ابن فضلان ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ . The cambridge history of iron V. 16-17

وإن حصـــل زعيم الغز للقب (يبغو) له دلالته لأن يبغو أو " يغفو لقب من كان بعد الخاقان بدرجتين " ، " والخان هو الملك الأعظم منهم ـــ الترك ... وهو الخاقان " [١] .

وليـــس هـــذا يعـــني فقط أن الغز لم يتطلعوا آنذاك نحو تشكيل إمبراطورية فحسب ، بل لم يكونوا قد وصلوا بعدإلى مرحلة من التطور السياسي والحضاري تساعد على ذلك .

ولقـــد كـــانوا في القرن الثامن مؤلفين من تسع قبائل [٢] ، وكان لكل قبيلة أمير أو مقدم بك ، دعاه المسلمون " دهقان " [٣] . ويصف صاحب حدود العالم وهو جغرافي فارسي مجهول من القرن الاشر ، بلاد الغز بقوله ، " تقع إلى الشرق مـــنها بلاد الصين وإلى جوانبها تقع أجزاء من التيبت ... وهذه البلاد هي أوسع دارٍ في مواطن الترك ، ولقد كان الغز أكثر الأقوام التركية عدداً ، ومنهم كان في الأيـــام الخاليـــة ملوك جميع تركستان ، إنهم رجال حرب ، في حوزتهم الكثير من السلاح وهم يرحلون في الشتاء والصيف من مكان إلى آخر طلباً للمرعى وحسب الطقس الملائم " [٤] .

ودعـــا العرب الغز أحياناً باسم التركمان ، ونلحظ في البداية ، وفي القرن ، تمييزاً بين الاسمين [٥] ، ولكن منذ أواخر هذا القرن أخذ بالإكثار من من استعمال كـــلمة تركمان بديلاً أو مرادفاً لكلمة غز ، ويقول محمود كاشغري ، " أغز قبيلة

---

(1) الكاشغري : ٢٤/٢ ، ١١٧/٣ .

The Ghazna vide 210 .
(2) The cambridge History of van V. 116 .

(3) صورة الأرض لابن حوقل : ٩٨٧ .

(4) Hudud AL-Alam – 44 .

(5) انظر المقدسي ، وأحسن ، ٢٧٤ .

مـــن الترك وهـم التركمانية " ، ويقول أيضاً : " تركمان هم الغزية " ، ويبدو أن اســـم تركمان كان اسماً سياسياً شمل عدداً من القبائل التركية لذلك كانت ، كما يبدو ، بين التركمان عناصر غير غزية ، ويقول الكاشغري متحدثاً عن القبيلة التي جاء منها القراخانية " قرلق جيل من الترك أهل الوبر سوى الغزية وهم التركمانية أيضاً " [١] .

ويذكـــر الكاشغري أنَّ " التركمانية هم اثنان وعشرون بطناً لكل بطن منها علامة وسمة على دوابهم يعرف بعضهم بعضاً بها " وعندما عدد أسماء هذه البطون بـــين أنَّ قـــنق هي القبيلة المتقدمة بين كل القبائل " ومنها السلاطين " السلاجقة الذيـــن يبدو أن أسرتهم لم تكن في الأصل أكبر أسر القنق أو أكثرها قوة وشهرة ولكـــنها غـــدت كذلك بفضل بعض الشخصيات التي ظهرت منها [٢] ، وعندما جاءت إلى أراضي الدولة السامانية .

إن مصدرنا الأساسي بالنسبة لأخبار الأسرة السلجوقية وأصلها كما ذكرنا من قبل هو كتاب ملك نامه ، وعلى ما جاء فيه اعتمد المؤرخون العرب مثل ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ والحسيني في كتابه أخبار الدولة السلجوقية ، أو زبـــدة التواريخ وابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب وغيرهم ، ولعل ابـــن العديم " ذكر صاحب كتاب ملك نامة الذي صنفه لألب أرسلان محمد بن داود أنـــه اســـتفاد أنسابهم وأحسابهم من الأمير أتيانج بك ، إذ كان أسن القوم

---

(1) الكاشغري : ١/٢٧-٢٨ ، ٥٦ ، ٣٩٣ ، وفي ٣/٣٠٤ يقدم الكاشغري قصة أسطورية طويلة تذكر بأن الإســـكندر ذا القـــرنين هـــو أول من أطلق هذا الاسم ، ويوحي هذا بقدم الاسم ، كما توحي القصة بشموله لعدد من طوائف الترك ، انظر أيضاً :

The Ghaznavids , 214 .

(2) الكاشغري : ١/٥٦-٥٨ .

The Ghaznavids , 219 . The cambridge History of iron v, 17 .

Damascus University

وأعـــرفهم بأنسابهم وأحسابهم ، قال كان الأمير سلجوق بن دقاق من أعيان ترك الخزر ، وكان دقائق يلقب بتمر بالغ أي شديد القوس .

قـــال أيـــنانج بك : لما مر زمان على الأمير دقاق ولدله مولود مبارك سماه سلجوقاً ، وكان يلقبه بسباشي ، يعني مقدم الجيش ، وكان لسلجوق أربعة أولاد: ميكـــائيل وموســـى وأرسلان الملقب بيبغو أكلان ، وآخر توفي في زمان شبابه ، وكان للأمير ميكائيل بن سلجوق ولدان طغرلبك وداود جغري بك "[1] .

لقـــد قـــدم ابن العديم نصه هذا عرضاً أثناء ترجمته للسلطان ألب أرسلان ، لذلك جاء قصيراً لا يفي بالغرض ، وما أورده ابن الأثير في الكامل أوفى بكثير مما جاء عند ابن العديم ، لكن ابن الأثير على عكس ابن العديم لايصرح باسم مصدره ولعله نقل بتصرف عن ملك نامه وأضاف إلى معلومات هذا الكتاب معلومات من مصادر أخرى يقول ابن الأثير " فأما تقاق فمعناه القوس الحديد ، وكان شهماً ذا رأي وتدبير ، وكان مقدم الأتراك الغز ومرجعهم إليه لا يخالفو له قولاً ولا تعدون لـــه أمـــراً ، فاتفق يوماً من الأيام أن ملك الترك الذي يقال له يبغو جمع عساكره وأراد المســـير إلى بلاد الإسلام ، فنهاه تقاق عن ذلك وطال الخطاب بينهما فيه ، فأغلظ له ملك الترك الكلام فلطمه تقاق فشج رأسه فأحاط به خدم ملك الترك ، وأرادا أخذه ، فمانعهم وقاتلهم واجتمع معه من أصحابه من منعه فتفرقوا عنه .

وأقام تقاق عنده وولده سلجوق ، فإنه لما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخـــايل الـــتقدم ، فقربه ملك الترك وقدمه ولقبه سباشي ، ومعناه قائد الجيش ،

---

[1] بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٨٦ ظ ، ورسم ابن العديم في مكان آر من كتابه ٣/٢٧٩ ظ اسم دقاق بالتاء (تقاق) ، وقال : تقاق بالتركية معناه القوس من الحديد ، وهذا ما نقله ابن الأثير ٨/٢٢ والحسيني في أخـــبار الدولة السلجوقية ١ ، انظر أيضاً راحة الصد دور ، ١٤٥-١٤٦ ، وعنده أن يونس هو اسم الذي توفي في زمان شبابه .

وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له والانقياد إليــه ، وأغرته بقتله وبالغت في ذلك ، وسمع سلجوق الخبر فسار بجماعته كلهم ومـــن يطيعه من دار الحرب إلى ديار الإسلام ، وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين ، وازداد حالــه علواً وإمرة وطاعة ، (أقام بنواحي جند ، وأدام غزو كفار الترك) ، ولقــد حدث هذا ربما في نحو سنة (٣٨٢ هــ / ٩٩٢م) وهذا ما يمكن استنتاجه من بقية سياق الخبر لأنَّ أرسلان بن سلجوق كان في هذه السنة يساعد السامانيين ضــد الــبغراخان هارون الذي أخذ في هذه السنة بخارى فأزال الحكم الساماني وأحــل محلــه الدولــة القراخانية ، هذا ويقدم الراوندي سبباً أكثر إقناعاً لتحرك الســلاجقة نحو الأراضي الإسلامية فيقول : وقد اضطر هؤلاء السلاجقة العظماء بســبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم أن ينزحوا من تركستان إلى ما وراء النهر ووضــاح أن خبر سبب الخلاف بيت تقاق واليبغو ثم سبب نزوح سلجوق قد لا يعــدو أن أكــثر مــن اختراع قد صنع بعد قيام الدولة السلجوقية لتحسين سمعة الســلاجقة وإعطائهــا نوعاً من الهالة الإسلامية الروحانية ، ويستنتج مما نقله ابن العــديم عن ملك نامة قول صاحبها وأرسلان الملق بيبغو أن السلاجقة مع أتباعهم عندما انفصلوا عن الغزنة ادعوا لأنفسهم نفس الألقاب التي كانت لدى أمراء الغز الذين كانوا يدينون بالطاعة لهم .

ونــتابع مــع ابن الأثير رواية قصته : وكان لسلجوق من الأولاد أرسلان وميكــائيل وموســى ، وتوفي سلجوق بجند وكان عمره مئة وسع سنين ، ودفن هــناك وبقي أولاده فغزا ميكائل بعض بلاد الكفار الأتراك ، فقاتل وباشر القتال بنفســه فاستشهد في سبيل الله وخلف من الأولاد يبغو وطغرلبك محمد وجغري بــك داود فأطاعــتهم عشائهم ووقفوا عند أمرهم ونهيهم ، ونزلوا بالقرب من

بخـــارى على عشرين فرسخاً منها ، فخافهم أمير بخارى ، فأساء جوارهم وأراد إهلاكهم والإيقاع بهم ، فالتجؤوا إلى بغراخان ملك تركستان ، وأقاموا في بلاده واحتموا به وامتنعوا ، واستقر الأمر بين طغرلبك وأخيه داود أنهما لا يجتمعان عند بغـــراخان ، إنما يحضره أحدهما ويقيم الآخر في أهله خوفاً من مكر يكره بهم فبقوا كذلـــك ، ثم أن بغـــراخان اجـــتهد في اجتماعهما عنده فلم يفعلا ، فقبض على طغرلبك وأسره ، فثار داود في عشائره ومن يتبعه ، وقصد بغراخان ليخلص أخاه فـــأنفذ إليـــه بغراخان عسكراً ، فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم وخلص أخاه من الأسر ، وانصرفوا إلى جند وهي قريب بخارى ، فأقاموا هناك .

إذن عندما أصبح السلاجقة مع أتباعهم في منطقة بخارى تورطوا في الأعمال والاضطرابات التي أدت إلى تصفية الدولة السامانية ، كما وجدوا أنفسهم طرفاً في الـــنِّزاعات بـــين أمراء القراخانية ، كل هذا يعني أنهم كانوا دائماً جاهزين لتقديم خدمـــاتهم لمن يطلبها ويدفع أكثر ، ومع ازدياد الفوضى التي رافقت زوال الدولة السامانية كانت هناك دائماً حاجة ماسة إلى المقاتلين ، وكان هناك دائماً من يدفع بسـخاء سـواء في مـناطق ما وراء النهر ، أو في الجهة الأخرى ، حيث محمود الغـــزنوي ومشـــاريعه التوسعية التي كانت تحتاج إلى أعداد كبيرة من المقاتلين ، ونمضي مع ابن الأثير في رواية قصته " فلما انقرضت دولة السامانية وملك أيلك خـــان بخارى أعظم محل أرسلان بن سلجوق عم داود وطغرلبك بما وراء النهر ، وكـــان علي تكين من أمراء القراخانية في حبس أرسلان خان ، وهو أيلك خان ، فهـــرب ولحق ببخارى واستولى عليها ، واتفق مع أرسلان بن سلجوق ، فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما إلك أخور أرسلان خان وقاتلهما فهزماه وبقيا ببخارى وكـــان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين فيما يجاوره في

بـــلاده ، ويقطـــع الطريق على رسله المترددين إلى ملك الترك ، فلما عبر محمود جـــيحون هرب علي تكين من بخارى ، وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المغارة والرمل فاحتموا من محمود ، فرأى محمود قوة السلجوقية وما لهم من الشـــوكة وكثرة العدد ، فكاتب أرسلان بن سلجوق واستماله ورغبه فورد إليه فقبض يمين الدولة عليه في الحال ، ولم يمهله وسجنه في قلعة ، ونهب خركاهاته ـــ خـــيمة ـــ واستشـــار فيما يفعل بأهله وعشيرته ، فأشار أرسلان الجاذب ، وهو أكـــثر خـــواص محمود ، بأن يقطع أباهمهم ، لئلا يرموا بالنشاب ، أو يغرقوا في جـــيحون ، فقال لـــه : ما أنت إلا قاسي القلب ، ثم أمر بهم فعبروا نهر جيحون فغـــرقهم في نواحـــي خراســـان ، ووضع عليهم الخراج ، فجار العمال عليهم ، وامتدت الأيدي إلى أموالهم وأولادهم " [1] .

ويقـــدم لـــنا الراوندي صاحب راحة الصدور ، وآية السدور رواية أخرى حكـــى فيهـــا كيـــف تم الاتصال بين محمود والسلاجقة ، وقدم بعض التفاصيل الإضافية الجديرة بالاعتبار ، ولكنه اعتبار ينبغي أن يرافق بالحذر ، يقول الراوندي: " فلما أقبل إسرائيل بالغ محمود في إكرامه وأجلسه على العرش إلى جواره ، وعني بتقريبه والترحيب به ، والاهتمام بأمره ، ثم قال له في أثناء الحديث عندما نذهب إلى بلاد الهند لغزو الكفار يلزمنا جيش جرار نسير به إلى هذه الديار ، وينتج عن ذلـــك أن بـــلاد خراسان تبقى معطلة مهملة ، ولي رغبة في أن أعقد معكم ميثاقاً وتحالفاً على أنه إذا خرج علي عدو أو ثار ثائر واحتجت إلى مدد استعنت بخيلكم وفرســـانكم " ، وأجاب إسرائيل قائلاً : " لن يكون مناتقصير عن خدمتكم ،

---

[1] دولة آل سلجوق ، ٥-٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١-٣ ، الكامل : ٧/٢٩٦-٢٩٧ ، ٨/٢٢-٢٣ ، راحة الصدور : ١٤٥ ، ١٥٣ .

وقال محمود : وإذا عرضت لنا حاجة فبأي أمارة يصلنا المدد ، وما مقدار عدده ؟ وكان إسرائيل يعلق قوسه في ساعده ويتدلى من رباط ردائه سهمان ، فأخذ سهماً منهما وأعطاه لمحمود وقال له : أرسل هذا السهم إلى جندنا إذا عرضت لك حاجة إلينا يأتيك منا مئة ألف فارس ، قال محمود : إذا لم يكف هذا العدد فماذا نفعل ؟ فتناول إسرائيل السهم الآخر وقدمه إلى محمود وقال : أرسل هذا السهم إلى جبل بلخان يأتك على الفور خمسون ألف فارس غيرهم ، قال محمود : فإذا لم يكف هذا العدد أيضاً فماذا تفعل ؟ .

عند ذلك ناوله إسرائيل قوسه وقال : أرسل هذا إلى أمارة تركستان يأتك إذا شئت مائتا ألف فارس ، وتدبر محمود هذا الحديث وشغل باله فاحتجز إسرائيل عنده ، وطلب محمود الطعام ، فلما تهيأ المجلس طعماً وشرباً ، وظلا يشربان ثلاثة أيام بلياليها ، وخلع محمود على إسرائيل وفرسانه أطيب الخلع والهدايا ، ثم أمر كل واحد من أمراء جيشه أن يستضيف في معسكره واحداً من أمراء فرسان إسرائيل وأن يسقيه شراباً قوياً حتى إذا لعبت الخمر برؤوس الضيوف قيدهم بالقيود الثقيلة ، وفعل محمود بإسرائيل مثل ذلك وحمله في أثناء اليل إلى بلاد الهند وحبس في قلعة كالنجر ... فأما الرؤساء الآخرون من جيش إسرائيل ممن قبضوا عليهم فإن محموداً أرسلهم إلى القلاع الأخرى (آمنهم على حياتهم) ...

وبقي إسرائيل أسيراً في قلعة كالنجر مدة سبع سنوات ، ثم جاء اثناء من التركمان من فرسانه واشتغلا بالسقاية وحمل الماء إلى هذه القلعة ، حتى إذا حانت لهما فرصة في أحد الأيام قابلاه ودبرا معه حيلة لكي يقوما بخطفه وإخراجه من القلعة في أثناء الليل ، ولكن الطريق كانت ملآى بالغابات والأحراش فلما فعلا ذلك ضلّوا جميعاً الطريق ، فلما كان اليوم التالي وتنبه الحارس للأمر سار في أثره ،

وتمكن من القبض عليه ، وكان إسرائيل عندما أحس بأن الجيش يقترب منه قد قال للتركمانيين : اقطعا الأمل في تخليصي واذهبا إلى أخوتي وقولا لهم : اجتهدوا في طلب الملك ولا تيأسوا ولو أصبتم بالهزيمة عشرات المرات ، وحذار أن تتراجعوا فإن السلطان ما هو إلا ابن عبد الله نسب لـه ، وهو رجل غدار لن يبقى الملك لـه وستزول دولته على أيديكم .... وكان قتلمش بن إسرائيل يطوف متخفياً حوالي القلعة ، فاما بلغه الخبر بوفاة أبيه خرج ....حتى أتى إلى بخارى وحكى لأعمامه سائر الأحوال ، وكان أعمامه يتأهبون لطلب الملك ويتحينون الفرصة للانتقام ....ثم أرسلوا إلى السلطان محمود رسولاً زوده برسالة فحواها : " أن مقامنا أصبح يضيق بنا ، وأن مراعينا أصبحت لا تفي بحاجة مواشينا ، فأذن لنا أن نعبر النهر ، وأن نجعل مقامنا بين نساوبارود ، ولكن أرسلان الجاذب حاكم طوس قال للسلطان : ليس من الصواب أن تسمح لهم بالعبور إلى خراسان ، فإنهم فرسان كثيرون يملكون العدة والعتاد ، وإني أخشى أن يكونوا سبباً في متاعب لا يمكن تلافيها وتداركها ... ولكن السلطان محمود لم يلتفت إلى قوله وقال : إنني لا أهتم بامرهم ولا خشية لي من أمثالهم ، ثم سمح لهم فعبروا النهر "[1] .

إن هذه التفاصيل التي قدمها كل من ابن الأثير والراوندي لا يمكن قبولها لغلبة الخيال والمبالغة عليها ، على أنه رغم ذلك فإنها تدل على قيام علاقات متقلبة بين محمود والسلاجقة ، وعلى ازدياد اضطراب الأحوال في بلاد ما وراء النهر مما اضطر قسما من التركمان إلى عبور النهر إلى بلاد خراسان .

ويبدو أن حادث العبور هذا قد وقع سنة (٤١٦ هـ / ١٠٢٥م) وسواء أكان عبور التركمان قد تم بالإكراه أم بالإذن ، فإن التركمان ـ كما يبدو ـ

---

[1] راحة الصدور : ١٤٨-١٥١ .

كـــانوا منذ تحولهم إلى الإسلام ، يحاولون وهم تحت الضغوط المعاشية والسياسية الشديدة التي كانوا يحيونها ، أن يجدوا مخرجاً وأرضاً يهاجرون إليها ، ويروي عدد مـــن المؤرخين أنه في سنة (٤٠٩ هـــ / ١٠١٨م) ، أو (٤١٢ هـــ / ١٠٢١م) قـــاد جفـــري بـــك فرقة من التركمان وقطع معها المسافة الشاسعة نحو أرمينية وأذربـــيجان ولعـــل الاهدف من ذلك ـــ كان ـــ التحضير لأعمال غزو أو كان ذلك مجرد محاولة اكتشاف مكان مناسب يقدم إليه الغرمهاجرين [1] .

لقد كان التركمان الذين عبروا النهر هم جمعة أرسلان فقط ، وكان عددهم يقـــدر بأرعة آلاف أسرة ، ولقد عبروا مع حوائجهم وأغنامهم وجمالهم وخيولهم وبغـــالهم بعد عبورهم أسكنهم محمود مروج دندانقان ، وهي " بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها بالرمل ... وهي بين سرخس ومرو " [2] .

ويـــروي المـــؤرخ الفارس الراوندي بأن هؤلاء التركمان " قد لزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياة السلطان محمود ، وفي هذه الأثناء نشأ ولدان لميكائيل بن سلجوق أحدهما (جفري بك أبو سليمان داود) والآخر (أبو طالب طغرلبك محمد) وفاز كلاهما بمكان الصدارة والتقدم في جيوش السلاجقة " [3] . ويبدو أن هـــذا لم يكن حقيقة ما حدث ، فالذين عبروا النهر كانوا جماعة إسرائيل فقط ،

---

(1) The Ghaznavids , 223-224 .

وقـــد شك المستشرق الفرنسي كلود شاهين بأن شيئاً من هذا القبيل قد وقع في مثل هذا التاريخ ، وقد فعـــل ذلـــك في معـــرض ردود على مقال كان إبراهيم كافس أوغلو أستاذ التاريخ التركي في جامعة استانبول قد برهن فيعه على صحة تاريخ هذا الحادث ، ولقد ذكر لي الأستاذ إبراهيم شخصياً بأنه عثر مؤخراً على أدلة جديدة تثبت ما ذهب إليه وتحض شكوك كاهين .

(2) أخبار الدولة السلجوقية : ٣ ، دولة آل سلجوق : ٥٠ ، الكامل : ٢٢/٨-٢٣ ، ياقوت : معجم البلدان، The Ghaznavids , 224 .

(3) راحة الصدور : ١٥٤ .

وأما جماعة ميكائيل فقد بقوا في منطقة ما وراء النهر ، وبسبب أن أتباع إسرائيل قدمــوا من قياداتهم باعتقال محمود لها وبسبب تكوينهم البدوي وحالتهم المعيشية فقد تحولوا إلى عصابات شغلت أنفسها بأعمال الإغارة على مدن خراسان وقراها ونهــبها ، مما أدى إلى اضطراب حبل الأمن في خراسان وجعل الكثيرين من أهالي مــدن خراسان يتوجهون بالشكوى إلى محمود يطلبون منه القيام بعمل حازم يضع حداً للاضطراب ، ويقول مصدر معاصر لمحمود " فلما وصلت سنة (٤١٨ هــ / ١٠٢٧م) إلى نهايتها خرج أهل نسا وباورد إلى الحضرة (أي مدينة غزنة) وشكوا إلى السـلطان فساد التركمان ، فأمر السلطان محمود بكتابة رسالة إلى أمير طوس أبي الحــارث أرســلان الجاذب ، وأمره أن يعاقب التركمان ... فنفذ أمير طوس حكم السلطان وأغار عليهم فتجمع التكمان وتقدمواإليه وحاربوه وقتلوا كثيراً من الخــلق ، وأغار بهم أمير طوس ، بعد ذلك عدة مرات ولكنه لم يستطع أن يفعل شـيئاً ... وتراســل السلطان محمود مع أمير طوس ، فأجابه الأمير قائلاً : " لقد قــوي شــأن التركمان ، ولا يستطاع دفع فسادهم إلا إذا خرج إليهم السلطان بشخصه ... فلما قرأ محمود هذه الرسالة ضاق صدره وجرد الجيش ، ثم خرج من غــزنة في سنة (٤١٩ هــ / ١٠٢٨م) فذهب إلى بست ، ثم سار منها إلى طوس وهنالك استقبله أميرها وبين له حقيقة الحال فأمر محمود بأن يخرج أمير طوس معه فــوج كــثيف مــن الجيش لمحاربة التركمان ، فلما وصلوا إلى رباط مزاوة تقابل الجيشــان ، وكــانت الغلبة لجيش محمود ، فأعملوا سيفهم في رقاب التركمان ، وقتــلوا منهم أربعة آلاف من خيرة الفرسان ، وأسروا عدداً كبيراً منهم وفر الباقون إلى بلخان ودهستان " .

ويستخلص من ابن الأثير أن أعمال محمود وولاته العسكرية ضد التركمان

والـنجاحات الـتي حققت مع الانتصارات التي تمت لم تكن حاسمة ، فلقد سببن تمـزق التركمان وتوزعهم في مناطق خراسان مما زاد من اضطراب حبل الأمن ، ويبدوا أنه خلال هذا الوقت لم ينقطع سيل تدفق التركمان وعبورهم لنهر جيحون إلى خراسـان في مجموعـات متفاوتة الحجوم ، ولقد حدُ أثناء تمزق التركمان أن جماعـة في نحـو " ألفـي خـركاه "توجهوا إلى أصيهان باتجاه العراق العجمي وأصـبحت مـنطقة نشاطهم أصبهان والري وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الوقت باسم " **العراقية** " [1].

عندما عاد السلطان محمود من حملته ورجع إلى غزنة أبقى ابنه مسعوداً وراءه في خراسـان ، ولقـد قـامك مسعود أثناء وجوده في خراسان باستخدام بعض الـتركمان في قوانـه ، وفي سـنة (٢٤١هـ / ١٠٥٠م)توفي السلطان محمود الغـزنوي ، ولقدج كانت العلاقلت بين السلطان محمود في سنواته الأخيرة وبين ابـنه الأكبر مسعود سيئة إلى حد أن محموداً حاول أكثر من مرة أن يلقي القبض عـلى مسـعود وقام محمود أيضاً في أخريات أيامه فعين ابنه محمداً ولياً للعهد ، وعندما توفي محمود كان مسعود في خراسان ، لذلك سارع أخوه محمد إلى غزنة وأعـلن نفسـه سـلطاناً جديداً على الدولة الغزنوية ، وهنا قرر مسعود الزحف عـلى غزنة ، وأثناء مسيره نحو غزنة أدخل مسعود عدداً لا بأس به من التركمان في قواتـه وطـبعاً استطاع محمود دونما صعوبة كبيرة أخذ غزنة ونحى أخاه عن السلطنة وعنها " [2].

وأثناء الصراع على العرش الغزنوي عاد التركمان الذين كانوا قد " ذاقـوا

---

[1] الكامل : ٧/٢٣٧-٣٣٩ ، راحة الصدور : ١٥٤ .

[2] البيهقي : ١٢-١٣ ، ٦٧-٦٨ ، ٧٣ -٧٤ ، ١٣٩ ، ١٤١ .

The Ghaznavids , 227-228 .

حـــلاوة غنائم خراسان إلى سيرتهم الأولى من النهب والسلب " ، وبعد أن أصبح مســـعود ســـلطاناً على الإمبراطورية الغزنوية تتابع تدفق التركمان على خراسان وازداد نشاطهم فيها ، ويذكر البيهقي أنه في صيف سنة (٤٢٤ هـــ / ١٠٣٣م) " جـــلس السلطان مسعود ذات يوم للاستقبال ، وكانت رسالة من صاحب بريد الـــري قـــد وصلت وفيها أن التركمان لا يقر لهم قرار ... وأنهم على وشك أن يفســـدوا في الأرض " وحاول مسعود بتصرف صبياني أن يحل مشكلة التركمان بالـــري وغيرها ، وذلك بأن يدبر أولاً بنوع من التآمر أمر القضاء على التركمان الذيـــن كانوا في هراة ، ومن ثم ينقلون إلى غزنة ، وبعدها تتابع الخطة مع غيرهم مـــن تركمان مدن خراسان ، ولقد بدت صورة مستقبل الأمور في خراسان للذين كـــانوا عـــلى بينة ومعرفة ببواطن الأمور ، وهم رجال السياسة والخبرة في الدولة الغـــزنوية الذيـــن وجدوا أنفسهم يقادون من قبل سلطان " مستبد برأيه عن غير رؤية " ، بدت هذه الصورة السوداء ولا تبشر بالخير لا في خراسان ولا في غيرها مـــن أراضـــي الغزنويين ، ويروي البيهقي الذي شغل وظيفة نائب رئيس ديوان الرســـائل في عهد السلطان مسعود في كتابه (صحائف مسعودي) الذي ترجم إلى العـــربية باســـم تـــاريخ البيهقي بأنه عندما خطط مسعود للقضاء على تركمان الـــري ـــ كمـــا ذكرنا أعلاه ـــ قال لـــه أستاذه أبو نصر مشكان رئيس ديوان الرسائل : " اكتب إلى وكيل جوزجان وكروان رسالة مني لكي يعرض للبيع ، بمجرد قراءة هذه الرسالة عشرة آلاف من غنمي كباشاً ونعاجاً ، وأن يبيعها بسعر اليوم ويرسل ثمنها ذهباً وفضة إلى غزنة ، فكتبت الرسالة ، فذيلها بخطه ثم أودعت ظـــرفاً ووضـــعت في بـــريد جوزجان ، ثم وضعت الحلقة في كيس البريد وأغلق وأرســـل ، واسترسل أستاذي في تفكير عميق وكنت أحدث نفسي بأن السلطان

إذا كان قد أمر بالقبض على التركمان في الري ، فما معنى بيع غنم رباط كروان بسعر اليوم ؟ . وقال أستاذي : أراك قد استغرقت في التفكير في حديث التركمان والقبض عليهم ، ورسالتي لوكيلي لبيع الغنم ؟ ، فقلت : والله وحياة مولاي إني أفكر في هذا ، ، فقال : أعلم أن القبض على التركمان أمر مخالف للصواب ، لأن من المحال أن تقبض على ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فارس ، ولم يأت كتاب للسلطان يبين الحيلة في القبض على التركمان ، ولكنه يسارع ويأمر بالقبض على نفر منهم في هراة ، وبأن تجلى خيامهم وأمتعتهم ، وبهذا يثيرون هؤلاء القوم الذين جاؤوا مع رحالهم ، وتصل الأخبار إلى الري فيثيرون تركمانها ويجيء بن يغمر ــ أحد قادة تركمان خراسان ــ من بلكان كوه مع فرسان آخرين أقوياء ، فينضم التركمان بعضهم إلى بعض ، ويدخلون خراسان ، ويسلبون كل ما يجدون من الماشية ، لقد تنبأت بهذه الأمور فأمرت ببيع غنمي لأنها لو بيعت بأقل من ثمنها الأصلي فإني سأحصل من ثمنها على شيء ، ولا تذهب أموالي سدى "[1] .

لقد كانت أوضاع خراسان سيئة بقدر كبير ، لكن ليس بسبب التركمان وأعمالهم فقط ، وإنما الأكثر أنها كانت بسبب سوء الإدارة الغزنوية ، وسياستها المالية فقد كان حاكم خراسان زمن مسعود اسمه سوري ، وسوري هذا " كان رجلاً مشهوراً بالظلم ، فإنه حين أطلقت يده في خراسان استأصل شأفة أعيانها ورؤسائها واستحوذ على أموال لا تحصى ، وامتد ظلمه إلى الضعفاء ، وكان يقاسم السلطان ، يعطيه خمسة من كل عشرة دراهم يغتصبها ، أما الأعيان فقد تقطعت بهم الأسباب ، فكتبوا الرسائل إلى ما وراء النهر وأوفدوا رسلهم شاكين لأمراء

---

[1] البيهقي : ٦٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ .

الترك كي يغزوا التركمان بالغزنويين ، وأما الضعفاء فإنهم بثوا الله آلامهم "[1].

وإذا ما عدنا إلى منطقة بلاد ما وراء النهر حيث بقية السلاجقة أتباع موسى وميكائيل ، ولدى سلجوق نجدهم في خدمة علي تكين خان بخارى ، ويبدو أن موسى قد أصبح اليبغو لهؤلاء التركمان ، ولكن القيادة الفعلية والزعامة الحقيقية لم تكن له إنما كانت لولدي أخيه ميكائيل جفري بك ، وطغرلبك ، ويبدو مما رواه ابن الأثير أن العلاقات بين علي تكين والسلاجقة لم تكن دائماً سلمية ، وذلك بسبب طبيعة التركمان البدوية ، ثم لتدفق أعداد كبيرة من الغز من السهوب على أراضي الدولة القراخانية والانضواء تحت راية السلاجقة ، ومهمتا تكن الحال فإن علي تكين كان " ذكياً فذاً محنكاً يعرف كيف يعمل المداراة مع الجانبين ، وكان يتخذ له عدة من التراكمة والسلاجقة ، ويكسبهم لجانبه بالقول الطيب والمال ، فقد كان يرى أنهم لو ابتعدوا عنه ضعف مركزه " .

وفي سنة (٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م) توفي علي تكين " ولما مات انتقلت أمور ولايته إلى ولدين ضعيفين ... وساءت العلاقات بين السلاجقة من ناحية وهذين الولدين ، وقونش سبسهلار ــ قائد قواة علي تكين من ناحية أخرى ــ ولم يعد باستطاعة السلاجقة البقاء في بلاد القراخانية ، ولم تكن لهم القوة الكافية للذهاب لخوارزم واحتلالها ، ولم يكن من المعقول عودتهم إلى السهوب أو التوجه نحو بلاد الخزر ، لذلك لم يكن " لهم مأوى في غير خراسان " فقد ألجأتهم " الضرورة إليها وخاصة بعدما سمعوا عما حصل عليه أتباعهم " الذين عبروا قبلهم من المكانة "[2].

لذلك قام " التركمان والسلاجقة مع جمع كبير من الرجال " قدر " بعشرة

---

(1) البيهقي : ٦٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ .

(2) البيهقي : ٤٧٤-٤٧٥ .الكامل ٢٣/٨ ، راحة الصدور : ٥٤ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٤ .
The Ghaz- navids , 225-226 . The cambridge History of jran : 18-19 .

آلاف فــارس تــركي من كثير من القادة " فعبروا النهر وساروا إلى مدينة نسا ، وبعد عبورهم كتبوا إلى سورى حاكم خراسان الغزنوي كتاباً نصه : " إلى حضرة الشــيخ الــرئيس الجليل السيد مولانا أبي الفضل سوري ، من العبيد يبغو وطغرل وداود مــوالي أمير المؤمنين ، لقد استحالت علينا الإقامة في بخارى ، وفي بلاد ما وراء الــنهر ، فقد كانت صلتنا بعلي تكين إبان حياته صلة مجاملة وود وصداقة ، واليــوم قــد مات وآل الأمر إلى ولديه ، وهما طفلان طائشان قد استولى عليهما وعــلى الدولة والجيش السبهسلار قونش قائد والدهما ، وقد عادانا حتى استحال علنا العيش هناك ، وإن خوارزم مضطربة أحوالها ... مما يجعل مسيرنا إليها متعذراً ، ولذلــك جئــنا نــلوذ بســلطان العالم ولي النعم ليكرمنا الشيخ سوري ... ، والســلطان يقبلنا عبيداً له ، فيقوم أحدنا بالخدمة في الدركاه وينفذ الآخر ما يأمر بــه الســلطان من خدمات ، فنستريح في ظله الوارف ، ويمن علينا بولايتي نسا وفراوة ، وهما على حدود الصحراء حتى نستقر فيها ويهدأ بالنا ولن ندع مفسداً يخرج على الدولة من بلخان كوه ودهستان وحدود خوارزم وجوانب جيحون ، وسنطارد تركمان العراق وخوارزم .

ولا ندري إذا رفض السلطان ، والعياذ بالله ، التماسنا كيف تصير الأمور ، فليس لنا على وجه الأرض مكاناً نقيم به " .

ويستخلص من هذه الرسالة عدة أمور خطيرة ، فقد اعتبر السلاجقة أنفسهم جماعة مستقلة ، وذلك حين ذكروا بأنهم موالي أمير المؤمنين وليسوا موالي السلطان مسعود ، ثم إنهم لجؤوا إلى التهديد وطالبوا بالقبول بما كان قد حدث كأمر واقع ، باختصار ، لقد قدموا إلى خراسان لا رعاة بل أمراء " ممن يلون الولايات " ، ولقد كتب سوري في رسالته التي أرسلها إلى مسعود يخبره فيها بأمر عبور التركمان "

أن عشرة آلاف فارس من السلاجقة واليناليين قد جاؤوا إلى نسا " .

كما أن السلاجقة في رسالتهم إلى سوري قد تعهدوا بمطاردة تركمان العراق ، ولقد كنا قد تعرضنا مسبقاً لتركمان العراق فأشرنا إلى أنهم كانوا جماعات التركمان الأولى التي توغلت نحو العراق العجمي ، وهؤلاء العراقية كانوا ــ كما يبدو من البيهقي وابن الأثير ــ مؤلفين من عصابات مستقلة من التركمان ، وقد بقوا هكذا فلم يعترفوا فيما بعد بسلطان الأسرة السلجوقة . ويمكن أن تكون لهم صلة بالناوكية ، جماعة التركمان الأولى التي دخلت بلاد الشام ، والتي سنأتي على دراستها ودراسة الأثر الذي قامت به في ما هو مقبل ، ولكن هذه المرة الأولى التي نسمع فيها بجماعة الينالية .

للوهلة الأولى توحي رسالة سوري بأن " الينالية " كانت عبارة عن اسم أطلق على إحدى أسوأ قبائل التركمان ، ولكن واقع الحال ليس كذلك ، فالينالية اسم أطلق على أتباع ينال أو إينال ، وينال عبارة عن لقب أطلق على " ولي عهد " البيغو إذ كان " لكل رئيس من رؤساء الترك من ملك أو دهقان ينال ، أي ولي عهد " ، وإبراهيم كان هو اسم زعيم الينالية الذين عبروا النهر ، وتجعله المصادر أخاً لطغرلبك من أمة ، وسيقوم إبراهيم ينال ــ كما سيمر معنا ــ بعدة حركات تمرد وثورات ضد طغرلبك خاصة سنة (٤٥١ هـ / ١٠٥٩م) حيث لقي حتفه وعلى هذا الأساس ، وبسبب المكانة التي احتلتها الجماعة الينالية بين السلاجقة يجوز أن تفسر الأعمال التي قام إبراهيم ينال لا على أنها حركات تمرد ، وإنما حركات هدفت لاستعادة حقه في السلطة التي اغتصبت من قبل طغرلبك [١] .

---

(1) السبيهقي : ٤٤٩ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، الكامل : ٧/٣٣٨-٣٣٩ ، ٨/٢٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، راحة الصدور : ١٥٤-١٥٥ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٤ ، رسالة ابن فضلان : ٩٧ ، الكاشغري : ٣/١٩ ، مفاتيح العلوم : ٧٣ .

وعـــندما وصـــلت أخـــبار عبور التركمان مع رسالتهم ورسالة سوري إلى السـلطان مسـعود قامت في بلاطه مشاورات طويلة حول أنجح الوسائل وأفضل السـبل لمعالجـة هذه القضية الخطيرة ، ويقدم لنا البيهقي وصفاً شاملاً ودقيقاً لما حـدث من مناقشات ، فقد دعا مسعود إليه أركان دولته من مدنيين وعسكريين وخاطبهم شارحاً لهم الوضع بقوله : " ليس هذا أمراً هيناً ، لقد جاء عشرة آلاف فـارس تركي مع كثير من القادة ، وأقاموا وسط بلادنا ، ويقولون لم يبقَ لنا من مكـان نـأوي إليـه ، والحق أنهم استضعفوا بلدنا ، لن نمهلهم ليجدوا في بلادنا مسـتقراً يـترعرعون فيه ، انظروا ماذا كان هؤلاء من هؤلاء التراكمة من البلاء الإزعاج بعد أن جاء بهم أبي ، وأتاح لهم عبور النهر وإقامتهم في خراسان ، كانوا رعـاة إبل ، وهم الآن ... طالبوا إمارة ، فيجب ألا ندعهم يتنفسون في بلادنا ، والصـواب أن نسـير بأنفسنا لطردهم .. مع غلمان السراي وجند المختارين ... وأن نزحف إلى نسا وحفاً قوياً حتى نستأصل شأفتهم " .

لقد كان مسعود عندما وصله خبر عبور التركمان في مدينة جرجان " فلما قـرأ رسـالة سـوري توجـه إلى نيسابور " ولقد وجد بعد مكناقشات طويلة واستعراض للأحوال أن مسعوداً " لا يستطيع أن ينهض إلى السلاجقة بشخصه " لأن " جيشه كان قد أصيب بوهن شديد بسبب السفر ... وفسد سلاحه بسبب الـرطوبة فعـلاه الصدأ وضعفت دوابه لأنها لم تأكل علف الربيع " لذلك اختار مسـعود " جملة من أمراء جيشه ، زودهم بالعدة والعتاد وأرسلهم لقتالهم " ، لقد كـان عدد هؤلاء الأمراء عشرة على رأسهم الحاجب بكقذي الذي كان مسناً ، لكـنه صاحب تجربة وحنكة عسكرةي ، وكانت حملة الجيش " خمسة عشر ألف فـارس من كل صنف في أهبة تامة ، وألفين من غلمان السراي " ، ومنذ البداية

Damascus University

وقبل أن يتحرك الجيش كان بكقذي يتوقع الإخفاق لحملته نظراً لتعدد القادة وتفاوت التجربة لديهم والأهواء ، وكان في رأيه " القدر لا ينضج إذا كثر الشركاء " و " ينبغي أن يكون القائد الأعلى واحداً " .

وعرض الحال على السلطان مسعود ، فقال بعناد " لا بد أن يذهب بكقذي" ، وهكذا تحركت الحملة في يوم (الخميس التاسع من شعبان سنة ٤٢٦ هـ / ١٩ حزيران ١٠٣٥م) صوب نسا ، وأرسل معها عدداً من الفيلة ، ولقد كان معسكر السلاجقة وتركمانهم قرب نسا ، وفي رمضان سنة (٤٢٦ هـ) ، وأشرف الجيش الغزنوي على هذا المعسكر ، وأعمل الغارة عليه دون أن يأخذ بالحيطة ويحذر طرائق البداة في القتال ، فلقد ترك التركمان قبيل دنو الجيش الغزنوي منهم معسكرهم شبه خالٍ من المقاتلين ، وانسحب المقاتلون إلى حافة الصحراء وهناك أعدوا المكامن ، وأدى هجوم الجيش الغزنوي على المعسكر التركماني إلى إفلات زمام القيادة فيه واختلاط الحابل بالنابل واختلال نظام تعبئته ، فكانت الفرصة التي أعد لها السلاجقة فاغتنموها بالانقضاض على أعدائهم " وكان اليوم شديد القيظ ، واشتعلت الرمضاء وجفت شفاه الجند والدواب من العطش " ولقد كان الماء " رويداً رويداً بالكر والفر " فلم يستطيعوا تدبر ذلك ، فولى الجيش مدبراً ، وتفري أيدي سبأ ، وهكذا حقق السلاجقة أول انتصار رائع لهم بشّر بأن خراسان ستكون لهم ، ولقد غنموا كل ما كان لدى الجيش من آلات وعدد ، ويقول الراوندي : " واستولى السلاجقة على ما قيمته عشرة ملايين من الدنانير من الألبسة والأسلحة والأمتعة والدواب " .

لقد كانت " هذه أول هزيمة جديدة وقعت " على السلطان مسعود " وتوالت الهزائم بعدها وهناً على وهن " ، ولقد تملكت التركمان الحيرة ودهشوا

للنصر المؤزر الذي نالوه ، ولكرة الآلات والنعم والدواب والذهب والفضة والألبسة والسلاح والعدد التي وقعت في أيديهم ، لم يصدقوا أن هذا كله قد حدث فعلاً لهذا " وحين أمنوا عقدوا مجلساً وجلس الأعيان والمقدمون والشيوخ في خركاه وأخذوا يتشاورون ، وقالوا : إننا قد ظفرنا بهذا كطله دون تفكير أو تمهيد ، وإن من المحال الوقوف عند هذا الحد ، ولسنا نحن الذين غلبنا هذا الجيش العظيم ، ولم يتجاوز الأمر أننا حافظنا على أنفسنا وأنهم لم يحسنوا تدبير أمرهم ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى وقوع هذا حتى لا نذهب هباء دفعة واحدة ، فغنمنا بدون قصد كل هذه الآلات ، وكنا فقراء فأصبحنا بفضل الله أغنياء ، والسلطان مسعود ملك عظيم ، وليس له في بلاد المسلمين نظير ، وقد حلت الهزيمة بجيشه لسوء التدبير وضعف القيادة ، ولكن له جنداً وقادة كثيرين ، فعلينا ألا نغتر بنصرنا ، وعلينا أن نوفد إليه رسولاً يتحدث إليه عن ولائنا له ويلتمس العذر ، ويبين رأسينا هو دائماً ما كنا عليه من قبل ، وأنه لم يكن لنا من حيلة سوى المقاومة حين قصد الجند بيوتنا ومتاعنا ، ولنرى ما سيكون جوابه حتى نستطيع أن نتبين طريقنا بعد ذلك " .

على هذا أرسل السلاجقة رسولاً إلى السلطان مسعود مع رسالة ترجو العفو والإعذار ، ولقد وجدت الرسالة أذناً صاغيةً لدى السلطان وأدت إلى تهدئة خاطره ومنعته من إرسال حملة أخرى ، لهذا قام رداً على رسالتهم ، بإرسال رسول إلى معسكر السلاجقة وأمضى فترة من الزمن لديهم ثم عاد إلى السلطان ومعه ثلاثة رسل من مقدمي السلاجقة أحدهم يمثل طغرلبك ، والآخر جغري بك والثالث البيغو [1] .

---

[1] البيهقي ٥٠٢-٥٢٨ ، راحة الصدور ١٥٥-١٥٦ ، الكامل ٢٣/٨٠ ، أخبار الدولة السلجوقية ٤-٥ .

إن إرســـال السلاجقة لهذا العدد من السفراء يدل على أن التركمان ، على الــرغم من أن اليبغو كسلطان من المفروض ـــ ولو على الأقل نظرياً ـــ أن يكون المقــدم عــليهم جميعــاً فإنهم لم يكن لديهم على هذه المرحلة قيادة موحدة ، أو بالحــري لأنهــم لم يكونوا يدينون فعلياً في هذه المرحلة بالولاء لزعيم واحد ، بل لأكــثر مـــن زعــيم ، وأن هؤلاء الزعماء كانوا مستقلين إلى حد ما عن بعضهم بعضــلاً وليســت لهــم سياســة وهــدف واحد يجمعهم ، ولنتذكر أن زعماء الســلاجقة عــندما أرسلوا أولى رسائلهم إلى سوري عنونوها " من العبيد يبغو وطغرل وداود " .

إن التمزق هذا ، كما سنرى ، سيكون وسيبقى أحد أهم مزايا التركمان ، وســنجد أنــه من الأسباب الكبرى التي أعاقت قيام الإمبراطورية السلجوقية ، ثم أعــاقت تطورها إلى دولة مركزية ، كما سيؤدي إلى الانهيار السريع لهذه الدولة ، وهــذا قــد لاءم خير ملائمة وضع العالم الإسلامي الذي كان في القرن لاحادي عشــر ممزقاً ، وسنرى كيف عمل عمله في بلاد الشام والجزيرة ، وكيف كان من الأســباب الرئيسية التي أدت إلى نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ثم كيف ساعد في إنجــاح الفرنجة في البقاء في بلاد الشام حتى زال أخيراً بفضل قيام الدولة الأتابكية التي نجحت في توحيد الشام والجزيرة ، ثم في ضم مصر إلى هذه الأجزاء الموحدة .

لقــد كــانت نية السلطان مسعود آنذاك التوجه نحو الهند، ولقد استجاب لمطــالب رســل التركمان وأعطى ـــ متنازلاً ـــ لمقدمي السلاجقة ولايات نسا وفــراوة ودهســتان ، وأرسل لكل منهم خلعة ومنشوراً ولواء ، كما أعطى كل واحــد مــنهم رتــبة غزنوية " ووجهت إليهم رسائل منه ، خوطبوا فيها بلقب (الدهقان) وأعدت لهم ثلاث خلع كما هو الرسم في خلع الولاة تشتمل الواحدة

على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة (برسم الدولة الغزنوية) وسرج وكمر من ذهب (برسم التركمان) وثلاثين ثوباً غير مخيطة لكل واحد منهم " .

يـروي ابـن الأثير بأن مراسلة السلاجقة للسلطان مسعود كانت مخادعة ، ويتضح من البيهقي أن رجال دولة مسعود كانوا مدركين لهذا الأمر ، ولكن عناد السلطان وطغيانه ثم فراره من مواجهة الواقع المر بالحزم والجد قد حال دون القيام بعمل مُجدٍ " [1] ، على أن مصادر أخرى توحي بأن السلطان قد حاول أن يفتت السـلاجقة ويخلخل صفوفهم بأن يفصل البيغو عنهم بالوقت نفسه أراد أن يؤمن لنفسـه بعضـاً من النفوذ عليهم باقتراح قيام علاقات زواج بين الزعماء الثلاثة والسلطنة ، فاقترح زواج البيغو من ابنة سوري عميد خراسان وزواج طغرلبك من ابـنة أحـد أمـراء الغزنويين ، وجغري بك من امرأة أخرى حرة ، وقبل البيغو الاقتراح على حين رفض الآخران ، وازداد جرأة وثقة بالنفس [2] ، وأخذا يثيران الفـتن ويخيفـا الـناس ويسلبان كل ما يجدانه ، ولقد أخفقت كل جهود والي خراسان في إخضاعهما [3] .

وتقديـراً منهما لقوة مركزهما ولضعف السلطنة على نيلها بأذى أرسلا في أول سـنة (٤٢٨ هـ / ١٠٣٦م) بعثة إلى السلطان مؤلفة من رسولين أحدهما كان فقيهاً من أهل بخارى ، وكان الثاني تركمانياً يمت إلى السلاجقة بصلة القرابة وكان مع الرسولين رسالة نصها : " إننا إلى الآن لم نتجاوز حدنا بشيء ، لكن في خراسـان ــ كما لا يخفى ــ تركمان آخرون ، وهم لا يزالون يفسدون عليهما لأن طريقي جيحون وبلخان كوه مفتوحان أمامهم ، وهذه الولاية التي منحها إيانا

---

(1) البيهقي : ٥٢٨-٥٣١ ، راحة الصدور : ١٥٦ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٥ ، الكامل : ٢٣/٨-٥ م.

(2) The Ghaznavids , 243 .

(3) البيهقي : ٥٣٥-٥٣٦ ، راحة الصدور : ١٥٧ .

السلطان ، قد أخذت تضيق علينا ، وأصبحت لا تكفي لسكن من معنا من الناس وكان يرجى أن يمنحنا السلطان بعض المدن الصغيرة مثل مرو وسرخس وبارود ، على أن يكون صاحب البريد والقضاة وصاحب الديوان فيها من قبل السلطان ، فيجبوا الأموال ويصرفوا أرزاقنا ، ونكون نحن جند السلطان ، فنطهر أرض خراسان من المفسدين ، ونؤدي ما يوكل إلينا من خدمات في العراق ، أو أية ناحية أخرى ، طائعين ، ونقدم على أخطر الأعمال بأمره ، ومن الجائز أن يرابط الحاجب سباشي بجيشه في نيسابور وهراة ، ولكن إذا قصدنا بسوء فسنضطر للدفاع عن أنفسنا ، فتزول الهيبة من بيننا ، هذا هو ملتمسنا والأمر للسلطان "(٢)

لقد عاد السلطان مسعود إلى غزنة في سنة (٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م) . قادماً من الهند ، ومن غزنة تحول إلى بلخ ، والذي سبب تحوله هذا أخبار خراسان ونشاط التركمان فيها ، فوجه جيشاً عظيماً مع الحاجب سباشي ، وكان رد السلاجقة على تحرك مسعود وإرساله جيش الحاجب سباشي حازماً وهو : " المطالبة بالتخلي لهم عن أجزاء جديدة من خراسان ، وتجميد وإيقاف الأعمال العسكرية ضدهم " ، وعندما وصلت رسالة السلاجقة إلى السلطان مسعود تركت في نفسه أثراً وأغضبته وقال لوزيره : " لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد في تعديهم وتحكمهم فقد دمروا خراسان من جهة ، على حين أنهم يتحايلون بالمكر وزخرف القول من ناحية أخرى ، فيجب صرف هذين الرسولين بعد إفهامهما بأن الحكم سيكون السيف ، وأن الجيوش قد سيرت للقتال " . لقد كانت ردات فعل السلطان مسعود آنية ، ولم يكن لديه القدرة على مواجهة الأمور كما ينبغي ثم الأخذ بالحزم والتسلح والمعاناة والصبر ، فما أن رجع رسولا السلاجقة من

---

(1) البيهقي : ٥٤٤-٥٤٥ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٧ ، The Ghaznavids , 242-243 .

عنده حتى انصرف مسعود إلى لهوه وخمره وصيده وتركت خراسان للقدر .

وفي مطلع سنة (٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م) وصلت السلطان مسعود أخبار تفيد بمجيء دفعات جديدة من التركمان إلى خراسان ونهبها لبعض مدن الإقليم مثل الطالقان وفرياض والري ، ومرة أخرى ثار مسعود للأخبار ولام الحاجب سباشي ووصمه بالتخاذل والتقصير وكتب إليه آمراً بأن يلتحم بالعدو في معركة فاصلة وحاول سباشي أن يدافع عن نفسه ويدفع أمر السلطان ويؤجل تنفيذه إلى أن تقوم الفرصة المواتية لإنزال ضربة قاسمة بالتركمان ، ولقد أرسل سباشي إلى السلطان وصفاً للتركمان وأحواله معهم قال فيه : إنهم " قسموا رجالهم إلى عشرين أو ثلاثين فرقة ، وهم يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والأم منهم ، كما هو حال المدن بالنسبة لنا ، وإني سباشي لا أزال في الحرب معهم حتى الآن وواليات إرسال الطلائع ومواصلة القتال ، وقد تعرفت بحقيقة أحوالهم وأساليبهم في الحرب وقد حفظت الذخيرة ولم يستطيعوا تثبيت أقدامهم في أول بلد في خراسان حتى الآن ... وليس من الممكن أن يصمد جيش السلطان بغير مدد يعينه فإن خطة هؤلاء الخوارج من طراز خاص ... وحرب التعبئة ضدهم ليست من الصواب والرأي ما يرى السلطان ، وإني منتظر جوابه وأنا على أهبة تامة ، ولو رأى السلطان ضرورة ضربهم ضربة قاضية والحملة عليهم حملة رجل واحد ، فليأمر ... بوجوب المبادرة بالقتال ، إذ حين تصلني ، الأوامر ، لن أبقى يوماً واحداً في نيسابور بل سأزحف فوراً إلى سرخس ومرو وأبادر بالقتال ، وبعد مشاورات طويلة خرج أمر السلطان مسعود : على الحاجب سباشي " أن يبادر بقتال العدو حتى نرى ما يقدره الله لنا ، وأن رجاءنا في الله عزوجل أن ينصرنا والسلام " .

وكانت مرو قد غدت مركزاً للسلاجقة آنذاك ، وكانت نيسابور كبرى مدن

خراسان وأشهرها مركزاً للجيش الغزنوي بقيادة سباشي ، ونفذ الحاجب سباشي أوامر السلطان مسعود والتحم بالسلاجقة . " ولم يكد يبدأ المعركة حتى أصابته الهزيمة " ، ولنسمع سباشي يصف ما حدث بنفسه : " لقد قامت حرب مع العدو لم أر أصعب منها ، وظلت المعركة من الصباح حتى صلاة العصر ... ، لقد خان السلطان ـــ المنهنون ـــ للأخبار ـــ حين حدثوه عن الأعداء ، فهونوا من شأنهم وكنت أعمل في صبر يؤدي إلى فرارهم ، ولكن المنهني ضللوا السلطان حتى أوغروا صدره علي فأصر جزماً بوجوب حرب المصاف ، فلما لقيت الأعداء وجدهم نخبة من المحاربين المعدين ، وقد أراحوا أنفسهم من أثقالهم ، وجرت موقعة ليس أشد هولاً منها " .

ولقد كانت قوات التركمان خفيفة مرنة ليس معها أثقال ولا مؤن ولا نساء على حين كان الجيش الغزنوي جيشاً نظامياً يتحرك بثقل وحسب النظم العسكرية يتحرك فيتحرك بحركته الكثير من الأثقال والحاجيات "[1] .

لذلك كان حين يدخل المعركة لا يستطيع التحرك بمرونة ولا يستطيع أن يقاتل وهو خال البال ، بل كان يقاتل وخاطره مشغول بما لديه من ذخائر وأهل أكثر مما هو مصروف لربح المعركة والانتصار على الخصم ، يضاف إلى هذا أن التركمان كانوا يفضلون الجيش الغزنوي ليس بذا فقط ، بل في الروح المعنوية مع المرونة والبراعة في القتال وأيضاً في نوعية الأسلحة ، لقد كان الفارس التركماني يعتمد بالدرجة الأولى على قوسه ، يقوم بالهجمات الخاطفة على خصمه فيصرع فرسه أولاً بأن يرميه ، ثم ينقض بعد ذلك على الخصم المثقل بدرعه أو سابغته

---

(1) البيهقي : ٥٤٥ ، ٥٨١-٥٩٣ ، الكامل : ١٧/٨ ، ٢٤-٢٥ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٥-٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٦ ، راحة الصدور : ١٥٨ .

The cambridge History of Iran , V , P 20 .

وأســلحته الثقيــلة الخاصة التي يصعب استخدامها عليه وهو مترجل فيجهز عليه بســيفه أو دبوسه ، وإذا ما حدث أن كان جيش الخصم مؤلفاً من فرسان ومشاة لحمايــة الفرصان كان التركمان يجهدون في البداية في فصل المشاة عن الفرسان ، ومـــن ثم كان يتم الإجهاز على كل سلاح على حدة ، وفنون التركمان القتالية هذه سنراها في معركة دندانقان ، ثم بعد ذلك في معركة منازكرد وستظهر خلال جميع معارك الحروب الصليبية ، وبخاصة في معركة حطين .

يعــد ابن الأثير النصر الذي ناله السلاجقة ضد جيش سباشي نصراً حاسماً فالمعـــركة التي خاضوها ضد هذا الجيش الضخم (هي الواقعة التي ملك السلجوقية بعدهـــا خراسان ، ودخلوا قصبات البلاد) فدخل طغرلبك مدينة نيسابور بعد أن تخـــلى عـــنها سوري حاكم خراسان ، وبعد أن هجرها الحامية الغزنوية ، ودخل داود جعفـــري بـــك مدينة هراة ، وبعيد دخول طغرلبك إلى نيسابور أعلن نفسه ســـلطاناً وأصبح يعرف باسم ـــ السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبي طالب ـــ واستقبل مع أخيه والبيغو وفادة أرسلها الخليفة العباسي من بغداد مع رسالة ينهاهم فيهـــا عن النهب والقتل والإضرار ويعظهم ، وربما يمنيهم بالاعتراف بعد التعرف على ماهية مشاريعهم وأهدافهم في المستقبل .

ويذكـــر ابـــن الأثير وغيره بأنه جغري بك أراد أن ينهب مدينة نيسابور ، فمـــنعه طغرلـــبك ، واحتج عليه بشهر رمضان الذي تم فيه أخذ نيسابور ، فلما انســـلخ رمضـــان صمم جغري بك على القيام بعملية النهب ، ومرة أخرى منعه طغرلبك " واحتج عليه برسل الخليفة وكتابه فلم يلتفت داود إليه وقوي عزمه على الـــنهب ، فأخـــرج طغرلبك سكيناً وقال له والله لإن نهبت شيئاً لأقتلن نفسي ، فكف عن ذلك " .

لقد حدث هذا سنة (٤٢٩ هـ / ١٠٤٨م) ويدل هذا الخبر على الروح البدوية التي كانت تمتلك السلاجقة وتتحكم بهم آنذاك ، هذه الروح التي كانت تحب النهب ولا تتخلى عنه ، كما أن هذا الخبر يشير إلى أن طغرلبك كان قد أصبح الشخصية الأولى بين السلاجقة وإلى أنه كان يعمل ويخطط من أجل بناء دولة سلجوقية كبرى ، عليها منذ البداية إقامة علاقات طيبة مع الرعية ومع الخليفة في بغداد ، وأخيراً لا حاجة للتذكير بأن هذا الحدث أيضاً على مدى نفوذ الروح الإسلامية بين السلاجقة .

ويقدم لنا البيهقي وصفاً وثائقياً دقيقاً لاحتلال السلاجقة مدينة نيسابور ودخول طغرلبك إليها فيه : " بعد أن جاءت الأخبار بما حل بالحاجب سباشي أقبل إبراهيم ينال بعد اثني عشر يوماً على حدود نيسابور ومعه مائتا رجل ، وأبلغ إنذاراً مع رسول له : بأنه يمثل مقدمة جيش طغرلبك وداود وبيغو ، فإذا كنتم ستحاربون فإنه يعود ليخبرهم بالأمر ، وإذا كنتم مسالمين فليدخل المدينة وليغير الخطبة ، فإن جيشاً كبيراً يسير في إثره " .

أنزل أهل نيسابور رسول ينال في مكان لائق وأخذ أعيان المدينة المؤلفون من القاضي والتجار وسواهم يناقشون ما أتاهم ، وتذكروا قول السلطان محمود الغزنوي لجماعة مثلهم واجهوا من قبل الحالة نفسها وقرروا المقاومة : (ما شأن الرعية بالقتال .. فإن كل ملك يتسلط عليكم ـ أيتها الرعية ـ ويلزمكم بالخراج ويؤمنكم عليكم أن تدفعوا له الخراج وتحافظوا على أنفسكم "[1] ، لهذا قر رأي أهل نيسابور على الإذعان بالطاعة وتسليم مدينتهم ، فنادوا رسول إبراهيم ينال

---

(1) هذه حادثة جلية تنبئ عن طبيعة العلاقات بين الحاكم والمحكوم في دول الخلافة العباسية وتبين النظرية والقاعدة السياسية للحكام ، وهي جديرة بالاهتمام والتعقب .

وسلموه جواب رسالته : " بأننا رعية ولنا سلطان ، والرعية ليس من شأنها أن تحارب ، وللأمراء السلاجقة أن يدخلوا المدينة فإنها مفتوحة لهم ، فإذا كانت لازمة للسلطان فإنه سيأتي للمطالبة بها ، أو سيرسل قائداً لهذا الأمر ، ولكن عليكم أن تعرفوا أن الناس قد خافوكم لما حدث منكم في بلاد أخرى من النهر والمثلة وقطع الرقاب ، ولا بد من انتهاج سبيل آخر ، فإن هناك آخرة غير هذه الدنيا ، وقد رآت نيسابور كثيراً منكم وسلاح أهل هذه البقعة هو دعاء القوامين منهم بالليل ... فلما اطلع إبراهيم ينال على الجواب .. ظهر مع أكثر مما مائتي فارس وكان معه لواء وجنبيتان ، وكان في زينة ذابلة وبسيطة ... وكان شاباً جميل الطلعة ، حلو الحديث ... وبلغ طغرلبك نيسابور بعد ثلاثة أيام ، وخرج الأعيان جميعاً لاستقباله ... كان مع طغرلبك ثلاثة آلاف فارس أكثرهم مدرعون " [1] ، وكان له قوس بنشاب معلق بكتفه ، وفي وسطه ثلاثة سهام ، وكان مدججاً بالسلاح ... وكان السلاجقة كأنهم جماعة من الغوغاء لا نظام لهم وكان من يريد التحدث لطغرلبك يتجرأ عليه ويتحدث إليه " ، وبعدما دخل طغرلبك قصر نيسابور " اعتلى سرير السلطان " ، وهكذا أعلن نفسه سلطاناً جديداً لخراسان [٢] .

وكان السلطان مسعود قد عاد إلى غزنة عقب هزيمة الحاجب سباشي ، وفي غزنة تكونت لديه صورة كاملة عمّا تمّ في خراسان ، وبعد مناقشات تقرر أن يتحرك السلطان بنفسه على رأس جيش كبير من أجل استرداد خراسان وطرد

---

[1] ربما مما رحوه من القوات الغزنوية ولإظهار الأبهة فقط .

[2] السبيهقي : ٥٩٤-٦٠٤ ، الكامل : ٢٥/٨ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٦-٧ ، The Ghaznavids , 244-245. ، The cambridge History of Iran , V , P 20 .

التركمان منها ، وكان أول ما فعله أن أرسل إلى خراسان بالتصريح الآتي :

" إنـــا زاحفون مع خمسين ألف فارس وراجل وثلاثمئة فيل ، ولكن نعود إلى غـــزنة مهمـــا تكن الظروف حتى نخلص خراسان " . وفي الأيام الأخيرة من سنة ٤٢٩ هـــ / ١٠٣٨م) " استعرض السلطان مسعود الجيش ، وكان جيشاً كثيفاً قيـــل إنه ضم أكثر من خمسين ألف فارس وراجل ، كلهم مجهزون بالخيول القوية والسلاح التام "، وفي (الرابع من محرم سنة ٤٣٠ هـــ / ٧ تشرين الأول ١٠٣٨م) ســـار السلطان مسعود إلى غزنة ، وفي (الرابع عشر من صفر / ١٥ تشرين الثاني وصـــل مع قواته إلى مدينة بلخ ، وأطل السلطان الإقامة في بلخ وقامت عصابات من التركمان بقيادة بعض أمراء السلاجقة بالإغارة على أطراف بلخ حيث قوات مسعود ، وفي منتصف مايس تحرك مسعود نحو سرخس " وكان معه جيش كامل الأهبة وقد أجمع الناس على أنه قادر على غلبة أهل تركستان أجمعين لو واجهوه " وتجمع السلاجقة مع قواتهم التي قدرت بعشرين ألف فارس قرب منطقة سرخس ، ويـــبدو أنهم كانوا يخشون الالتحام مع مسعود وقواته لذلك عقدوا مجلساً ناقشوا فيه الوضع وحاولوا إيجاد مخرج ، ولقد تشعبت آراؤهم في أمر هذا المخرج ، فكان رأي طغرلبك مع لينالليين التوجه غرباً نحو العراق وهجر خراسان ، ولم يكن ذلك صعباً " لأن ـــ كما قالوا ـــ حفنة من المرتزقة والديلم والكرد سيقابلوننا هناك ، والصواب أن نذهب ونغتنم الفرصة ، لأن ثغور الروم ليس فيها مقاتلون وأن نترك خراســـان وهذه النواحي مع هذا السلطان العظيم القوي صاحب الجيوش الجرارة والرعية العديدة " ، ورفض جغري بك هذا الرأي قائلاً : " ما أفدح ما وقعتم فيه مـــن الخطـــأ ، ولو أنكم تزحزحتم عن خراسان ، فلن يقر لكم على الأرض قرار لغـــارات هـــذا الســـلطان علينا ، ولما سيثيره حولنا من الأعداء الأشداء فإن هذا

السلطان سغزونا ، وسيثير من كل جانب أعداء أشداء علينا ، ولقد رأيت حرب هـــذا السلطان وجنده في الميدان ... لقد كان له كل ما يريد من رجال وعتاد ، ولكن الأحمال الثقيلة ليس في وسعهم أن يكونوا بعيدين عنها فبغيرها لا عيش لهم هـــي ســـبب عجزهم لأنهم مضطرون إلى حماية أنفسهم وحماية متاعهم ، أما نحن فخفاف لا متاع لنا ، وقد حلت الهزيمة بيكتغدي وبسباشي بسبب ثقل متاعهم ، ومتاعـــنا خلفنا على مسيرة ثلاثين فرسخاً ونحن بهذا قانعون ، فينبغي أن نمضي في الحـــرب كالرجال حتى نرى تقدير الله عزوجل " ، إن رأي جغري بك هذا كان فيه الصواب كله ، وهو يدل على فهم عسكري ممتاز ، وفيه تقدير لمزايا الصديق ومعرفة بمساوئ العدو ونقاط ضعفه وكيفية استغلالها .

لقـــد قـــدر عـــدد جند السلاجقة في هذه الآونة ـــ كما أسلفنا الذكر ـــ بعشـــرين ألف فارس وهناك إشارات إلى أن هذا العدد في الواقع لم يتجاوز الستة عشـــر ألفـــاً ، وقد حافظ هؤلاء التركمان ما أمكنهم على تقاليدهم في القتال ، فكـــانوا فارغي البال ـــ كما ذكرنا ـــ من الأثقال والأمتعة لهذا عمدوا إلى عدم الالـــتحام بقوات مسعود في اشتباك مباشر بل أخذوا ، بعد أن تخلوا عن نيسابور وغيرها من المدن ، يجرون جيش مسعود المثقل هذنا وهناك ، ويعملون الغارة عليه فيتعـــبون أفـــراده جســـدياً ومعنوياً ، وهكذا كان الحال إلى أن جاء صيف عام (٤٣١ هـــ / ١٠٣٩م) إذ سار السلطان من نيسابور فسار الجند وراءه متخاذلين " كـــأنهم حقاً يقدمون رِجْلاً ويؤخرون أخرى ، وكان اليوم شديد القيظ ، المؤن قليـــلة ، والعلف لا وجود له والدواب هخزيلة ، والناس صيام ، وقد مر السلطان في الطريق على كثيرين يجرون جيادهم ويبكون فامتلأ قلبه حسره وقال : ما أسوأ حال هذا الجيش " .

ولقد كانت وجهة مسعود نحو مرو ، وفي الطريق لم يتركه السلاجقة يتحرك بحرية ، بل كانوا يعملون الغارات المفاجئة على أطراف قواته ، يقتلون ويأسرون ويعودون بالغنائم ، وأكره جيش مسعود على التوجه حسب مشيئة السلاجقة والتحرك والتصرف حسب ما أرادوه أن يفعل ، وهكذا سيق هذا الجيش العرمرم نحو حواف صحراء الدندانقان ، وجعل يعسكر في مكان قليل الماء كثير الرمال لا كلأ فيه ولا فيما حوله ، وكان التركمان قد ألقوا الجيف في آبار المنطقة كافة ولم يبقى هناك سوى آبار حن دندانقان فأخذ الجند يتخاصمون على شربة ماء ويتصارعون من أجل الوصول إلى بئر داخل الحصن ، وهكذا انعدم النظام داخل صفوف الغزنويين وفر الكثيرين نجاة بأرواحهم ، أو انضموا إلى صفوف التركمان الذين أخذوا يغيرون غارات شعواء ، ويحملون حملات منكرة على من بقي مع السلطان ، ةاستمرت المعارك عدة أيام كاد السلطان مسعود نفسه أن يفقد حياته فيها ، لذلك لاذ حفاظاً على حياته بالفرار ، وتوجه نحو غزنة ، ليخلع ثم يلقى حتفه ، وهكذا تخلى نهائياً عن خراسان للسلاجقة " [1] ، لقد آذن نصر الدندانقان هذا بقيام سلطة إسلامية جديدة وبانحصار ظلم واحدة سابقة لها ، وتعد هذه المعركة من كبريات المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام ، ولم تنحصر نتائجها في حدود عالم الإسلام وإنما تعدته فأثرت في عالم العصور الوسطى كله .

لقد كانت الغنائم التي كسبها الغز في معركة دندانقان أكثر من أن تحصى ، وليس هذا بالهام ، إنما الهام أن طغرلبك عاد بعد نصره إلى نيسابور ودخلها مع جموعه في آخر سنة (٤٣١ هـ أو أوائل سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠م) ، ولم تنج

---

(1) البيهقي : ٦٠٥-٦٠٧ ، ٦٢١-٦٢٤-٦٢٥ ، ٦٨٠ ، ٦٩١ ، راحة الصدور : ١٦٢-١٦٥ ، الكامل : ٨/٢٥-٢٦ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٩-١٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٨ .
The Ghaznavids, 243-258, The cambridge History of iron, vol, P 21-23 .

نيسابور هذه المرة من النهب ، ويقول الراوندي : " فلما أحرز السلاجقة النصر في هذه المعارك ازدادوا قوة ، ولحقت بهم جيوشهم المتفرقة في أطراف خراسان ، فاشتد وقعهم في القوب ، وتقرر الملك لهم ، وسخرت الدنيا لإمرتهم ، واستحقوا السلطان عن جدارة واستحقاق ... واجتمع بعد ذلك الأخوان : جغري بك وطغرلبك مع عمهما موسى بن سلجوق " [1] ، الذي يطلق عليه اسم (يبغو كلان) ومع أبناء أعمامهم وكبار قومهم وقواد جنودهم ، وتعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم ، ولقد سمعت أن طغرلبك أعطى أخاه سهماً وقال له : اكسره ، فتناول أخوه السهم ، وكسره في هوادة ، ثم جمع له سهمين فكسرها أيضاً فيهوادة ، ثم أعطاه ثلاثة فكسرها بصعوبة ، فلما بلغ عدد السهام أربعة تعذر عليه كسرها ، فقال له طغرلبك : إن مثلنا مثل ذلك ، فإذا تفرقنا هان لأقل الناس كسرنا ، وأما إذا اجتمعنا فلا يستطيع أحد أن يظفر بنا ، فإذا نشأ خلاف بيننا لم يتيسر لنا فتح العالم ، وتغلب علينا الأعداء ، وذهب الملك من أيدينا " [2] .

أرسل السلاجقة بعد ذلك رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ هـ /١٠٣١م ـ ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م) يخبرونه بما تم في خراسان ، ويسوغون حربهم ضد السلطان مسعود ويعلنون تعلقهم بالخلافة العباسية والإسلام السني ، ومما قالوه في رسالتهم كما رواها الراوندي " إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائماً الحضرة النبوية المقدسة ، وأحببناها من صميم قلوبنا ، ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار وإعلان الجهاد ، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة ، وكان

---

(1) يبدو أنه كان زوجاً لأمها ولم يكن أخاً لوالدها .

(2) راحة الصدور : ١٦٥ هذا وإن مثل هذا النوع من القصص التي تحض على التوحيد كثيرة في الأدب العربي منها ما قام به المهلب بن أبي صفرة مع أولاده قبيل وفاته وسوى ذلك ، ولعل الراوندي أو سواه قد اخترع هذه القصة .

لنا عم مقدم محترم بيننا اسمه إسرائيل بن سلجوق قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جناية ، وأرسله إلى قلعة (كالنجر) ببلاد الهند ، فبقي في أسره سبع سنوات حتى مات ، واحتجز كذلك في القلاع الأخرى كثيراً من أهلنا وأقارنا ، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب ، فلا جرم إذا طلب منا أعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم ، لكن مسعوداً وجه إلينا جيشه فوقعت بيننا وبينه معارك تناوبنا فيها كراً وفراً وهزيمة وظفراً ، حتى ابتسم لنا الحظ الحسن وظفرنا بالغلبة بمعونة الله عزوجل بفضل إقبالنا على الحضرة النبوية المقدسة المطهرة ، وانكسر مسعود وأصبح ذليلاً ، وانكفأ علمه وولى الأدبار تاركاً لنا الدولة والأقبال ... وشكراً لله على ما أفاءه علينا من فتح ونصر ، فنشرنا عدلنا وإنصافنا على العباد ، وابتعدنا عن طريق الجور والفساد ، ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقاً لتعاليم الدين ، ولأمر أمير المؤمنين "[1] .

بعد هذا قام السلاجقة بتقسيم خراسان بينهم ، فأخذ جغري بك جزءاً منها وترك لليبغو وبقية الأمراء بقية الأجزاء ، وكانت الخطة تهدف إلى إحاطة الدولة الغزنوية والحيلولة بينها وبين محاولة قدوم مهاجرين غز جدد من أجل العمل على إكمال احتلال أراضي الخلافة العباسية وغيرها من ديار الإسلام ، والأراضي البيزنطية ، لقد أوكل لطغرلبك تحقيق هذه المهمة الخطيرة وترك معه ابراهيم ينال وأتباعه ، وابن عمه قتلمش (قطلمش) بن أرسلان بن سلجوق وأتباعه ، وياقوتي بن جغري بك ، وقيسر لطغرلبك احتلال الري قرب طهران الحالية فاتخذ منها قاعدة لملكه ومنها أخذ يبث قواته لإكمال احتلال الهضبة الإيرانية .

---

[1] راحة الصدور : ١٦٦-١٦٧ ؛ تاريخ دولة آل سلجوق : ٧-٨ .

إن مـــا أوكل إلى طغرلبك ، ثم ما حققه من نجاحات في الوصول إلى بغداد وإقامـــة الإمـــبراطورية السـلجوقية هـــي أعظم منجزات السلاجقة وأخطرها وأبعدهـــا تـــأثيراً ليس فقط بالنسبة للتاريخ الإسلامي وإنما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية أيضاً.

لقد كانت مهمة طغرلبك ذات شقين ، أو بالحري كان عليه تأمين غرضين أساسيين : الأول الوصول إلى بغداد وبذلك تم تأمين طريق الحج إلى مكة ، والثاني تـــأمين الطريق نحو إرمينية فممتلكات بيزنطة في آسيا الصغرى وممتلكات الخلافة الفاطمية في الشام وغيره ، ويدل هذا على مطامح واضحة لطغرلبك ، ثم على فهم سياســـي جيد ، وبين (٤٣٢-٤٣٦ هـــ / ١٠٤٠-١٠٤٤ م) استطاع طغرلبك احـــتلال المناطق الواقعة على شواطئ البحر القزويني ، وبعد ذلك مد سلطانه على بـــاقي أجزاء الهضبة الإيرانية ، فاحتل بعد الري همذان ثم أذربيجان ، وقضى على كـــل مقاومة ، بخاصة من قبل الكرد والديلم ، وأصبح الآن الطريق مفتوحاً أمامه نحو بغداد ، وكذلك الطريق نحو أرمينية .

أن يهتم طغرلبك ويعمل للسيطرة على بغداد ذلك أمر مفهوم ، فكل الذين سبقوه في السيطرة على خراسان كان هدفهم دائماً السيطرة على بغداد والتحكم بالخلافـــة العباسية ، وفي تاريخ الدولة السامانية والدولة الصفارية وأعمال محمود الغزنوي أمثلة كافية للبرهان على هذا ، ولكن لماذا اهتم طغرلبك بطريق أرمينية ؟.

لقد كان طغرلبك يقود جماعة من البداة الغز ، وكان هناك سيل غير منقطع مـــن المهاجرين من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان ، والبداة الغز كغيرهم من بني جلدتهم من البداة كان ما يهمهم دائماً هو تأمين المراعي والقيام بالسلب والنهب ومن الصعب السيطرة على البدوي ووضعه تحت سيطرة سلطة مركزية ، وضمن

أنظمـة محددة معنية ، وكان طغرلبك بعد معركة دندانقان بصدد إقامة إمبراطورية سـنية ذات سمعة طيبة فيها أمن ونظام ، وكان من المحال مع هذه الحالة أن يترك بداته ينهبون ، ولكن بداته كانوا أقوى منه ، لهذا وجد طغرلبك أن أفض الحلول للتخـلص مـن بداته هو توجيههم نحو فتوح خارجية في بلدان غير إسلامية ، أو بـلدان لا تديـن بالإسـلام السني ، ولقد كانت أرمينية وبيزنطة البلد الكافر ، وكانت الجزيرة والشام البلد الذي لا يدين بالسنة ، والتوجه نحو الفتوح الخارجية لم يخـلص طغرلبك من مشاكل البداة فحسب ، وإشباع نهمهم من قبل طغرلبك عمـلاً في سبيل مد رقعة دار الإسلام ، وكانت أعمالهم جهاداً في سبيل الله ، لذا كان كل واحد من التركمان يطلق على نفسه لقب (غازي) .

يـروي سـبط بـن الجوزي وغيره من المؤرخين أنه في سنة (٤٣٣ هـ / ١٠٤١م) " قصـد الغزنيسابور ، فقال لهم إبراهيم ينال : هذه البلاد خربت فما تحمـلكم ، اطلبوا بلاد الروم فهي أحمل لديكم ، فساروا إلى الرم ... فأوغلوا في بـلاد الروم فقتلوا وأسروا ونهبوا أشياء كثيرة ، وعادوا إلى أطراف أرمينية ، وقيل أنهم بلغوا خليج القسطنطينية ، وكان معهم محمد بن إبراهيم ينال ، فغنم ابن ينال وحـده مائـة ألف رأس ، وأخذوا من السلاح والمال ما حملوه على عشرة آلاف عجلة ، وقيل بل كان إبراهيم ينال بنفسه معهم "[1] .

في هذه السنة تعرضت أراضي الجزيرة لأول مـرة لغـارات التركمـان ،

---

[1] هناك خلاف بين المؤرخين في أمر تاريخ هذا الحادث ، فبعضهم يجعله (٤٣٥ هـ) ، انظر : أخبار الدولة السلجوقية : ١٧ ، راحة الصدور : ١٦٧-١٦٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٨ ، ابن القلانسي : ٨٣ تـاريخ العظيمي : ١٧١ ظ ، ١٧٣ ظ ، المنتظم : ٨/٩٩ ، ١٠٧ ، ١٣٧ ، الكامل : ٨/٣٨ ، ٤٤ ، مـرآة الزمان ـ مخطوطة المتحف البريطاني : ٨١ظ ، ابن العميد : ٥٤٠-٥٤١ ، ابن حنفل ، ٤/٢٢٠ ظ ، عيون أخبار الأعيان لأحمد البغدادي ـ مخطوطة المتحف البريطاني : ٢١٩ ظ .

واصطدمت دولها بهم .

وكان السلاجقة قد فوضوا كما ذكرنا من قبل طغرلبك ، بعد نصرهم على مسعود ، أمر الوصول إلى بغداد ، وعمل طغرلبك على تأمين الطريق إلى بغداد والطريق إلى أرمينية ، وعندما نجح طغرلبك في تأمين هذه السبل أخذت جموع التركمان تتدفق باتجاه العراق وباتجاه أرمينية ، وقد ضغط هذا التدفق على التركمان العراقية ، ودفعهم نحو الولوج إلى أرمينية والتفتيش عن مواطن وأراضٍ جديدة ، لهذا توجه بعضهم إلى الجزيرة إما للاستقرار فيها ، أو للذهاب منها نحو الشام ، ويقول ابن الأثير " في سنة (٤٣٣ هـ / ١٠٤١-١٠٤٢م) فارق الغز أذربيجان ، وسبب ذلك أن إبراهيم ينال ــ وهو أخو طغرلبك ــ سار إلى الري فلما سمع الغز الذين بها خبر أجفلوا من بين يديه ، وفارقوا بلاد الجبل خوفاً ، وقصدوا أذربيجان ، ولم يمكنهم المقام بها لما فعلوا بأهلها ، ولأن إبراهيم ينال وراءهم كانوا يخافونها ... فأخذوا بعض الأكراد وعرفهم بالطريق ، فأخذهم في جبال وعرة ... وخرجوا إلى جزيرة ابن عمر " . ويذكر ابن العميد في كتابه تاريخ المسلمين أن عدد هذؤلاء الغز كان (ألفاً وستمئة وخمسين فارساً ومعهم أربعة أمراء) وعندما وصلوا إلى الجزيرة اتصلت بهم الدولة المروانية ، وتم بينها وبينهم الاتفاق (في المصالحة والمقام بأعمال الجزيرة إلى أن ينكشف الشتاء ، ويسير ... الغز إلى الشام)[٢] ، لكن المروانيين حاولوا الغدر بالغز ، ونجحوا فقط في أسر أحد مقدميهم واسمه منصور ، وهنا تفرق الغز في أنحاء الجزيرة مغيرين على أملاك المروانيين وأراضي العقيليين ، وتجمعت قوات عقيلية عربية مع قوات كردية

---

(2) صورة الأرض : ١٩٥ ، ذيل تجارب الأمم : ١٧٨-١٨٠ ، الكامل : ١٤٣/٧-١٤٤ ، تاريخ الفارقي : ص٥٩ .

The Islamic Dy nastieo, 53-54 .

مــروانية ضد الغز واشتبكت معهم في معركة انجلت عن نصر الغز ، فازداد عبثهم في الجزيــرة ، وتوجهت القبائل العربية البدوية نحو العراق كي تشتو به (فأخربت الغز ديار بكر ونهبوا وقتلوا ، فأخذ نصر الدولة منصوراً أمير الغز ... وراسل الغز وبذل لهم مالاً وإطلاق المنصور ليفارقوا عمله ، فأجبوه ، فأطلق منصوراً وأرسل بعض المال ، فغدروا وزادوا في الشر . وسار بعضهم إلى نصيبين وسنجار وخابور فنهــبوا ... فدخل قواش الموصل خوفاً منهم " ويبدو من حديث للعظيمي حول هــذه الحادثــة أن حكــم قواش لم يكن شعبياً في الموصل ، وأن بعضاً من أهالي الموصــل قد راسلوا الغز وشجعوهم على غزو الموصل وامتلاكها ، فلما رأوا ذلك تقدمــوا إلى الموصــل فأرسل إليهم يستعطفهم ويلين لهم ، وبذل لهم ثلاثة آلاف ديــنار فلم يقبلوا فأعاد مراسلتهم ثانية فطلبوا خمسة عشر ألف دينار ، فالتزمها ، وأحضــر أهــل البلاد ، وأعلمهم الحال ، فبينما هم بجمع المال إذ وصل الغز إلى الموصــل ونــزلوا بالحصباء ، فخرج إليهم قرواش وأجناده والعامة فقاتلوهم عامة بــنهارهم ، وأدركهم الليل فافترقوا ، فلما كان الغد عادوا إلى القتال ، فانهزمت العزب وأهل البلد وهرب قرواش في سفينة نزلها من داره وخرج من جميع ماله إلا الشيء اليسير ، ودخل الغز البلد فنهبوا كثيراً منه ونهبوا جميع مال قرواش من مال وجوهــر وحــلي وثياب وأثاث ، ونجا قرواش في السفينة ومعه نفر ، فوصل إلى السن وأقام بها وأرسل إلى الملك جلال الدولة البويهي يعرفه الحال ويطلب النجدة وأرســل إلى دبيس بن يزيد وإلى غيره من أمراء العرب والأكراد يستمدهم ما نزل به ، وعمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من القتال ، وهتك الحريم ، ونهب المال ، فلما استقروا فيها قسطوا على أهلها عشرين ألف دينار وأخذوها ثم تتبعوا الــناس ، وأخــذوا كثيراً من أموالهم بحجة أموال العزب ، ثم قسطوا أربعة آلاف

دينار أخرى وهنا لم يعد باستطاعة أهالي الموصل التحمل أكثر فثاروا بالغز ، فقتلوا بعضاً منهم ، وقذفوا بعضاً آخر خارج مدينتهم ، وعندما حصل هذا جمع الغز جموعهم التي كانت متوزعة في الجزيرة ، ودخلوا الموصل عنوة " ووضعوا السيف في أهله ، وأسروا كثيراً ، ونهبوا الأموال ، وأقاموا على ذلك اثني عشر يوماً يقتلون وينهبون ، وبقي القتلى في الطريق ، فأنتنوا لعدم من يواريهم " وطال هذا الحال بالموصل أكثر من عامين ، وهنا كتب جلال الدولة البويهي إلى طغرلبك يشكو هذا البلاء وكتب إليه نصر الدولة المرواني يشكو إليه منهم ، فأجاب طغرلبك ، بالاعتذار ووعد بالعمل على طردهم وملاحقتهم حتى تنتهي أذيتهم ، وقال في صدد ذلك : " إن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيداً وخدماً ورعايا وتبعاً يمتثلون الأمر ويخدمون الباب ، ولما نهضنا لتدبير خطب آل محمود بن سبكتكين وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم ، انحازوا إلى الري ، فعاثوا فيها وأفسدوا ، فزحفنا بجنودنا من خراسان إليهم مقدرين أنهم يلجؤون إلى الأمان ، ويلوذون بالعفو والغفران ، فملكتهم الهيبة ، وزحزحتهم الحشمة ، ولا بد أن نردهم إلى رايتنا خاضعين ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين ، قربوا أم بعدوا ، أغاروا أم أنجدوا " .

في هذه الآونة كان قرواش قد تمكن أخيراً من جمع جيش عربي من قبيلة عقيل وأمده آل مزيد وحكام أسفل وادي الرافدين وعشائرها العربية ، فتوجه نحو الموصل ، فانسحب الغز منها وجمعوا جموعهم المتفرقة في الجزيرة ، يبدو أن هذه الجموع كان قد زاد عددها إلى درجة كبيرة حتى إن ابن الأثير يروي أنهم أصبحوا (نيفاً وثلاثين ألفاً) واشتبكت القوات العربية بالغز " فاستظهرت الغز ، وانهزمت العرب حتى صار القتال عند حللهم ، ونساؤهم يشاهدون القتال ، فلم يزل الظفر للغز إلى الظهر ، ثم أنزل الله نصره على العرب وانهزمت الغز وأخذهم السيف ،

وتفرقوا وثر القتل فيهم ، وقتل ثلاثة وكثر من مقدميهم ، وملك العرب حلل الغز وخـــركاواقم وغنموا أموالهم ولوحق الغز في الجزيرة حتى اضطر من نجا منهم إلى الهرب نحو الأراضي الأرمينية أو الأراضي البيزنطية " [1] .

وسيمر ما يزيد على عشر سنوات قبل أن تطرق الجزيرة مرة أخرى من قبل جماعـــة كـــبيرة مـــن الغز ، وسيكون الذين سيطرقون أراضي الموصل من أتباع طغرلبك ، وذلك أثناء دخول طغرلبك بغداد ، وسعيه من أجل إقامة الإمبراطورية السلجوقية المتحكمة بالخلافة العباسية ، والوارثة للأسرة البويهية .

كـــانت بغداد مع خليفتها في هذه الآونة تحت سلطان أمير الأمراء البويهي ، وكـــان اسمـــه أبـــا كاليجار ، وكان أبو كاليجار هذا قد وقع تحت تأثير الدعاية الفاطميـــة الإسماعيـــلية بعد أن اتصل به المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي (٤٧٠ هـــ / ١٠٧٧م) والاعتبارات كثيرة اضطر أبو كالـــيجار إلى نفي المؤيد في الدين إلى ما وراء الفرات إذ تابع سيره نحو القاهرة ، وفي ســـنة (٤٤٠ هـــ / ١٠٤٨م) بعدما توفي أبو كاليجار خلفه في إمرة الأمراء في بغـــداد أكـــبر أولاده أبو نصر خسرو الذي حصل من الخليفة القائم على لقب المـــلك الرحيم ، ولم يصف الحال للملك الرحيم ، ونازعه سلطانه في كرمان أخو فولاستون ، وفي البصرة أخوه أبو علي " [2] ، ولا يهمنا هنا التبسط بالحديث أبداً

---

[1] المنتصـــم : ١١٧/٨ ، العظـــيمي : ١٧١ ظ – ١٧٢ ظ ، ابـــن أبي الهيجاء : ١٢٥ ظ ، أخبار الدولة السلجوقية : ١٧ ، الكامل : ٣٤١/٧-٣٤٤ ، التاريخ المنصوري : ٧٢ ظ ، تاريخ دول الإسلام للذهبي ١٩٩/١ ، البســتان الجــامع : ٨٧ و ، حوادث السنين : ١٤٢ و، ابن العميد : ٥٤٠-٥٤١ ، الدرة المضيئة : ٣٥٥ .

The Buwayhiol Dy nasty of Bagholad 112-113 .

[2] المنتظم : ١٣٦/٨ ، الكامل : ٥٠/٨ ، ٩٣ .

The Buwayhiol Dy nasty of Bagholad 112-113 .

عن نزاعات البيت البويهي هذه ، لكن ما يهمنا هو أن نلتفت نحو بغداد كي ندرس أحوالها والأسباب التي أدت إلى مجيء طغرلبك إليها ، ومن ثم إزالته للدولة البويهية وإقامته السلطنة السلجوقية .

من الناحية السياسية لم تكن السلطنة في بغداد والمناطق التابعة لها ، والمحكومة من قبلها مباشرة ، في يد أمير الأمراء البويهي فقط أو في يد الخليفة ، بل وجدت في بغداد عدة قوى تصارعت على السلطة فيها ، ويمكن ــ على العموم ــ تقسيم القوى التي كانت تتصارع في بغداد إلى قوتين رئيسيتين ، واحدة عسكرية والأخرى مدنية ، ولقد مثل الجانب العسكري ضابط اسمه البساسيري ، ومثل الجانب المدني ابن السلمة ، وكان سنياً حنبلياً ، وهكذا أيضاً كان أهل بغداد منقسمين بين شيعة أكثرهم اثني عشرية وسنة أغلبهم حنابلة .

والبساسيري هو أبو الحارث أرسلان التركي ، نسب إلى بسا بلدة بفارس " والعرب تسميها فسا ، وينسبون إليها فسوي ، وأهل فارس يقولون بسا بين الباء والفاء ، وينسبون إليها البساسيري ، وكان مولاه رجلاً من أهل بسا ، فنسب الغلام إليه واشتهر بهذه النسبة " ، ولقد بدأ البساسيري حياته كعبد تركي في خدمة الحاكم السبويهي بهاء الدولة فيروز (٣٨٨ ــ ٤٠٣ هـ / ٩٩٨ ــ ١٠١٢م) ، وتدرجت به المناصب حتى أصبح ــ ربما ــ في سنة (٤٣٥ هـ / ١٠٣٣م) الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد ، وفي سنة (٤٣٦ هـ / ١٠٣٤م) كان قد أصبح من كبار شخصيات بغداد ، وهكذا ومع الأيام " عظم شأنه واستغلب أمره ، وقويت هيبته وانتشر ذكره " .

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه مكانة البساسيري ترتفع وسلطته تقوى قام الخليفة القائم بتعيين رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة كاتباً له ، وكان هذا

سـنة (٤٣٦ هــــ / ١٠٣٤م) ، وكان ابن المسلمة " عنده ـــ أي القائم ـــ في منزلة عالية " ، وفي السنة التالية " خلع الخليفة على أبي القاسم علي بن الحسن بن المسـلمة واسـتوزره ولقـبه رئيس الوزراء ، وكان طبيعياً أن يمارس ابن المسلمة سـلطاته ، ويشـارك إن لم يأمر البساسيري ، ولاختلاف طبيعة الرجلين وطبيعة منصـبهما وعقائدهما ، ثم لكونهما من أصحاب المطامح والأهواء كان لا بد من حصـول اصطدام بينهما ، خاصة وأن الخلافة مع الأسرة البويهية كانتا قد وصلتا إلى درجـة من الضعف عجزتا فيه عن أن تقيما توازناً بين الطرفين ، أو تسخرهما حسـب مصـلحة الدولة . ومما ساعد على اتساع رقعة الخلاف بين ابن المسلمة والبساسـيري الأوضاع السياسية الخارجية التي كانت محيطة ببغداد ، فقد كانت هـناك قوة الدولة الفاطمية ومطامحها ، والمؤيد في الدين داعي الدعاة في القاهرة ، ثم من جهة أخرى كانت هناك القوة النامية الطموحة لطغرلبك السني .

وأثـناء الصراع اتهم كل من المتصارعين خصمه بالاتصال بدولة خارجية : اتهم البساسيري ابن المسلمة بالاتصال بطغرلبك والعمل لجلبه لبغداد ، وهذا طبعاً كـان يعـني الخـروج عن السلطة البويهية وخيانتها ، واتهم ابن المسلمة بدوره البساسيري باتصاله بالقاهرة سراً ، والتمهيد للإطاحة بالخلافة العباسية ، وفي أثناء أزمـة الصـراع هـذه فتش كل من المتخاصمين عن حلفاء محليين وغير محليين ، فـتحالف ابن المسلمة مع قريش بن بدران صاحب الموصل لما ملكه من قوة ، ولما تمـتع به موقع الموصل من أهمية ذلك أن أي عمل فاطمي ضد بغداد كان بإمكان الموصـل إضـعافه إن لم يكن بالإمكان إحباطه ، وأخذ البساسيري يسعى لإيجاد حلفاء لنفسه ، وتوجه بأنظاره نحو بني أسد وزعيمها دبيس بن علي بن مزيد .

وفي (شعبان سنة ٤٦٦ هــ / تشرين الثاني ١٠٥٤م) " حصر الأمير أبـو

لمعـــالي قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحها ، وخطب لطغرلبك فيهـــا وفي ســـائر أعمالـــه ، ونهب ما كان فيها للبساسيري وغيره ، ونهب حلل أصحابه بالخالص وفتحوا بوقة ، فامتعض البساسيري من ذلك " ، وفي رمضان من السنة ذاتها قدم بعض من أصحاب قريش إلى بغداد ، فانزعج البساسيري من ذلك وقال : هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل أصحابي ، ونهبوا فتحوا البثوق وأسرفوا في إهلاك الناس ، وأراد أخذهم ، فلم يمكن منهم " .

وبدأ البساسيري ينتقم ويعد العدة للتخلص من ابن مسلمة ، وللتفرد بالحكم في بغداد ، فكان أول ما قام أن احتجز سفينة كانت لأحد أقرباء ابن المسلمة ، ثم قام بعد فترة وجيزة بإسقاط " مشاهرات الخليفة ، أي رواتبه ، من دار الضرب ، أي مركز الخزانة ، وكذلك مشاهرات الرؤساء وحواشي الدار " .

وبالطـــبع لم يقف ابن المسلمة مكتوف اليدين تجاه تصرفات البساسير هذه ، ولم يلق سلاحه ، بل تابع صراعه معه ، وفي السنة التالية (٤٤٧ هـــ / ١٠٥٤م) سافر البساسيري إلى واسط فاستغل ابن المسلمة تغيبه عن بغداد ، وبدأ يعمل على إثـــارة أهالي بغداد السنة وسواهم ضده ، وقام " جماعة من أهل السنة ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحضروا الديوان وطلبوا أن يؤذن لهم في ذلك وأن يـــتقدم إلى أصحاب الديوان بمساعدتهم ، فأجيبوا إلى ذلك " ، وأخذت هذه اللجـــنة تمارس عملها ، وصف " أن أبا سعد النصراني صاحب البساسيري حصل في سفينة ستمائة جرة خمرة ليحدرها إلى البساسيري بواسط " ، وسمع جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا فتوجهوا فوراً في مظاهرة كبيرة مثيرة نحو السفينة فكسروا جرار الخمر ، وبصرف النظر عن أن إراقة (٦٠٠) جرة من الخمر كانت تكلف مبلغاً كبيراً من المال ، وتحبط الكثير من مشاريع الطرب والمتعة ، فإن هذه

الحادثـــة قد أضرت بالبساسيري وزادت سمعته سواءً ، وزادت شقة الخلاف بينه وبين ابن المسلمة اتساعاً ، ولم يكتف ابن المسلمة بهذا القدر ، بل أخذ يعمل على إثارة الجند ضد البساسيري ، وأخذ يتدخل في شؤون العسكر ــ رغم كونه رجلاً مدنيـــاً ــ فقـــد تأخر وصول بعض أرزاق حامية بغداد ، فنسب ذلك إلى عمل متعمد من البساسيري والسبب في ذلك ، وأنه هو الذي يقف وراء مشاكلهم التي يعـــانون منها ، وقال لهم : إن أموالكم قد أخذها البساسيري ، وهي محجوزة في داره ، وإذا أردتم أخذهـــا فـــنحن معكم ، فطمع الجند " واستأذنوا في قصد دور البساســـيري ونهبها ، فأذن لهم في ذلك ، فقصدوها ونهبوها وأحرقوها ، ونكلوا بنسائه وأهله ، ونوابه ، ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد " .

وفي هـــذا الجـــو المشحون عزم ابن المسلمة على توجيه ضربته القاضية ضد البساســـيري ، فأطـــلق " لسانه في البساسيري وذمه ونسبه إلى مكاتبة المستنصر صـــاحب مصـــر " وذلك أمام الخليفة القائم ، و " صح عند الخليفة سوء عقيدته وشـــهد عنده جماعة من الأتراك أن البساسيري عرفهم ــ وهو إذا ذاك بواسط ــ عـــزمه عـــلى نهب دار الخلافة ، والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة أبا طالب محمـــد بن ميكال المعروف بطغرلبك أمير الغز ، وهو بنواحي الري يستنهضه على المسير إلى (العراق) " وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده " " وانفض أكثر من كان مع البساسيري وعادوا إلى بغداد ...

ومضى البساسيري على الفرات إلى الرحبة " ، " وأقبل ... طغرلبك في مائة ألف وعشرين ألفاً من الترك والغز والأعاجم والكرد والديلم وغيرهم من الأجناس فوصل بغداد وهاجمها وقتل منها خلقاً عظيماً ونهبها " ، " ولم يترك الترك ورداً إلا شفهوه ، ولا حسناً إلا شوهوه ، ولا ناراً إلا أرشوها ، ولا داراً إلا شعثوها ، ولا

عصمة إلا رفعوها ، ولا وصمة إلا وضعوها " ، وكان دخول طغرلبك بغداد في (أواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ / أواخر كانون الأول سنة ١٠٥٥م) وفر جند بغداد الترك والديلم منها ، وتلاحق خلق كثير منهم بالبساسيري في الرحبة "[1] .

عندما لحق البساسيري بالرحبة " لقيه معز الدولة ـ يعني ثمال بن صالح ـ (أمير حلب الذي كانت الرحبة إحدى بلدان إمارته) وأكرمه ، وحمل إليه مالاً عظيماً ، وكان قد وصل في قلة " ، ولم يكن اختيار البساسيري لبلدة الرحبة قد تم عن عبث ، فقد كان بإمكانه البقاء في العراق في بلاد (نور الدولة دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما) لكنه آثر المضي إلى الرحبة لما تمتعت به هذه البلدة من مزايا كنا قد أتينا على ذكرها ، ومن الرحبة اتصل ـ أو ربما جدد اتصالاته ـ البساسيري بالخلافة الفاطمية في القاهرة ، ووعد الخليفة المستنصر ، أنه إذا أرسل إليه مالاً كافياً فسيقوم بطرد الغز من العراق ، وبإزالة الخلافة العباسية إحلال الدعوة الفاطمية مكانها . ويذكر المقريزي أن البساسيري قد طلب من الخليفة المستنصر أن يسمح له بالقدوم إلى القاهرة لشرح خططه ، لكن أشير على الخليفة المستنصر رفض طلبه هذا ، كما أشار رجال دولته أن يرسل إليه الأموال اللازمة ، وفي سنة (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م) " جهز الوزير اليازوري خزائن الأموال على يد المؤيد في الدين لأبي الحارث البساسيري ، بحيث لم يبق في بيوت الأموال في القصر شيئاً إلا أخذ لفتح بغداد " ، ويذكر المقريزي بأن ٢,٣٠٠,٠٠٠ من الدنانير هي قيمة ما جهز للبساسيري وأرسل إليه من عين ومتاع ، ولنستمع إلى المؤيد بالدين يصف

---

[1] المنتظم : ١١٨/٨ ، ١٢٧ ، ١٥٩-١٦٥ ، العظيمي : ١٧٧ ظ — ١٧٨ ، ابن أبي الهيجاء : ١٢٦ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٨-٩ ، تاريخ الدولة العباسية لمؤلف مجهول : ٩٤ ظ — ٩٦ و ، الكامل : ٨ ٤٠ ، ٤٢ ، ٦٧ ، ٧٠-٧٢ ، العبر للذهبي : ٢١٢/٣ ، نجوم الزاهرة : ٥٧/٥ ، انظر أيضاً ترجمة البساسيري الملحقة في آخر الكتاب ، أخبار الدولة السلجوقية : ١٧-١٨ ، راحة الصدور : ٦٩ ، ١٧٠

رحلته من القاهرة إلى حلب : " وسرت في جلبة عظيمة قد التف فيها من الوحش والـــركابية المقودين وسفساف الناس من البالغين والحمالين عسكر ، لو لم يمسني غـــير عذابهم عذاباً لكان فيه ما يغني ويكفي ، وكان الناس يتعجبون من أمري ، وقد كان موضع العجب لعمريكيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتي من دون أن يتـــبعني من شيء يسمى العسكر اثنان ... فكان فيما مثل لي أنني سأتتبع ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين أطأهم بلاد ابن صالح ، وأبلغ بهم إلى الرحبة فكـــنت طول المسافة ما بين مصر ودمشق أرتأي في هذا الباب ، فحدثتني نفسي بمـــنافاته للصواب ، فلما وصلت إلى صور واجتمعت مع ابن عقيل ، وجرى بيني وبيـــنه الحديث في مثل ذلك ، وجدت عنده من تهجين ذلك الرأي مثلما عندي ، ووجدت قصده في التدبير بغير ذلك التدبير ، قصدي وبلغت إلى دمشق ، وعرضته على واليس الموضع آخذاً بفضل الاستظهار ، فلم يكن الرأي واقعاً موقع الاختيار فحينئذ كاتبت ابن صالح أشعره بالنصبة التي أنا مأمور بها ، وذكرت أنني متوقف عـــنها تصـــوناً من أن أوطئ أقدام خصومه بلاده ، وأمتطي مطية أمور بما ضمن فســـاده ، وأقول له : هل لك في خدمة سلطانك بما يكشف عن إخلاصك غاشية التهمة والظن ، ويغشي عينيك وسن الامن والأمن ، وذلك أني أسلم نفس وهذه الأمـــوال والخزائن كلها إليك ، ولا أستظهر إلا بمروءتك وإنسانيتك في حفظي وحفظها عليك ... وكتبت إلى الوزير أذكر توجهي إلى ابن صالح غير مستتبع من الكلبيين أحداً ، وأن العدول عن نصبة ما مثل من استصحابهم أقرب إلى الصواب رشداً ، فقامت قيامته في هذا الباب ، وكاتبني يحذرني من تبديل قوله وتعدي حده ورسمـــه ، لم يجد كلامه مني أذناً سميعة ولا نفساً قطيعة " ، " وتردد من المكاتبات الكثيرة والمخاطبات الطويلة بيني وبين الوزير نهياً عن المسير إلى ابن صالح على غير

المـــثالة الـــتي مثلها ، وإباءً مني له وامتناعاً عنه ... وسرت بما صحبني من الأموال العظيمة والسلاح والخيول ، ولقد شققت العصا بالخلاف عليه ، وأنا على تخوف مما ينتهي الحال إليه أخشى أكل لحمي ونهش عظمي في سقيفة كلب وكلاب من قـــبل دخول ترك وتركمان ، فلا أدري بأيهما أنا أكثر فرحاً بالسقيفة أم بالدار ، وكلاهما محيط به سرادق من نار .

وتواعدنـــا أنـــا وابن صالح على أن يلقاني إلى موضع يلي حمص يُقال لـــه الروســـتان (الرستن) على جسر نهر العاصي ، فما زلت أسير عن دمشق رحلة ، وهو يسير عن حلب رحلة ، ومعي صليبة عسكر الشام ، ومعه جمهرة بني كلاب إلى أن الـــتقت الفئتان مناوئهم في المكان المذكور ، فضرب عسكرنا مصافهم على شـــاطئ الـــوادي من العدوة الغربية ووقف عسكرهم من العدوة الشرقية ، وكان الموقـــف موقفاً عجيباً حسناً ، والناس يظنون ظنون ويحسبون حساب ما كان وما يكون ، فسقت جمال الخزائن والأموال والسلاح أمامي ، وسرت في أعقابها على هـــون وسكينة ووقار وسكون ، وأبيت أن يمشي بين يدي إلا اثنان من الشاكرية (المرافقين) لا يحملون بأيديهم حديدة ، حتى التقيت بوجه ابن صالح ، وألقيت إليه السلام في نفسي ، وما يشتمل عليه صحبي" .

ومن الرستن انطلق موكب ثمال بن صالح برفقته المؤيد في الدين ، انطلق هذا الموكـــب شمـــالاً نحـــو حـــلب ، وعند وصوله إلى معرة النعمان التقاهم وفد من رجـــالات البساســـيري ومن جنده فطلب منهم المؤيد التوجه إلى الرحبة لإخبار ســـيدهم بوصـــول الأمداد ، وما أن وصل المؤيد إلى حلب حتى بدأ نشاطاته في تأليب جميع حكام الجزيرة وأمرائها ضد التركمان ، وتجميع قواهم إلى صف قوى البساســـيري ، فراســـل نصـــر الدولة المرواني ، وراسل مانع بن شبيب بن وثاب

النميري صاحب حران وأمير قبيلة نمير ، بعد هذا انحدر إلى الرحبة وبرفقته ثمال بن صالح وجموع قبيلة كلاب ، وفي الرحبة التقى المؤيد بالبساسيري وأوصل إليه كل ما جلبه من القاهرة ، وهنا أخذ البساسيري بمساعدة المؤيد في تجنيد جيش من العرب والبدو الكرد والديلم مع أتراك بغداد ، ويذكر المؤرخ العظيمي أن الجيش الذي جمعه البساسيري ، قد بلغ خمسين ألفا ، وعوضاً عن أن يعبر هذا الجيش الفرات نحو العراق ، فقد لزم شاطئ الفرات مصعداً شمالاً ، وبدأت هذه القوات بالضغط على ثمال بن صالح ، وأخذت بتهديده ، فسلم ثمال إلى البساسيري بلدة الرحبة وتنازل له عنها ، فاتخذها البساسيري مقرا ، وجعل فيها ماله وأهله .

ويتساءل المرء هنا لماذا قبل ثمال بن صالح بالبساسيري وسمح له بالدخول إلى أراضيه ، ثم لماذا قام بعد ذلك باستقبال المؤيد في الدين ورافقه إلى الرحبة ؟ . أو لم ير ثمال في حركة البساسيري تهديداً لوجوده ودولته ؟ . يبدو أن ثمال الذي كان بدوياً من قبيلة كلاب قد رأى في حركة البساسيري ضماناً لحكمه وعوناً لدولته ضد الخطر التركماني ، وهذا يعطي تعليلاً لما رواه ابن العديم من أن بعض رجالات بني كلاب قد أرادوا إلقاء القبض على البساسيري عندما جاء الرحبة فاراً من العراق ، فمنعهم ثمال من ذلك .

ولكن لماذا أراد الكلابيون إلقاء القبض على البساسيري ، هل لمسوا فيه خطراً على سلطانهم أم أنهم أرادوا القبض عليه باعتباره شخصية سياسية هامة يمكن بيعها للخلافة في بغداد أو لطغرلبك بمبلغ كبير ؟ لعل هذا و السبب ، وأن الكلابيين أرادوا تحصيل مبلغ من بغداد ، فإن لم يكن منها فمن القاهرة التي كان يمكن أن تساوم على حياة البساسيري ، يضاف إلى كل هذا أن كون ثمال شيعياً وحركة البساسيري كانت شيعية ضد التركمان السنة يمكن أن يكون من الأسباب

الهامة التي دفعت بثمال للتورط في الثورة وأعمالها .

تابع المؤيد في الدين نشاطه واتصالاته فكاتب دبيس بن مزيد أمير بني أسد الذي كان قد سافر إلى بغداد وحاول أن يقيم تسوية مع طغرلبك ، ذلك أنه كان يخشى تحريك طغرلبك وتركمانه باتجاه الشام ، لأن مثل هذا التحرك كان يسبب الكثير من المضار ، ولقد أقنع المؤيد في الدين دبيس بالتخلي عن اتصالاته بطغرلبك وبأن ينضم إلى معسكر البساسيري ، وفي الوقت نفسيه انضم بعض أمراء عقيل وبخاصة مقلد الأخ الأصغر لقريش بن بدران إلى معسكر البساسيري ، والذي دفعهم إلى هذا هو خصوماتهم مع قريش الذي اعترف الآن بسلطان طغرلبك متابعاً بذلك السير على محور تحالفه القديم مع ابن المسلمة ، والتصدع الذي أصاب صفوف قبيلة عقيل قد أضعف من مركز قريش وأثر في قوته ، خاصة وأن العقيليين تابعوا التخلي عنه والانخراط في معسكر البساسيري حيث وجدوا أموالاً طائلة وجوائز ثمينة وآمالاً زاهية في مغانم كثيرة ستأتي عند أخذ بغداد ونهب دار الخلافة [1] .

يقدم لنا المؤيد في الدين في سيرته لنفسه وصفاً مفصلاً لكل الحوادث التي وقعت في أراضي الدولة المرداسية أثناء ثورة البساسيري ، وبزهد شاذ وصوفية غريبة كتب المؤيد رواياته ، فلقد حرص دائماً أن يظهر أنه هو لا أحد سواه كان وراءه كل حادث ، وأنه فعل كل شيء من دون تكلف أو مشقة ، بل كل ما حصل كان بسبب التوفيق الرباني لمبعوث الإمام الذي أكرمه بكرامة صنع المعجزات ، كما ألان لنبيه داود الحديد ، ونظراً لهذا الشذوذ وهذه البساطة

---

[1] سيرة المؤيد في الدين : ١٠٠-١٢٩ ، العظيمي : ١٧٨ و ، المنتظم : ١٦٣/٨ ، ابن ميسر : ٨/٢ ، الكامل : ٨١/٨ ، ترجمة البساسيري الملحقة بكتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية مرآة الزمان — سويم : ١-٥ ، النجوم الزاهرة : ٥٧/٥ ، العبر : ٢١٢/٣-٢١٥ .

والسذاجة المتكلفة ينبغي أخذ روايات المؤيد بعين الحذر ومعارضتها مع سواها من الروايات قبل قبولها .

بعـــد أن أكره ثمال بن صالح على التنازل عن الرحبة للبساسيري أكره مرة أخـــرى عـــلى التخـــلي عن مدينة الرقة لمانع بن شبيب بن واب أمير نمير ، ولقد أغضب هذا التنازل قبيلة كلاب وسبب بعض التصدع بين صفوفها هذا التصدع سيتطور إلى انشقاق القبيلة وتصارعها مما سيؤدي إلى إزالة الحكم المرداسي وقطعه مؤقتاً من حلب .

بعدما دخل طغرلبك بغداد ألقى القبض على الملك الرحيم آخر أمير للأمراء من الأسرة البويهية ، ونفاه إلى حيث لقي حتفه ، وهكذا زالت الدولة البويهية من الوجود ، وقامت مكانها السلطنة السلجوقية ، لكن أركان هذه السلطنة ما كانت لتثبت قبل القضاء على حركة البساسيري لهذا تقدم الخليفة في سلخ (ربيع الأول ٤٤٨ هـــــ / ١٨ حزيـــران ١٠٥٦م) " إلى السلطان بالمسير إلى الشام ، ويبدأ بالرحبة ، وبأخذ البساسيري ويعبر الفرات ويقيم الدعوة على منابر الإسلام ، فأمر السلطان بالعساكر بأن يتجهزوا ويبعثوا ليحضروا خروكاواتهم وأولادهم وأهلهم ، ويكونوا بالعراق ويتوجهوا إلى الشام ، فقالوا : هذه بلاد خربة وليس بها أقوات ولا علوفات ، ولم يبق معنا نفقات ، ونحن عاجزون عن المقام على ظهور خيولنا ، فكيف إذا جاء أهلونا وخيولنا ودوابنا ، وقد طالت غيبتنا ، ولا بد لنا من الإلمام بأهلـــنا ونحن نستأذن في العودة إليهم ، ونعود حيث يرسم لنا ، فقبض السلطان عـــلى جماعـــة مـــنهم وضربهم وقيدهم واعتقلهم أيامـــاً ، ثم شفع فيهم فأطلقوا وضـــمن عليهم أنهم بعد المهرجان يسيرون إلى الشام " ، وفي هذا الخبر دليل على وضـــع بغداد ، وعلى أن سلطة طغرلبك على عساكره لم تكن متمكنة أو فعالة ،

ويعود سبب ذلك إلى أن هذه العساكر كانت عبارة عن أفراد العشائر البدوية الغزية الذين لم يتعودوا ــ ولن يتعودوا ــ بعد على النظام والأوامر التي ينبغي أن تنفذ دونما مراجعة ، " وقل العسكر ببغداد ومضى أكثرهم إلى خراسان ... وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة من العرب إلى البساسيري ... وأنهم على عزم على قصد بغداد " ، وزادت أحوال بغداد اضطراباً ، ونزل الكثير من جند طغرلبك في بيوت أهالي المدينة واغتصبوها مع أشياء أخرى ، وقد سبب هذا وقوع اصطدامات كثيرة بين الغز وأهالي بغداد مما جعل موقف طغرلبك والخليفة في غاية التحرج لذلك : " استدعى الخليفة رئيس الرؤساء وأظهر التنمر والامتعاض مما عليه الرعية وقال : قد أنهي إلى ما سمعته أذني وشاهدته عيني من ارتفاع الدعاء وما أنابه مطالب ، هذا إلى ما أخافه من سريع المكافأة ، وأنا من ركن الدين بين قسمين : إما اعتماد الحق واستعمال العدل وإنصاف ارعية وإعفائهم من كل أذية وإعادتهم إلى مساكنهم وصيانتهم في معايشهم وأمانتهم في نفوسهم وحراسة أموالهم ، أو المساعدة على مفارقتي لهذا البلد وبعدي عن هذه البلدة ، ولا أقل من اعتزالي عنها والتبري عند الله منها " أبلغ طغرلبك بقول الخليفه وغضبه فقال : " إن هذا العسكر كثير لا قدرة لي على حفظه ، وربما بدت منهم أفعال لا أرضاها وسأتقدم فيما يبين أثره ويحسن موقعه " .

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه أحوال بغداد تزداد سوءاً وفي الوقت نفسه تصبح أكثر ملائمة للبساسيري قام الأخير بالإصعاد نحو الموصل ربما كي يدخلها تحت نفوذه فيحمي ظهره عندما يفكر بعبور الفرات والتوجه نحو بغداد ، وعندما أحس قريش بن بدران بدنو الخطر منه " بعث إلى بغداد بطلب نجدة ومالاً يفرقه في العشيرة " ، " وعزم السلطان على الخروج بنفسه إلى البساسيري فمنعهخ القائم

وقال : أقم وابعث العساكر " ، وجرد السلطان ابن عمه قتلمش والحاجب الكبير وغيرهما في ألفي فارس من الأتراك والغز والتركمان وعشرة آلاف دينار ومائتي ثوب ليغرقها قريش في بني عقيل وخلعة جميلة لقريش وفرس بموكب ذهب ومنجوق ، ولمسلم بن قريش مثل ذلك " ، وسار قتلمش " من بغداد بالغز فنهبوا بلاد العرب وسبوا نساؤهم فمالوا إلى البساسيري ... وراسل دبيس بني عقيل الذين مع قريش وبذل لهم العطاء ، وخوفهم ما يؤول إليه أمر العرب مع الغز " فاستجاب العقيليون لدبيس وأخذوا بالتخلي عن قريش والانضواء إلى معسكر البساسيري " أولاً فأولاً . وقليلاً قليلاً حتى " بقي قريش في عدد يسير من أصحابه وحاشيته " .

وعندما وصلت الحملة الغزية إلى سنجار اشتبكت بقوات البساسيري فحمل البساسيري ودبيس ومن معهم عليهم حملة واحدة فهزموهم بعدما " أنهلت السيوف من دمائهم كما ينهل العطشان من الماء البشيم ، وقتل منهم الخلق الذي لا يحصى عدداً ، ولم يسلم إلا بقية يسيرة أصبحوا شعاعاً بدداً ، ولولا هجوم الليل لأحاط بصغيرهم وكبيرهم سرادق الويل " ، وكان من جملة من " قتل الحاجب الكبير ، وهرب قتلمش ومن بقي معه وغنم البساسيري وأصحابه غنائم كثيرة " ، وهرب قريش بن بدران ونجا بنفسه نحو الموصل وبعدها سار " إلى دبيس ونزل عليه فتكفل بأمره وإزالة الوحشة بيه وبين أخيه والبساسيري ، ولبس قريش خلعة آتية من مصر وأخذ مالاً بعث به إليه " [1] .

وفي بغداد جاء الخبر إلى السلطان طغرلبك بهزيمة قتلمش ومقتل أكثر قواته و "بأن البساسيري دخل الموصل وخطب لصاحب مصر بها " وهنا قرر السلطان أن

---

[1] سيرة المؤيد : ١٢٩-١٣٥ ، والكامل : ٨/٧٧ ، ومرآة سويم : ٤-١٤ ، العبر الذهبي : ٣/٢١٥ .

يقود قواته بنفسه نحو الموصل " وراسل الخليفة في الخروج إلى الموصل ، فما أمكنه دفعــه لأنه دفعه مرات فقال : افعل ما تراه فنحن ما نؤثر بعدك عنا ، ثم بعث إليه رئيــس الرؤســاء ، وهو بالمخيم وقال : إن أمير المؤمنين ما يؤثر خروجك ، وإذا أقمــت وبعثت العساكر كان أكبر للهيبة فقال : قد كان الصواب أن أخرج إلى هــؤلاء وعســكري متوفر والهيبة قائمة فمنعت فأشير علي بإنقاذ العساكر إليهم والمقام ، فجرى ما جرى ، وقدموا وكثروا ولا بد من سيري إليهم قبل أن يتفاقم الأمــر " ، وتحرك طغرلبك على رأس قواته نحو الموصل ، ولم يصلها قبل انقضاء سنة (٤٤٨ هـــ) ودخول سنة (٤٤٩ هــ / ١٠٥٤م) ، وقبل أن يصل الموصل انســحب مــنها البساسيري مع قواته وابتعد عنها مقدار عشرة فراسخ ، وعندما وصــل طغرلــبك الموصل هرب أكثر أهلها منها وعبر إليها " فنَزل دار الإمارة ، ونزل أصحابه دور الناس ، وكانت قد خلت منهم ، وكتب السلطان إلى الخليفة يخبره بنُزوله الموصل " ثم غادها " فطالبه العسكر بنهبها ، فتمنع ... فقالوا : إما أن تأذن لنا في نهبها ، وإلا انصرفنا ، وسأله هزارسب أحد شخصيات دلوته في حريم المســلمين وأموالهم ، فقال : قد دافعت عنهم وما أطقت ولا بد لهم من إقامة أو عطــاء مــا معــي مال فتمضي الليلة وتخرج من في البلد إلى معسكرات ليحرزوا نفوسهم ، فأرسل إلى أهل البلد وأخبرهم فارتاعوا وخرج من قدر منهم ، وأصبح العسكر فدخلوا البلد فما أمس إلا وهو خرب دارس " .

وقــربت قــوات طغرلبك من عساكر البساسيري وعسكر الجيشان مقابل بعضهما ، وخشي كل من الفريقين الالتحام في القتال وقام الوزير الكندري وزير طغرلــبك بمراســلة زعمــاء القبائل العربية في جيش البساسيري وعسكره وأخذ " يــدس إلى القوم دسائس المكر وينصب لهم شرك الغرور بما يؤدي إلى تفريق الشمل

وتعكيس الأمر ، ويضمن لواحد ولاية الموصل ، وللآخر ولاية البصرة وواسط ، فأصاب سهم مكره المقتل ، وضرب سيفه منهم المفصل ولعب بعقول القوم فعصفت بها عاصفات التفريق والتمزيق " و " جاءت رسل قريش ودبيس إلى السلطان يسألان العفو والصفح ويدخلان في الطاعة " ، وأراد هؤلاء الرسل أن يساوموا السلطان على البساسيري وعلى حياته فأجاب السلطان " أما البساسيري فالعفو فيه راجع إلى أمير المؤمنين ، فإن عفا عفونا " ، وقد أزعجت هذه الاتصالات البساسيري وأخافته فرحل إلى الرحبة ومعه الغلمان البغدادية ومن تبعه من بني شيبان والأكراد ومقلد وجماعة " .

وعندما أحس طغرلبك بزوال خطر البساسيري خيل إليه أن قضيته بانت بحكم المنتهية ، لذلك قرر أن يهاجم أراضي الدولة المروانية ويخضعها لسلطانه ، لذلك انساح الغز في أراضي نصر الدولة ، فما كان منه إلا أن أرسل طغرلبك عارضاً اعترافه بسلطانه واستعداده لدفع المبالغ التي تفرض عليه ، ووصل إلى طغرلبك في الموصل " إبراهيم ينال من همذان في عشرين ألف رجل ، فخرج الناس للقائه ولم يتخلف إلا السلطان ، ولما وقعت عينه على عميد الملك ـ الكندري وزير طغرلبك ـ قال له بالتركية : صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلاً لذلك ، وإنما يكون الصلح بين النظراء ، ومن هؤلاء الكلاب حتى لا يقلع أصلهم ؟ " بعد هذا رضي ابن مروان أن يدفع مبلغ (١٠٠ ألف) دينار للسلطان ، لذا سار السلطان طغرلبك نحو سنجار في طريقه إلى بغداد " ففتحها عنوة وسبى نساءها وأطفالها ونهب اموالها وأحرق جامعها ، ونقضت أخشابها ودرست آثارها ، وقيل إن القتل أتى على أربعة آلاف نفس وأكثر وجاف المنزل فارتحل السلطان " نحو بغداد عائداً إليها ، وقبل عودته " سلم إلى إبراهيم ينال الموصل وأعمالها " .

وبعيـد وصول طغرلبك إلى بغداد بقليل طلب أن يسمح له بمقابلة الخليفة ، وبعد فترة قبل الخليفة القائم بمقابلة عبده وسيده الجديد والتعرف إليه لأول مرة ، ويقـدم لنا غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ الذي عاصر هذه الأحداث وعاش تفاصـيلاها وصـفاً حيـاً لهذه المقابلة يقول فيه : وجلس " الخليفة جلوساً عاماً مشـهوداً ، وجلس رئيس الرؤساء في صحن السلام واستدعى النقباء والقضاة والشـهود والأعيان وعميد العراق وحواشي السلطان ، وبعث إلى السلطان ... واسـتدعاه إلى دار الخـليفة ، فنزل في طيار ـــ قارب ـــ الخليفة ، وكان قد زين وأرسل إليه ، وانحدر خواصه في الزبازب ، وعلى الظهر فيلان يسيران بإزاء الطيار والعساكر والناسمن جانبي بغداد ، ثم قُدم له مركب من مراكب الخليفة ، فنفر من الفيـلين ، فقدم لـه من خيله فرس أشهب فركبه وعليه قباء ديباج أسود وعمامة مثلـثة مذهـبه ، ودخل الدار وبين يديه أولاد الملوك وقتلمش ابن عمه وأشراف القواد والديلم ونحو خمسمئة غلام من غلمان الترك ، والكل بغير سلاح ، فلما بلغ باب دهليز صحن السلام وقف طويلاً على فرسه إلى أن فتح له الباب فنزل ودخل ماشـياً ، وتلقاه رئيس الرؤساء ، وكان الخليفة في بيت في صدر البهو وعلى بابه سـتور ديباج ، فرفعت وإذا بالخليفة جالس على سرير ارتفاعه من الأرض سبعة أذرع في سـت ديباج منقوش ، وعليه العمامة والقميص المصمتان ، وعلى منكبه بردة رسول الله ﷺ وبيده القضيب ، فلما رآه السلطان قبل الأرض دفعات كثيرة ونصب له كرسي دون السرير لطيف ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : اصعد ركن الدين إليه ، واصعد معه محمد بن منصور الكندري مفسراً له معبراً عنه ، فصعدا ، فقـال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل لركن الدين أمير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفعلك ، زائد لشغفك بك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد إليه

مـراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك وأعرف نعمته في ذلك واجتهد في عمارة البلاد وصلاح العباد ونشر العدل وكف الظلم " ، ثم أفيضت بعد هذا عليه الخلع وتوج وخوطب بملك المشرق والمغرب ومنح لقب سلطان فكان أول من منح هذا اللقب رسمياً في تاريخ الإسلام ، وبعد أن قبل طغرلبك الأرض عدة مرات سمح له بتقبيل يد الخليفة والمغادرة ، ولكن قبل أن يغادر قيل لـه : " إن الله تعالى أعطاك الدنيا بأسـرها فاشـتر نفسـك من بعضها " وقصد من هذا أن تزداد أعطيات الخليفة ومخصصاته وصلاحياته ، لكن طغرلبك تجنب أن يعد بأي شيء جديد ملزم .

ولم تطـل إقامة إبراهيم ينال في الموصل إذ تركها وقدم إلى بغداد في مطلع سـنة (٤٥٠ هـ / آذار ١٠٥٨م) ، وقد أغضب هذا السلطان وأزعجه فأراد إلقاء القبض عليه لولا توسط الخليفة وإصلاح الحال بينهما إذ عاد إبراهيم أدراجه إلى الموصل وفي نفسه الحقد والاستعداد للثورة ضد طغرلبك .

ولقد عرف البساسيري مع المؤيد في الدين بوجود خلافات بين إبراهيم ينال وطغرلـبك فعملا على استغلال هذه الخلافات وتوسيعها ، وكان البساسيري قد اسـتغل عودة طغرلبك إلى بغداد ثم سفر إبراهيم ينال إليها فجمع قواته قبل سفر الأخـير وتحرك من الرحبة شمالاً نحو بالس (مسكنة الحالية) على الفرات ، فانضم قريش مع قبيلة عقيل إليه ، وكان القصد من تحرك البساسيري نحو بالس الاستيلاء عـليها وذلـك ضـمن خطة مرسومة لتصفية الدولة المرداسية وضم أملاكها إلى الأراضي التي كانت تحكم حكماً مباشراً من قبل الفاطميين في القاهرة .

يروي المؤيد أن القاهرة قد قامت آنئذ بإرسال بعض المبالغ الجديدة إلى حلب وإن ثمال بن صالح قد أعطى هذه المبالغ أخاه عطية بن صالح وطلب منه حملها إلى الرحبة ، لكن عطية عوضاً عن أن يوصل هذه المبالغ كما كلف ، قام باحتجازها

لنفسه ، وقد كان لصنيعه هذا أثر خطير على المؤيد في الدين والبساسيري وأتباعه ، لهذا قرر المؤيد مغادرة الرحبة والتوجه إلى حلب ، وفي طريقه إلى حلب وقبل أن يصلها لقي عطية بن صالح فأصلح أموره معه — أو هكذا تظاهر — ووعده باستصلاح شأنه مع الخليفة الفاطمي ، ويقول المؤيد : (ولما كان ثاني يوم التقائي به صادفت أخاه ثمال بن صالح وقد حشد من حشود عشيرته الكلابية من كان استنهضهم إلى حلة عطية ليحملها حملاً ويلهب النار فيها فتكاً وقتلاً ، فتناوله بلسان وعظ صادق موقعاً من قلبه فمنعته ونهيته عما همّ به نهياً كثر من الصلاح موقعه ، ودفعت به عن حمى الفريقين دفعاً احتمت به حلب أعمالها من الهلكات وأمنت من بغتات الأذى بمشيئة الله " . ويستطرد المؤيد في قصته فيقول : " ولحق أبو الحارث — البساسيري على إثري فنزل ببالس ... ومعه قريش بن بدران ونخبة وجوه عقيل " ، ويعطي المؤيد سبباً لتحرك البساسيري هذا بأنه قد سبق له — أي البساسيري — أن طلب من نصر الدولة المرواني أن يمنحه ملجأ في مملكته ، وقبل أن يأتيه الجواب " قصر باع صبره " فتحرك شمالاً ، وما كانت بالس إلا محطة في طريقه .

وعندما يقوم المرء بفحص قصة المؤيدفي الدين هذه فحصاً نقدياً يجد أن المؤيد قد جافى فيها الصدق وقارب التزييف ، فلقد كان هدف البساسيري هو بغداد ، وكانت الرحبة أحسن قاعدة له للنجاح في مهمته ، ذلك أنها كانت غير بعيدة عن بغداد ، قريبة من الصحراء الشامية التي كان يمكن استخدامها ملاذاً ، وأهم من هذا أنها كانت معيناً لا ينضب من الرجال البداة المستعدين للقتال ، إذا ما حضر الذهاب ، وكان الذهاب إلى الدولة المروانية يعني التخلي عن الثورة ولو أنه كان فعلاً فقد قرر التخلي عن ثورته لما صحب معه جنده مع قريش بن بدران

وقواته العقيلية ، ولهذا يبدو أن تحرك البساسيري هذا كان تنفيذاً لخطة مرسومة .

يذكر غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ بأن بالس قد كانت من أملاك عطية بن صالح ، أو بالحري كانت إقطاعاً له ، ويقدم هذا سبباً موضحاً لتحرك البساسيري وهو أنّ البساسيري قد تحرك وعساكره مع قريش بن بدران وشيوخ عشيرته وأتباعهم نحو بالس للاستيلاء عليها ولانتزاعها من الرجل الذي استولى على الأموال التي أرسلت إليهم من القاهرة ، وهنا لا بد من التساؤل لكن لماذا قابل المؤيد في الدين عطية بن صالح ، ثم قابل ثمال ومنعه من القيام بأي عمل ضد أخيه ؟ والجواب عن هذا السؤال نجده في سياق الحوادث التي تمت بعد الاستيلاء على بالس وأدت إلى فقدان ثمال لملكه في حلب .

ويتحدث المقريزي عن خطة وضعها الوزير اليازوي لإنهاء حكم ثمال ويقول في ترجمته لثمال في كتابه المقفي التي استقى مادتها كما يبدو ، رغم عدم تصريحه ، من كتاب بغية الطلب لابن العديم مؤرخ حلب الكبير ذلك أن المقريزي كان أحد رواة هذا الكتاب وممن حازوا نسخته الأصلية بخط المؤلف : " فلما ولي الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المستنصر لم يرضَ من معز الدولة بما رضيه منه الوزراء قبله ، ورأى أن الحيلة والخديعة أبلغ فيما يريده ، فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير ، وندب لذلك رجلاً من ثقاته ، فسار إلى حلب وساس الأمر وأحكم التدبير مع كاتب معز الدولة بكثر ما وعده به ومناه إلى أن نزل معز الدولة من القلعة وسلمها إلى الأمير مكين الدولة أبي علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار الصقيلي نائب المستنصر " .

ولا ريب في معرفة المؤيد بخطط اليازوري هذه ، ولا يبدو أنه أراد حين قابل عطية ثم ثمال واجتمع بهما أن يخفي ملامح هذه الخطة مع خبر تحرك البساسيري ،

ذلــك أن كشفها كان بدور شك سيزيل الشقاق بين الأخوين ويوحدهما ويوحد جهديهمـــا وقواهما ضد العدو المشترك ، وبعد أن قابل ثمال المؤيد في الدين عاد أدراجـــه إلى حـــلب دون أن يتصالح مع أخيه ، وعند عودته تفرقت قواته البدوية كمـــا أن قوات عطية كانت قد تفرقت أيضاً ، ومما لا ريب فيه أن هذا قد أفسح الطريق أمام البساسيري لتحركه شمالاً ومكنه من الاستيلاء على بالس دونما مقاومة ويـــروي المؤيد في الدين بأنه عندما دخل إلى حلب وجد الأمير ثمال كان لا يزال غاضباً " لما اتفق عليه ما اتفق من خروج أخيه عليه وخيانته له في المال الذي سلمه إليـــه ، وتقاعد عشيرته عنه لما أرادهم في ساعة العسرة ، وتبرمه بالعسكر العراقي الذيـــن جاوروه لما لقيه منهم من سوء العشرة ، ودعته هذه الدواعي كلها إلى أن يـــورث ســـلطانه خلد الله ملكه ، وأرضه ودياره ، ويتفيأ أرضه وسكن جواره ، فكاتـــبه يستدعي شحنة يشحن بها قطر حلب ، ويقتضي بها من تسليمها وتسليم قلعتها كل أرب " .

غالباً ما تكون كثرة السذاجة وشدة البساطة في رواية أخبار الأمور السياسية مدعـــاة للشـــك والريبة لأنه ليس في التاريخ مَنْ تنازل عن حكمه دونما إكراه ، وتحـــت ضغط ظروف ليس فيها أمل للمقاومة ، وهكذا ما أظن أنّ أمر تنازل ثمال عن ملكه تم بهذه البساطة التي رواها المؤيد في الدين الذي كان كبير المسؤولين عن العقيدة الفاطمية التي استخدمت التقية بكثرة وكان لديها لكل ظاهر باطن .

لقد كانت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية سنة (٤٤٧ هـــ / ١٠٥٥م) سيئة ، ولهذا أرسل الخليفة المستنصر إلى الشام جيشاً لجباً على رأســه الحســـن بـــن علي بن ملهم ، ولقد اشتبك هذا الجيش في عدة مواقع مع القوات البيزنطية لأنطاكية ، وفي هذه الأثناء جهد ثمال بن صالح في إصلاح ما بين

الخلافة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية وإيقاف القتال بينهما فأخفق فعسكرت قوات ابن ملهم في آفاميا قرب الحدود البيزنطية وليس ببعيد عن حلب .

لقد كان لثورة البساسيري وتحركات الغز أثناء بالغ السوء على الوضع الاقتصادي في شمال بلاد الشام ، يضاف إلى هذا أن سنة (٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧-١٠٥٨م) كانت سنة جفاف ذات مواسم رديئة ويعد الذهبي هذه الحالة السبب الرئيسي الذي أجبر ثمال بن صالح على التخلي عن إمارته ، إذن القضية : جفاف ومواسم في غاية السوء مع تدمير للأرض ، ولما جاء من المحاصيل ، وتوقف التجارة وحركة القوافل والبساسيري وقواته تضغط على حلب من المشرق وابن ملهم وجيشه من المغرب ، وقبيلة كلاب ممزقة منقسمة على نفسها ومتوزعة في البادية وسواها ، هذه هي الظروف التي عاش تحت كابوسها ثمال بن صالح عام (٤٤٩ هـ) ، ويمكن أن يضاف إليها سبب آخر هام وهو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت مشغولة في تلك الأوقات بمشاكلها الخاصة التي نجمت على نحو خاص عن هجرة التركمان وتوغلهم في الأناضول ، عندما غدت الأمور على هذه الصورة التي شرحتها ، سارع الوزير اليازوري لاقتناص فرصة ما أعدّ له من خطط ومساعدته الأقدار على إنجاحه فأرسل ابن عقيل قاضي صور الذي كان آنذاك من شخصيات الشام المرموقة ، وسبق له أن توسط بين ثمال بن صالح والخليفة المستنصر ، أرسله إلى حلب للاجتماع بثمال لمحاولة إقناعه بالتخلي عن حلب مقابل إقطاعه بيروت وعكا وجبيل ، ونجح ابن عقيل في إقناع ثمال ، وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني لعام (١٠٥٨م) ترك ثمال حلب متوجهاً نحو القاهرة ودخل ابن ملهم مع قواته الفاطمة إلى المدينة ، وهكذا دخلت حلب من شمال البلاد تحت السلطان الفاطمي وحققت حركة البساسيري خطوة نجاح هامة نحو

القضاء على الخلافة العباسية ومنع السلاجقة من إقامة إمبراطوريتهم ومد السلطان الإسماعيلي على العالم الإسلامي .

ويبدو أن مجيء جيش ملهم إلى الشام قد خدم أكثر من غرض ، فبالإضافة لاشتباكاته مع بيزنطة وأخذه لحلب ، لا شك أن وجود هذا الجيش في شمال بلاد الشام كان يقدم حماية ومساندة لحركة البساسيري ، وكان بإمكانه تقديم النجدة والمساعدة حين الطلب وأثناء الحاجة ، هذا وكان في تحرك البساسيري شمالاً فوائد كثيرة إضافية للقضاء على الدولة المرداسية إذ كان يجعله قريباً من إبراهيم ينال لاستعادة الموصل منه ، ولتوسيع الخلافات بينه وبين طغرلبك .

ويبدو مما رواه الخطيب البغدادي الذي عاش هذه الأحداث أن إبراهيم ينال عندما ترك بغداد راجعاً نحو الموصل تبعه أخوه طغرلبك "وكان البساسيري راسل إبراهيم يشير عليه بالعصيان لأخيه ويطمعه في الملك والتفرد به ، ويعده بمعاضدته ومضافرته عليه " ، " وأرسل إبراهيم ينال رسولاً من الموصل إلى أبي الحارث البساسيري وقريش بن بدران ... وهما يومئذ في ... بالس ... بأن أسوق ـــ أنا المؤيد في الدين ـــ إليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية الفاطمية من الأموال الجزيلة والخلع والألقاب والألوية حتى يبطش بطغرلبك البطش الشديد الذي يهد قوته ويطفئ ثائرته ، فتصير جميع ممالكه في قبضته وحوزته ويكون هو ملكها ، على أن تكون الخطبة لنا بالخلافة ، والإمامة مقدمة على خطبته " .

وأثناء سير السلطان خلف إبراهيم ينال نحو الموصل ألقي القبض على أحد الجواسيس الذي كان يحمل رسائل متبادلة بين ينال والبساسيري ، وعلم ينال بالخبر فتحرك لفوره مع " قطعة عظيمة من الجيش إلى همذان ، ولم يشعر السلطان لأنه كان بعيداً عنه ، ولما علم سار فعدا خلفه خوفاً أن يسبقه إلى همذان ، وبها

حـــلل الـــتركمان فيمـــلكها ويأخذ من همذان ما بها من خزائن السلطان وأمواله وسلاحه " .

أمـــا وقـــد خلت الجزيرة الآن من التركمان فقد تحرك على الفور قريش بن بـــدران يسانده البساسيري نحو الموصل فاستعادها " ولما تمهد أمر قريش بالموصل رجـــع البساسيري إلى مركزه بالرحبة " ، وفي الرحبة ، " علم أن بغداد فريسة لمن طـــلب وقبضـــة لمن يرغب فزحف إليها بالرايات المستنصرية وصادف منها أرضاً تصـــيح إلى الله تعالى من ظلم التركمانية " . ودخلت طلائع البساسيري بغداد يوم (الجمعة السادس من ذي القعدة سنة (٤٥٠ هـــ / ٢٥ كانون الأول ١٠٥٨ م) ثم دخـــل البساسيري بغداد يوم (الأحد ثامن ذي القعدة) ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطئ دجلة ونزل هناك والعسكر معه ، وأجمع أهل الكرخ وكـــانوا شيعة ، والعوام من أهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري ، وكان قـــد جمـــع العيارين وأهل الرساتيق وكافة الذعار وأطعمهم في نهب دار الخلافة ، والـــناس آنـــذاك في ضـــر وجهد قد توالت عليهم سنون مجدبة والأسعار غالية والأقوات عزيزة " .

وحالمـــا دخل البساسيري بغداد أمن لنفسه السيادة على نصفها الغربي ، إذ كانت أكثرية سكانه شيعة ، وحتى يكمل فتحه لبغداد والسيطرة عليها كان عليه أن يجتاز دجلة إلى الجانب الشرقي ، حيث قامت دار الخلافة التي كانت عبارة عن شبه مدينة ، وقد قام الخليفة القائم بترميم أسوار هذه المدينة وبتحصينها ، وشحنها بالـــرجال والـــسلاح ، ولمـــدة عشرين يوماً حاول البساسيري العبور إلى الجانب الشـــرقي ، لكـــن دونما نجاح ، وكان " القتال في كل يوم يجري بين الفريقين في الســـفن بدجـــلة " وأخيراً ضعف أعوان الخليفة ، وتمكن البساسيري وأتباعه من

العبور إلى الجانب الشرقي " وأحاطوا بدار الخلافة ونهبها أرسل الخليفة إلى قريش بن بدران كيما يقوم بتسليم نفسه إليه ، ثم قرر أن يتوجه بذاته إليه " فركب وعليه السواد وعلى كتفه البردة وبيده سيف مجرد ، وعلى رأسه اللواء والهاشميون حوله ، والجواري حاسرات ناشرات الشعور معهن المصاحف على رؤوس القصب وبين يديه الخدم بالسيوف المسلولة " ، فنادى رئيس الرؤساء ابن المسلمة قريش وصاح " يا علم الدين أمير المؤمنين يستدنيك ، فدنا .. فقال : قد آتاك الله رتبة لم ينلها أمثالك وأحطك منزلة لم يحلها أشكالك ، فإن أمير المؤمنين يستندم منك على نفسه وأهله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله ﷺ وذمام العرب ، فقال قريش : قد أذم الله له ، قال : ولي ولمن معه ، قال : نعم وخلع قلنسوة من تحت عمامته وأعطاها ذماماً للخليفة وأعطى مخصرته لرئيس الرؤساء ذماماً ... ونزل الخليفة ورئيس الرؤساء إلى قريش وحصلا معه ، فقبل قريش الأرض دفعات ...

وبلغ البساسيري ، فأرسل إليه يقول : أتذم لهما وقد استقر بيني وبينك ما استحلفتك عليه ، وكانا عند انحدارهما قد تحالفا أن لا ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء ، ويكون العراق بينهما نصفين فقال قريش : وما عدلت عما استقر بيننا عدوك ابن المسلمة يعني رئيس الرؤساء ـ فخذه وأنا آخذ الخليفة ، فرضي بذلك " .

" وخرج الخليفة معه قريش من الدار راكباً وبين يديه راية سوداء ، وعلى الخليفة قباء أسود وسيف ومنطقة ، وعلى رأسه عمامة تحتها قلنسوة ... وضرب قريش للخليفة خيمة ... فدخلها ... وماشى البساسيري وزير الخليفة أبا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري قابضة على كم الوزير " ، وهو يقول له : " مرحباً بمدمر الدول ، ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد " ، واعتذر ابن المسلمة

إلى البساسيري وسأله العفو والغفران ، لكن البساسيري رفض قبول معاذيره وقال له :

" قد قدرت فما عفوت وأنت تاجر صاحب طليسان ، ولم تبق على الحريم والأطفال والأحوال ، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف وقد أخذت أموالي وعاقبت حرمي ونفيتهم إلى البلاد والقلاع واعتقلتهم فيها وقتلت أصحابي ودرست دوري وسبيتني وأبعدتني وفعلت تلك الأفاعيل " وحاول الناس (العامة) تخطف ابن المسلمة ليقتلوه فمنعهم البساسيري ونقله إلى حيث سجنه .

أما الخليفة الذي أنزله قريش في خيمة بين أتباعه فقد لحقه " كرب عظيم فامتنع من الطعام والشراب ، فسأله قريش وألح عليه حتى أكل وشرب " .

وفي يوم عرفة (٩ ذي الحجة سنة ٤٥٠ هـ) " أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به ، وحمل إلى الأنبار ومنها إلى حديثة عانة على الفرات ، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي " العقيلي الذي كان ابن عم لقريش بن بدران .

وعندما استقرت الأمور للبساسيري في بغداد قام بإيقاف الخطبة للخليفة العباسي وأحل محلها الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي ، وضرب دنانير جديدة باسم المستنصر ، وبهذا كان البساسيري قد قام بإلغاء الخلافة العباسية وأزالها من الوجود، وبذلك حققت الدعوة الفاطمية الإسماعيلية غاية أمانيها ووصلت رقعة دولتها إلى أقصى حدودها ، ولقد كانت فرحة القاهرة بما تم لا توصف ، وفي بغداد لم تتوقف احتفالات البساسيري أيضاً وذلك في سبيل إظهار سطوة الحكم الجديد وقوته ، فبعد نفي الخليفة بأيام جيء بابن المسلمة وأخرج من تحت العذاب فوضع " على الجمل وطيف به في محال الجانب الغربي من بغداد ، ثم صلب

حياً ... وجعل في فكيه كلوبات من الحديد وعلق على جذع فمات " .

ولم يزل الخليفة في محبسه بحديثة عانة إلى أن ظفر طغرلبك بأخيه إبراهيم ينال وقتله " ، وقد تم هذا على النحو الآتي :

فعندما لاحق طغرلبك إبراهيم ينال وصل قبله إلى همذان وكانت القوات التي معه قليلة لذلك عندما وصل ينال إلى همذان أخذ بحصار هذه المدينة وطال الحصار وامتد ، وفي هذه الأثناء كانت زوجة طغرلبك قد تمكنت من جمع بعض القوات التركمانية وتوجهت بها نحو همذان لفك الحصار عن زوجها ، وفي الوقت نفسه استنجد طغرلبك بألب أرسلان ابن أخيه جغري بك ، فخف بما لديه من قوات نحو همذان والتقى إبراهيم ينال بهذه القوات واشتبك بقتال مرير معها نجم عنه هزيمة قواته ووقوعه بالأسر ، وجلب ينال بعد أسره إلى طغرلبك فقام بخنقه بوتر قوسه ، وحالما حصل هذا قرر طغرلبك التوجه بقواته نحو بغداد لطرد البساسيري منها ولإحياء الخلافة العباسية وكاتب طغرلبك مهارش وطلب منه أن يجلب الخليفة إليه ووعده وتوعده ، فقام مهارش بأخذ الخليفة معه وتوجه به نحو طغرلبك الزاحف بجيوشه نحو بغداد ، ويبدو أن البساسيري كان قد أراد أن يبعث بالخليفة إلى مصر لكن سجان الخليفة العقيلي رفض تسليمه إياه لإرساله إلى مصر .

وعندما وصلت أخبار انتصار السلطان طغرلبك على أخيه ومن ثم زحفه نحو بغداد إلى البساسيري قام بترك بغداد والتحق بحلة دبيس بن مزيد أمير بني أسد وأخذ يحضر نفسه للعبور إلى الرحبة ، لكن ما إن وصل السلطان طغرلبك بغداد حتى أرسل بعضاً من قواته لمطاردة البساسيري ومنعه بالوقت نفسه من العبور إلى الشام ، ونجحت قوات طغرلبك في مهمتها هذه إذ لحقت بالبساسيري فقتلته ،

وعندما جيء بجثته إلى السلطان وجد في جيبه خمسة دنانير فدفعها السلطان إلى من قور رأسه وأخرج مخه ... فترك على قناة وطيف به ــ في بغداد ــ وضربت بين يديه الدبادب والبوقات وعلق مدة ثم حمل إلى خزنة الرؤوس " .

لم تستجاوز الفترة التي سيطر بها البساسيري على بغداد أيام سنة هجرية واحدة ، وعاد الخليفة إلى داره المشعثة وعاصمته المهدمة بعد سنة سجن "[1] ، وبالقضاء على حركة البساسيري تم لطغرلبك إرساء قواعد الإمبراطورية السلجوقية ، ولقد نجم عن إخفاق ثورة البساسيري وقيام العهد الجديد نتائج على غاية من الخطورة ، فقد طويت الآن صفحة من تاريخ العرب والإسلام وبدأت واحدة جديدة ، وهكذا يمكن عد سنة (٤٥١ هـ / ١٠٥٩م) سنة فاصلة في تاريخ الإسلام ، ويمكن أيضاً عد مقتل البساسيري من الأحداث ذات الأثر الحاسم بالنسبة للدين الإسلامي وبخاصة الجانب الفكري والحضاري منه ، وليس من المغالاة أن يطلق المرء على الفترة التي سبقت مقتل البساسيري وقيام الإمبراطورية السلجوقية بكل ما لها وعليها اسم (فترة الحرية) والفترة التي تلتها (فترة الحتمية) .

---

[1] سيرة المؤيد في الدين ، ١٢٩-١٨٤ ، العظمي : ١٧٨ و ــ ظ ، ١٨٤ و ، ــ ابن القلانسي : ٨٦ ، المنتظم : ٨/١٦٤-٢١٢ ، ابن أبي الهيجاء : ١٢٦و-١٢٧و ، ابن عيسي : ٢/٧-٨ ، أخبار الدولة السلجوقية : ١٧-٢١ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٩-١٧ ، راحة الصدور : ١٧٢-١٨٦ ، تاريخ الفارقي : ١٥٢-١٦٠ ، الكامل : ٨/٧٢-٨٧ ، تاريخ الدولة العباسية : ٩٥و-٩٦و ، مرآة الزمان ــ سويم ــ ٤-٦٧ ، زبدة الحلب : ١/٢٧٣-٢٧٤ ، ترجمة البساسيري الملحقة في آخر هذا الكتاب ، ابن العميد : ٥٤٤-٥٤٥ ، اتعاظ الحنفا : حوادث سنة ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ هـ ، المقفى : ــ مجلد برتو باشا : ٢٩٢ و ، تاريخ الإسلام الذهبي : ٥٠ or ٢٤ ظ ، دول الإسلام ١/٢٠٦ ، العبر الذهبي : ٣/ ٢١٥-٢١٨ ، المختصر في أخبار البشر : ١-١٤٩ ، ١٧٨ ، الدرة المضيئة : ٣٦٩-٣٧٠ ، ابن خلدون : ٤/٥٨٥ ، عقد الجمان : ١١/٥٧٨ ، ابن جنفل : ٤/٢٠١ ظ ، منجم باشي : ١/٣٢٨ ، البستان الجامع : ٨٩و ، النجوم الزاهرة : ٥/٦٧ .

لقــد كان السلاجقة سنة متعصبين لسنتهم وكانت لهم طرقهم الخاصة للدفاع عن السـنة ، ولجلب الناس إلى حظيرتها ، وغالباً ما اعتمدت هذه الطرق على العنف والقمـع والـتهديد بالموت ، ونادراً ما تخذت من الحجة والإقناع وسيلة ، وقبل الاسـتطراد بهذا مفيد أولاً أن نتذكر بأن القسم الأعظم من العالم الإسلامي كان حـتى وفـاة البساسيري يدين معظمه إما بإحدى عقائد الشيعة ، أو كان يخضع لحكـم أو لـنفوذ إحدى الدول الشيعية ، ولقد كانت الدولة الفاطمية هي أعظم القـوى العقائدية والسياسية للشيعة ، وكان القضاء على ثورة البساسيري انحساراً لـلمد الشيعي وبداية حاسمة للعودة نحو السنة ، ولا تكمن القضية في أمر انتصار السنة على الشيعة وإنما في الطرائق التي استخدمت ومكنت من هذا الانتصار .

وأمر الصراع بين الفكر السني والعقيدة الشيعية من جهة والحركات الشيعية من عقائد وأخطار من جهة أخرى هو ليس بالجديد في التاريخ الإسلامي ، وقيام الثورات الشيعية والقضاء عليها أمر عادي أيضاً في تاريخ الإسلام ، إنما الجديد هو نـوع الملاحقـة المستمرة التي التي لقيتها الحركات الشيعية منذ الآن فحولتها من حركات ذات أهداف توسعية وبرامج ذات نظرة شاملة إلى طوائف همها المحافظة على ما لديها من مكاسب ، وعدت الأفكار والعقائد التي كانت جزءاً من برامج للنشـر على الناس قاطبة عبارة عن أشياء محاطة بأطواق السرية المميتة ، ولعل ما أصـاب العقيدة الإسماعيلية بعيد القضاء على ثورة السباسيري بفترة وجيزة كانت للتدليل على هذا ، فلقد قامت حركة جديدة بين الإسماعيلية أسسها حسن الصباح الـذي اتخـذ مـن قلعة الموت مركزاً لـه ، ولقد تبنت هذه الحركة ، للانتصار والانتشار وللقضاء على أعدائها ــ عقيدة الاغتيال السياسي بواسطة المدية وعملية الاغتيال السياسي هي وسيلة دفاعية لا تلجأ إليها الحركات ذات الأهداف الثورية

التوســعية ، وكل حركة ذات طابع دفاعي هي حركة منكمشة تزول بزوال خط الدفاع وتحطيمه .

ولقــد أنــتج الصراع بين السنة والشيعة فيما مضى نتاجاً ثقافياً لــه قيمة حضــارية كــبيرة ، ولكن السلاجقة الآن تخلوا عن قرع الحجة بالحجة ، واتخذوا السيف ، وفي الوقت نفسه أقاموا المدرسة النظامية في بغداد ، وكانت لهذه المدرسة فــروع في أغــلب أصقاع السلطنة السلجوقية وبلدانها ، ولقد ارتبطت المدرسة النظامية بالدولة ووجهت من قبلها ، وقامت بتخريج علماء بثوا أفكارها ونشروها وطــبيعي أن هــذا شيء خطير وجديد في تاريخ العقيدة الإسلامية ، فقد اعتادت هــذه العقيدة منذ قيامها على إقامة الدول وتوجيهها ، ولم تحتج قط إلى مساندة (دولة أوتوقراطية عسكرية) على نحو منظم ومنهج مدعم بقوة السلاح ، فهذا أمر خطــير ، صــحيح أنه مكن من جعل معظم الشيعة سنة (وكان هذا سيتم حتماً لكــن بوقت أطول) ، أما الآن فقد تم بهذه الوسيلة فإن ما جره على السنة كان فــادح الثمن ، لقد تحولت السنة نفسها بعد حين إلى طائفة كبيرة أغلق فيها باب الاجــتهاد ، فزال الإبداع من بين صفوفها ، واختفى أعلام الفكر الكبار ، وكم كــان الأمر خطيراً أن تفقد السنة حيويتها وإبداعها ، وتنقلب إلى محافظة وقياس بحت ، وتتحول كتبها إلى شروح وحواشٍ ليس أكثر .

القضــية بالغــة الخطــورة فما زال العالم السلامي يعيشها ، لذا يكفي هنا للبرهن سوق المثالين الآتيين فقط :

في ســنة (٤٤٥ هــــ / ١٠٥٣م) ، أي قبل أن يدخل طغرلبك بغداد ، " وقــف طغرلــبك السلجوقي على مقالات الأشعري ، فأمر بلعن الأشعري على المــنابر " ، " فضج من ذلك أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، وعمل

رسالة سماها شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة، وقال فيها : أيعلن إمام الدين ومحيي السنة ؟ وحاول عدد آخر من علماء المسلمين إيقاف عملية اللعن هذه فأخفقوا " [1] .

عاش أبو العلاء المعري قبل وفاته سنة (٤٤٩ هـ / ١٠٥٩م) في معرة النعمان التي كانت من أملاك المرداسيين الذين اعترفوا بالخليفة الفاطمي ، وبشر المعري في المعرة بفلسفته وأفكاره ، وكتب وقال ما أراد دون خشية أو خوف ، ولم يحاول أحد من معاصريه الضغط عليه أو تهديد حياته باستخدام العقوبة أو السيف ضده ، حتى المؤيد في الدين داعي الدعاة " أي السكرتير الأول للحزب الإسماعيلي الفاطمي فإنه برغم معرفته بأن أفكار المعري تعارض آراء العقيدة الفاطمية لم يحاول أبداً استخدام العنف معه ، ولم يوح به على الرغم من أنه كان يستطيع فعل ذلك ، والذي فعله المؤيد هو اتباع الوسيلة الجدلية وقرع الحجة بالحجة بالمناقشة ، ولقد وصلنا العديد من الرسائل التي تبادلها المعري والمؤيد بينهما هذا وإن جميع الذين قالوا بتكفير المعري أو زندقته لم يكونوا من معاصريه بل كانوا جميعاً ممن جاء بعده ، أي كانوا من نتاج عصر الحتمية عصر النصر السلجوقي والمدرسة النظامية " [2] .

ويجدر بنا أن ننهي هذا الفصل بنهاية سلطنة طغرلبك ، فبعد أن عاد إلى بغداد وأعاد إحياء الخلافة العباسية شعر أنه لم يبقَ أمامه من القوى ما يخشَ ، وأن ما بقي عليه هو التوجه إلى الشام لإخضاعه ، ومن ثم إلى مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية ، لكنه قبل أن يقوم بهذا أراد أن يرفع من مكانة نفسه ، ويزيد من نفوذه

---

[1] المنتظم : ٨-١٠٨٥١ ، البدايةالنهاية : ٦٤/١٢ ، النجوم الزاهرة : ٥/٥٤-٥٥ .

[2] إرجع إلى تاريخ القدماء لأبي العلاء .

Damascus University

وسيطرته ، فبعد أن قابل الخليفة العباسي ، طلب من الخليفة الزواج من ابنته ، والخليفة العباسي ذلك الإنسان المتحضر كانت مهما علت نظرته إلى طغرلبك ومهما هابه وخافه كان يعد طغرلبك بدوياً شبه متوحش وحديث عهد بن نعمة ، ولا يعدو عبداً من عبيد الخلافة العباسية وجندها ، وهو قبل كل شيء كان أعجمياً لا يمت إلى العرب وقريش وبني هاشم بصلة ، لذا كان زواجه بابنة الخليفة أمراً لا يكاد العقل يتصوره ، وعلى الرغم من كل فلقد استجاب الخليفة بعد ضغوط شديدة ومعاتبات وتهديدات واسعة ووعود ـــ مكرهاً لطلب طغرلبك ـــ الذي كان قد جاوز السبعين من عمره فوافق على زواجه من ابنته التي كانت لم تتعدَ بعد العشرين من عمرها ، وليت الأمور قد توقفت عن هذا الحد ، فالخليفة الذي وجد أن الزواج أمر لا بد منه أراد أن تتم مراسيم هذا الزواج حسب التقاليد الإسلامية العباسية وفي مدينة بغداد ، ولكن طغرلبك رفض ذلك وأصر على أن يتم الزواج في أصفهان وحسب الأعراف والتقاليد التركية ، ومرة أخرى رضخ الخليفة وأذعن لرغبة سيده (وعبده) طغرلبك فأرسل ابنته إلى أصفهان ، ولم ينجم عن هذا الزواج شيء ، فقد كان طغرلبك بالإضافة إلى تقدمه بالسن عقيماً ، كما أنه كان وقت الزواج عليلاً لذا لم ينعم بابنة الخليفة طويلاً ، فبعد ثلاثة أو أربعة أشهر توفي طغرلبك ، وكان ذلك سنة (٤٥٥ هـ / ١٠٦٣م) ، دون أن يترك وراءه ولداً يخلفه في السلطنة ، وبموت طغرلبك برزت مشكلة خلافته إلى الوجود ، غير أن هذه المشكلة حسمت بتولي ألب أرسلان ابن أخي جغري بك السلطنة ، ويعد ألب أرسلان من أعظم الاحكام وأشهرهم في التاريخ الإسلامي ، وهو مع ابنه ملك شاه أعظم سلاطنة بني سلجوق على الإطلاق " [1] .

---

[1] الكامل : ٨/٩٢-٩٤ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ١٨-٢٧ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٢١ ، مرآة الزمان ـــ سويم ـــ ٧٨-١٠٢ ، راحة الصدور : ١٧٦-١٧٨ ، المنتظم : ٨/٢١٨-٢٣٤ .

الفصل الخامس

الاجتياح الغزي لبلدان المشرق العربي



عندما تعرضت الموصل لأول غارة غزية في تاريخها ، وصلت أصداء هذه الغارة إلى حلب التي كانت تحكم آنذاك من قبل ثمال بن صالح .

ولقد سجلت هذه الأصداء في شعر ابن أبي حصينة شاعر ثمال بقوله :

من مبلغ الأتراك أن أمامهم ... بحراً يغرق موجه من يشرع

أموا وهموا بالورود فراعهم ... من دونه هذا الهمام الأورع

وتيقنوا أن الشآم وأهله ... أحمى بلاد الخافقين وأمنع [1]

كان الغزاة الجدد بالنسبة لابن أبي حصينة أتراكاً فكروا يغزو الشآم ، لكنهم تراجعوا عن القيام بذلك بسبب قوة ثمال ومتانة حكمه ، والشعراء كما هو معروف " يتبعهم الغاوون " فلقد سقط ثمال وزال حكمه كما رأينا نتيجة لدخول الغز بغداد وتسلمهم زمام الأمور بها .

بعيد مقتل البساسيري قام عطية بن صالح بالاستيلاء على بلدة الرحبة وحاز جميع ما تركه البساسيري فيها ، وتمكن في تلك الأثناء محمود بن نصر بن صالح من الاستيلاء على حلب ، وطرد النائب الفاطمي منها ، ولما عجزت الدولة الفاطمية عن استعادة حلب منه طلب الخليفة المستنصر من ثمال بن صالح مغادرة القاهرة وعينه مرة جديدة أميراً على حلب ، ولقد استطاع ثمال بعد عناء دخول حلب (يوم الإثنين ٢٩ ربيع الأول عام ٤٥٣هـ / ٢٣ نيسان ١٠٦١م) فاستأنف إمارته فيها وجدد حكم الأسرة المرداسية في شمال بلاد الشام ، لكن حكمه هذه المرة كان قصيراً ، ففي (٢٣ ذي القعدة من العام التالي ٤٥٤ هـ /

---

[1] ديوان ابن أبي حصينة : ٣٤/١-٣٧ .

١٨ تشـــرين ٢ ١٠٦٢م) توفي ثمال ، وخلفه ـــ بناء على وصيته ـــ أخوه عطية بن صـــالح في إمـــارة حلب[1] ، لكن ذلك لم يرض محمود بن نصر فقام ينازع عمه على الإمارة .

تـــبعاً لابن العديم لم يدخل أحد من الغز بلاد الشام حتى بعيد وفاة ثمال بن صـــالح ، وذلك أثناء الصراع الذي تبع وفاته من أجل حكم حلب بين أخيه عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر الذي ثار ضد عمه مدعياً أنه أحق من عمه في حكم حلب ، وقام محمد بجمع قبيلة كلاب حوله وتوجه على رأسها نحو حلب ، وفي (رجب سنة ٤٥٥ هـــ / تموز ١٠٦٣م) حاصر محمود وقواته الكلابية مدينة حلب في محاولة لفتحها ، وإنهاء حكم عطية وإحلال نفسه محله .

ويـــبدو أن عطيـــة بـــن صالح كان أقل مكانة من سواه من إخوانه في قبيلة كـــلاب ، كذلك أيد الكلابيون ابن أخيه ضده ، ولكن عندما حاصر الكلابيون حلباً هذه المرة ، كان الزمان الذي احتجزت فيه قبيلة كلاب القوة المؤثرة والكلمة الفصـــل في المنازعات من أجل سيادة شمال بلاد الشام قد ولى إلى غير عودة ، فقد كانت المنطقة وما جاورها تموج بقوى الغز الجديدة ، وستكون الكلمة الفصل منذ الآن لهـــذه القوى ، وكان الآن بإمكان عطية وسواه الاستغاثة بإحدى مجموعات الغزو ودعوتها لمساندته ، وهذا ما حصل .

عند اشتداد الحصار على عطية وجه الدعوة إلى أحد زعماء التركمان الذي عـــرف باسم ابن خان ودعاه للقدوم إلى حلب ، وكان ابن خان مقيماً في الجزيرة ومـــا إن وصلته دعوة عطية حتى تحرك مع أتباعه نحو حلب ، لكن ما إن وصلت أخـــبار تحـــركه هذه إلى محمود بن نصر وأتباعه الكلابيين حتى سارع للعمل على

---

[1] انظر تفاصيل هذه الأمور في كتابي إمارة حلب : ١٣٢-١٣٥ .

فك الحصار عن حلب ، وتحرك عطية بسرعة فطلب من ابن خان عدم متابعة سيره نحـــو حــلب ، كمـــا قام بصنع نوع من المصالحة مع ابن أخيه محمود بن نصر ، وهكذا لم يدخل أحد من التركمان حلب هذه السنة .

ولقد كانت هذه التسوية التي تمت بين عطية ومحمود تسوية مؤقتة تمت تحت ضغط ظروف استثنائية ، ففي الأسبوع الأول من شهر أيار للعام التالي (١٠٦٤م) تحرك محمود من جديد ضد عمه واستولى على حماة ومعرة النعمان مع حصن كفر طـــاب ، ثم وقعت حلب تحت الحصار ، وكان الحصار حصاراً قاسياً أجبر عطية على تجديد استغاثته بابن خان وأتباعه من الغز ، واستجاب ابن خان لطلب عطية وجـــاء نحـــو حلب ، ودخلها ، ولقد سبب قدومه ودخوله إلى حلب انسحاب محمـــود مع قواته الكلابية ، وهكذا تحرر حكم عطية من الخطر الكلابي ، ولكنه وقع في الوقت ذاته تحت خطر جديد أشد من سابقه سيكون حتفه على يديه .

وما إن دخل ابن خان حلب حتى بدأ على الفور يباشر سلطانه عليها وعلى جميـــع شؤون الإمارة ، ولم يسترح أهالي حلب للسادة البداة الجدد ، وكره أحداث حلب الغز الذين بدؤوا ينازعونهم سلطانهم التقليدي ، ويعملون لإزالتهم من الوجود وعطيـــة نفســـه وجد أنه يفقد سلطته كأمير ، لذلك سارع لإقامة صلح جديد مع أخيـــه محمـــود ، تقاسم على أساسه معه أراضي الإمارة ، وبدأ عطية بعد هذا يعمل للتخلص من ابن خان وأتباعه ، وتوجه نحو الأراضي البيزنطية ، فأعمل الغارة فيها ، ثم توجـــه عـــائداً نحو حلب ، وكان يخيل إليه أن ابن خان لن يعود معه ، لكنه عاد ووجد عطية نفسه أمامه بلا حول ولا طول ، فقبله مرة أخرى في حلب .

وبـــدأ عطية يفكر في طريقة جديدة مجدية للخلاص من ابن خان وأتباعه ، وفي إحدى ليالي كانون الثاني لعام ١٠٥٦م وجد عطية الفرصة للخلاص من الغز

فقـــد كان ابن خان آنئذٍ خارجاً بحلب ، وهنا أمر عطية الأحداث أن يغيروا فجأة على محلات الغز ونفذ الأحداث الأوامر ، فنهبوا خركاوات الغز وقتلوا عدداً من رجـــالهم وأسروا بعضاً من النساء ، واستولوا على خيول الغز وأسلحتهم وأجبروا مـــن بقي حياً منهم على الفرار إلى خارج أسوار حلب ، وعندما سمع ابن خان بما حدث ورأى ما حل بأتباعه جمع فلولهم ، وأراد التوجه بهم شرقاً نحو أعالي الجزيرة لكـــن القبائل البدوية التي كانت قاطنة حول حلب تخطفتهم وحالت بينهم وبين الوصـــول إلى غايتهم ، وهنا اتخذ ابن خان قراراً خطيراً بأن قام بالسفر إلى سرمين حيـــث كان يعسكر محمود بن نصر ، فالتجأ إليه ووضع نفسه ومن بقي معه من أصحابه تحت تصرفه .

ولقـــد شـــجع هذا محمود بن نصر كثيراً ، فقام بجمع قواته الكلابية وتوجه عـــلى رأســـهم نحو حلب فحاصرها لمدة ثلاثة أشهر ، ولقد كان الحصار قاسياً ، وكـــان ابن خان والغز من أكثر الناس تأثيراً به ، ولما شعر عطية بأنه لن يستطيع مـــتابعة المقاومـــة تـــنازل عنها ، وسلمها لابن أخيه الذي دخلها في التاسع من آب ١٠٦٥م [١] ومعـــه موجة جديدة من الأتباع كان مؤلفاً من أصول مختلفة فيه بالإضـــافة إلى التركمان كرد وديلم وأوج (الأوج اسم أطلق على سكان الحدود الإســـلامية الـــبيزنطية) ولقد أقطع محمود بن خان بلدة معرة النعمان فدخلها مع أتباعه واستقر بها [٢] .

---

[1] ابن أبي الهيجاء : ١٢٨ ظ ، ابن القلانسي : ٩٢-٩٣ ، العظيمي : ١٨٠ ، والكامل واليدن : ١٦٤/٩-١٦٥ ، زبـــدة الحـــلب : ٢٩١/١-٢٩٧ ، ٩/٢٠ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٥٥-٤٥٧ هـــ ، الذهبي : ٥٠ or ، ١١٤٠,٣ ، ابن كثير : ١١٣/١١ ، المختصر في أخبار البشر : ١/ ١٤٩ ، عقد الجمان : (١/٥٨٠-٥٨١ ، منجم باشي : ٣٢٨/١ ظ .

[2] ابن القلانسي : ٩٣ ، العظيمي : ١٨٧ ظ ، زبدة الحلب : ١٠/٢ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٥٧ هـــ

وبعد هذا الحديث لا بد للمرء أن يتساءل من هو ابن خان وسأحاول الإجابة عن هذا السؤال ، ثم تابع بعدها الحديث عن الأعمال التي قام بها هذا التركماني في بلاد الشام ، لكن قبل البدء في الإجابة ينبغي التنبه إلى الأمر الآتي ، وهو أنه عند قيام أي هجرة بدوية يكون في العادة من أصعب الأمور على الباحث التعرف تعرفاً يقينياً على زعماء الهجرة فرداً فرداً ، ومن ثمّ تبيان أعمال كل واحد منهم ، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول منذ البدء أنه قد يكون قد وجد بين التركمان أكثر من ابن خان ، وأن ابن خان الذي دعاه عطية أول مرة قد يكون غير ابن خان الذي دخل حلب لأول مرة ، ثم أن الأعمال التي سننسبها إليه قد تكون صنعت من قبل غيره .

إن أوفى معلومات وصلتنا عن ابن خان هي التي أوردها ابن العديم ، هذا وإن لفظة ابن خان توحي بمكان صاحبها ، كما إذا قلنا ابن الأمير ، أو ابن الملك ويروي ابن العديم أن ابن خان كان ابناً لملك الترك ، وأنه غاضب أباه وهجره نحو الأراضي المروانية في أعالي الجزيرة ، وفي الوقت الذي لا يبين فيه ابن العديم من كان ملك الترك هذا ، يبدو كأنه ينقل دون أن يشعر كلمة ابن خان إلى العربية ، وعلى كل حال نحن نستخلص من ابن العديم بأن هارون كان هو الاسم الأول لابن خان ، وأن أتباعه كانوا عبارة عن ألف من الرعاة من أصول مختلفة كان التركمان العنصر الغالب بينها .

لقد ذكرنا أنه نتيجة لمؤامرة عظيمة اضطر ابن خان مع الناجين من أتباعه للالتحاق بمحمود ، ثم ذكرنا بعد ذلك توجه محمود نحو حلب وحصاره لها ، وأشرنا إلى أن الغز وأتباع ابن خان كانوا الأداة الفعالة والمؤثرة التي أدت إلى سقوط حلب بيد محمود ، ومن ثم أدت إلى إنهاء حكم عطية ، ومعلوم أن أعمال

الحصار وفتح المدن كانت في العادة تحتاج إلى عدد كبير من الجند ، ولما كان أتباع ابن خان الذين نجوا من حلب لا يتجاوزون حفنة من الرجال فإن هنا غموضاً يحتاج للجلاء .

يحدثنا كل من العظيمي وابن الفلانسي بأنه بعد أن التحق ابن خان بمحمود قام كلاهما بالسفر إلى طرابلس ، وبعد أن مكثا هناك بعض الوقت عادا وتوجها مع قواهما نحو حلب فحاصراها حصاراً كان ابن خان وأتباعه من الغز السبب الكبير الذي أدى إلى سقوط المدينة إلى محمود بن نصر ، إن هذا الخبر يفيد بأن محموداً وابن خان ربما قاما عندما كانا في طرابلس بتجنيد جيش غزي ، إذا صح هذا ففيه إشارة ودليل إلى وجود تركمان آنذاك في منطقة طرابلس ، وهذا يعني أن بعض الغز كانوا قد دخلوا جنوب غرب بلاد الشام قبل دخولهم حلب .

تتحدث مصادرنا وعلى الأخص كتاب مرآة الزمان (القسم الذي يحوي تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ الذي عاصر الأحداث التي نحن بصددها فسجلها تسجيلاً مفصلاً) عن مجموعات التركمان أطلق عليها اسم الناوكية ، وتروي هذه المصادر أن معظم الناوكية قد هاجر إلى الأراضي البيزنطية وجنوب غرب بلاد الشام مع فلسطين ، ويبدو أن الناوكية كانت أول جماعتا التركمان التي دخلت بلاد الشام ونشطت فيها ، وأنها جاءت إلى الجنوب الغربي من بلاد الشام قبل سواها من المناطق ويبدو أنها سلكت الطريق الساحلي عن طريق أنطاكية .

لقد كان زعيم الناوكية سنة (١٠٧١م) في جنوب غرب بلاد الشام يدعى قرلو ، ويتحدث ابن العديم عن قرلو هذا كأنه ابن أخ لابن خان ، ولقد هجر ابن خان حلب سنة (١٠٧٠م) وتوجه نحو صور إذ دخل في خدمة قاضيها ابن عقيل الذي كان حاكمها أيضاً ، ولقد دبر ابن عقيل في هذه السنة نفسها أمر اغتيال ابن

خــان بوساطة أحد أتباعه التركمان ، ويمكن الاستنتاج من كل هذا أن ابن خان من جماعة الناوكية ، وربما كان زعيم جميع الناوكية الذين دخلوا بلاد الشام في أيامه .

ويــبدو أن كــلمة ناوكية لم تكن اسماً لإحدى عشائر التركمان ، ولكنها كــانت اسمــاً يطــلق على جماعات محددة من المرتزقة ، الذين لم يدينوا بالطاعة للســلطان الســلجوقي ، ولقد كان التركمان يشكلون الأكثرية العددية في هذه الجماعــات ، وحوت الأقلية عناصر مختلفة من السكان المحليين لخراسان والعراق والجزيرة ومن بقايا جند الدول التي زالت مع انتصار السلاجقة وقيام امبراطوريتهم هذا ولقد مر معنا كيف أن ابن خان ذهب بعد فتح محمود بن نصر لحلب وذهب شــرقاً نحو الجزيرة والعراق ، ثم عاد بعد قرابة سنة ومعه ألف من الرماة من غزو كرد وديلم وأوج .

لم تقــدم الناوكية الطاعة للسلطان السلجوقي ، فلقد هجر ابن خان مدينة حــلب سنة (١٠٧٠م) عندما سمع بتوجه السلطان ألب أرسلان نحوها لفتحها ، ذلــك أنــه خاف على حياته ، لذلك هرب ناجياً بها نحو صور حيث لقي حتفه وعندما وصل السلطان ألب أرسلان إلى حلب قام بحصارها لفترة من الزمن ، هذه قضــية ســنتعرض لهــا بالدراسة بعد قليل ، ثم تصالح مع محمود بعدما أخفق في الاســتيلاء عليها ، ولقد اتهم ألب أرسلان ابن خان بأنه كان السبب الذي جعل محموداً يقاتل السلطان ويرفض الخضوع له .

هذا ويبدو أن الناوكية كان لــه علاقة بالتركمان العراقية أو هم أنفسهم ، لكــن باسم جديد [1]، هاجروا تحت ضغط السلاجقة وتركمانهم من العراق إلى

---

[1] أخــبرني أحد الأساتذة الأتراك في جامعة استانبول بأن أحد الباحثين الأتراك فسر كلمة ناوكي على أنها تعــني خارجي ، ولقد اعتبر السلاجقة جماعة التركمان العراقية الناوكية خوارج على سلطتهم هذا وفي معاجم اللغة الفارسية جاءت كلمة ناوك بمعنى القوس .

بيزنطة والجزيرة ، وعندما تدفق هؤلاء على الأراضي البيزنطية توغل الناوكية أكثر فأكثر داخل بيزنطة ، وجاء بعضهم إلى بلاد الشام ، وظلوا في هذه البلاد حتى ذابوا في جسم التركمان أتباع السلاجقة الذين جاؤوا إلى الشام بعد عام (١٠٧٠م) كما سنرى ، ومع أننا سنتحدث عن أعمال الناوكية في جنوب الشام وشماله بكثير من التفصيل إلا أنه من المفيد أن نذكر بأنه على الرغم من أن الناوكية لم تخضع للسلطان السلجوقي إلا أن أعمالهم في بلاد الشام قد مهدت للاجتياح السلجوقي وساعدتعلى إنجاحه [1] .

ولقد كان ابن خان وأتباعه أداة فعالة في يدي محمود بن نصر كما تمكن من إخضاع القبائل البدوية التي كانت تسكن في إمارته ، وفي عمله هذا كان محمود ربما ــ دون أن يشعر ــ يمهد السبيل لتبديل سياسي هائل في بلاد الشام ، ألا وهو إزالة القبائل العربية من على مسرح السياسة وإحلال التركمان محلها .

يروي ابن العديم أن محموداً تحرك في عام (٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م) جنوباً نحو مدينة حماة ، وكان على رأس قوة مؤلفة من بعض أتباعه من الكلابيين ومن ابن خان وأتباعه ، ولقد كان هدف محمود إخضاع جميع البدو القاطنين في منطقة حماة آنذاك ، إذ إن هؤلاء البدو حاولوا خلق فتنة بينه وبين عمه عطية بن صالح الذي كان موجوداً آنذاك في مدينة حمص [2] .

---

[1] العظيمي : ١٨٠ و ١٨٣ ظ ، ابن القلانسي : ٩٢-٩٣ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ظ ، الكامل ط ليدن : ٩/١٦٤-١٦٥ ، ١٠/٤٠-٤١ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٢/٦٥ ظ ، ١٦٦ ، زبدة حلب : ١/ ٢٩٤-٢٩٧ ، ٢/١٠-٣١-٧٢-٥٥-٥٨ ، ابن أبي السدم : ١٣٤ ، ابن خلدون : ٤/٥٨٦-٥٨٧ ، مرآة الزمان سويم : ١٢٢-١٢٤-١٤٣-١٤٤-١٤٦-١٤٩-١٥٣-١٧١-١٧٣-١٧٤-١٧٦-١٧٨-٢٤٣ .

History of the crusowleo , setton , 1', 147-148 . preottman tubey , 27 . Sevim , 1 , 19 the Emirote of Aleppo 168 .

[2] زبدة الحليب : ٢/١٠ .

لقـــد ذكـــر عطيـــة بعد تركه لحلب كما جرت عادته إما في الرقة وإما في الرحـــبة [1] ، هذا ولا يوضح ابن العديم حين روى خبره هذا لم كان عطية سنة (١٠٦٧م) في مديـــنة حمص التي كانت آنذاك تحت الحكم الفاطمي ، ويقدم كل من غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ وابن تغري بردي شرحاً للسبب الذي دعا عطيـــة لأن يكون في حمص ، فقد رويا بأن المستنصر الخليفة الفاطمي كتب سنة (١٠٦٧م) إلى محمود بن نصر طالباً منه ، أن يرسل خراجاً سنوياً عن إمارة حلب إلى القاهرة ، وأن يقوم بغزو الأراضي البيزنطية ، وأن يقوم بطرد ابن خان وأتباعه مـــن إمارته ، ويتوقف عن استخدامهم في أعماله ، ولقد رد محمود على المستنصر موضـــحاً له بأنه كان لا يستطيع تنفيذ واحد من مطالبه الثلاث هذه ، ذلك لأنه كـــان لا يملك أي فائض من المال حتى يرسله إلى القاهرة ، حيث إنه أنفق مبالغ كـــبيرة أثـــناء عمله لانتزاع حلب من عمه عطية ، وكان القسم الأكبر من هذه المبالغ قد استدين من بعض الناس ومن الإمبراطورية البيزنطية التي عقد بينه وبينها معـــاهدة صداقة وأودعها أحد أولاده رهينة من أجل الوفاء بالمعاهدة ، ومن أجل تسديد الديون ، لذلك كان من غير المعقول الإغارة على الأراضي البيزنطية ، ثم لم يكن هناك أسباب مسوغة للحرب ، وفيما يختص بابن خان وأتباعه قال محمود في جوابـــه للمستنصـــر " وأمـــا ابن خان والغز الذين معه فيدهم فوق يدي ، وإنما اســـتخدمتهم مصانعة لهم وكفاً لفسادهم ، كان رؤى صرفهم فينفذ إليهم من هو أقوى عليهم مني وأنا أساعده " .

ولما كان بدر غير قادر على تشكيل أيه حملة أو قيادة أية قوات ضد حلـــب

[1] الكـــامل ط ليـــدن : ١٦٥/٩ ، المختصر في أخبار البشر : ١٤٩/١ ، عقد الجمان : ٥٨١/١١ ، ابن خلدون : ٥٨٧/٤ ، منجم باشي : ٣٢٨/١ ظ .

فقد كتب : " إلى عطية وهو بالرحبة أن يسير إلى حلب ووعده المساعدة " .

وعندما استلم عطية رسالة بدر ترك الرحبة وجاء إلى حمص ثم بدأ يجند جيشاً من بين قبيلة بني كلاب وغيرها من القبائل ، وعندما وصلت إلى محمود أخبار تحركات عطية هذه وأعماله ترك مدينة حلب ، و " أتى إلى حماة ووطئ جميع العرب وأذلها " .

ومرة أخرى كاد محمود أن يصطدم بعطية ، لكن عطية لم يجرؤ على القتال : " لمعرفته بغدر العرب به مرة أخرى ، وأراد أن لا ينهدم مجد آل مرداس " ، ومع ذلك كان لا بد من إعادة مخرج يعود على أساسه محمود إلى حلب ، يتوقف به عطية عن أعماله بالوقت نفسه ترضى به القاهرة ونائبها في دمشق . وهنا تدخل ابن عمار قاضي طرابلس وحاكمها بينهم وأصلح الحال واستحلف محمود وعطية لصاحب مصر وحلف كل واحد منهما لصاحبه على أن الرحبة وبالس والرقة والبلاد الفراتية لعطية وحلب لمحمود ، وسار عطية إلى دمشق فأقام في خدمة صاحب مصر " [1] .

ليس لدينا معلومات عن الأسباب التي جعلت قسماً كبيراً من قبيلة كلاب مع غيرها من القبائل تتجمهر في عام (٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م) في منطقة حماة ، وذلك أن أماكن تجمهر كلاب كانت في العادة في أطراف حلب ومعرة النعمان ، أو في مناطق الرقة والرحبة ، ورغم ندرة المعلومات فإنه من المتصور أن ما كانت تتعرض له الجزيرة مع شمال بلاد الشام آنذاك من ضغط بسبب هجرة التركمان إليهما وتوغلهم فيها جعل الكثير من القبائل تترك ديارها وتتحرك غرباً وجنوباً ، ولقد كانت أعالي الجزيرة ، وبخاصة منطقة الموصل في هذه الآونة معرضة للضغط

[1] مرآة الزمان سويم : ١٣٢-١٣٣ ، زبدة الحليب : ١٠/٢ ، النجوم الزاهرة : ٧٩/٥ .

المباشر الناجم عن الهجرة ، ولقد تأثرت قبيلة عقيل التي كانت تحكم الموصل تأثراً كبيراً بسبب التركمان ، وكان مسلم بن قريش هو أمير الموصل ، ولقد وجد مسلم مع قبيلته أنفسهما مكرهين على الانزياح تدريجياً عن ديارهم والتحرك غرباً ولقد كان التركمان يشعرون أن الموصل والدولة العقيلية هي العقبة الرئيسة في طريقهم لمد نفوذهم على الشام ، ولكن لما كانت هجرة التركمان عبارة عن تدفق بشري له هدف ، ولكن ليس له ناظم واحد فإن الكثير من التركمان توغلوا في الشام وغيره قبل الاستيلاء على الموصل استيلاءً تاماً ، ومع ذلك ما كانت الشام والجزيرة لتصفو مشاريعهما للغز قبل إنهاء قوة العقيليين وتحطيمها مع غيرها من قوى البدو والعرب .

وأخذت عقيل تتحرك تدريجياً نحو الغرب ، ولقد كانت الدولة المرداسية هي العقبة الرئيسة التي اعترضت سبيل هذا التحرك ، لذا كان لا بد من احتلالها والقضاء عليها ، وهذا ماحصل ، والأمر الذي يعجب منه الباحث هو كيف سعت القبائل العربية في الجزيرة والشام إلى (حتفها بظلفها) ليس أنها لم تستطع إقامة تعاون ووحدة بين صفوفها ضد الغزاة التركمان ، بل صرفت معظم قواها وبددتها في نزاعاتها الداخلية ، فمكنت خصمها من رقابها ، وأعطته بحماقتها وجهلها ديارها وسيادتها .

لقد أوردنا من قبل أن عطية بعدما تصالح مع ابن أخيه محمود سار إلى دمشق وأثناء وجوده في دمشق قام مسلم بن قريش سنة (١٠٦٨م) بغزو بلدة الرحبة فاحتلها وضمها إلى أملاكه ، كما قام بعد هذا بعامين في سنة (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠-١٠٧١م) بغزو بلدة الرقة فاحتلها أيضاً وضمها إلى أملاكه .

والآن وقد خسر عطية جميع أملاكه طلب من الخلافة الفاطمية مساعدته من

أجــل استعادتها ، ولكن هذه الخلافة ما كان بإمكانها تجنب مشاكلها الداخلية ، فمــا بــالك بمــد يد المساعدة الخارجية ؟ لذا ترك عطية دمشق وهجر الشام إلى بيــزنطة ، وقدمت بيزنطة بعض المساعدات لــه ، فقام في عام (١٠٧١م) بغزو أراضــي حــلب ، لكنه أخفق في تحقيق أيب شيء لوجود التركمان ، ولما كانت بيزنطة آنذاك تعاني من التركمان فإنها لم يكن بإمكانها مساعدة عطية بقوات كبيرة فاضطر إلى السفر إلى القسطنطينية إذ توفي فيها في حزيران عام (١٠٧٣م) .

ويــبدو أن بيــزنطة كانت تستهدف حين قبلت عطية بن صالح في أراضيها واســتخدمته ضــد أراضي إمارة حلب أن تحد من نشاط التركمان محمود ، أو تطــردهم مــن بــلاد الشــام ، أو أن تحتل حلب ، ولقد كانت حلب قبل عام (٤٦٣ هــ / ١٠٧١م) وأيضــاً بعد ذلك مركزاً هاماً بالنسبة للتركمان الذين كــانوا يتوغــلون داخل الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى ، فبعضهم استقر في حــلب كمــا رأينا وبعضهم الآخر عد حلب مركزاً هاماً من أجل بيع ما كانوا يحصــلونه من غنائم من أجل ما كانوا يحتاجونه من مؤن ومعدات ، ولقد كانت كميات المؤن التي حصل عليها التركمان من الأراضي البيزنطية هائلة ، ويكفي أن نســوق مثلاً ما ذكره ابن العديم في حوادث سنتي (٤٥٩-٤٦٠ هــ / ١٠٦٦-١٠٦٧م) ، ففي هاتين السنتين : " طلعت طائفة كبيرة من الترك ، فنزل بعضها على دلوك من نواحي حلب ، وتقدم منهم نحو ألف فنهبوا بلد أنطاكية عن آخره وأخــذوا نحــو أربعين ألف جاموس ، وقيل أكثر ، حتى إن الجاموس كان يباع بديــنار ، وأكثره بدينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجواري فلم يقــع عــلى ذلــك إحصاء من الكثرة ، وكانت الجارية تباع بدينارين ، والصبي بتطــبيقة نعال للخيل ، وخرب بلد الروم خراباً لم يسمع بمثله ، وبقي الغلات في

البيادر ما لها من يرفعها منهم ، حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضي الواحد منهم ويأخذ ما يريد فلا يجد من يدافعه عن ذاك ، لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغارات ، وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئاً لأن الترك أتوهم على غفلة ... وكان مقدمهم أفشين بن بكجي ... قطع الفرات إلى بلاد الروم ، ثم خرج إلى أعمال حلب ، وباع الغنائم التي كانت معه ... وقيل إن أصحاب مؤونة السوق بحلب حصل في دفاترهم نحو سبعين ألف مملوك ومملوكة سوى ما بيع بغير مؤونة في بلد الروم وسائر البلدان ، وأخذ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار من ثياب الديباج والآلة [1] ، وأمام أعمال التركمان هذه جهدت بيزنطة التي كان إمبراطورها الآن رومانوس دايجينوس لإيقاف التركمان ومنعهم من غزو أراضيها وأرادت إغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الاستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الإسلامية ، ولما كان التركمان ينفذون إلى داخل الأراضي البيزنطية ويخرجون منها من ثلاث مناطق كانت هي :

ثغور بلاد الشام وثغور أعالي الجزيرة وبلاد أرمينية ، فقد وضع رومانوس كما يبدو خطة تستهدف إغلاق هذه النافذ على ثلاث مراحل ، وفي هذا السبيل قام بنفسه بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود أرمينية وذلك في السنوات (٤٦١ - ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٧١م) ولقد وجهت الحملتان الأولى إلى أراضي إمارة حلب في الشام والجزيرة ، وكانت معركة منازكرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة ، وطبعاً كانت أهمها على الإطلاق لأن نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، ولنأخذ قبل دراسة معركة منازكرد بدراسة حملتي الإمبراطور رومانوس اللتين

---

[1] زبدة الحيب : ٢/١١-١٢ .

قادهما قبلها ضد إمارة حلب .

لم يكن لهاتين الحملتين نتائج خطيرة ، وكل ما حصله رومانوس منهما هو أعمال الغارة في أراضي حلب واحتلال مدينة منبج ، وليس من الواضح وضوحاً أكيداً في المصادر العربية أكان احتلال منبج قد تم أثناء الحملة الأولى أم أثناء الحملة الثانية ، هذا وإن ميخائيل بسللوس المؤرخ الفيلسوف البيزنطي الذي كان يعمل في القصر الإمبراطوري في القسطنطينية والذي عاش الأحداث وشارك فيها ، لا يساعدنا كثيراً فيما كتبه على حل هذه المسألة ، وكان ما قاله في أمر الحملة الأولى هو : " ترك رومانوس مدينة القسطنطينية يصحبه جيشه كله ، وزحف ضد البرابرة دون أن يعرف إلى أين سيمضي أو ماذا سيعمل ، لقد جاب الفيافي يخطط ليمضي في طريق ، لكنه كان يزحف على آخر ، توغل في أراضي سورية والجزيرة والنجاح الذي حققه كان فقط قيادة جيشه داخل هذه الأراضي والقيام بمركزه بعض من رجاله في أعالي الهضاب ثم انحدارهم وتقطيعهم في ممرات ضيقة ، ومن ثم معاناة فقدان عدد كبير من الجرحى خلال هذه التحركات ، ومهما يكن الحال فقد عاد وعليه مظاهر النجاح مع أنه لم يجلب لنا أية غنائم لا من أهل الجزيرة والشام ، ولا من الفرس ، وكان كل ما قام به هو أنه زحف ضد العدو " ، وبسللوس متحامل في حديثه على رومانوس ومع ذلك يستخلص من روايته هذه أن هدف رومانوس كان مطاردة التركمان وتعقبهم في أراضيه ، ولا يمكن لأية عملية تعقب أن تخضع لنظام مناورة محدد تبعاً لقواعد عسكرية ثابتة بل يسير في العادة حسب الحال ، وما يحتاجه ساعة بساعة ، وعلى كل حال يبدو أن احتلال منبج قد تم أثناء الحملة الثانية لأن المؤرخين العرب يرون أن المدينة عندما سقطت سقط معها الكثير من أهلها في الأسر ، وهذا ما يؤيده بسللوس الذي اشترك في

هـذه الحملة بقوله : " وقد أخذ خفنة من رجال الأعداء أسرى " ويبدو من روايات المؤرخين العرب أن رومانوس قد قام في الحملة الأولى بغزو إمارة حلب من منطقة أنطاكية فاستولى على بعض حصون الأمارة وهز محمود وقواته العربية التركية ، ولكنه أكره على الانسحاب بسبب ورود أخبار إليه بأن أحد مقدمي التركمان واسمه أفشين قد استولى على مدينة عمورية وأنه على نية متابعة توغله داخل الأراضي البيزنطية نحو القسطنطينية ، ويبدو أن رومانوس غزا إمارة حلب في الحملة الثانية من أراضي الجزيرة فاستولى على بلدة منبج ، وهدمها ، وعمر فيها حصنها القديم ، وترك فيه حامية ثم أخذ طريقه عائداً نحو القسطنطينية بسبب قلة المؤن في المنطقة [1] .

لم ينجم عن حملتي رومانوس مع هجرة التركمان حتى الآن أي خطر حقيقي على الدول التي كانت قائمة في الشام والجزيرة ، ولكن الخطر جاء مع الحملة الثالثة ، لكن ليس بسببها ولا من الأراضي البيزنطية ، بل من خراسان وبسبب ما كان يجري في مصر ، أو في القاهرة بالحري آنذاك ، فلقد كانت القاهرة تعيش في هذه الآونة فترة المنازعات السياسية من أجل السلطة فيها وبغية التسلط على الخليفة المستنصر ، وكان ناصر الدولة الحمداني أحد أحفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل ، والأخ الأكبر لسيف الدولة ممدوح المتنبي وأمير حلب ، أبرز أطارف النزاع في القاهرة ، وكان قد قصد أبطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته

---

[1] بسللوس : الترجمة الإنكليزية ٣٥٢-٣٥٦ ، ابن القلانسي : ٩٤ ، تاريخ آل سلجوق : ٣٥ ، العظيمي : ١٨١و ـــ ظ ، ابن أبي الهيجاء : ١٢٨ ظ ٢ ، ابن العميد : ٥٥٤-٥٥٥ ، ومرآة الزمان أحمد الثالث : حـوادث سنة ٤٦١-٤٦٢ هـ ، البستان الجامع : ٩٠و ، الذهبي ، دول الإسلام : ٢٠٨/١ ، العبر للذهبي : ٢٣١/٣-٢٤٨-٢٤٩ ، ابن كثير : ٩٩/١١ ، ابن الجنغل : ٢٢٤/٤ ظ ، منجم باشي : ١/ ٣٢٨ ظ .

فندب الفقيه أبا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب ،وبعثه رسولاً إلى السلطان آلب أرسلان أبي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان يسأله أن يسير إليه عسكراً ليقيم الدعوة العباسية وتكون له مصر فمضى أبو جعفر إلى خراسان ، وبلغ السلطان آلب أرسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان في عساكر عظيمة وتحرك آلب أرسلان على رأس قواته غرباً ، وكان تحركه بطيئاً وعلى كل حال لم يكن بإمكان آلب أرسلان بسبب طبيعة قواته وطبيعة الحواجز التي اصطدم بها الوصول إلى مصر ، فلم يتجاوز أسوار حلب .

ولقد كانت الرها أولى العقبات التي اعترضت سبيل تقدم قوات هذا السلطان ، وكانت هذه المدينة آنذاك تحت الحكم البيزنطي ، وقد وصلها آلب أرسلان في خريف ١٠٧٠م ، وأخذ بحصارها وشدد الهجوم عليها من جهة الشرق : " وكان منها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن أسار بن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية آلاف أرمني وعشرون ألف سرياني وستة آلاف رومي وألف إفرنجي " . وأخذ السلاجقة بقطع أشجار الحدائق وبطمر الخنادق بجانب الأسوار الشرقية ، وأخذت مجانيقهم بقذف الأسوار مع من كان عليها ، وشرع النقابون يفتحون الفجوات في السور والأبرجة ، ودام ذلك خمسين يوماً (وفي روايات أخرى ثمانين يوما) ، وكان يقابلهم بالأثيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد ، فإذا دنوا ليقربوا الحصن طرحوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم ... ثم إنه زحف إليه بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحماً وزفتاً ونفطاً وطرحوا عليها من الحصن صخوراً وناراً وأحرقوها ، وقتلوا كل من كان فيها ، ثم أمر الملك العادل بقطع الأشجار والأخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن حتى يمشي الخيل والرجال عليهم إلى الحصن ،

فتوصلوا إليها من داخل المدينة من النقوب وأطلقوا فيها النيران فتأججت النار حتى صـــار الخندق نيراناً تلتهب ، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فأنفذ لديهم رسولاً يقول لهم : " ما يحسن بي أن أرحل عنكم بعـد قـتالكم ، وقد أطاعتني جميع البلاد إلا بعد أن يستقر لي عليكم مال يسير ، وأنــا أرحل عنكم لئلا يصير علي فضيحة " . ويبدو أن اتفاقاً ما قد تم عقده بين أهالي الرها والسلطان ، آلب أرسلان وقف على أساسه القتال ضد المدينة وسحب قواتــه غــرباً نحو حلب ، وعند وصوله إلى الفرات قدم لــه جميع أمراء دويلات الجزيرة وأصحاب السلطة فيها الولاء وفروض الطاعة ، وفي (الرابع عشر من ربيع الآخــر سـنة ٤٦٣ هــــ / التاسع عشر من كانون الثاني ١٠٧١م) عبر آلب أرسلان وقواته الهائلة نهر الفرات وقبل عملية العبور هذه أرسل آلب أرسلان وراء محمــود بن نصر يدعوه إليه كي يقدم إليه الطاعة ويفتح أبواب حلب لاستقبال ، ولقــد رفــض محمود بتحريض من ابن خان اغلاستجابة لطلب السلطان ، وآثر الاعتصــام بحــلب واتخاذ موقف الدفاع وذلك بعدما شحن مدينة حلب بالرجال الذيــن هبوا للدفاع عنها من سائر أنحاء بلاد الشام ، وزحف آلب أرسلان بقواته نحــو حلب ، وكان تحركه في غاية البطء ، لذلك احتاج إلى أكثر من مدة شهرين حــتى وصــلها وجدد آلب أرسلان في هذه المدة مراسلاته مع محمود بن نصر ، وأرسل له أكثر من بعثة تدعوه لترك حلب والقدوم إلى معسكر السلطان (لخدمته ودوس بساطه) وكان كلما اقترب من حلب ازداد إصرار محمود على المقاومة ، ولمــا كان آلب أرسلان هو سلطان الإسلام ، وقد فوض الخليفة العباسي إليه أمر إخضــاع بــلدان الإسلام وردها إلى حظيرة السنة ، فقد قرر عندما وصل حلب ووجد الأمير محمود بن نصر مصراً على عدم الخضوع ، قرر أخذ المدينــة بقــوة

السلاح ، لذلك قامت قواته بمحاصرتها .

وكما حدث من قبل في الرها حاصرت قوات التركمان مدينة حلب لمدة تزيد على الشهر ، وبذلت كل جهد ممكن لاقتحام أسوار المدينة فأخفقت ، وتعود الأسباب الرئيسة لهذا الإخفاق إلى المقاومة العنيدة والدفاع المستميت الذي بذله أهال حلب ، وإلى متانة أسوار حلب ، وقوة أبراجها وحصانتها ، ثم إلى الطبيعة البدوية للجيش السلجوقي وإلى نوعية تكوين أسلحته ، فقد كان التركمان معتادين على المعارك المكشوفة لمهارتهم الفائقة في استخدام القوس والنشاب ، ولم يكونوا قد أتقنوا بعد استخدام أسلحة دك الأسوار أو تسلقها ، ثم إنه كان ضد مزاجهم النفسي البقاء في مكان واحد لفترة طويلة من أجل أخذ مدينة واحدة مهما ضخمت غنائمها ، فإنها تعدل تكاليف الإقامة والبعد عن الأهل ، ثم لماذا تحاصر المدن وأراضي بيزنطة وريف الشام والجزيرة وفيهما من الغنائم السهلة التناول الشيء الكثير ؟ .

ورغم كل هذا فقد شعر السلطان آلب أرسلان أن إخفاقه في أخذ حلب بعد فشله في فتح الرها سيحط من سمعته ، وسيكون له نتائج غير محمودة على إمبراطوريته الناشئة ، لذلك أصر على اقتحام المدينة مهما كلف الثمن ، وقامت — بناءً على هذا — قواته بعدة زحوف على المدينة ، ولكنها كانت كل مرة تعود خائبة مع خسائر كبيرة ، ولقد كانت معنويات المدافعين عالية جداً ، وكانوا واثقين من موقفهم وقوة دفاعهم .

ولقد عبر أهالي حلب عن ذلك بأسلحتهم ، وبطرائق خاصة أخرى فيها نوع من الغرابة إن لم نقل الشذوذ .

لقد كان أقوى أبراج أسوار المدينة برج يدعى برج الغنم ، وقد ركزت

القوات السلجوقية معظم جهودها على هذا البرج ، وعملت من أجل أخذه أو حرقه ، وكانت مجانيق السلاجقة تقذف هذا البرج بلا انقطاع ، ولقد استطاع الحلبيون رد جميع الهجمات التي وجهت ضد هذا البرج ، ثم قاموا في أحد الأيام فعصبوا هذا البرج " بشقة أطلس ، وكان السلطان نازلاً بميدان باب قنسرين فسأل عن ذلك فقيل هؤلاء الحلبيون يقولون على سبيل المزح قد صدع البرج رأسه من حجارة المنجنيق ، فقد عصبوه فغضب وفرق في تلك الليلة ثمانين ألف فردة نشاب ... خير ما رماه بقية العسكر ، وأصبح وأمر بالزحف فجد الناس في قتال البلد ، وحمل السلطان بنفسه في ذلك اليوم ، فوقعت يد فرسه في خسف كان هناك ، وأصاب في الحال رأس فرسه حجر المنجنيق ، فركب غيره ، وعاد فصرف الناس عن الحرب ... وكان عسكره دائراً بالبلد من جميع وجوهه " . وعندما أدرك السلطان صعوبة أخذه حلب بالقوة : " راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرية فوصلوا إليه وعول على تقليد بعضهم وتركه في مقابلة محمود " .

عندما وصلت أخبار هذا العمل إلى محمود بن النصر الذي كان يعرف جيداً أخلاق أفراد قبيلته لاحظ مدى الخطر الذي هو فيه ، لذلك بادر من طرفه بالتحرك بسرعة ، وسعى للتوصل إلى مصالحة مع السلطان يصون بها ملكه في حلب مع كرامة السلطان وسمعته ، لذلك كتب إلى ايتكين السليماني الذي كان من حاشية السلطان ، والذي كان قد جاء إلى حلب رسولاً أكثر من مرة ، فأخبره بأنه على استعداد للخروج من حلب (للدرس بساط السلطان وخدمته) وأشعر محمود بالإيجاب وشجعه ، وعلى هذا الأساس خرج سراً من حلب في ليلة (الأول من شعبان ٤٦٣ هـ / ٤ أيار ١٠٧١م) مرتدياً زياً تركمانياً ، ومعه أمه

التي كانت تعرف باسم السيدة ، وتوجه وهي معه إلى معسكر السلطان ، وقابلاه وتم بينهم الاتفاق على بقاء محمود في إمارته ، وعلى أن يخرج في اليوم التالي علناً فيقدم فروض الطاعة للسلطان وهو الذي سيلعن رضاه وموافقته على بقائه أميراً لحلب ، وفعلاً تم إعداد الترتيبات لذلك ، " فخرج محمود إلى السلطان بنفسه ، ومعه والدته المعروفة بالسيدة ... وأخذ مفاتيح البلد معه ، فدخلا والعسكر سماطان بين يديه فخدما ، وسلما عليه فأكرمهما وأحسن إليهما ... وأطلق له البلد وشرفه وخلع عليه ، وكتب له توقيعاً بحلب ، وتردد خروج محمود إلى خدمته مرة بعد أخرى ، وقرر معه السلطان أن يخرج بعسكره ، ويضيف إليه السليماني ، وأن يتوجها إلى بلاد الشام والأعمال المصرية لفتحها ، ففعل ما أمر به وعاد السلطان إلى بلاده " .

ولكي يغسل السلطان إخفاقه في احتلال حلب بالقوة ، ولكي يسوغ انسحابه صرح قائلاً : " أخشى أن أفتح الثغر بالسيف فيصير إلى الروم " وطبعاً إن هذا التسويغ تافه ومرفوض ، فبيزنطة كانت تعرف حلب وتعرف مدى قوتها ، وكان في الغالب من سياستها إبقاء هذه المدينة مستقلة ، وفي الحقيقة نحن لسنا متأكدين أكان السلطان آلب أرسلان قد قال هذا حقاً ، أم أنه كان نوعاً من الدعاية الرسمية ، أو أن القضية كلها كانت اختراعاً من قبل أحد المؤرخين ، وليس لدينا أيضاً ما يقص تفاصيل اتفاقية محمود مع السلطان ، وكل ما نعرفه أن السلطان لم يدخل حلباً كما لم يدخلها أحد من جنده ، وأنه بعد تصالحه مع محمود قرر العودة إلى خراسان وعدم متابعة سيره إلى مصر .

وعندما عبر آلب أرسلان الفرات مرة ثانية وصلته (كما يرجح) الأخبار بتحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الإسلام بقيادة الإمبراطور رومانوس دايجنوس

لهــذا غير آلب أرسلان وجهته وانحرف شمالاً لمواجهة هذا الجيش الزاحف ، ولقد تصــدى آلــب أرســلان لقوات بيزنطة واشتبك معها في أرمينية عند موقع اسمه مــنازكرد (قــرب بحيرة وان في تركية الآن) فهزمها ، ولولا هذا النصر الخطير والبعيد التأثير لكانت حملة آلب أرسلان كلها بلا ثمرات ، ونظراً للأهمية القصوى لهــذه المعركة ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، لأنها تعدل ـــ إن لم تفق ـــ معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الإسلامية البيزنطية ، فلا بــأس أن نوليها الاهتمام ، ثم نعود بعد ذلك لمتابعة دراسة التركمان وإهمالهم في بلاد الشام والجزيرة .

لقد مثل بيزنطة في هذه المعركة الإمبراطور رومانوس دايجينوس الذي تحدثنا عن حملته على بلاد الشام ، ويعود رومانوس في أصله إلى عائلة أرستقراطية عريقة أصلها من أسر آسيا الصغرى ، ولقد وجد دايجينوس نفسه من أن أصبح إمبراطوراً في ســنة (١٠٦٨م) يواجــه عدة مشاكل داخلية وخارجية ، فأولى معظم وقته وطاقاته وطاقات إمبراطوريته للمشاكل الخارجية إذ إنها كانت أكثر إلحاحاً ، ولقد تمثــلت المشاكل الخارجية في الخطر الذي أبرزه التركمان في هجرتهم وفي أعمال اجــتياحهم للأراضــي البيزنطية ، ومن أجل إيقاف التركمان ووضع حد لتغلغله وتخريبهم للأناضول قاد رومانوس الحملتين المتتاليتين اللتين تحدثنا عنهما ، ثم أخذ بعــد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جداً أراد أن يجنب بها التركمان بلاده ويكتسب بعــض المواقــع داخــل الأراضي الإسلامية ليشحنها بالجند حتى يقفوا للتركمان بالمرصــاد ، ولقد قاد رومانوس قواته التي أعدها تجاه أرمينية في سنة (٤٦٣ هــ / ١٠٧١م) ، ويــبدو أنــه أراد أن يستغل فرصة غياب السلطان آلب أرسلان في بلاد الشام .

وبلغ آلب أرسلان خبر تحرك القوات البيزنطية بعد فراغه من أمر حلب وأثناء عودته أو إعداده العدة للعودة شرقاً ، هذا ويروي غرس النعمة بأن السلطان استقبل قبيل مغادرته منطقة حلب بعثة بيزنطية أرسلها الإمبراطور رومانوس ، وأن البعثة عادت إلى الإمبراطور أثناء تحرك السلطان شرقاً بعدما سايرت جيوشه مسافة كبيرة .

ولا يخبرنا غرس النعمة بالتفصيل عن مهمة هذه البعثة البيزنطية التي جاءت من أجلها ، ولا عن نوع المباحثات التي أجرتها مع السلطان آلب أرسلان ، إنما لذكر فقط أنها حملت عرضاً " بردمنبج وأرجيش ومنازكرد إليه وبحمل الهدية "[1] لكن مقابل ماذا ؟ ذلك ما لا يوضحه .

ويذكر المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس ما يفيد بأن الإمبراطور بعد أن تحرك من القسطنطينية تابع سيره حتى وصل إلى قيسارية ، وهناك توقف عن التحرك وبدأ يفكر بالتراجع إلى القسطنطينية لكنه حاول قبل تراجعه أن يتوصل إلى اتفاقية مع عدوه ربما بهدف وضع حد لغارات التركمان على بلاده ، هذا ولا يوضح بسللوس الوسيلة التي اتبعها الإمبراطور ، أرسل بعثة إلى السلطان وصلته وهو في منطقة حلب وعرض عليه عرضها الذي ذكرناه قبل قليل ، ولأن لم يقد ملنا كل من غرس النعمة وبسللوس وهما ممن عاصر هذه المعركة تلميحاً أو تفصيلاً لشروط الإمبراطور ، فإننا نجد عند ابن العربي الذي ذكر ــ خلافاً لما رواه غرس النعمة ــ بأن الإمبراطور عندما راسل السلطان اقترح عليه أن يتنازل له عن ملكية منازكرد وأرجيش مقابل تخلي الإمبراطور عن منبج ودفعه جزية مستوية إذا ما أوقف السلطان غارات التركمان ضد الأراضي البيزنطية ، ولقد ذكر ابن العبري

---

[1] أي الجزية .

بأن السلطان قد قبل بمقترحات الإمبراطور ، وتنازل له تنفيذاً للاتفاق عن جميع الأراضي حتى بلدة أخلاط .

لم يتابع تنفيذ هذا الاتفاق (هذا إن كان قد نفذ في الواقع منه أي شيء) إذ إنه من المتصور أن يكون السلطان آلب أرسلان قد قبل بمقترحات الإمبراطور ووعد بالتنازل له عن الأراضي حتى أخلاط ، ولكن هل كان لديه القدرة على إيقاف التركمان ومنعهم من الإغارة على الأراضي البيزنطية ، هذا أمر مشكوك به على كل حال . إن تسارع الأحداث لم يتح السبيل لتنفيذ شروط الاتفاق ، واصطدمت قوات آلب أرسلان بقوات رومانوس .

وقبل الحديث عن أسباب عدم تنفيذ الاتفاق ثم عن الحرب التي وقت لا بد من الإشارة إلى أن السلطان آلب أرسلان قد قبل بمقترحات الإمبراطور البيزنطي لا خشية في الاصطدام معه ولا تقديراً بأن قواته لن تستطيع منازلة القوات البيزنطية ، ولكن كان هدف هذا السلطان وهمه آنذاك مد نفوذه وسيطرته على بلدان العالم الإسلامي ، ولم تكن لديه مطامح بالتوسع داخل بيزنطة ، أو سواها من البلدان غير المسلمة ، ويبرهن على هذا أن بعد نصره الساحق في منازكرد لم يحاول استغلال هذا النصر ، وإنما جهد في التعجيل لإيجاد تسوية عاجلة مع رومانوس ، ثم عاد إلى بلدان العالم الإسلامي ، وتابع في مد سيطرته عليها حتى لقي حتفه .

أما أسباب عدم الأخذ بالاتفاق فإن بسللوس الذي عاصر الأحداث ويشارك في المعركة يقول : " عوضاً عن تنفيذ الاتفاق ؟ وأما في يأس أو بسبب أنه (أي الإمبراطور) كان واثقاً بنفسه أكثر مما ينبغي ، زحف إلى القتال " . إن في كلام بسللوس هذا بعض الغموض ، وهو لا يفي بالغرض ، ولكن على الرغم من هذا

فإن الإمبراطور عندما استأنف زحفه كان كما يبدو أنه لم يصنع ذلك ، وهو يائس بل صنعه وهو مؤمن بأن النصر سيكون حليفه ، وربما فعل ذلك بناءً على المعلومات التي نقلتها إليه بعثته التي عادت من عند السلطان ووصفت له رحيل السلطان وحالة الفوضى التي حلت في جيشه أثناء الرحيل . ويقول غرس النعمة : " وضجر السلطان من المقام بحلب ، فكر راجعاً وقطع الغراث ، وهلك أكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه الهارب ، ولم يلتفت إلى ما ذهب من الأراواح والدواب ، وعاد رسول الروم مستبشراً إلى صاحبه ، فقوى ذلك عزم قائد الروم على أتباعه وحربه .

لقد كان تراجع آلب أرسلان هذا (شبه الهارب) قد تم تبعاً للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغرير به ، فالتركمان كبدو كانت لديهم خططهم الخاصة في الزحف كما كانت لهم مبادئهم المتميزة من السوقية العسكرية ، وتنطلق هذه المبادئ من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة فيها يعطي القائد أمراً عاماً يحدد فيه لقواته البدوية نقطة يحضرون فيها وليلة لهذا الحضور . ويندفع البداة زمراً وأفراداً في اتجاهات مختلفة ، وهنا يظن العدو بأنهم تفرقوا إلى غير عودة ، لكنه لا يدري أن تفرقهم يفيد قائدهم لتحريره من قضايا التموين ، ثم يدمر أراضي العدو ويضلل قيادته ويجبرها في كثير من الأحيان على توزيع قواها ، ثم عندما تصطدم أولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خططه لسحق بضعة آلاف من البدو ، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل إلى أضعاف مضاعفة ، لهذا تنهار معنويات قواته ويتم عامل المفاجأة وهكذا يحقق النصر ، هذا ما طبقه آلب

أرسلان عندما التقت قواته لأول مرة بقوات رومانوس ، وكان عددها أقل بكثير من القوات البيزنطية ، ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات ، ذلك لأن آلــب أرسلان وصل إلى قبالة الأمبراطور رومانوس في يوم أربعاء ، واشتبك معه ظهــر الجمعــة ، وقبل الاشتباك أرسل بعثة لمقابلة الإمبراطور والمفاوضة معه في الظاهــر ، وذلك لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي ، وللاتصال بالعناصر الغزية غــير المســلمة فيــه من الباطن ، ولقد أعد العدد من الكمائن وهيأها لساعات الحاجة وللمفاجأة .

ونظــراً لأن قوات آلب أرسلان كانت من الفرسان الرومان وقوات بيزنطة كانت من الفرسان الثقال مع المشاة ، فقط قامت خطة السلاجقة على مبدأ فصل المشـاة عن الفرسان (يمكن تشبيه الفرسان الثقال بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكـثير من قيمتها من دون حراسة من المشاة ، وأيضاً لا قيمة كبيرة للمشاة من دون الدبابات) ، وقتل خيول الفرسان ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد وقد حصل هذا في معركة منازكرد ، كما حصل في سواها من المعارك .

لقــد بــالغت المصادر العربية في تقدير عدد الجيش البيزنطي فجعلته يفوق المــليون مقــاتل ، ثم إن هذه المصادر لم تقدر عدد قوات آلب أرسلان بأكثر من خمســة عشر ألف مقاتل ، ولهذا كان النصر الذي تم بالنسبة لها نصراً قد تم بفضل مســاعدة الســماء ، أي إنه كان عبارة عن معجزة وكرامة للسلطان العادل " . واستجابة لدعاء المسلمين يوم الجمعة ساعة المعركة .

لم تكــن الصورة هكذا أبداً ، ولم يكن هناك أية معجزة ، وكل ما في الأمر أن قوة بيزنطة التي ربما كانت في حدود الخمسين قد لاقت قوة تركمانية مساوية لها في العدد نفسه ، ولكن بميزات قد تم شرحها ، يضاف إلى هذا أن قسماً كبيراً

من قوات بيزنطة كان مؤلفاً من مرتزقة من عناصر غزية غير مسلمة ، وكان عدد مـــن ضباط الجيش متآمرين ضد رومانوس يعدون انقلاباً للإطاحة به ، وتنصيب إمـــبراطور جديـــد مكانـــه ، لذا عندما اصطدمت جيوش رومانوس بقوات آلب أرســـلان دامـــت معـــركة قصيرة لكنها حاسمة ، تخلى فيها الغز عن البيزنطيين وانضـــموا إلى بـــني جـــلدهم ، وهـــرب المتآمرون مع عدد كبير من الجند نحو القســـطنطينية ، وترك رومانوس في لجة من الفوضى والدمار وسقط أسيراً في يد التركمان ، فكان أول إمبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

لقـــد حطـــت هذه المعركة قوى بيزنطة العسكرية ، وكانت البداية الفعلية لـــتحول بيزنطة إلى تركيا ، ثم إن الغنائم التي حازها التركمان كانت أكثر من أن تحصـــى ، ولم يحـــاول آلـــب أرسلان استغلال نصره المؤزر هذا ومطاردة فلول الـــبيزنطيين ، والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى بأن أحضر رومانوس إلى حضـــرته (وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل إليك رســـل الخـــليفة أطال الله بقائه في إحضاء الهدنة فأبيت ؟ ألم أرسل إليك بالأمس أســـألك الرجوع فقلت قد أنفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت إلى هـــنا وظفـــرت بما طلبت ، فكيف أرجع إلا أن أفعل ببلاد المسلمين مثلما ما فعـــلوا ببلادي ، ولقد رأيت أثر البغي ، وكان قد جعل في رجليه قيدين وفي عنقه غـــلاص ، فقـــال أيهـــا السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس وأنفقت الأمـــوال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر إلا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد ، فقال له السلطان فـــلو كـــان الظفـــر لك ما كنت تفعل معي ؟ ، فقال : القبيح ، فقال : آه والله صدقت ، ولو قال : غير هذا لكذب !! ، هذا رجل عاقل جلد ولا يجوز أن يقتل

ثم قـــال لـــه : ما تظن الآن أن أفعل بك ؟ ، قال : أحد ثلاثة أقسام ، أما الأولى فقتلي ، والثانية إشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكـــره فإنك لا تفعل ، قال : ما هو ؟ ، قال : العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي إلى ملك مملوكاً ، وبعد اسفهسلارتيك ونائبك في الروم ، فإن قتلك لي لا يفيدك هم يقيمون غيري .

فقال السلطان ما نويت إلا العفو عنك ،فاشتر نفسك ، فقال يقول السلطان مـــا يشـــاء ، فقال عشرة آلاف دينار ، فقال : والله إنك تستحق ملك الروم إذ وهـــبت لي نفسي ، ولكن قد أنفقت أموال الروم واستهلكتها مذ وليت عليهم في تجريد العساكر والحروب ، وافقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد إلى أن استقر الأمـــر على ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة ألف دينار وستين ألف دينار في كل سنة ، وأن ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة إليه وذكـــر أشـــياء ، فقال : إذا مننت علي عجل سراحي قبل أن تنصب الروم ملكاً غـــيري فيفوت المقصود ولا أقدر علي الوصول إليهم ، فلا يحصل شيء مما شرطته عـــلي ، فقـــال السلطان : أريد أن تعيد أنطاكية والرها ومنبج ومنازكرد ، فإنها أخـــذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن أسارى المسلمين ، فقال : أم البلاد فإن وصلت سالماً إلى بلادي أنفذت بالعساكر وحاصرتهم منهم وسلمتها إليه ،واما أســـارى المسلمين فالسمع والطاعة فإن وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ثم قال : أعطوه قدحاً ليسقينيه ، فظنه له فأراد أن يشـــربه ، فمنع وأمر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح ، فأومأ إلى تقبيل الأرض ، ونـــاول السلطان القدح فشربه وجز شعره وجعل وجهه على الأرض ، فلما كان من الغد أحضره السلطان وقد نصب لـــه سريره ودسته الذي أخذ منه ، وأجلسه

عـــليه ، وخلع عليه قباء وقلنسوة وألبسه إياهما بيده ، وقال لـــه : خذ اصطنعتك وقـــنعت بأمانتك ، وأنا أسسيرك إلى بلادك وأردك إلى ملكك ، فقبل الأرض ... وعقد له السلطان له راية مكتوب فيها : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وأنفذ معه حاجبين ومائة غلام ... وركب معه وشيعه قدر فرسخ فأراد أن يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه إليه وتعانقا ، وعاد السلطان عنه .

ولقـــد أخفق رومانوس في دخول القسطنطينية ، وجهد بعد ذلك من أجل الوفاء بما التزم به للسلطان ومن أجل استعادة عرشه ، وفقد حياته [1] .

بعـــد أيـــام من مغادرة آلب أرسلان لمنطقة حلب قاد محمود بمصر وإيتكين الســـليماني قوالهمـــا وتوجها جنوباً لغزو دمشق ، وفي الطريق توقفا عد بعلبك ، وهـــناك وصـــلت إلى محمـــود أخبار فيها أن عمه عطيه تعاونه قوات بيزنطية من أنطاكية أخذ يعمل الغارة في أراضي حلب ، لذا ترك محمود السليماني وكر راجعاً نحو حلب ، ولقد اشتبك محمود مع القوات البيزنطية في أكثر من معركة انتصروا غليه وهزم .

وعندما وجد محمود نفسه غير قادر على دفع البيزنطيين عن بلاده استغاث بـــزعماء الناوكية الذين كانوا مع أتباعهم في جنوب بلاد الشام يعملون للاستيلاء عـــلى فلسطين ، ولقد لبى هؤلاء دعوة محمود ، وجاؤوا إليه ، ولقد تمكن محمود

---

[1] تاريخ آل سلجوق : ٣٦-٣٧ ، ابن ميسر : ١٩/٢-٢٠ ، المنتظم : ٢٦٠/٨ ، ابن أبي الهيجاء : ١٢٩ ظ ، الكامل ط ليدن : ٤٢/٩-٤٤ ، ابن العميد : ٥٥-٥٦ ، العظيمي : ١٨١ ظ ، زبدة الحلب : ٢/ ١٦-٢٣ ، بغيـــة الطلب أحمد الثالث : ٢٨٠/٣ و ، ٢٨٥ ظ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٤٦-٥٣ ، مرآة الزمان : حوادث سنة ٤٦٣ هـــ ، راحة الصدور : ١٨٨-١٩٠ ، تاريخ الفارقي : ١٨٩-١٩٠ ، ابن القلانسي : ٩٩ ، اتعاظ الحنفي : حوادث سنة ٤٦٢ هــ ، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية : ١٩٨- ٢٠١ ، ابن أبي الدم : ١٣٢ ظ ، البستان الجامع : ٩٠و .

بفضل مساعدتهم ليس من صد البيزنطيين وإيقاف أعمالهم ضد أراضي إمارته فحسب ، بل استطاع أيضاً أن يرد الرحبة إلى أملاكه مستخلصاً إياها من مسلم بن قريش العقيلي، ويبدو أن هؤلاء الناوكية قد مكثوا لدى محمود فترة طويلة من الزمن لأن استرداد الرحبة قد تم سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م) ، وبعد هذا الصنيع سرح محمود التركمان فتركوه إلى فلسطين بعد أن أخذوا منه مبلغاً من المال وعدد من الخيول ، وذلك أجراً لهم ، ويبدو أنهم تركوا قسماً غيراً منهم في خدمته ، ذلك لأن القوات البيزنطية لأنطاكية أغارت في سنة (٤٦٦ هـ / ١٠٧٢م) على أراضي حلب ، فاستطاع محمود صدها كما تمكن من الاستيلاء على قلعة السن البيزنطية وضمها إلى أملاكه .

وفي جمادى الأولى من السنة التالية (٤٦٧ هـ / كانون الثاني ١٠٧٥م) توفي محمود بن نصر ، وقبل وفاته بعامين تقريباً كان السلطان آلب أرسلان قد توفي سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م) ، وبوفاتهما انتهت مرحلة من مراحل التاريخ السلجوقي العام مع هجرة التركمان إلى بلاد الشام والجزيرة ، وبدأت مرحلة جديدة وحاسمة ، هي مرحلة تصفية الناوكية وسقوط الدولة المرداسية ، ومن ثم اخضاع الشام والجزيرة نهائياً للحكم السلجوقي المباشر [1] .

لقد أوردنا بأن جماعة الناوكية كانت أول جماعة تركمانية تدخل بلاد الشام

---

[1] ابن حيوس : ٢/٥١١-٥١٢ ، ابن القلانسي : ١٠٦-١٠٧ ، العظيمي : ١٨٢و ظ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٦٤-٤٦٧ هـ ، زبدة الحلب : ٢/٣٠-٣٢-٤٢ ، المنتظم : ٨/٣٠٤ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ، الكامل ط ليدن : ٩/١٦٥-١٠١٧٤ ، ابن العميد : ٥٦١-٥٦٢ ، النجوم الزاهرة : ٥/١٠٠-١٠١ ، التاريخ المنصوري : ٧٤ ، وحوادث السنين : ١٥٤ تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ١٠ و ١١٢ دول الإسلام للذهبي ٢/٢ العبر للذهبي : ٣/٢٦٦ ، المختصر في أخبار البشر : ١/١٤٩-٢٠٢ ، ابن كثير : ١١/١١٣ ، ابن جنغل : ٤/٢٣٢ ، عقد الجمان ١١/٥٨٠ .

كما بينا طبيعة تكوينها البشري ، وكيف أنها ناصبت السلطان السلجوقي العداء ، لذلك عندما دخلت الشام انضوت تحت لواء الدول التي كانت قائمة فيه ، ودخلت في خدمة حكام هذه الدول ، كما أنها عملت في سبيل مصالحها الذاتية ، ومع أننا استنتجنا وجود الناوكية في جنوب بلاد الشام ، وفي مناطق الساحل في طرابلس وصور وسواهما ، فإن المصادر التي وصلت إلينا لا تسعفنا بأي شيء من أعمالهم ونشاطاتهم في هذه المناطق قبل حملة السلطان آلب أرسلان على حلب ، وكل ما جاء في مصادرنا التي بين أيدينا يشير إلى أن الناوكية تركت شمال الشام إلى جنوبه وإلى سواحله تحت ضغط زحف السلطان آلب أرسلان مع قواته الهائلة لذلك نجد أنفسنا مضطرين للحديث عن الفترة ما بعد (١٠٧٠ م) .

عندما غادر ابن خان مدينة حلب ذهب " إلى ابن أبي عقيل إلى صور ، وأقام عنده فأحسن إليه ووصله وأعطى أصحابه ، وجاء بدر الجمالي فحاصر صور فنافق ابن خان وخرج إلى بدر ، فعسكرعنده ، فدس ابن أبي عقيل إلى غلمان ابن خان ، وقال لهم ، قد عرفتم ما فعلت مع صاحبكم من الجميل ، وما أنفقت عليه من المال ، وما صلح لي وجازاني على إحساني إليه ، ولكن إن قتلتموه كذا وكذا من المال ، فوثب عليه اثنان فقتلاه وحملا رأسه إلى ابن أبي عقيل ، فطيف به في صور ، وكان عند أبي عقيل جماعة من الغز ، ففارقوه إلى بدر ، فقوي بهم "[1] .

ولقد كان حصار بدر هذا الصور سنة (٤٦٢ هـ / ١٧٢ م) استمالة لمعظم الناوكية إلى صفه فأدخلهم في خدمته واستخدمهم ضد القبائل العربية لفلسطين فقاموا " وطردوا العرب الذين كانوا قد استولوا على بدر ، ونهبوا الشام وطلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا ، فقال : ما عندي مال وما سلطكم على

(1) مرآة الزمان سويم : ١٤٣ .

العـــرب إلا لأنكـــم تقـــنعوا بنهبهم ، وما قطعتهم من الشام فقالوا : نحن أخذنا البلاد بسيوفنا .

ثم جـــاؤوا فنزلوا طبريا واقتسموا البلاد وأخذوا غلالها ، وراسل بدر العرب بالـــرجوع إلى الشـــام ، وأنـــه معهـــم بنفسه وماله ، فاجتمع من العرب خلق عظـــيم وقـــربوا مـــن طـــبرية وعرف الناوكية كثرتهم ، فكرهوا لقائهم فأسروا إليهـــم وكبســـوهم ، فأسروا وقتلوا ما شاؤوا وعادوا إلى طبرية ، ونزلوا من بعد طرابلس " .

وكانت حلب في هذا الوقت تتعرض لغارت بيزنطية ، كما سبق أن ذكرنا ، وعـــندما أخفـــق محمود في صد البيزنطيين استنجد بالناوكية ، فهبوا إلى نجدته ، وكـــان أكبر مقدميهم هو قرلو ، ولقد استطاع الناوكية مساعدة محمود ، وعندما انتهت مهمتهم تركوه وعادوا إلى أماكن نشاطهم في الجنوب ، لكنهم تركوا عند محمـــود قـــوة مؤلفة من ألف ارس ، ولعل قائد هذه القوة هو أحمد شاه ، الذي ســـنتعرض لأعماله في حلب في الصفحات التالية .وعندما عاد الناوكية إلى مناطق نشاطهم السابقة في جنوبي بلاد الشام استأنفوا أعمالهم " فنزلوا على حصن عمان بالبلقاء وفيه ذخائر العرب وأموالهم ، وهو معقلهم ، ولم يكن عليه لأحد طاعة ، وهو عز العرب ، فاحتالوا عليه وملكوه وملكوا التركمان الشام بأسره ، وجاؤوا إلى الرمـــلة وهي خراب ليس بها أحد ولا لسوقها أبواب ، فجلبوا إليها الفلاحين وعمـــروها وضمنوا جزء السلطان عن الزيتون الموجود بثلاثين ألف دينار وأخذوا الـــباقي " . أراد الناوكية الآن احتلال دمشق ثم احتلال عكا ، وطرد بدر الجمالي منها ، لذلك ذهبوا (من الرحلة إلى دمشق وحصروها وأخربوا الضياع) ، ولقد تمكـــن والي دمشق الفاطمي من إرضائهم بمبلغ خمسين ألف دينار ، فتركوا دمشق

ورحلوا إلى عكا ، وبها بدر الجمالي فحضروه ، وكان متقدمهم يقال له قرلو فسكن إليه جماعة من بني كلب وأمرائهم من بني القرمطي.

وخالطوه وقاربوه ، واتفق أن قرلو مات على حصار عكا ، فنهب التركمان من قرب من العرب ... وكان بدر الجمالي تأتيه الميرة في المراكب في البحر ، فما كان يبالي في الحصار ، فلما يئسوا منه ساروا إلى مصر ، ووصلوا بلبيس ، وشنوا الغارات على أعمال مصر ، فلم يجدوا ما يأكلون ولا ما تأكل خيلهم ، وقيل إن جماعة منهم وصلت إلى وادي القرى ، وتيماء ، ووصل منهم سبعة عشر غلام إلى المدينة وزاروا قبر النبي ﷺ [1] .

وتعرضت الناوكية بعد سنة (٤٦٤ هـ / ١٠٧٢م) ، إذ توفي قولو الذي خلف ــ كما يبدو ــ ابن خان في زعامتها ، إلى مشاكل وانقسامات داخلية ، فقد ظهر بين صفوفها زعامات جديدة متنازعة ، ويظهر أيضاً أنها تعرضت لضغط جاء من قبل التركمان الذين جلبتهم حملة آلب أرسلان ، أو خلفتهم وراءها ، فلقد كانت أول موجة تركمانية تأتي الشام والجزيرة بقيادة السلاجقة وتحت زعامتهم ، هذا ولقد ترافق ظهور التركمان الجدد في جنوب الشام مع اختفاء بدر الجمالي الذي ارتبط اسمه بنشاط الناوكية ، حيث أن بدر سيذهب إلى القاهرة ليستولي على مقاليد الأمور بها ، وليتحكم بالخلافة الفاطمية [2] ، وبذلك يكون أول طاغية عسكرية في تاريخ هذه الخلافة التي ستدخل الآن مرحلة النهاية ، مرحلة تحكم العسكريين بمقاليد الأمور بها كما كان قد حدث للخلافة العباسية في بغداد قبل ذلك بقرون .

---

[1] ابن أبي الهيجاء : ١٢٩ظ-١٣٠ ، ابن ميسر : ٢/٢٠ ، الكامل ط ليدن : ١٠/٤٠-٤١ ، مرآة الزمان : حوادث سنة ٤٦٤ هـ ، مخطوطة أحمد الثالث .

[2] انظر ترجمة بدر الجمالي المنشورة في آخر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية .

تــتحدث مصـــادرنا عـــن أن أتســـز بن أوق الخوارزمي كان أبرز زعماء التركمان الذين خلفوا في الشام بعد حملة آلب أرسلان ن وقد سار " ومعه إخوته جـــاولي والمـــأمون وشـــكلي إلى أعمال دمشق ، وكان هذا عام (٤٦٣ هـــ / ١٠٧٠م) ولقد ضايق دمشق بقصد فتحها وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها ، وقطـــع المـــيرة عـــنها ، ورعى زرعها ، ثم جمع الأتراك ، في جنوب بلاد الشام وتـــزعم عـــليهم " وسار إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة ، وسار منها إلى البيت المقدســـي وحاصـــره وفيه عساكر المصريين وملك ما يجاورهما من البلاد ما عدا عســـقلان " . كمـــا استولى على طبرية ، وحين استولى أتسز على مدينة القدس جعـــل منها مركزاً له ، وقام بإلغاء الدعوة الفاطمية ، وأحل محلها الدعوة للخليفة العباسي مع السلطان السلجوقي ، ولقد بعث إلى بغداد يخبرنا بما حققه في الشام ، ومـــن القدس أخذ أتسز يغير كل سنة على دمشق ، فيحاصرهم ويرعى زرعها ، وهكـــذا ندرت المؤن في دمشق ، واضطربت فيها الأموال وأخذ الكثير من أهلها يهجـــرونها ، ومع ذلك فقد صمدت وتماسكت و لم تمكنه من رقبتها إلى أن نشب خـــلاف بـــين أهـــل المدينة وحاكمها الفاطمي مع قواته ، وعندما استحكم هذا الخلاف بات أمر سقوط دمشق مسألة وقت لا أكثر [1] .

لقد غدا الآن أتسز متقدماً على جميع الترك والناوكية بالشام ، ولقد حرص على الإبقاء على زعامته هذه مهما ارتفع الثمن ، ففي سنة (٤٦٧ هـــ / ١٠٧٤ -١٠٧٥م) تمكـــن شكلي بن أوق من فتح مدينة عكا بعد حصار طويل ، وكان بـــدر الجمـــالي قـــد غادر هذه المدينة إلى مصر ، وخلف فيها أهله وأكثر أمواله

---

[1] ابن القلانسي : ٩٨-٩٩ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ظ ، ابن الأثير ط ليدن : ٤٦/١٠ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٦٣-٤٦٦ هـــ ، البستان الجامع : ٩٠ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ٦ ظ النجوم الزاهرة : ٨١/٥ ، انظر أيضاً ترجمة أتسز في آخر الكتاب بين الملاحق .

وذخائره ، فاستولى شكلي على جميع ما تركه بدرو أسرزوجة بدر مع ابن له وابنة فتزوج من الإبنة وحصن أسوار عكا وقواها ، وراسل حيدرة بن المعلى بن منزو الحاكم الفاطمي لدمشق ، وصاهره على أخته (أي أخت ابن منزو) ، كما اتصل ببعض زعماء قبيلة كلب فتعاهد معهم " وتقوى بهم واستحلفهم وأخذ رهائنهم وأعطاهم رهائنه ، وقد أزعج كل هذا أتسز وأغضبه ، فأرسل إليه : " إبعث لي زوجة بندر وابنه ونصف ما أخذت من المال ، فامتنع عليه وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل " .

وقرر أتسز التحرك ضد شكلي ، وفي رمضان من السنة نفسها ، (نيسان/ أيار ١٠٧٥م) اشتبك معه في الساحل فهزمه ، فجاء شكلي منهزماً إلى رفنيه " التي كانت بلدة عند طرابلس ، ولم يطارده أتسز بل توجه إلى دمشق ليحاصرها حسب عادته ومن ثم عاد إلى القدس .

ومن رفنيه كما يبدو كتب شكلي إلى ابن لقلتمش التركي وكان في أطراف الروم بحثه على قصد الشام لينضم إليه ، وابن قتلمش هذا كان ابن عم السلطان ألب أرسلان ، وكان في كتاب شكلي إليه : أنت من السلجوقية وبيت الملك وإذا أطعناك وكنا في خدمتك وتشرفنا بك وافتخرنا ، وأتسز ليس من بيت الملك ولا نرضى باتباعه وطاعته ، هون عليه أمر أتسز والشام وقال : وقد جاءتنا من مصر دعوة بالأموال إذا كسرناه وأبعدناه عن الشام فجاءه ابن قتلمش فاجتمعا وسارا إلى طبرية وأظهرا طاعة صاحب مصر فسار إليهم أتسز من القدس وخرجوا إليه وساعدهم أهلها واقتتلوا فهزمهم أتسز ، وقتل شكلي وولده صبراً بين يديه وأسر ابن قتلمش وأخاً له صغيراً وابن عمه .

ووصل إلى أتسز بعد نصره هذا ثلاثة آلاف من قوات السلطان ملك شاه

الـــذي خـــلف أباه ألب أرسلان بعد مقتله ، فتقوى بهم وبدأ يعد العدة لاحتلال دمشـــق إذ إنه غدا الآن سيد جنوب بلاد الشام بلا منازع ، وقبل أن يتحرك نحو دمشـــق ورد إلى الشام أخ لابن قتلمش " ونزل بأرض سلمية وراس أتسز في معنى أخيـــه فقـــال أتسز : قد راسلت السلطان بسببه وأنا متوقع الجواب ، فإن رسم أنفذته إليه ، وإن رسم شيئاً آخر كان " ولم يستطع ابن قتلمش هذا أن يصنع شيئاً فقصـــد منطقة أنطاكية عائداً إلى الأراضي البيزنطية [1] وجاء الآن دور دمشق ، وكانت أحوالها قد بلغت حداً لا مثيل لـــه من السوء والاضطراب والفقر وندرة المـــؤن ، وكـــان أميرها الفاطمي قد أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم فكثر الدعـــاء عليه وثار به العسكر ، وأعانتهم العامة فهرب منها إلى بانياس ثم منها إلى صـــور ، ثم أخذ إلى مصر فحبس بها فمات) ، وعقب فرار معلى قامت فئة من المصـــامدة (نسبة إلى مصمودة إحدى قبائل البربر التي اعتمد عليها الفاطميون في جيوشـــهم من الجند) فعينت مقدمها انتصار بن يحيى المصمودي المعروف برزين الدولـــة ، مكـــان معلى ، ولم يرضَ هذا أهل دمشق وبعض فئات الجند الفاطمي الأخرى وقامت الفتن من جديد واشتدت في دمشق ، ولم يكن أتسز ينتظر أحوالاً أفضل من هذه وكان متوقعاً لمثل هذا ، فنزل عليها في المضايقة لها إلى أن اقتضت الأيمـــان ، فـــلما دخلها في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة للهجرة حزيران ١٠٧٦م وحصـــل بها نزل بأهلها منه قوارع البلاء بعد ما عانوه من ابن منزو لعنه الله ، واشـــتداد مـــن إنزال الجند دورهم وإخراجهم منها ، واغتصاب أملاكهم والقبض عليها ، واستعمال سوء السيرة وخبث النية والسريرة وتواصلت الدعوات عليه من سائر الناس وعلى أصحابه وأتباعه في جميع الأوقات وأعقاب الصلوات

---

[1] مرآة الزمان سويم : ١٧١-١٧٥ .

الرغبة إلى الله تعالى ذكره بإهلاكه وتصفية آثاره .

ولقد عانت دمشق أثناء حصار أتسز وزمن حكمه محناً لم تر ما يماثلها منذ الفتح الإسلامي ومرت بفترة من أحلك فترات حياتها وأصعبها ، ويكفينا هنا أن نسوق ما أورده غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ في وصف أحوالها ، وهو وصف ربما اعتمد به على تقارير شهود عيان أرسلت إليه إلى بغداد يقول غرس النعمة :

" لم يبق بها ـ دمشق ـ من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء ، وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادي عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان يساوي ألف دينار وما يُشترى بدينار ، وكان الضعفاء يأتون إلى الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيضربون فيها النار فتحترق ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به ، وأكلت الكلاب والسنانير ، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم .

وكان لامرأة داران فقد أعطيت قديماً في كل ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ، ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفار فاحتاجت إلى سنور فباعت إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطاً واشترت بها سنوراً [1] .

هذه صورة محزنة وقاتمة لدمشق وهي في الوقت نفسه معبرة ومفسرة أنها

---

[1] ابن القلانسي : ١٠٨ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ظ -١٣١ ، وابن ميسر : ٢٤/٢ ، الكامل : ١٢٢/٨ ، مرآة الزمان سويم : ١٧٨-١٧٩-١٨٥-١٨٦ ، ابن العميد : ٥٦٥-٥٦٧ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or - ١٠ و ، دول الإسلام للذهبي : ٣/٢ ، العبر للذهبي : ٢٦٦/٣ ، النجوم الزاهرة : ٥/ ١٠١-١٠٢ .

تفسر الموقف السلبي الذي أبدته هذه المدينة عند مجيء الغزاة الصليبيين إلى الشام ، وبعد احتلالهم لبعض أجزائه بفترة طويلة .

لقـب أتسز نفسه بالملك المعظم ، وأوقف في دمشق الدعوة للفاطميين " وأزال الأذان منها بحيي على خير العمل ، بعد أن كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر الشام مائة وست وستين ، وكان على أبواب الجوامع والمساجد مكتوب لعنة الصحابة رضي الله عنهم فأمر ... المؤذنين والخطباء أن يترضوا عن الصحابة أجمعين "

أما وقد أصبح أتسز سيد جميع جنوب بلاد الشام تقريباً ، فقد أخذ يتطلع ببصره نحو الشمال ، ويقول ابن العديم : " ووصل في سنة ثمان وستين وأربعمائة أتسز بن أوق التركي إلى أعمال حلب القبلية ... وجعل أهل الشام بين يديه ، وكان قد سمى نفسه الملك المعظم ، فنهب كل ما قدر عليه وملك رفنيه وسلمها إلى أخيه جاولي وترددت سراياه في جميع الشام وتمادى فساده ، وراسل أمير حلب أتسز وحاول إرضاءه ببعض المال ، ولكنه لم يصل معه إلى أي اتفاق ةورجع أتسز إلى دمشق وترك جاولي وراءه في رفنية واعتمد جاولي مدة مقامه برفنية أساء المجاورة وشن الغارات والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب ، وكان ما يزال في حلب قوة من الناوكية بقيادة رجل اسمه أحمد شاه ، ولقد أرسل أحمد شاه ضد جاولي واستطاع أحمد شاه مع ناوكية بعد جهد إيقاع الهزيمة بجاولي وقواته ، فهرب جاولي أولاً (إلى رفنية وسار بعد ذلك إلى أخيه بدمشق) .

وأقلع الآن أتسز عن تطلعاته نحو شمالي بلاد الشام ، لوجود الناوكية هناك ، ثم لما سمع عن عزم السلطان ملك شاه على إقطاع شمالي بلاد الشام لأخيه تتش ، وأخذ أتسز يتطلع نحو فتح جديد ، ولم يكن ذلك أقل من مصر كلها [1] .

---

[1] زبدة الحلب : ٢/٤٦-٤٨ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ظ ، مرآة الزمان سويم : ١٧٨-١٧٩ .

كان سيد مصر الفعلي في هذه الآونة بدر الجمالي، وكان بدر يعمل على تقوية حكمه وتوطيد مركزه ، وقد ساعد هذا بعض رجالات السلطة الذين كانوا في الحكم في مصر قبل استلام بدر مع عدد من الجند العمل على الهرب من مصر والالتجاء إلى الشام إلى أتسز ، ويقول المقريزي عن هذا الأمر : وكثر عسكره — أي أتسز — ممن فر إليه من مصر خوفاً من أمير الجيوش بدر الجمالي وحدثته نفسه بأخذ مصر ، وكان من جملة من فر إليه ابن يلدكوز كبير قادة الجيش الفاطمي في القاهرة قبل بدر الجمالي (فأغراه بأخذ مصر وأطمعه في أهلها فحشد وهم على حين غفلة وبرز من دمشق ونهض في جمع عظيم إلى ناحية الساحل ، ثم منها إلى ناحية مصر طامعاً في ملكيتها وجتهداً في الاستيلاء عليها والدعاء عليه من أهل دمشق متواصل واللعن له متتابع ومتصل .

وبلغ أتسز أطراف مصر في أوائل (ربيع الأول سنة ٤٦٩ هـ / تشرين أول سنة ١٠٧٦م) ، وكان معه حسب رواية غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ عشرون ألفاً من التركمان والأكراد والعرب ووصل إلى ريف مصر وكان بدر الجمالي وقتئذ غائباً عن القاهرة مشغولاً بإخضاع القبائل العربية في الصعيد ، ولم يتوجه أتسز إلى القاهرة لأخذها بل أقام في الريف نيفاً وخمسين يوماً يجمع الأموال ويسبي الحريم ويذبح الأطفال ، وهو يراسل بدر الجمالي ويطلب المال ، فضمن له بدر مائة وخمسين ألف دينار ، واستدعى من كان بالصعيد من العساكر والسودان ، وكان مع أتسز بدر بن حازم الكلبي في ألفي فارس ، فاستماله بدر ، فانتقل إلى القاهرة ثلاثة آلاف رجل في المراكب لنية الحج ، فقال لهم بدر ، دفع هذا العدو أفضل من الحج وأعطاهم من المال والسلاح .

وعندما توجه أتسز نحو القاهرة لأخذها ، كانت هذه المدينة قد امتلأت

بالمقاتـــلة مـــن جـــند الخلافة ، وممن جلا إليها من الريف وجاءها من المتطوعة ، وخرج بدر من القاهرة في ثلاثين ألف ما بين فارس وراجل في يوم الخميس لثلاث عشـــرة بقيت من رجب (١٥ شباط ١٠٧٧م) وسير المراكب بالميرة فخافه أتسز وعـــزم على العودة عن مصر إلى الشام ، فلم يوافقه أصحابه على ذلك ، وقالوا : قـــد وطئت ديارهم وتعود بغير فائدة ، فلم يلتفت إلى قولهم فقال له أخوه المأمون وابـــن يلدكور : لا تغرنك كثرتهم ، فإنما هم سوقة وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا تـــرجع عن هذا الملك الذي أشرفت على أخذه ، ووافق أتسز مكرهاً ، واشتبك بقـــوات بـــدر ودارت معركة حلت فيها الهزيمة به وبقواته ، ذلك أن قوات بدر الجمـــالي هاجمـــته مـــن أمامه وأتت قوات بدر بن حازم الكلبية من وراءه على معســـكره وضـــربت النار في الخيم والخركاوات فانهزم أتسز وقتل من كان حوله وانهزم التركمان ، وتبعهم السودان والعرب أسراً وقتلاً إلى الرملة ، وغنموا منهم غـــنائم لم يغنمها أحد قبل ذلك ، وكان فيما أخذ ثلاثة آلاف حصان ، وعشرة آلاف صبي وجارية ، وأما في الأموال والثياب فلا يحصى .

ومضـــى أتسز مهزوماً ، في نفر يسير ، فلما وصل غزة ثار أهلها به وقتلوا جماعة ممن كان معه ، فهرب إلى الرملة ، فخرج إليه أهلها فقاتلوه وقتلوا بعض من كـــان معـــه ، فهرب إلى دمشق في بضع عشرة نفساً ، فخرج إليه ولده ومسمار أحد الأمراء الكلبيين وكان قد استخلفهما بدمشق في مائتي فارس من العرب ... وخرج إليه أهل البلد فخدموه وهنؤوه بالسلامة) .

وحدثـــه أهل المدينة وشكوا إليه أوضاع بلدهم ، وقال له أحدهم قد عرفت أنـــه لم يبقَ في هذا البلد عشر العشر من الجوع والفاقة والفقر والضعف ، ولم يبقَ لـــنا قـــوة ، فوعد أهالي البلد خيراً ثم أقام بدمشق وجاء التركمان من الروم ولم

يستخدم غيرهم وعصى عليه الشام ، وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام وقام بذلك المصامدة والسودان ، وكان أتسز وأصحابه وقد تركوا أموالهم ونساءهم فنهبوها ، وقسموا التركيات بينهم ، واستعبدوا الأحرار من الأولاد واسترقوهم ، فخرج من دمشق فيمن انضوا إليه من التركمان ووصل إلى قريب القدس ، وراسلهم وبذل لهم الأمان فأجابوه بالقبيح وتعدوه بالقتال ، فجاء بنفسه إلى تحت السور وخاطبهم فسبوه ، فقاتلهم يوماً وليلةً ، وكان حرمه في برج داود ورام السودان والمصامدة . وحاولوا الوصول إليهم فلم يقدروا ، وكان في البرج رتق إلى ظاهر البلد فخرج أهله منه ودلوه عليه فدخل منه ومعه جماعة من العساكر وخرجوا من المحراب وفتحوا الباب ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة آلاف إنسان واحتمى قوم بالصخرة والجامع ، فقرر عليهم الأموال إذ لم يقتلهم لأجل المكان ، وأخذ في الأموال شيئاً لا يبلغه الحصر ، إذ بيعت الفضة بدمشق كل خمسين درهماً بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار ، وقتل القاضي والشهود صبراً بين يديه ، وقرر أمور البلد ، وسار إلى الرملة ، فلم يرَ فيها من أهلها أحداً ، فجاء إلى غزة فقتل كل من فيها ، فلم يدع بها عيناً تطرف ، وجاء إلى يافا فحصرها ، ثم دخلها وهدم أسوارها ، ثم أخذ عائداً إلى دمشق وكتب إلى بغداد (بأنه على نية العود إلى مصر وأنه يجمع العساكر) .

ولم يهمله بدر الجمالي هذه المرة حتى يعد العدة لحملة جديدة ضد القاهرة بل أخذ بزمام المبادرة فأعد جيشاً سيره في سنة (٤٧٠ هـ / ١٠٧٨م) نحو الشام بقيادة نصر الدولة (يرد اسمه أحياناً ناصر الدولة وأحياناً نصير الدولة الجيوشي) ووصلت القوات الفاطمية دمشق فأخذت بحصارها ومضايقتها ، واستولى الجيش الفاطمي على أعمال دمشق وأعمال فلسطين وأقام على دمشق

(مـــدة مضـــايقاً لهـــا وطامعاً في تملكها وأضر على منازلتها إضراراً اضطر أتسز صـــاحبها إلى مراسلة تاج الدولة (تتش بن آلب أرسلان وكان منازلاً لحلب يجهد لأخذهـــا ، يستنجده ويستصرخ به ، ويعده بتسليم دمشق إليه ويكون في الخدمة بـــين يديه ، فتوجه نحوه في عسكره فلما عرف نصر الدولة الخبر وصح عنده قربة مـــنه رحل عنها محفلاً وقصد ناحية الساحل ، وكان ثغر صور وطرابلس في أيدي قضـــاقما قد تغلبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش (بد الجالي) بل يصانعان الأتـــراك بالهدايا والملاطفات ، ووصل السلطان تاج الدولة إلى عذراء في عسكره **لإنجاد** دمشق وخرج إليه فدخلها وأقام بها مدة ، وقرر تتش أن يتخلص من أتسز ويـــنفرد بحكم دمشق ، " فقبض عليه في شهر (ربيع الأول منها ـــ أيلول تشرين أول ١٠٧٨م) ، وقـــتل أخاه أولاً ثم أمر بخنقه فخنق بوتر في المكان المعتقل فيه ، وملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر فيها .

وعـــندما قام تتش بهذا طوى صفحة حالكة من تاريخ دمشق وجنوب بلاد الشام وبقتله لأتسز مع أخيه كان أتسز وثلاثة من أخوانه الأربعة قد قتلوا فهو ـــ أي أتسز ـــ قتل شكلي ، وفي حملته على مصر فقد واحداً من إخوانه وجاء تتش الآن فأجهز على الثالث [1] .

أمـــا وقد رأينا ما حل بدمشق وجنوب بلاد الشام ، فلنعد نحو الشمال حتى نشهد بقية المأساة ونستوفي القصة ، ونسدل الستار على الشام كبلد فيـــه للبـــدو

---

[1] ابـــن القلانسي : ١٠٩-١١٢ ، ابن عساكر : ٤٣٣/١٠-٤٣٤ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣١ ، الكامل : ١٢٣/٨-١٢٤ ، ابن ميسر : ٢٥/٢-٢٦ ، ابن أبي الدم : ١٣٤ ، زبدة الحلب : ٦٥/٢ ، مرآة الزمان سويم : ١٨٠-١٨٥-١٩٧-٢٠١ ، ابن العميد : ٥٦٥-٥٦٧ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or —١٠ و ١١و ، العـــبر للذهبي : ٢٦٩/٣-٢٧٥ ، ابن كثير : ١١٢/١١-١١٩ ، انظر ترجمة بدر الجمالي مع ترجمة أتسز الملاحق في آخر الكتاب .

العرب أثر سياسي مؤثر .

قبل أن يُتوفى محمود بن نصر أمير حلب أوصى بالإمارة من بعده لولده الأصغر شبيب ، ولكن بعد وفاته لم تراع وصيته هذه وعين رجال الدولة مع عساكرها ابنه الكبير نصر [1] ، وكانت غالبية هذه العساكر مؤلفه من التركمان الذين كانوا يعيشون في حلب ، ولقد كان مقدم هؤلاء التركمان يعرف باسم أحمد شاه هذا ويروي ابن العديم ما يفيد بأن أحمد شاه كان مخلصاً في خدمته لنصر ابن محمود [2] ، ففي سنة ١٠٧٥م أرسل نصر بن محمود أحمد شاه مع تركمانه لاسترداد بلدة منبج مع البيزنطيين الذين كانوا قد احتلوها منذ أيام الإمبراطور رومانوس دايجونوس كما سبق ومر بنا من قبل .

وفي الحادي والعشرين أو (٢٤) من أيلول سنة ١٠٧٥م سلمت الحامية البيزنطية في منبج حصن البلدة للجيش الحلبي وذلك بعد حصار دام فترة طويلة من الزمن [3] ، وبعد هذا بفترة وجيزة تعرضت الأجزاء الجنوبية من إمارة حلب كما سبق أنه ذكرنا لغارات قام بها أتسز مع أخيه جاولي ، ولقد بينا كيف أن نصر بن محمود لما أخفق في كف عادية أتسز وجاولي بالمال والهدايا أرسل أحمد شاه مع تركمانه فتصدوا لأتسز وجاولي واشتبكوا معهما في أكثر من معركة ، ولقد هزم

---

(1) ابن القلانسي : ١٠٨ ، المنتظم : ٣٠٤/٨ ، الكامل ط ليدن : ١٦٥/٩-١٠/١٠ ، زبدة الحلب : ٤٥/٢ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ، والعظيمي : ١٨٢ ظ ، مرآة الزمان : حوادث سنة ٤٦٧ هـ ، حوادث السنين : ١٨٤ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ١١٢ ، والعبر للذهبي : ٢٦٦/٣ ، المختصر في أخبار البشر : ١٤٩/١-٢٠٢ ، ابن العميد : ٥٦٣-٥٦٥ ، النجوم الزاهرة : ١٠٠/٥-١٠١ ، عقد الجمان : ٥٨١/١١ ، ابن جنغل : ٢٣٣/٤ و .

(2) انظر زبدة الحلب : ٤٦/٢-٤٨ .

(3) ابن حيوس : ٢٠٥/١-٢٠٧ ، العظيمي : ١٨١ظ ١٨٣ و ، زبدة الحلب : ٤٦/٢-٤٧ ، بغية الطالب أحمد الثالث : ١٦٥/٢ ظ ، الكامل ط ليدن : ٦٩/١٠ .

أحمـــد شاه في الأول ، وعول أتباعه على العودة إلى حلب لكنه أبى إلا أن يعاود القـــتال ، وقال لأتباعه ما بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة ، فإن راجعتم الحـــرب وأظفـــرنا الله كان الأمر لنا بحكم الظفر ، وإن أبيتم ذلك فأنا أسير إلى الفـــرات وأســـتدعي أهـــلي ، حـــتى أقاتل بهم ، فما لي وجه ألقى به نصر بن محمـــود وإنمـــا أعطى وأمنح وأكرم لمثل هذا الموقف فأجمعوا على معاودة الحرب فأســـرى مـــن موضـــعه إلى عســـكر جـــاولي وكبســـه فابتثار منهم ، ونهب عســـكره ، وأســـر منهم ما يزيد على ثلاثمائة نفس وسيرهم في الوثاق إلى حلب مشاة وهرب جاولي [1] .

والأســـباب غير معروفة وقبض نصر بن محمود على أحمد شاه واعتقله بقلعة حلب في (عيد الفطر من سنة ثمان وستين وأربعمائة / ٩ أيار ١٠٧٦م) ويبدو أن أحمـــد شاه جاء ثاني يوم العيد لتهنئة نصر ، وصعد إلى القلعة وحده ، فانتهز نصر الفرصـــة فألقى القبض عليه ، وبعد أن فعل ذلك جلس فشرب إلى العصر وحمله الســـكر على الخروج إلى الأتراك ، وسكناهم في الحاضر وأراد أن ينهبهم ، وحمل عـــليهم فـــرماه تركي بسهم في حلقه فقتله ، لقد كان الحاضر يقع خارج أسوار حلب ، وكان نصر أهوج ، وعندما زحف على الحاضر كان وحده وقد سمع وهو يصرخ نريد الوجوه الملاح) ويبدو أن التركمان كانوا مستنفرين وتوقعين الشر بعد أن سمعوا بإلقاء القبض على مقدمهم ، وزحف التركمان بعد مقتل نصر (إلى البلد يطلـــبون أحمـــد شاه) ولقد أزعج خبر مقتل نصر أهالي حلب الذين كانوا الزمان ربيعاً والأرض نضرة ، فتدفق الناس نحو حلب وتدفق الناس نحو حلب وتدفق من كان داخل المدينة إلى بيوتهم ، وما إن سمع من كان في المدينة من رجال الإمـــارة

---

[1] ابن حيوس : ٢٧١/١-٢٧٢ ، زبدة الحلب : ٤٦/٢-٤٨ ، مرآة الزمان : حوادث سنة : ٤٦٨ هـــ .

بمقتل نصر حتى أسرعوا فأغلقوا أبواب حلب وعملوا على تدارك الأمور [1] .

كان نصر بعد أن أصبح أميراً على حلب فقد أوكل معظم شؤون دولته إلى عمه في الرضاعة على بن المقلد منقذ الذي كان يعرف باسم الملك وإلى وزيره (نصر بن الحسن التميمي المعروف بابن النحاس الحلبي) وكانت العلاقة بين ابن النحاس وسديد الملك علاقة جيدة ، وقد متنها حبهما للأدب ، وما إن علم ابن النحاس وسديد الملك بمقتل نصر حتى تصرفا بسرعة فاستدعوا أخاه سابق بن محمود) وكان سابق ساكناً في المدينة ، وكان أيضاً قد أمضى نهاره يحتسي الخمرة لذلك عندما جلب ليتسلم منصبه الجديد في القلعة لم يدخلوه من بابها بل رفع إلى القلعة بحبل من السور وهو سكران ونادوا بشعاره وأطاعته الأجناد وأشاروا عليه بإطلاق أحمد شاه ، فأطلقه في الحال وخلع عليه .

ونزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر ، فسكن الثائرة وأخمد الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعيل الأتراك ويقربهم ويحسن إليهم ويقدمهم على أهله بني كلاب وينصرهم عليهم [2] ، ولقد أصبح أحمد شاه الآن سيد إمارة حلب

---

[1] ابن القلانسي : ١٠٨-١٠٩ ، العظيمي : ١٨٣ ، وابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ظ ، الكامل ط ليدن ١٦٥/٩ ، ابن العميد : ٥٦٣-٥٦٥ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٦٥/٢ ظ ١٦٦ و ١٤٦/٧ و ظ ، زبدة الحلب : ٤٩/٢ ، مرآة الزمان أحمد الثالث حوادث سنة ٤٦٨ هـ ابن أبي الدم : ١٣٤ ، والمختصر في أخبار البشر : ١٤٩/١ ، التاريخ المنصوري : ٧٤ ظ ، البستان الجامع : ٩١ ظ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ـ ١٢٥ و ، العبر للذهبي : ٢٦٦/٣ ، عقد الجمان : ٥٨١/١١ ، منجم باشي : ٣٢٨/١ ظ .

[2] ابن القلانسي : ١٠٩ ، العظيمي : ١٨٣ ، والكامل ط ليدن : ١٦٥/٩ ، ابن العميد : ٥٦٢-٥٦٣ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٦٥/٢ ظ ـ ١٤٢/٧ ظ ، ١٤٣-١٤٦-١٤٧ ، وزبدة الحلب : ٤٨/٢-٥٣ ، ابن أبي الدم : ١٣٤ ، والتاريخ المنصوري : ٧٤ ظ ، البستان الجامع : ٩١و ، المختصر في أخبار البشر : ٢٠٢/١ ، عقد الجمان : ٥٨١/١١ ، منجم باشي : ٣٢٨/١ ظ .

الفعلي وأخذ يمارس سلطانه ، وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر ، وكان سابق من متخلفي بني مرداس ، ولما عرف بنو كلاب تخلفه واجتمعوا إلى أخيه وثاب وحسنوا إليه أخذ حلب ، وانضاف إليه أخوه شبيب بن محمود ومبارك بن شبل ابن خالهما ، وعندما رأى علي بن مقلد بن منقذ تدهور الأوضاع في مدينة حلب بتحكم أحمد شاه بسابق وبقرار قبيلة كلاب مهاجمة حلب لخلع سابق ، عندما رأى كل هذا هجر حلب إلى بلدة كفر طاب حيث أخذ يخطط للاستيلاء على شيزر ، ومن ثم إقامة حكم الأسرة المنقذية في هذه القلعة .

وجمعت قبيلة بني كلاب كل رجالها ، فاجتمعوا في جمع عظيم ما اجتمعا قط من مثله يقال إنهم كانوا يقاربون سبعين ألف فارس وراجل .

وعسكرت هذه الجموع منطقة قنسرين تعد أنفسها للزحف على حلب ، وفي داخل حلب (لما تحقق سابق ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك وكانوا ألف فارس وشاوروه) ، وأخذ أحمد شاه يعمل لصد قبيلة كلاب وتفريق جموعها .

ويستنتج من قصيدة ألقاها ابن حيوس أثناء هذه المحنة أن الناس كانوا يخشون عواقب تحرك قبيلة كلاب ، وأنه قد وجد ضغط على سابق كي يحاول تجنب الاصطدام معاله الآن في ذلك تهديماً لقوة العرب ومجد آل مرداس ويقول ابن حيوس :

بني عامر لا تمتطوا البغي ضلة	فلم يعله المغرور إلا ليسفلا
ولا تتْبعوا الأهواء فهي مظلة	وإن سوّف الشيطان فيها وسوّلا
ولا تقتفوا من جار عن منهج الهدى	فأدمى يداً من حقها أن تقبلا
وكونوا كأشياخ لكم غالها الردى	ترى الموت من نقض المواثيق أسهلا
ففي آل ذبيان وأبناء وائل	مواعظ لا تخفى على من تأملا

أعلوا صحيح الرأي واتبعوا الـهوى فأيتم منهم كيف شاء وأرملا
وقد حدثت في الأرض والأمر واضح نوائب تنهاكم عن الهجر والقِلا
فلا ترضى يا عز الملوك بذلهم وأن يردوا من غير بحرك مَنْهلا
وصنواك لا تعص ابن عمك منهما وكن غير مأمور إلى السلم أميلا
فما رضيا بالبعد عنك زهادة ولا ابتغيا ما عز إلا تذللا
وهل طلبا الإنصاف من غير أهله وهل أوعزا في السوم إلا ليسهلا

لم يكن سابق الذي كان بلا حول ولا طول ليقدر على المبادرة للعمل على إحلال السلم مع قومه ، لقد كان أحمد شاه هو الذي يستطيع إنهاء المشكلة ، وهكذا عمل إذ أنفذ (إلى رجل من الأتراك يعرف بمحمد بن ملاح كان نازلاً في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، وضمن له مالاً كثيراً ، فوصله محمد بن ملاج في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان وستين / ٧ حزيران ١٠٧٦م ، وتخالفوا وخرجوا إلى بني كلاب المجتمع مع وثاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة ٧ تموز ، (وكان بنو كلاب غارين واثقين بعددهم لذلك أخذوا بالمفاجأة ، فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال وخلفوا حللهم وكل ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم ، فغنم أحمد شاه وأصحابه ومحمد بن ملاج وأصحابه كلّ ما كان لبني كلاب ، فيقال : إنهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاه وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ومن إمائهم أكثر ، وكل ما كان في بيوتهم ، وعفوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة آلاف عبد مقاتل ، ولم يقتلوا أحداً منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالاً يحصى كثرة [1] .

---

[1] ابن حيوس : ٢/٤٨٢-٤٨٣-٦٤٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٢/١٦٥ ظ ، ١١٦و ٧/١٤٣ ظ ١٤٤ وظ ، زبدة الحلب : ٢/٥٣-٥٥ .

بعد ثلاثة عشر يوماً من هذا النصر المؤزر قامت فرصة جديدة أمام سابق لتدارك بعض ما حدث وللتخلص من التركمان فبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوماً دعا محمد بن ملاج التركي أحمد شاه فخرج إليه وكان نازلاً شمالي حلب ، فلما أكلوا وشربوا قبض محمد بن دملاج على أحمد شاه وأسره ، وكان في نفر قليل ، فأقام في أسره تسعة أيام ، وعوضاً عن أن ينتهز سابق فرصته هذه فيثير أتباع أحمد شاه ويحثهم على تخليص سيدهم ، وهكذا يوقع الحرب بين فئتي التركمان فتضعفا فيمكن الخلاص منهما بسهولة ، لذلك سعى لتحرير سيده وفك أسره ، فاشترى أحمد شاه من محمد بن دملاج بعشرة آلاف دينار وعشرين فرساً [1] .

وترك وثاب بن محمود مع بقية المهزومين من أمراء بني كلاب منطقة حلب ، وتوجهوا شرقاً إلى خراسان (إلى السلطان ملك شاه بن آلب أرسلان وشكوا حالهم وسألوا منه أن يعينهم على سابق ، فوعدهم وأقطعهم في الشام ، وأقطع الشام أخاه تتش فسار ومعه جموع الترك ، ووثاب ومبارك ابن شبل ، وكان تحرك تتش غرباً إلى الشام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة ، وتقدم السلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجي ، وصندق التركي ومحمد بن دملاج وابن طوطو وابن بريق وغيرهم لمن أمراء الترك بالكون مع تاج الدولة ـــ تتش والمسير في خدمته وعندما وصل تتش إلى ديار بكر التقت به قبيلة كلاب فالتحقت به وسلمته قيادها ليسير بها إلى قتال حلب لإسقاط الدولة المرداسية الكلابية وإحلال حكمه التركماني محلها ، والأحمق دائماً يفعل كل منكر ويسعى إلى حتفه بظلفه ويجني ثمرات حمقه ، ويقتل نفسه لصالح عدوه فائدته وليس أبلغ من أن نسوق هنا كتعليق قوله تعالى : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

---

[1] بغية الطلب أحمد الثالث ٢/٦٦ ؛ وزبدة الحلب : ٢/٥٥ .

يحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * (الكهف : ١٨/١٠٣-١٠٤) .

وعندما وصل تتش إلى حلب وصل إليه والتحق به (شرف الدولة أبو المكارم وسلم بن قريش في عسكر كثير بأمر ملك شاه ونزل معه على حلب معيناً له)[1] وقبل أن تصل هذه القوات كلها إلى حلب كان سابق قد أخذ احتياطاته ، فقد كان أحمد شاه خارج حلب يحاصر أنطاكية ، فاستدعاه ، وطلب منه ترك أنطاكية التي كانت تعاني من شدة تضيقه الحصار عليها ، ومن الطريف ذكره أن أحمد شاه لم يترك حصار أنطاكية إلا بعد أن قبض من أهلها مبلغ (٥٠٠٠) دينار[2] .

وما إن وصل تتش مع قواته أسوار حلب حتى بدأ بحصارها وبعد بدء الحصار بأيام قام تتش برفعه وانسحب مسافة عدة أميال عن أسوار المدينة ، ومن المحتمل أن هذا الانسحاب قد تم لغاية عسكرية هدفت إما إلى استدراج المدافعين للخروج من المدينة للإيقاع بهم ، أو أن تتش هدف إلى إعادة تنظيم قواته لتقوم بحصار حلب لفترة طويلة حتى تسقط ، المهم أن تتش عاد إلى أسوار حلب وعاود حصار المدينة ، ولقد استمر محاصراً إياها مدة ثلاثة أشهر ، وعلى كل حال لم يكن هذا الحصار قاسياً ، فقد كان هوى شرف الدولة أبي المكارم مع سابق ، وكان يسير إليه في الباطن بما يقوي نفسه ، وكان ينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك ، وعمل مسلم على أن تتخلى قبيلة كلاب عن تتش فترحل نحو البادية أو يدخل رجالها مدينة حلب للمساعدة في الدفاع عنها ، ولقد سهل مهمته

---

(1) ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ، وابن القلانسي : ١١٢ ، المنتظم : ٨/٣١٣ ، الكامل ط ليدن : ١٠/٧١ ، ابن العميد : ٥٦٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٧/٤٣و ، زبدة الحلب : ٢/٥٥-٥٦ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٦٨ هـ ، ابن أبي الدم ١٣٤ ، والمختصر في أخبار البشر : ١/٢٠٣ ، ابن خلدون : ٤/١٣٧ .

(2) ابن حيوس : ١/١٣٩-١٤٠ ، المنتظم : ٨/٣٠٧ ، زبدة الحلب : ٢/٥٥-٥٦ .

هـــذه أن أحمـــد شـــاه أصيب بضربة أثناء الحصار أودت بحياته وأرسل سابق بني كلاب (فتألفهم وقال لهم : إني إنما أذب وأحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد إلى تتش لزالي ملك العرب وذلوا) .

وأثمـــرت جهـــود مسلم بن قريش فتخلت قبيلة كلاب عن تتش بأن رحلي القســـم الأكبر منها نحو البادية ، ودخل قسم منها مدينة حلب ، وهنا أخبر مسلم تـــتش بأنه سيرحل هو أيضاً عائداً نحو الموصل ، وجعل عبور عسكره على باب حـــلب (ربمـــا باب العراق) وباع أصحابه أهل حلب ما كان في العسكر عصبية وتقويـــة لهـــم ، وقوى نفوسهم ونفس سابق ، وسار بعد أن قوي أهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضعف الشديد إلى بلاده [1] .

وتابع تتش بعد انسحاب قبيلة كلاب ومسلم بن قريش وتخليهم عنه حصاره لمديـــنة حلب ، ويبدو أنه كان متوقعاً لمثل هذا الانسحاب ، لذلك حاولي مسبقاً تفـــادي مخاطره ، فراسل أخاه ملك شاه وطلب منه المساعدة بالعساكر وعلى نحو خاص طالب بإمداده بآلات للحصار ودك الأسوار ، ولقد التقى مسلم بن قريش وهـــو في طـــريقه إلى الموصـــل عند سنجار بقوة وغزية مؤلفة من ألف من الجند يقودهـــا رجـــل اسمه تركمان ، وكانت وجهة هذه القوة مدينة حلب ، وكانت تحمل معها أدوات الحصار التي طلبها تتش من أخيه ملك شاه ، وحاول مسلم أن يقـــنع تـــركمان بعـــدم متابعة سيره إلى حلب ، لكنه أخفق وعندها أنذر سابق

---

[1] ابـــن القلانسي : ١٢ ، العظيمي : ١٨٣ظ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ، الكامل ط ليدن : ٧١/١٠ ، ابن العميـــد : ٥٦٧-٥٦٨ ، المنظم : ٣١٢/٨ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٦٦/٢ و ـــ ١٤٣/٧ ظ ـــ ١٤٤ ، زبـــدة الحـــلب ، ٥٦/٢-٥٨ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة (٤٧١ هـــ ، البستان الجامع : ٩١ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ١٠ ، الدرة المضيئة : ٤٠٥ ، ابن أبي الدم : ١٣٤ ، المختصر في أخبار البشر : ٢٠٣/١ ، ابن خلدون : ١٣٧/٤ .

وساعده على تشكيل قوة عربية بدوية من مختلف القبائل فيها نحو ألف فارس وخمسمائة راجل ، وكمنت هذه القوة العربية للعساكر الغز فهزمتهم وقتلت أكثرهم ، ولقد كان الشاعر ابن حيوس يعيش هذه الأحداث ويتفاعل بصدق معها ، ومما قاله عن هذه الحادثة :

وكانت الترك بالأعراب جاهلة	حتى أتحت لها أن تعرف العربا
ولم يفت منهم إلا أغيلمة	تحت بهم مقربات تحمل الأربا
لولا كلاب لما جاشت جيوشهم	هذي البلاد ولا مدوا بها طنبا
راموا المودات من أعدى عداتهم	وذاك رأي إلى غير الصواب صبا

وعندما وصلت أخبار ما حل بالغز إلى تتش ترك أسوار حلب ، وقاد معظم ما كان لديه من قوات ضد البدو العرب الذين كانوا في ريف حلب ، وما إن بعد عن حلب حتى خرجت القوات التي كانت داخل المدينة ، فهاجمت معسكراتها فقتلت حرسها واغتنمت ما كان فيها ، ويبدو أن تتش لم يحقق أي نجاح في مطاردته للبدو العرب ، وعندما سمع بنهب معسكره قرر عبور الفرات ليغير على ديار مسلم بن قريش وينتقم منه ، ولكنه بعدما عبر الفرات علم بأن مسلم يتوقعه وهو متأهب للقائه والتصدي له ، لذا اضطر مكرهاً للتخلي عن خططه ، وذهب إلى ديار بكر حيث أمضى الشتاء [1] .

ومع رحيل الشتاء وإقبال الربيع رحل تتش من ديار بكر مع قوات جديدة من التركمان كان قد جندها وأقبل على رأس هذه القوات نحو حلب يريد أخذها وقد خطط لذلك خطة جديدة ، فلقد هدف إلى تجريد حلب من جميع المواقع

---

(1) ابن حيوس : ٥٢/١-٥٣ ، ابن القلانسي : ١١٢ ، زبدة الحلب : ٥٨/٢-٦٢ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٤٤/٧ هـ ١٤٥ ظ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٧١ هـ .

الحصينة التي كانت تابعة لها ومن ثم ينقض على حلب نفسها فيأخذها ، وفي هذا السبيل احتل منبج وحصن الفايا ، وفتح حصن بزاغة " بالسيف وقتل كافة من كان فيه ، ونهبه وشحنه بالرجال ورحل إلى عزاز ، وقد انضوى إلى قلعتها خلق عظيم ، ومنعهم الوالي بها من الصعود إليها ، فالتجؤوا إلى سند القلعة بأقمشتهم والناس عليه ... فزحف العسكر إلى القلعة وقاتلها وضربها بالنار ، فاحترقت أقمشة الناس وغولاتهم وحرمهم وأولادهم " ، ورحل تتش بعد هذا نحو حلب فوصلتها قواته صباحاً ، وقبل أن تستعد هذه القوات وتنظم صفوفها لمهاجمة المدينة انقضت عليها عساكر حلب ففاجاءتها " وهزم الله عسكر تتش : ولو عاد عسكر حلب في أثرهم ما كان أفلت منهم إلا من سبق به فرسه .

ولم يحاول تتش — على الأقل لبعض من الوقت — أن يهاجم مدينة حلب ، بل توجه جنوباً إلى دمشق — كما سلف الحديث — فتسلمها وأسس لنفسه حكماً فيها [1] ، الآن وقد مرت بنا عدة مشاهد من فصول الصراع من أجل السيادة على بلاد الشام والجزيرة ، لا بد للمرء من أن يتساءل عن طبيعة هذا الصراع وبواعثه ومحركاته ، إنه لمن الواضح مما جاء في روايات المؤرخين الذين كتبوا عن هذا الصراع ودونوا أحداثه ، ومما جاء في شعر الشعراء العرب المعاصرين للأحداث بأن المحرك الذي كان وراء مسلم في هواه مع المرداسيين وفي أعماله لمساعدتهم ضد السلاجقة والتركمان هورابطة العصبية القبلية العربية ، ولقد واجهنا في روايات المؤرخين وشعر الشعراء بمجموعتين من الناس تتصارعان من

---

[1] ابن القلانسي : ١١٢ ، ابن عساكر : ٤٣٣/١٠-٤٣٤ ، زبدة الحلب : ٦٢/٢-٦٥ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٤٥/٧ و ظ ، الأعلاق الخطيرة قسم قنسرين مخطوطة المتحف البريطاني : ٦٠ و ظ ، ابن العميد : ٥٦٦-٥٦٧ .

أحـــل السيطرة والسيادة ، ولقد مر معنا بأن " ملك العرب كان يحتاج أن يحمى ويصان قبل أن يزال من قبل التركمان الأجانب .

وروى ابـــن العديم بأنه عندما كان تتش يحاصر مدينة حلب كتب سابق بن محمـــود ـــ كمـــا مر معنا ـــ إلى أخويه شبيب ووثاب وبقية أمراء ومقدمي قبيلة كـــلاب قائلاً : " إني إنما أذب وأحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد إلى تـــتش لزال ملك العرب وذلوا " ولقد ترددت نغمة هذه الرسالة في شعر ابن حيـــوس ابن زائدة الذي كان أحد البارزين بين أمراء قبيلة كلاب ، ومما جاء في هذه الرسالة :

وقل لكلاب بدد الله شملكـــم	أو يحكم ما تتقـــون المعاييبـــا
أتستبدلون الذل بالعز ملبســـا	وتمسون أذناباً وكنتم ذوائبـــا
وها أنا لا أنفك أبذل في حمى	حماكم مجداً مهجتي والرغائب

ويـــروي ســـبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان بأن سابق بن محمود قد كتب في سنة (١٠٧٩م) إلى مسلم بن قريش يستغيث به ضد تتش الذي " حشد ليقصد حلب " بعد أن استقامت أمور دمشق له ، ومما جاء في رسالة سابق قوله : " أنـــت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي " ، وســـبط ابـــن الجوزي نفسه ينقل في كتابه مرآة الزمان عن غرس النعمة محمد بن هـــلال الصـــابئ بأن مسلم بن قريش جاء إلى حلب في سنة (١٠٨٠م) وحاول احـــتلالها (كما سيمر معنا) ، ولقد تمكن من أخذ المدينة وحاصر سابق بن محمود وإخوانه في القلعة ، وطال أمر القلعة وكان في صحبة مسلم مقدموا قبيلة كلاب ، لذلـــك لمـــا امتد أمر حصار القلعة وجمعهم مسلم إليه وخاطبهم " قد علمتم أني أنفقت أموالي وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وأموالكم ، وكف عادية الغز

عـنكم ، وهـذه مقابـلة ما أعرافها ، فإن كنتم رجعتم فها أنا راجع إلى بلادي ومتبرئ منكم ، فأنكروا ما جرى وشرطوا السعي فيه وإزالة ما تجدد منه " .

إن كـلمة (عرب) التي ورد ذكرها في المصادر كانت تشير فقط إلى القبائل العـربية لـبلاد الشام والجزيرة وليس إلى جميع سكان هذين البلدين ، وفي الوقت نفسـه أشارت كلمة ترك واستخدمت للتدليل على التركمان الذين رافقوا الفتح السلجوقي لبلدان العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي ، ولقد مر بنا أن بلاد الشام والجزيرة كانت قبل مجيء تركمان تحكم من قبل أسر بدوية عربية من عقيل ونمير وقشير وكلاب مع وجود طيء وكلب وسواهما في جنوب بلاد الشام وبعد سنتين من الصراع سنجد التركمان يتمكنون أخيراً من تجريد هذه الأسر من سـلطاها وقـبائل هذه الأسر من أراضيها وممتلكاتها ، واعتماداً على هذا يمكننا القـول إن الصـراع كان صراعاً من أجل السلطة والسيطرة بين قوتين بدويتين مسلمتين ، واحدة عربية تدين بالسنة وهي وافدة تريد أن تحل نفسها محل الأولى .

لقد كان البدو يمثلون قسماً صغيراً من سكان بلاد الشام والجزيرة ، وكانت الغالبية تقطن في المدن والأرياف ، ولا بد للباحث الحديث أن يتساءل عن موقف هـذه الغالـبية من الصراع ؟ ومن المؤسف أن المؤرخ العربي لم يولِ هذه الغالبية اهـتمامه ولم يعـرها انتـباهه ، وهو حين تحدث عن البدو العرب تحدث عنهم كأصـحاب سـلطة ، وفي الوقت نفسه حين تحدث عن التركمان تحدث عنهم كجماعـة كانوا يستولون على السلطة ، وكانوا يقيمون لأنفسهم دولاً جديدة ، ولقـد تعود الإنسان العادي أن يحكم وأن يعاني دون أن يشارك في مصيره ، ومع ذلـك يمكـن القـول : إن غالبية سكان الشام والجزيرة قد وقعوا ضد التركمان وكرهتهم لأسباب دينية ولما ألحقوه بها من المصائب والويلات .

ولا بد لنا من أن نذكر هنا بأنه قد ورد في مصادرنا بعض ما يشرح موقف تنظيمات الأحداث ، خاصة في حلب ، من الصراع بين القبائل العربية والتركمان ولقد كانت الأحداث دائماً ضد التركمان ، لكن ينبغي أن نعرف بأن الأحداث لم يكونوا يمثلون جميعاً سكان المدن والأرياف في الشام وإنما على الأغلب في الدفاع عن مصالحهم ومكانتهم وسلطاتهم التي هددها مجيء التركمان بالزوال [1].

إذا كان الخطر الذي واجهته القبائل العربية جعلها أحياناً تقف معاً ضد التركمان كي تحافظ على ملكها وأملاكها ، لكن لماذا قاتل ابن خان التركمان وأتباعه ثم أحمد شاه وأتباعه ضد بني جنسهم ؟ ولماذا ساندوا الدولة المرداسية ضد الخطر والغزو السلجوقي ؟ . يكمن الجواب عن هذا في طبيعة الجماعة التي انتسب إليها ابن خان وأحمد شاه ، وهي جماعة الناوكية التي قلنا عنها أنها لم تدن للسلطان السلجوقي بالطاعة ، لذلك خدمت في ظل الدول التي كانت موجودة في الشام والجزيرة .

وعلى الرغم من أن الناوكية قد ناصبوا السلاجقة العداء فلم يعترفوا بسلطانهم ، فإنهم قد خدموا قضية السلاجقة ومهدوا السبيل نحو استيلائهم على بلاد الشام ، ومنذ مجيء السلطان آلب أرسلان إلى بلاد الشام وخوضه معركة منازكرد دخلت الشام والجزيرة جماعات جديدة من التركمان دانت له ولخلفاءه بالطاعة ، لذا فإنها اختلفت عن الناوكية اختلافاً جوهرياً ، فهي طالما كانت تدين بالطاعة للسلطان فإنها لم تكن بحاجة للانضواء تحت لواء أية حكومة من حكومات الشام والجزيرة ، أو للعمل كمرتزقة لديها ، لقد دخلت هذه الجماعات الشام

---

[1] ابن حيوس : ١/٥٢-٥٣ ، ٢/٤٨٢-٤٨٣-٥٧٠-٥٧٥ ، العظيمي : ١٣٠ ظ ، ابن القلانسي : ١١٤ زبدة الحلب : ٢/٥٧-٦٥ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٧/١٤٣ ظ ، ١٤٦ ظ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٧٢ هـ ، ابن خلدون : ٤/٥٨٨ .

دخــول الغزاة ، وتصرفت تصرف الفاتحين وقالت : إنها مرسلة من قبل السلطان ومفوضـــه من قبله ومنفذه لأوامره ، ولقد كانت طرائق هذه الجماعات في الفتح تعتمد على التخريب والتهديم والتحريق والقتل ، وتبغي السلب والنهب دونما تأثير بالآلام التي تلحق بالناس لأنها كانت بلا ضوابط وبلا اعتبارات إنسانية أو خلقية ، وذلك بسبب طبيعتها البدوية وبسبب المرحلة الحضارية ودرجة الثقافة التي كانت فيها ، وينبغي أن يضاف إلى هذا كله أن هؤلاء التركمان كانوا ، بسبب تعصبهم الشديد للسنة ، يعتبرون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله يقاتلون ضد كفار مرتدين ليس لهم إلا السيف والنار .

مـــن أشـــهر أسماء زعماء جماعات التركمان التي وصلتنا اسمان هما صندق وأفشـــين ، ولقـــد دخل صندق الشام في سنة (١٠٧٠م) من الأراضي البيزنطية فشـــعث المناطق ما بين حمص ومعرة النعمان ، ولقد كان أفشين قبل هذا الوقت يعمـــل داخل الأراضي البيزنطية وقد التحق كل من أفشين وصندق بتتش عندما دخـــل بـــلاد الشام وحاول فتح حلب [1] ، وبقي أفشين في خدمة تتش ورافقه حيـــنما توجـــه إلى دمشق لإغاثة أتسز [2] ، لكنه هجره بعدما فتك بأتسز وتملك دمشق وانفرد بحكمها ، ربما خشية أن ينال المصير نفسه ، وعندما تخلى عن تتش وهجـــره أخـــذ معه الجزء الأكبر من التركمان الذين رافقوا تتش إلى دمشق هذا ويمكن القول بلا تردد بأن أفشين كان أكثر مقدمي تركمان ، الذين دخلوا الشام

---

(1) زبـــدة الحـــلب : ٢/١١-١٣-١٦ ، مرآة الزمان سويم : ١٣٧-١٣٨-١٤٤-١٤٦-١٤٩-١٩٧ ، المنتظم : ٨/٢٥٤-٢٥٥ .

(2) ابن أبي الهيجاء : ١٣١، العظيمي : ١٨٣ ظ ، الكامل ط ليدن : ١٠/٧١-٧٢ ، ابن ميسر : ٢/٢٦ ، الزبد : ٢/٦٥ ، مرآة الزمان سويم : ٢٠١ ، ابن أبي الدم : ١٣٤ ، ابن العميد : ٥٦٦-٥٦٧ ، البستان الجامع : ٩١ و ظ ، دول الإسلام للذهبي .

تهديماً وأكثرهم قسوة وأشدهم وطأة وفظاظة على الناس والبلاد ، ويروي كل من غـرس النعمة محمد بن هلال الصابئ وابن العديم تفاصيل ما قام به أفشين بعدما ترك تتش وتوجه شمالاً يريد الأراضي البيزنطية ، ويقول ابن العديم : " ثم فسخ من عسـكره ـ أي تـتش ـ أفشين التركي ومعه أكثر العسكر وعاد شمالاً ونهب عسكره ضياعاً من أعمال بعلبك .

ووصـل رفـنية في (اليوم العاشر من جمادى الأولى ٤٧٢ هـ / ٨ تشرين الـثاني ١٠٧٩م) ، وفيها جماعة كثيرة من التجار والقوافل متوجهين إلى طرابلس فهاجمهـا بغتة وقتل ممن كان بها جماعة واستباح أموالهم وحريمهم وأقام بها عشرة أيـام ، ثم سـار فنزل حصن الجسر (قرب شيزر) فأكرمه أبو الحسن بن منقذ ، فأعـلمه بمـا عول من نهب الشام فسأله في بلده كفر طاب ألا يعترضها فأجابه ، فسـار فـنزل قسـطون ـ مـن قرى جسر الشغور ـ فجرى أمرها في النهب والعقوبة مجرى رفنية ، وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً ، ثم تنقل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جبل السماق وغيرها حتى لم يبقَ بها موضع ولا برج إلا افتتحه وأهلكه فاستباح حريمهم وأولاده ، واستغرق أحوال أهل سرمين والمعرة بالقطائع ، وطلع إلى جبل بني عليم (جبل الزاوية الآن) .

وسـار فـنـزل ضياع معرة النعمان الشرقية بالمنجنيقات ، ففتح أبراجها وحصـونها بالسيف وأخذ ما لا يمكن إحصاؤه ، وغلب أهلها فهلك منهم خلق ، ونـزل تل منس ـ قرب المعرة ـ وقطع عليها خمسة آلاف دينار ولم يتمكن من أخذهـا ، وانتقل إلى عمل معرة النعمان ففعل مثل ذلك ، وسار إلى معرتاح من عمـل كفر طاب ، فتحصن أهلها في أبراجها ، وتعذرت عليه فأحرقها ، وهلك من كان فيها .

وحين رجع آفشين من الشام و لم يبقَ في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعـــرة إلى حـــلب وتوجه إلى بلد أنطاكية فخرب ما قدر عليه ، ونهب وسبى ما وجـــد ، وحمل إليه من أنطاكية مال وتوجه إلى الشرق بعد امتلاء صدره وصدور عسكره من النهب .

ويـــتابع ابن العديم ، الذي شهد الغزو المغولي ورأى بأم عينه ما فعله التتر في بـــلاد الشام ، حديثه فيقول : " وجرى من هذا الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله وتـــلف أهله بعد ذلك بالجوع ووجد قوم قد قتلوا قوماً وأكلوا لحومهم ، وبيعت الحنطة ستة ارطال بدينار وما سوى ذلك بالنسبة .

وجـــلا مـــن سـلم مـــن الشام إلى بلد شرق الدولة أبي المكارم مسلم بن قـــريش ، فـــأحب إليهم وتصدق عليهم ، وكان الإحسان منه أكبر الأسباب في مملكته حلب [1] .

بعد قرابة عشرين سنة من هذه الأعمال استولى الصليبيون على أنطاكية ، ثم مروا في هذه المنطقة الجبلية الصعبة ــ في طريقهم إلى القدس ــ دون أن يلقوا أية مقاومة تكاد تذكر ، ويشير هذا إلى حقيقة مؤلمة هي أنه حتى بعد عشرين عاماً لم تستطع هذه المنطقة أن ترمم بعض ما لحقها من تشعيث وتهديم ، ولكن بعد بضع سنوات من استيلاء الصليبيين عليها ، لقد كان من أصعب الأمور على نور الدين محمـــود بـــن زنكـــي ومن جاء بعده من أمراء المسلمين استخلاص هذه المنطقة من الصليبيين .

لقـــد اقتنع كل إنسان في شمال بلاد الشام ، وحتى في الجنوب بأن سابق بن محمـــود ليس لديه من الطاقة والعزيمة ما يمكنه من صنع أي شيء يحسن به الوضع

---

[1] زبدة الحلب : ٢/٦٥-٦٧ ، مرآة الزمان سوبم : ٢٠١-٢٠٢ .

ويواسي به الناس ويخفف من آلام المصائب التي حلت بهم ، لهذا أخذ الناس ومن جملتهم قبيلة كلاب ، ينظرون حولهم علهم يجدون قائداً وعادلاً ، لقد كان أمامهم السلطان ملك شاه وتتش بن آلب أرسلان ومسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل .

ولم يكن السلطان ملك شاه يفي بالغرض ويلبي الرغبات ، فهو قد كان بعيداً عن مسرح الأحداث ومشغولاً بسوى الشام والجزيرة من القضايا ، يضاف إلى هذا أن التخريب قد تم باسمه ، وربما كان هو راضٍ عما حدث لأن ذلك كان سيمكنه من أخذ الشام وضمه مع الجزيرة إلى أملاكه .

أما تتش فقطعاً لم يكن بالشخص الذي رجا الناس على يديه العدل والرحمة فهو لم يكن أحسن بكثير من أفشين .

ولقد بدا لكل الناس بأن مسلم بن قريش العقيلي هو الرجل الذي يمكنه أن يشغل المكان الذي رجوه منه ويؤديه بإخلاص أحسن أداء ، وعلى هذا الأساس توجهت نحو الموصل عدة وفود وجماعات تمثل مختلف طبقات الناس من أهالي شمال الشام مع أعداد هائلة من اللاجئين ، ولقد استغاث هؤلاء بمسلم بن قريش وطلبوا منه التحرك نحو الشام لتخليصه .

عندما نستعرض ديوان ابن حيوس الذي أمضى قرابة الستين سنة من عمره يمدح بها حكام دمشق الفاطميين ، ثم الأمراء المرداسيين في حلب مع عدد من الوزراء متميزة بصدق عاطفتها وشدة تعبير أحاسيس قائلها ، وقد نظم ابن حيوس هذه القصيدة في أخريات أيام حياته ، ومدح بها مسلم بن قريش عندما فتح مدينة حلب وأسقط الدولة المرداسية ، وفيها يقول :

يا رحمة بعثت فأحيت أمة ... قد طالما منيت بمن لم يرحم

جليت ظلم النائبات كما جلا ... ضوء الغزالة جنح ليل مظلم

وأطرت طير الخوف حتى ماله ... بالشام منذ طرقته من مجثم

إن الرعايا في جنابك أمنت ... كيد الغشوم وفتكة المتغشم

لا الظبية الغيداء تغشى القسورى ... الفداري ولا الذمي حيف المسلم

فخصصت للإذلال كل مقلنس ... وعممت بالإعزاز كل معمم

وغداً ستخلي الشام منهم مثلما ... أخلت خزاعة مكة من جرهم

ولم يتحقق حلم ابن حيوس في إخلاء الشام من التركمان وسنرى بالتفصيل كيف أخفق مسلم في تحقيق ما صبا إليه ، وكيف هزمه التركمان وقتلوه وهو يجاهد في سبيل إقامة دولة عربية تشمل الشام والجزيرة مع أجزاء واسعة من العراق [1] ، بعدما سمع تتش بالأعمال التي جناها أفشين ترك دمشق وتوجه شمالاً بحجة أنه يريد مطاردة أفشين ليوقفه عن متابعة أعماله التدميرية ، لقد كان هذا ما تظاهر به تتش ، ويبدو أن قصده الحقيقي كان الاستفادة من الفرصة التي أوجدها أعمال أفشين لكي يهاجم حلب ويحتلها ، وفعلاً وصل تتش إلى حلب وحاصرها أياماً ، لكنه عندما أدرك عدم استطاعته أخذ المدينة بقوة السلاح رفع الحصار وانسحب متوجهاً شمالاً إذ نهب القرى المحيطة بالمدينة مما كان له خط النجاة من أفشين ، ثم عاد بعدها مع غنائمه إلى دمشق [2] .

وفي مدينة الموصل استقبل مسلم بن قريش وفداً حلبياً مع رسالة من أحداث حلب فيها تجريد الاستغاثة والدعوة للقدوم إلى حلب لإنقاذها ، كما استقبل أيضاً

---

(1) ابن حيوس : ٢/٢٧٠-٥٧٥ ، زبدة الحلب : ٢/٦٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٧/١٤٦ و ١٤٨ ظ ، مرآة الزمان سويم : ٢٠٢-٢٠٣ ، ابن خلدون : ٤/٥٨٨ .

(2) ابن أبي الهيجاء : ١٣٠ ، الكامل ط ليدن : ١٤٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٧/١٤٥ ظ ، زبدة الحلب: ٢/٦٦-٦٧ ، مرآة الزمان سويم : ٣٠١ ، ابن خلدون : ٤/٥٧١ .

وفداً من أمراء قبيلة كلاب عملوا له المطالب نفسها ووعدوه بالمساعدة والسير في ركابه ، وتبعاً لما رواه عدد من المؤرخين العرب لم يكتب سابق بن محمود إلى مسلم بن قريش ليطلب منه المساعدة فقط ، وإنما ليعرض عليه التنازل له عن الإمارة .

وهنا لم يقرر مسلم بعد تسلمه لكل هذه الطلبات العمل للاستيلاء على شمال بلاد الشام فقط ، بل على جميع مناطق الشام ومدنه ، ولقد كانت إحدى زوجات مسلم أختاً للسلطان آلب أرسلان ، أي عمة للسلطان ملك شاه ، وخشية من أن يقوم السلطان ملك شاه أو أحد قادته بمهاجمة الموصل بعدما يتركها مسلم حين يتوجه إلى الشام قام مسلم بإجراء احتياطي " فأنفذ ابنه ولده من خاتون عمة السلطان ملك شاه إليه ، وشرط على نفسه في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ، فأجابه وأمره بقصدها ـ أي حلب ـ فسار إلى قلعة جعبر فحصرها ، وكان بها جعبر وأصحابه يقطعون الطرق فصالحوه على أنهم لا يعودون إلى شيء من ذلك ، وسار إلى حلب فوصلها (ثاني عشر ذي الحجة / ٥ حزيران ١٠٨٠م) ومعه بنو كلاب وكلب ونمير وجميع القبائل ، وقد أطاعوه خوفاً من الغز ، وأنفق عليهم الأموال فكسر الأحداث الأبواب يوم (الجمعة لعشر بقين من ذي الحجة) ودخل أصحابه إليها ولم يتأذى أحد من أهلها ولا أغلق فيها دكان .

وراسل سابق بن محمود وهو في القلعة مراسلة انتهت إلى أن يزوجه سابق أخته ويعوضه مالاً على أن يسلم القلعة فرضي ، وحط سابق رحله وماله إلى البلد ولم يبقَ إلا أن ينزل فوثب عليه أخوه شبيب ووثاب فقبضا عليه واستوليا على القلعة .

وهنا أخذ مسلم بحصار القلعة وطال الحصار ودام أكثر من أربعة أشهر ،

وذاق مسلم ذرعاً وتبرم من ذلك ونوى التخلي عن حلب والعودة إلى الموصل ، لكن التشجيع الذي لقيه من أهالي حلب ثم الوعود التي لقيها من مقدمي قبيلة كلاب ، مع ما كان يقوم به شخصيات الإمارة بالتوسط بينه وبين الأمراء المرداسيين في القلعة أقنعه بالبقاء في حلب ومتابعة حصار القلعة .

ووقعت بعض الخلافات بين الأمراء المرداسيين ، وكان ذلك فرصة اقتنصها علي بن المقلد بن منقذ ، فتوسط بينهم وبين مسلم بن قريش ، وقد استطاع أن يقنعهم بالتخلي عن القلعة وتسليمها إلى مسلم مقابل تعويضات مالية مع إقطاعات لكل واحد منهم ، هكذا نزل الأمراء المرداسيون من القلعة وتسلمها مسلم يوم (الأحد العاشر من ربيع الآخر سنة ٤٧٤ هـ (أو يوم الثلاثاء الخامس منه) / ٢٧ أيلول ١٠٨٠ م) . فزالت بذلك دولة بني مرداس [1] .

وأصبح الآن مسلم بن قريش سيداً على شمال بلاد الشام مع الجزيرة وأجزاء من العراق ، وكان لهذا فوائده ، ولكنه حوى مخاطرة أيضاً ، فالدولة الجديدة قد تعلق استمرار وجودها باستمرار مسلم بن قريش وبقائه حياً ، وكانت أية ضربة تزيل مسلم من الحياة ، تزيل في الوقت نفسه الدولة التي أقامها وتجعل أراضيها لقمة سائغة للتركمان ، وهذا ما حصل .

قبل أن تسقط الدولة المرداسية ، وأثناء حكم سابق بن محمود ذكرنا بأن

---

[1] ابن القلانسي : ١١٣ ، العظيمي : ١٨٤ ، الكامل ط ليدن : ١٦٥/٩ ، ١٧٤/١٠ ، المنتظم : ٣٢٣/٨ ابن العميد : ٥٦٨ ، زبدة الحلب : ٦٧/٢-٧٠-٧٣-٧٥ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٤٥/٧ ظ ، ١٤٧ ظ ، مرآة الزمان سويم : ٢٠٢-٢٠٣-٢٠٧ ، ابن أبي الدم : ١٣٤ ، تاريخ آل سلجوق : ٦٦ ، التاريخ المنصوري : ٧٤ ظ ، المختصر في أخبار البشر : ١٤٩/١٥-١٥٠-٢٠٣ ، دول الإسلام للذهبي: ٤/٢ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ١١ ، الدرة المضيئة : ٤٠٦ ، عقد الجمان : ٥٨١/١١ ، ابن خلدون : ٥٧١/٤-٥٧٢-٥٨٨ ، منجم باشي : ٣٢٨/١ ظ .

علي بن مقلد الأمير المنقذي صاحب كفر طاب ، كان قد هجر مدينة حلب ، وذهب إلى كفر طاب فأخذ يخطط لاحتلال قلعة شيزر المنيعة ، وكانت هذه القلعة تحكم آنئذ من قبل أسقف البارة الذي كان يدين بالطاعة للإمبراطور البيزنطي ، ولما كانت شيزر من أمنع المواقع في بلاد الشام ، فقد كان من المحال أخذها بالقوة لذلك وضع علي خطة هدفت إلى حصار شيزر حتى تسقط من قبل نفسها بعد أن ينفذ ما فيها من مؤن وذخائر ، وفي سبيل هذه الغاية بنى علي قلعة على العاصي قريباً من شيزر أصبحت تعرف باسم قلعة الجسر ، وبعدما سقطت الدولة المرداسية عاد إلى قلعة الجسر وصرف جهوده كلها في سبيل فتح قلعة شيزر وأخيراً وبعد أن ضاق الحال بالمدافعين عن شيزر واشتد بهم الأمر استطاع على أن يقنع أسقف البارة بالتنازل له عن شيزر مقابل مبلغ من المال ، وفي (يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٤٧٤ هـ / ١٩ كانون أول ١٠٨١م) تسلم علي بن مقلد قلعة شيزر وغدا سيدها فأسس بذلك حكم الأسرة المنقذية في شيزر ، هذه الأسرة التي كانت من أبرز الأسر العربية زمن الحروب الصليبية [1] .

وفي حلب عندما سمع مسلم بن قريش بخبر سقوط شيزر لعلي بن مقلد تحرك بسرعة وعمل من أجل انتزاعها منه ، وكان أول ما عمله هو أن جهز جيشاً أرسله ضد شيزر بقيادة أخيه علي بن قريش ، وعندما وصل علي بن قريش مع جيشه إلى شيزر بدأ يحاصرها ، ولكن دونما جدوى ، فقد كان أميرها المنقذي قد شحنها بكل ما تحتاج إليه من سلاح ومؤن وعتاد كي تقف وتقاوم لفترة مديدة .

---

(1) العظيمي : ١٨٤ ظ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣١ ظ ، ابن العميد : ٥٦٨ ، بغية الطلب أحمد الثالث ٧/ ١٤٧ و ظ ، زبدة الحلب : ٢/٧٥-٧٧ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٧٤ هـ ، التاريخ المنصوري : ٧٤ ظ ، تاريخ الإسلام الذهبي : or ٥٠ ، ١١ ظ ، ابن أبي الدم : ١٣٤ و ظ ، دول الإسلام للذهبي : ٢/٤ ، النجوم الزاهرة : ٥/١١٣-١١٤ .

ولما لم تسقط شيزر لعلي بن قريش تحرك مسلم نفسه مع قوات جديدة نحوها وأخذ يحاصرها ، ومرة أخرى لما وجد مسلم بأن الأمر سيطول ترك منطقة شيزر حتى تسقط ، وفي حمص استقبل مسلم بن قريش وفداً منقذياً عرض عليه مبلغ ١٠٠٠٠ دينار مقابل رفع الحصار عن شيزر ، وقبل مسلم بالعرض فاستلم المبلغ وأصدر أوامره إلى أخيه برفع الحصار والانسحاب .

ويذكر ابن العديم أن الذي دفع مسلم بن قريش إلى حصار شيزر هو حسده لابن منقذ [1] ، وهذا في الحقيقة وهم ومبالغة ذلك أن الحوادث التي وقعت كلها تبرهن على أن دوافع مسلم كانت أبعد من الحسد ، لقد كان مسلم يكمل ما بدأ به في حلب ، لقد كان يعمل على جعل الشام كله قطعة من دولته ، وفي هذا السبيل كان عليه أن يزيل من الوجود جميع الدويلات الشامية الصغيرة مهما كان لونها وأن يجعل جميع القوى تتحد راغبة أو راهبة تحت رايته ، فبعد أن استولى على حلب التفت نحو الإمارة النميرية في حران فأتى عليها وضمها إلى أملاكه [2] .

وقام بعد هذا بتجريد جميع أمراء الأسرة المرداسية من أملاكهم كما استولى على جميع القرى والأراضي الحلبية التي كانت في أيدي التركمان ، ونظف شمالي الشام حتى مدينة حماة من التركمان وحال دونهم ودون الدخول إلى أراضيه حتى ولو مروراً ، وتوج أعماله هذه بأن مد نفوذه على مدينتي الرها في المشرق وأنطاكية في الغرب ، وكانتا من املاك الإمباطورية البيزنطية [3] .

---

[1] زبدة الحلب : ٧٧/٢ ، مرآة الزمان سويم : ٢١٥ .

[2] ابن أبي الهيجاء : ١٣١ ظ ، الكامل ط ليدن : ٧٨/١٠ ، مرآة الزمان سويم : ٢٠٨ ، دول الإسلام : ٢ /٤ ، النجوم الزاهرة : ١١٣/٥ .

[3] ابن أبي الهيجاء : ١٣١ ظ ، الكامل ط ليدن : ٧٨/١٠ ، مرآة الزمان سويم : ٢٠٨ ، دول الإسلام : ٢ /٤ ، النجوم الزاهرة : ٢١٣/٥ .

وبعدما ترك مسلم شيزر وتوجه نحو حمص كان يريد الاستيلاء على هذه المدينة من خلف بن ملاعب الذي كان قد امتلكها ، وكان قصده من أخذ حمص أن يجعل ذلك خطوة أولى ممهدة للاستيلاء على بقية الشام ، وبخاصة دمشق ، وطرد تتش منها ، ولقد استطاع مسلم احتلال مدينة حمص وبدأ في حصار قلعتها وأثناء الحصار علم بأن تتش يعد عدته للتحرك ضده من دمشق ، ولما لم يكن مسلم قد أعد أموره للاصطدام مع أخي السلطان في هذه المرحلة ، فقد آثر عدم متابعة حصاره لقلعة حمص ، لذا تصالح مع خلف بن ملاعب وتركه وترك حمص له ، وقبل ذلك كان قد استقبل وفد شيزر وتصالح معه ، ثم سحب نفسه شمالاً إلى حلب ، ثم شرقاً إلى الموصل ليجهز قواته لمرحلة دمشق والقتال ضد تتش [1].

لقد كان مسلم بن قريش يدين بالتشيع على مذهب الإمامية الاثني عشرية ، وكانت الخلافة الفاطمية هي الدولة الشيعية الوحيدة في منطقة ــ ما يسمى الآن ــ بالشرق الأوسط ، وكانت هذه الدولة قد تضررت كثيراً من التركمان ، لهذا كان من الطبيعي أن تتلاقى مصالح هذه الخلافة مع مصالح مسلم بن قريش ، وكان توفق بينهما المبادئ العامة للتشييع ، لذلك عندما كان مسلم يعد عدته للحملة على دمشق ، قامت اتصالات بينه وبين بدر الجمالي في القاهرة ، وتم الاتفاق بينهما على أن ترسل القاهرة جيشاً فاطمياً يساعد مسلم بن قريش في الإطباق على دمشق عندما يصلها مسلم ويأخذ في حصارها .

ولم يكن مسلم آنئذ هو الذي يتحرك فقط ، فقد استلم تتش هذا الوقت رسائل من أمراء الأسرة المرداسية ، ومن خلف بن ملاعب صاحب حمص ، ومن الأمير المنقذي لشيزر ، فيها الشكاية ضد مسلم بن قريش وفيها عروض للتعاون

---

[1] الكامل ط ليدن : ٧٨/١٠ ، زبدة الحلب : ٧٥/٢-٧٨-٧٩ ، مرآة الزمان سويم : ٢٠٨-٢١٦ .

معاً ضده لطرده من بلاده ولتسليم أملاك تتش ، ولقد تجاوب تتش مع العروض التي بذلها هؤلاء الأمراء له ، فجمع قواته وقادها شمالاً نحو أنطاكية وذلك في الوقت الذي كان قد تجمعت فيه قوات الأمراء العرب وتحركت شمالاً تريد حلب ولقد احتلت هذه القوات حماة ، ثم أخذت معرة النعمان وأرادت أن تتابع سيرها نحو حلب ، هذا وإن تحرك تتش نحو أنطاكية مع المنحى الذي تحركت عليه القوات العربية يوحي بوجود خطة مرسومة للاستيلاء على حلب ، وربما بنيت هذه الخطة على أن يستولي تتش على المناطق الشمالية الغربية لإمارة حلب في حين تستولي القوات العربية على المناطق الجنوبية ، وعند الفراغ من ذلك تلتقي القوتان عند حلب ، فتطبق عليها وتنتزعها ، وبذا يطرد مسلم من الشام .

ولم ينفذ إلا جزء من هذه الخطة المفترضة ، فقد سمع مسلم بن قريش بنبأ تحرك تتش وحلفاءه العرب ، لذلك سارع بعبور الفرات على رأس قوات كبيرة وقصد أولاً مدينة حلب ، ومنها كان يريد دمشق ، ولقد أجبر تحرك مسلم السريع تتش وحلفائه على الاقلاع عن متابعة أعمالهم وتراجع كل إلى بلده وموقعه الحصين للدفاع عنه ضد مسلم بن قريش .

وفي (حزيران سنة ١٠٨٣م) ألقى مسلم بين قريش الحصار على مدينة دمشق ، وبهذا كان ينفذ أهم أعماله كلها ، ويقوم بالخطوة الأخيرة والمهمة نحو تأسيس دولة عربية تضم الشام والجزيرة مع أجزاء من العراق ، ولقد أخفق مسلم في أخذ دمشق وذلك بعد حاصرها قرابة شهر ، كما أنه أجبر على الانسحاب ، وإن كانت الأسباب الرئيسية التي كمنت وراء إخفاقه هي :

١- التركيب القبلي لقواته ، ذلك أن هذه القوات قد ضمت عناصر من معظم قبائل الشام ، فقد كان فيها باالإضافة إلى عقيل عدد لا بأس به

مـــن كلاب ونمير ، كما أنها ضمت أعداداً من أكراد الجزيرة ثم انضاف إليهـــا عندما وصلت دمشق أعداد من طيء وعليم وكلب ، ولقد كان العقيليون هم ـــ ربما ـــ الجزء الوحيد في قواته الذي أخلص لـــه ، أما باقي أجزاء هذه القوات ، فقد دخلت خدمة مسلم إما عن رغبة ، وإما عـــن رهـــبة منه ، وخوفاً من بطشه ورغبة في نيل بعض الغنائم عندما تسقط دمشق ، وكان هذا حال عليم وكلب وطيء .

ومفيـــد أن ننـــبه هنا إلى أنه حتى وقت حادثنا هذا لا يمكن تقدير التركمان الذين استقروا في الشام بأكثر من (١٥,٠٠٠) ، لقد كان هناك عدد صغير من المقدمين ، وكل مقدم كان أتباعه إما (٥٠٠) رجل أو (١٠٠٠) مقاتل ، وهكذا كـــان عدد التركمان مجتمعين أقل بكثير من عدد أي قبيلة عربية من قبائل الشام والجزيـــرة ، على حين فاق العرب التركمان بالكمية والعدد ، فقد فاق التركمان العرب بالكيفية والقدرة القتالية ، لقد أحسن التركمان فنوناً من القتال ، واجادوا استخدام أسلحة لم يبارهم العرب ولا سواهم بها ، وبخاصة استخدام الأقواس .

فقد كان التركماني في فارس يرمي وهو على ظهر فرسه في مختلف الأوضاع إلى الأمام والخلف ، والجوانب ، وأهم من كل هذا أن التركمان كانوا بدواً بكل مـــا تعـــنيه هذا الكلمة ، كانت لديهم روح البداوة العنيفة ، وكان لديهم إقدام البدو وقوهم .

وكان التركماني يعتمد على نفسه في المعركة ، ولم يكن لديه أتباع أو خدم يصـــاحبونه في المعـــركة ، وكان البدو العرب لا يشبهون التركمان في أي شيء تقريـــباً ، لقـــد كانوا بعيدي العهد بالبداوة الحقة ، كانت روح القتال لديهم قد خـــبت جذوتهـــا ، فاســـتخدموا العبيد المقاتلة ، كانت الدنيا ومتاعها شاغلهم ،

وكانت تعلقهم بالحياة ومتعها قد جعلهم ينسون كيف يخططون أو يفكرون بعقل ولقـــد مر بنا العديد من الأمثلة ورأينا كيف أن (١٥٠٠) تركماني هزموا سبعين ألف كلابي ، سيمر بنا أمثلة أخرى إضافية تزيد في البرهان .

٢- مقاومة تتش الفعالة ، وهجوماته المفاجئة التي كان ينقض بها على بعض أجـــنحة عسكر مسلم فيحطمها ثم يعود إلى داخل دمشق ، ويقول ابن الأثير : " وفي بعض الأيام خرج إليه ــ أي إلى مسلم ــ عسكر دمشق وقاتـــلوه وحمـــلوا عـــلى عسكره حملة صادقة ، فانكشفوا وتضعضعوا وانهزمت العرب ، وثبت شرف الدولة مسلم بن قريش على الأسر " .

٣- عـــدم وفاء الخلافة الفاطمية بوعودها (وكان شرف الدولة قد اعتمد على معونة عسكر المصريين على دمشق ، ومعاضدته بالمعسكر المصري على أخذها ، فوقع التقاتل عليه بالإنجاد ، والتقاعد عنه بالإسعاد إشفاقاً من نيل الناس ، وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه .

فـــلما وقع يأسه مما أمله ورجاه وخاف ما تمناه وورد عليه من أعماله فشغل خاطـــره في تدبيره وأعماله ، وتواترت الأخبار بما أزعجه وأقلقه ، رأى أن رحيله عـــن دمشق إلى بلاده وعودته إلى ولايته لتسديد أحوالها وإصلاح اختلالها أصعب من مقامه على دمشق وأوفق من شأنه) .

٤- لقـــد كـــان الـــذي أزعـــج مســـلماً وأقلقه ، وجعله يقلع عن متابعة حصـــار دمشق خبر قيام ثورة في حران ضده ، ويقول الذهبي : " عصا أهـــل حـــران عـــلى شرف الدولة مسلم بن قريش ، وأطاعوا قاضيهم ابـــن جبـــلة الحنبـــلي ، وعـــزموا عـــلى تسليم حران إلى جبق أمير الـــتركمان لكونـــه ســـنياً ولكون مسلم رافضياً " ، " وصل الخبر إلى

مسلم بأن أهل حران عصوا عليه .. رجع كارا إلى حمص وصالح في طريقه ابن ملاعب وحالفه وأعطاه مضافاً إلى حمص رفنية وسلمية وأقطع شبيب بين محمود بن الزوقلية ، واستخلفه في تلك الأعمال .

وعاجل حران فوصلها يوم الجمعة ثامن ربيع الأول فوجد قاضيها ابن جبلة الحنبلي قد أشغل أهلها ، وأدخل إليه جماعة من بني نمير ... وأنفذ إلى جبق أمير التركمان ، وكان قريباً فاستدناهم إليه ليسلم إليهم البلد ... " .

وشرع القاضي يعلم مسلماً ويمنيه خديعة منه ليصل التركمان وعلم مسلم فحاربهم ورمى قطعة من السور ، وبينما هو كذلك إذ وصل التركمان فترك أقواماً يقاتلون البلد ، وركب هو بمن معه فأشرف على التركمان واتصل الطراد وقال للعرب ملكوا عليهم النهر المعروف بالجلاب واجعلوه وراءكم ، وحولوا بين التركمان وبينه ، ففعلوا وعطشت خيلهم وهجرت الشمس عليهم ، فمالوا بجمعهم طالبين رأس الماء على أن يشربوا ويسقوا خيولهم ، ويعودوا على العرب ، فلما عطفوا خيولهم لم يشك العرب في أنها هزيمة فألقوا نفوسهم عليهم فانهزموا فتبعوهم وغنموهم وقتلوا وأسروا .

وقام مسلم على حصار حران ، وكان كلما رمى قطعة من السور نصب ابن جبلة بإزاء الثلمة مجانيق وعرادات منعت من يروم القرب منها .

وطال حصار حران فتمكن مسلم أخيراً من اختراق الأسوار ودخل حران " فقتل خلقاً كثيراً من أهل البلد ... ثم طلب القاضي فوجده في كندوج فيه قطن ، فأخذوا وولديه ، وقبض على أعيان أهل حران ونهب البلد إلى آخر النهار ، ثم

رفع وصلب القاضي وولديه وأعيان الحرانيين على السور ، وقتل خلقاً من العوام
وعاد إلى منزله بأرض الموصل [1] .

وصل في هذه الآونة إلى الشام والجزيرة موجة جديدة من المهاجرين التركمان وكان أبرز مقدمي هذه الموجة أرتق وجبق ، وفي الواقع كان أرتق هو الأهم بين مقدمي هذه الموجة والأكثر شهرة ، ذلك لأنه شغل مكاناً مؤثراً في إنزال ضربة قاصمة بالقوة البدوية في الجزيرة ، كما شارك في الصراع بين التركمان من أجل السيادة على بلاد الشام ، يضاف إلى هذا كله أنه كان جد الأسرة الأرتقية التي حكم أفراد منها في حلب والجزيرة وكانوا من أهم قادة المسلمين أيام الحملة الصليبية الأولى ، ثم أثناء الفترات التالية .

وعندما كان التركمان يؤسسون إمبراطوريتهم ويعملون من أجل مد سيطرتهم على دول العالم الإسلامي للقرن الحادي عشر الميلادي لم يكن مقدمو جماعات التركمان هم وحدهم الذين بذلوا غاية جهودهم من أجل إقامة دويلات لأنفسهم ، بل صنع عدد من رجال الإدارة الإسلامية المحترفين الشيء نفسه ، ولقد كانت أسرة آل جهير بين هؤلاء ، وكان محمد بن أحمد بن جهير هو رب هذه الأسرة ، وقد بدأ حياته الإدارية في مدينة الموصل ، إذ شغل منصب الوزير فيها ، ثم ترك الموصل فذهب إلى حلب إذ عمل بنجاح فائق وزيراً لثمال بن صالح ،

---

(1) ابن أبي الهيجاء : ١٣١ ظ ، ابن القلانسي : ١١٤-١١٥ ، العظيمي : ١٨٤ ظ ، ١٨٥ ، الكامل ط ليون : ٨٢/١٠-٨٤ ، زبدة الحلب : ٧٨/٢-٨٣ ، مرآة الزمان سويم : ٢٠٨-٢١٥-٢١٦-٢١٩-٢٢٣ ، وفيات الأعيان مسلم بن قريش تاريخ الإسلام للذهبي : or ٥٠ ، ١٢٥ و ١٦٥ ظ ، العبر للذهبي : ٣٨٣/٣ ، ابن خلدون : ٥٧٢/٤-٥٧٣ ، البستان الجامع : ٩١ ظ ، ٩٢ ، ابن كثير ، ١٢٤/١١ ، التاريخ المنصوري : ٧٥و ، النجوم الزاهرة : ١١٣/٥-١١٥ .

وبعد أن خدم ثمال فترة طويلة من الزمن ترك مدينة حلب مخافة أن يوقع حساده بينه وبين سيده ، وتوجه إلى ميافارقين فعمل وزيراً فيها ، ومن ميافارقين طارت شهرة ابن جهير فطلبه الخليفة القائم واشستدعاه إلى بغداد ليكون وزيراً له ، وذهب ابن جهير إلى بغداد فعمل في خدمة القائم ، ثم في خدمة خليفته المقتضي .

وكان محمد بن أحمد جهير هذا يعرف بلقب فخر الدولة ، ولقد تمكن خلال عمله في بغداد من إقامة علاقات ود متينة مع نظام الملك وزير السلطان آلب أرسلان ، ومن بعده ابنه ملك شاه ، أشهر وزراء الدولة السلجوقية وأعظم رجال الإدارة والتشريع في تاريخ الإسلام دون شك ، فهو مؤسس كتاب سياسة نامة الشهير .

وكان من ثمرات العلاقات بين فخر الدولة ونظام الملك زواج ابنه محمد ، أي ابن فخر الدولة ، الذي كان يعرف بلقب عميد الدولة بابنتين من بنات نظام الملك ، واحدة بعد أخرى .

وعندما صرف فخر الدولة عن وزارة المقتضي ، خلفه ولده عميد الدولة وذلك بفضل جهود نظام الملك وبسبب ما بذله من ضغوط على دار الخلافة ، ولقد بقي عميد الدولة وزيراً حتى عزل يوم (الجمعة ٢٥ صفر سنة ٤٧٦ هـ / ١٤ تموز سنة ١٠٨٣م) ، وهنا غادرت أسرة آل جهير مع أسبابها ومن تعلق بها مدينة بغداد وأخذت طريقها إلى أصفهان ، وهناك استقبلت بحفاوة ورحب بهما من قبل السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك .

وفي (تشرين الأول من السنة ١٠٨٣م) نفسها فوض السلطان ملك شاه إلى فخر الدولة الأمر ، في أن يقود جيشاً سلجوقياً من جيوش السلطان ، يذهب على رأسه إلى الجزيرة لفتح ديار بكر ومن ثم القضاء على الدولة المروانية ، ولقد

عين السلطان ملك شاه آق سنقر قسيم الدولة الذي سيكون أول حاكم سلجوقي لحلب .

كما سنرى في أول الفصل التالي أنه عينه مسؤولاً عسكرياً على شؤون الحملة .

وعندما وصلت أنباء هذه الحملة إلى الجزيرة سببت قيام تحالف بين قوتي الجزيرة المتخاصمتين ، أي بين الدولة المروانية ومسلم بين قريش صاحب الموصل وحلب ، ولقد دفعت الدوة المروانية لمسلم بن قريش مدينة آمد وذلك في سبيل تحالفه معها ووقوفه إلى جانبها عوضاً عن الوقوف ضدها ، وتجمعت قوات مسلم بن قريش مع القوات المروانية قرب آمد للتصدي لابن جهير ، وعندما وصلت أخبار التحالف المرواني العقيلي إلى ابن جهير أخبر به السلطان ملك شاه واستمده " فأردفه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير أرتق بن أكسب أبو الملوك الأرتقية " وجاءت القوات التركمانية إلى قرب آمد وعسكرت أمام القوات العقيلية المروانية ، وحاول ابن جهير أن يقنع ابن مسلم بالتخلي عن القتال والانسحاب وقال : " لا أوثر أن يحل بالعرب بلاء على يدي " ، " ووقعت المراسلة بينه وبين مسلم ، وكل أشار على مسلم بالروع إلى أعماله فقال : ترجعون مرحلة إلى ورائكم وأرجع أنا لئلا يقال : إني عدت منهزماً فامتنع أرتق بك وقال : أنا لا أرد رايات السلطان على عقبها ، وعرف التركمان ما يجري فقالوا : نحن جئنا من البلاد البعيدة لطلب النهب ، وهؤلاء يسارعون في الصلح وركبوا نصف الليل من غير إعلام أرتق وأشرفوا على العرب ، وكانوا أضعاف الغز ، فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب واحتطاوا بهم ، ولم يكن لمسلم سبيل إلى الهرب ، فطلب صوب آمد ، وتبعه مروان وجماعة من أصحابها فدخلوا

آمـــد ، وأشـــرف ابـــن جهير وأرتق بك على القوم ضاحي النهار ، وقد استولى الـــتركمان عـــلى الحلل والأموال والمواشي ، وكان مما لا يحدُّ ولا يصرُّ وأخذوا النســـاء وفضحوهن ، وربطوا أمراء بني عقيل بالحبال وباعوهم بالقراريط وأشعل الـــتركمان عشرة آلاف رمح تحت القدور ، وجرى على العرب ما لم يجرِ عليهم قـــبله مـــثله ، وسبوا نساءهم ، وبلغ الفرس الجيد ديناراً ، وكذا الجمل والفرس والـــرأس من الغنم نصف قيراط والعبيد والإماء من دينار إلى دينارين ، وما سوى ذلك ، فما أشتري ولا بيع " .

فـــتحرك ابـــن جهير الآن بسرعة ، وأراد استغلال ما حدث لصالحه وصالح السلطان فبعث " إلى أرتق بك يقول : قد حصلت بنو عقيل في أيدي التركمان ، ويجـــب أن تجمعهم وتنفذهم إلى السلطان وتقيم على هذا الإنسان ـــ يعني مسلم بن قريش ـــ وتستنْزله ، وقد ملكت الأرض إلى مصر " ، ولقد كان هذا ما تخيله ابن جهير وتمناه لكن الأقدار وأرتق بك أرادا شيئاً آخر .

وفي أصـــفهان عندما سمع السلطان ملك شاه أخبار ما تم عند آمد خيل إليه أن الجزيـــرة والشـــام غدتا من أملاكه لهذا سارع إلى استغلال هزيمة مسلم وتمتين نصر التركمان فقاد قواته وتوجه نحو الجزيرة ، وعندما وصلها دخل مدينة الموصل وأخذ يعد نفسه لإكمال زحفه على الشام ، ومرة أخرى لقد أراد ملك شاه شيئاً وأرادت الأقدار وأرتق بك شيئاً آخر .

فـــبعدما دخل مسلم مدينة آمد محتمياً بأسوارها كتب إلى أرتق بك وقال : لمثل هذا اليوم خبأتك ، ولمثله تستحب الصنيعة ، وأريد أن تمن على نفسي وبذل لـــه مـــالاً رغبه فيه " ، ورضي أرتق بعرض مسلم ووافق على أن يفسح له سبيل النجاة لذلك عندما طلب ابن جهير منه التشدد في حراسة أسوار آمد وأخذ الحيطة

لمنع مسلم من النجاة أجاب : " هذا أمر ما إليك منه قليل ولا كثير ، وأما صاحب الحرب ، فليس من عادتنا مع من أن نحبسه بل نبيعه ونطلقه ، وكانت نية أرتق بك مع السلطان غير مستقيمة .

وقبل أن يدخل السلطان مدينة الموصل بلغه أن مسلماً قد نجا من آمد يوم أحد ٢٧ تموز ١٠٨٤م ، وبعدما دخل إلى الموصل جاءته الأنباء من خراسان بأن أخاه تكش بن آلب أرسلان قد استغل ابتعاده عن هذه البلاد ، فأعلن الثورة أوخذ يعمل للاستيلاء على مدن خراسان بغية إعلان نفسه سلطاناً مكان ملك شاه ، ولقد أجبرت هاتان الحادثتان ــ وبخاصة الثانية منهما ــ ملك شاه على أن لا يتابع زحفه على الشام ، بل ألجأته إلى صنع تسوية مع مسلم بن قريش كي يعود إلى خراسان ، فيتدارك أوضاعها ، ويقول غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ : " وجاء للسلطان خبر من ناحية أخيه تتش ، فرأى إعادة مسلم إلى بلاده ، فأرسل إليه أبا بكر بن نظام الملك ، وكان نازلاً ، بمقابل الرحبة ، فتوثق فيه ، وعاد به إلى السلطان ، فخلع عليه وأعاده إلى أعماله ، ورجع أصفهان " .

وعندما التقى مسلم بن قريش بالسلطان ملك شاه قدم إليه مبلغاً كبيراً من المال مع كمية من الهدايا الثمينة والخيول ، ومن جملتها فرسه الخاص ، وهكذا عادت إلى مسلم أملاكه رغم الضربة القاصمة التي نزلت به ، ونجت مع نجاة مسلم الدولة المروانية من السقوط ، ولم تحقق حملة ابن جهير ما تمناه فخر الدولة وابتغاه [1] .

---

[1] ابن أبي الهيجاء : ١٣٢ ، العظيمي : ١٨٥ ظ ، المنتظم : ٩/٧-١٤ ، الكامل ط ليدن : ١٠/٨٣-٨٦-٨٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٦٩-٧١ ، زبدة الحلب : ٢/٨٤-٨٦ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٦٣-٦٤ ، ابن القلانسي : ١١٧، تاريخ الفارقي : ٢٠٦-٢١٠ ، مفرج الكروب : ١/١١-١٤ ، مرآة الزمان سويم : ٢٢٣-٢٢٩ ، البستان الجامع : ٩٢ ، المختصر في أخبار البشر : ١/٢٠٤-٢٠٥-

وعلى الرغم من التسوية التي صنعها مسلم بن قريش مع السلطان ملك شاه ورغم أنه لم يفقد شيئاً من أراضيه ، فقد كان مسلم غير قادر بسهولة على استرداد قوته والتعافي مما نزل به ، وهنا توجه مسلم مرة أخرى ببصره نحو القاهرة حيث الخلافة الفاطمية ، وسيدها وصاحب الأمر فيها بدر الجمالي .

فقام بإرسال عمه مقبل بن بدران إلى مصر رسولاً له كي يقابل بدر الجمالي ويحاول تجديد الأحلاف معه ، ويروي سبط بن الجوزي بأن مقبل بن بدران أخبر بدراً الجمالي بأنه إذا ما استلم بعض المساعدات المالية ، وإذا ما أرسل جيشاً فاطمياً إلى الشام فسيعبر مسلم الفرات ، ولن يساعد الجيش الفاطمي في أخذ الشام فحسب ، بل سيساعده في أخذ العراق والجزيرة أيضاً ، ويروي سبط بن الجوزي أيضاً ما يفيد بأن أرتق الذي كان يخشى أن يعاقبه السلطان ملك شاه بسبب ما قام به في آمد كان متورطاً منذ البداية في خطط مسلم هذه ، ولقد أمل كلاهما في توريط تتش وإدخاله في مخططاتهما ، ومفيد أن نذكر هنا بأنه قبل قيام هذه الاتصالات بين القاهرة وتتش ، وأن تتش كان سيتزوج ابنة بدر الجمالي في سنة (١٠٨٣م) [1] .

لقد جاءت تحركات مسلم هذه جد متأخرة ، وما كان بإمكان القاهرة أن تنقذه مما ألم به ، فعندما عاد مقبل بن بدر الجمالي وجماعة من أعيان الدولة الفاطمية ، وجدوا شرف الدولة مسلم بن قريش قد قتل ، وكانت قصة مقتله كالآتي :

بعد أيام من نجاة مسلم بن قريش من آمد ، تمكن سليمان بن قتلمش وهو أحد أفراد الأسرة السلجوقية الذين كانوا يعملون داخل الأراضي البيزنطية من

---

٢٠٩ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ، ١٢ ظ ، ١٣ و ، ١٦٥ ظ ، ابن كثير : ١١/١٢٤-١٢٦ ، الروضتين في أخبار الدولتين : ٥٩/١ ، ابن خلدون : ٥٧٣/٤-٥٧٥ .

[1] زبدة الحلب : ٨٤/٢-٨٥ ، مرآة الزمان سويم : ٢٢٤-٢٣٥-٢٣٦ .

احتلال " نيقية ، وهي بلد بالساحل تضاهي أنطاكية ، واستولى أيضاً على جميع ما يليها من طرسوس وآدنة ومصيصر وعين زربة " ، أي مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية التي كانت بيزنطة قد انتزعتها في منتصف القرن العاشر من سيف الدولة الحمداني بفضل جهود نقفور فوكاس ، حين صنع سليمان هذا كان قد أسس دولة سلاجقة الروم الشهيرة التي ورثتها الدولة العثمانية بعد عدة قرون ، وبعد احتلال سليمان لنيقية وما جاورها ، توجه بأنظاره نحو مدينة أنطاكية التي كانت أيضاً قد احتلها البيزنطيون في منتصف القرن العاشر الميلادي .

ويقدم لنا ابن العديم رواية مفصلة عن احتلال سليمان لأنطاكية ، جاء فيها وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة (١٠٨٤م) شرع سليمان بن قتلمش في العمل على أنطاكية والاجتهاد في أخذها إلى أن تم له ما أراد ، فأسرى من نيقية في عسكره وعبر الدروب وأوهم أن الغلاردوس الحاكم البيزنطي لأنطاكية استدعاه وأسرع السير إلى أن وصل أنطاكية ليلاً ، فقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانية جميعهم لئلا ينذروا به ، وعلقوا حبالاً في شرفات السور بالرماح ، وطلعوا فيما يلي باب فارس ، وحين صار منهم على السور جماعة نزلوا إلى باب فارس وفتحوه ، ودخل هو عسكره من الباب وأغلقوه ، وكانوا مئتي رجل ... ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصباح ، وصاح الأتراك صيحة واحدة فتوهم أهل أنطاكية أن عسكر الغلاردوس قد قاتلوهم فانهزموا وعلموا أن البلد قد هوجم ، فبعضهم هرب إلى القلعة ، وبعضهم رمى بنفسه من السور فنجا " ، وبعد أن أصبح سليمان سيد مدينة أنطاكية توارد إليه التركمان فحاصر قلعة أنطاكية قرابة الشهر ، ففتحها واتخذ سليمان أنطاكية مقراً له ، وفتح الحصون المجاورة لها بعضها عن طوع وبعدها عن استدراج ، ثم أخذ يتطلع نحو مدينة حلب للاستيلاء عليها

وضمها إلى مملكته الجديدة الناشئة [1] .

ولقد جلب استيلاء سليمان بن قتلمش على أنطاكية معه تهديداً جديداً وهائلاً لوضع مسلم بن قريش وحكمه في حلب ، فقد أخذ سليمان بعد توطيد نفسه في أنطاكية يعمل على احتلال أراضي حلب مقدمة لأخذ حلب نفسها ، ولقد انضم إليه في أنطاكية عدد من الأمراء المرداسيين مع أتباعهم ، كما جاء إليه عدد لا بأس به من عساكر مسلم لأن مسلماً كان قد أنقص أعطياتهم بعد هزيمته في آمد .

وعندما سمع مسلم بأخبار هذه المحنة الجديدة جمع بعض القوات البدوية العربية وجاء إلى حلب ، وأخذ يعد العدة للاصطدام بسليمان بن قتلمش ، فاستدعى إليه المقدم التركماني جبق ، واستأجره مع أتباعه ، وأخذ مسلم يغير على أراضي أنطاكية ، وما كان من سليمان إلا أن رد على غاراته بغارات انتقامية مماثلة على أراضي حلب ، ولقد تضرر أهالي قرى حلب وفلاحوها كثيراً من هذه الغارلات ، فاحتجوا إلى سليمان على أعماله ضدهم ، فأجابهم بأنه ليس من خلقه نهب المسلمين ، ولكن مسلم بن قريش أكرهه على ذلك ، وعلى الطرف الآخر علل مسلم بن قريش غاراته على أنطاكية مما جعل أسبابها عدم تلبية سليمان بن قتلمش لمطالبه ، فقد كان مسلم يتقاضى من البيزنطيين أصحابل أنطاكية مبلغاً من المال جزية سنوية ، وقطع فتح لسليمان لأنطاكية هذا المبلغ عنه ، وطالب مسلم الآن سليمان بدفع ما كان البيزنطيون يدفعوه ، " فلم يجبه إلى ذلك وقال : تلك

---

[1] العظيمي : ١٨٣ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٢ ، ابن القلانسي : ١٧ ، مرآة الزمان سويم : ٢٢٩-٢٤٣ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٦٣، زبدة الحلب : ٨٦/٢-٨٨ ، الكامل : ١٣٦/٨ ، مفرج الكروب : ١٤/١ ، المختصر في أخبار البشر : ٢٠٥/١ ، التاريخ المنصوري : ٧٥ ظ ، ابن كثير : ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة : ٢٤/٥ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ، ١٣و .

جـزية كـانت على الروم لتمسك عن جهادهم ، وقد قمت أنا بفريضة الجهاد ، وصارت أنطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها إليك جزية ؟ .

ونصـح مسلم أن يتجنب الحرب مع سليمان الذي لم تكن له علاقات طيبة مـع السـلطان ملك شاه ، وقيل له : إن الأفضل التصالح معه والتحالف ، لكن مسـلماً ركب رأسه فرفض ما أسري إليه من نصائح وقرر أن يهاجم أنطاكية في سـبيل انـتزاعها مـن سـليمان ، لذا قاد جيشه الذي شكله ، وكان فيه قرابة (٦٠٠٠) مقـاتل ، قاده نحو أنطاكية ، وعلى الطريق اعترضه سليمان بن قتلمش قـرب عفـرين ، وفي ظهـيرة يوم (السبت ٢٤ صفر ٤٧٨ هـ / ٢١ حزيران ١٠٨٥م) اشـتبكت قوات سليمان بقوات مسلم فانتصرت عليها ، لأن الشمس كـانت في وجوه أصحاب مسلم ، ولأن قوات جبق الغزية تخلت في بدء المعركة عن مسلم ، وانضمت إلى جيش سليمان ، ولأن أصحاب مسلم وأتباعه من عقيل وغيرهـا مـن القبائل هربوا من ساح المعركة وتركوا مسلماً يعاني مصيره ، ولم يصـمد مع مسلم سوى أحداث حلب ، وكانوا ستمائة ، وحاول الانسحاب إلى حـلب ، وجهـد الأحداث في تغطية انسحابه ، فسقط منهم أربعمائة ، وأخفق مسلم بن قريش في تأمين النجاة لنفسه وتلقى ضربة أفقدته حياته [1] .

ولقـد أنهى مقتل مسلم بن قريش جميع المشاريع التي خطط لها ، كما أنهى الفترة التي كان المتصارعون فيها للسيادة على الشام هم البدو العرب من جهـة ،

---

[1] العظـيمي : ١٨٥ ظ ، إبـن أبي الهـيجاء : ١٣٢ ، ابـن العميد : ٥٦٨-٥٦٩ ، الكامل ط ليدن : ١٠/٩٠-٩١ ، السـاهر : ٧ ، زبدة الحلب : ٢/٨٨-٩٢ ، مرآة الزمان سويم : ٢٢٩-٢٣٠ ، مفرج الكروب : ١/١١٥ ، ابن أبي الدم : ١٣٥ ، البستان الجامع : ٩٢ ، المختصر في أخبار البشر : ١٠/٢٠٥ تـاريخ الإسـلام للذهبي : ٥٠ or ، ١٣ ظ- ١٦٥ ظ ، ابن خلدون : ٤/٥٧٥-٥٧٦ ، ابن كثير : ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة : ٥/١١٩ .

والبدو التركمان من الجهة الثانية .

ولقـد أصبح الصـراع من الآن فصاعداً من أجل السيادة على الشام بين التركمان أنفسهم إذ إن القبائل العربية قد أزيحت عن مسرح الأحداث المؤثرة ، ولم يعد لها شأن يذكر في أحداث التغييرات السياسية في الشام .

وكـان مسـلم بن قريش قد جاء لأخذ حلب ـ كما مر معنا ـ بعد أن استدعاه أحداث المدينة ، وقد تمكن من أخذها بعد أن فتحوا لـه بواباتها عندما وصـل إليهـا ، ولقـد كان مَقْدَم مُقَدَّم أحداث حلب خلال هذه الحقبة ، هو الشـريف حسن بن هبة الله الحتيتي ، ولقد غدا الحتيتي زمن مسلم الحاكم الفعلي لمديـنة حـلب ، ولقد تضاعفت قوة أحداث حلب خلال هذه الفترة ، ويكفي برهاناً على مدى ضخامة الأحداث وقوتهم أن (٦٠٠) منهم كانوا في جيش مسلم بـن قريش أثناء قتاله ضد سليمان بن قتلمش ، ولقد شارك الحتيتي في إدارة حلب سـالم بن مالك بن عم مسلم ، وكان مسلم قد عينه حاكماً لقلعة حلب ، ومهما يكن الحال فلقد أصبح مصير حلب بعد مقتل مسلم بين يدي الحتيتي وأحداثه .

وحمـل سليمان بن قتلمش جثة مسلم بن قريش وأتى بها فطرحها أمام سور حـلب ، وكـان يأمل بأن تسلم المدينة له ، لكن الحتيتي قام أثناء الحصار بمراسلة السـلطان مـلك شـاه فأعـلمه بمصـرع مسلم بن قريش ودعاهم للقدوم إلى حلب ليتسلمها .

ولمـا لم يكن للحتيتي سيطرة على قلعة حلب وكان بحاجة إلى موقع حصين يـتخذه مركزاً له فقد قام ببناء قلعة لنفسه وأحداثه داخل المدينة ، ولا يزال موقع هـذه القـلعة معروفاً ، فأحد أحياء حلب الواقعة في جنوب القلعة الكبيرة يعرف الآن باسـم (قلعة الشريف) ، واتخذ الحتيتي من قلعته الجديدة مقراً لحكومته وثكنة

لأحداثه ، وهكذا أديرت حلب إدارة شبه شعبية ، ووجد فيها نوع من أنواع الجمهوريات .

ولم يركز سليمان كل جهوده على حصار حلب ، لأنه أدرك أن الأمر سيطول ، لذل قام بترميم ـ أو بالأحرى بإعادة بناء ـ قطعة من مدينة قنسرين المجاورة لحلب ، وجعل مقر قيادة قواته فيها ، وأخذ يعمل على احتلال أراضي بلدان إمارة حلب الجنوبية فاستولى على معرة النعمان وكفر طاب ولطمين ، واستمر في الوقت نفسه في محاصرته لحلب ، وإن كان حصاراً جزئياً .

وفي خراسان استجاب السلطان ملك شاه لدعوة الشريف الحتيتي ، وتحرك على رأس قوات كبيرة غرباً نحو حلب ، ولكن تحركه كان بطيئاً ، مما أعطى الفرصة لسليمان بن قتلمش للتضييق أكثر على حلب ، وهنا وجد الحتيتي نفسه مكرهاً على التوجه بنظره نحو دمشق حيث كان تتش ، فاستدعاه ليسلمه مدينة حلب .

لم يكن تتش ينتظر أكثر من مثل هذه الدعوة ، وكان عنده حين وصول هذه الدعوة إليه أرتق من أتباعه ، لهذا تحرك تتش وأرتق وأتباعهما من التركمان شمالاً يريدون مدينة حلب ، وكان ذلك في (محرم سنة ٤٧٩ هـ نيسان ١٠٨٥م) ، وقبل أن يصل تتش وقواته إلى حلب اعترضه سليمان بن قتلمش مع قواته ، والتحم الجيشان السلجوقيان في معركة تمخضت عن نصر تتش ومقتل سليمان بن قتلمش وهزيمة قواته ، ولقد كانت هذه المعركة التي وقعت بعد قرابة سنة من مقتل مسلم بن قريش [1] أول معركة اقتتل فيها جيشان سلجوقيان من

---

[1] العظيمي : ١٨٥ ظ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٣و ، ابن العميد : ٥٦٩-٥٧١ ، الكامل : ١٠/٨٦-٩٧ ، الباهر : ٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٩٧و١٩٨ ظ ، زبدة الحلب : ٢/٩٤-٩٨ ، مرآة الزمان سويم : ٢٣٦-٢٣٩ ، ابن أبي الدم : ١٣٥ ، ومفرج الكروب : ١/١٥-١٦ ، البستان الجامع ، ٩٢ه

أجــل السيادة على إحدى مناطق الشام ، ومن هنا تأتي أهميتها ذلك أنها افتتحت فترة جديدة في تاريخ الشام والتاريخ السلجوقي ، وسببت وضع حلب لأول مرة في تاريخهـــا تحت حكم السلاجقة المباشر ، وبذلك خلص معظم الشام للسلاجقة وبات بإمكانهم تطويق الجزيرة والإجهاز على ما بقي فيها من قوة .

إن ســقوط الشـــام ووقوعها تحت الحكم السلجوقي المباشر حدث في غاية الخطورة ، وذلك لما جلبه معه من تغييرات هائلة في ميادين الحياة السياسية والدينية والاجــتماعية.وأيضـــاً العرقية ، تغيرات تأثر بها جميع السكان في بلاد الشام على مختلف طبقاتهم واختلاف أنماطهم في الحياة وتعدد عقائدهم .

وبعد أن انتصر تتش على سليمان بن قتلمش ، تحرك نحو حلب آملاً بأن يجد بواباتها مفتوحة ، والناس قد خرجوا من المدينة لاستقباله والترحيب بهـ ، ولكن شــيئاً من هذا لم يحصل ، فعندما وصل تتش حلب وجد الأبواب مغلقة والأسوار محروسة من قبل الحتيتي وأحداثه ، وعندما استوضح تتش أسباب هذه المعاملة جاءه الجواب بأن ركب السلطان قريب الدنو من حلب ، وأنه بعث يحظر تسليمها لأي إنسان سواه ، ولم يقنع تتش بهذا الجواب ، لذلك أمر قواته بأن تحاصر المدينة حتى تسقط ، وفي (٢٦ ربيع الأول ٤٧٩ هـــ / ١١ تموز ١٠٨٦م) قامت جماعة من تجار حلب وأتباعهم ممن كانوا يكرهون الحتيتي ويناصبونه العداء لما سببه من ضرر لمصـــالحهم ، قـــام هؤلاء بفتح إحدى بوابات حلب ، فمكنوا تتش وجيشه من دخولها والاستيلاء عليها .

لقد كان حصار تتش لحلب هذه المرة أقصر حصار حاصرها بـــه ، لكـــن

= المختصر في أخبار البشر : ١/٢٠٦-٢٠٧ ، الدرة المضيئة : ٤٢٣ ، النجم الزاهرة : ٥/١٢٤ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ، ١٤ ظ ، ابن كثير : ١١/١٣٠ ، ابن خلدون : ٤/٥٨٩ .

دخوله إلى المدينة لم يعن أبداً أنه أصبح سيدها ، فقد كانت هناك قلعة الشريف حيث تمركز الحتيتي والأحداث ، وذلك بالإضافة إلى القلعة الكبيرة ، إذ أعلن سالم بن مالك بأنه لن يسلمها إلا للسلطان نفسه ، لأن مسلم بن قريش كان قد أوصاه بذلك ، واستطاع تتش بعد أيام من دخوله حلب تسلم قلعة الشريف ، وألقى القبض على الحتيتي ونفاه إلى القدس ، إذ لم يسمح له بمغادرتها والعودة إلى حلب وبعد استسلام قلعة الشريف صرف تتش جهوده كلها لحصار القلعة الكبيرة ، ودام الحصار قرابة الشهر ، وأثناء ذلك وصلت إلى أطراف حلب طلائع قوات ملك شاه ، ولهذا آثر تتش أن لا يصطدم مع أخيه ، وأن لا يلتقي به بأي حال من الأحوال ، لذلك جمع قواته وانسحب على رأسها عائداً إلى دمشق [١] .

ووصلت إلى حلب فرقة كبيرة من قوات ملك شاه ، قبل أن يصل السلطان نفسه ، وكان على رأس هذه الفرقة عدد من المقدمين ، منهم برسق وإياز وبوزان وفي اليوم الثالث من كانون الأول لسنة ١٠٨٦م وصل ملك شاه إلى مدينة حلب فتسلنمها ، وتسلم قلعتها الكبيرة من سالم بن مالك ، ولقد عوضه عنها قلعة جعبر إذ أعطاه إياها إقطاعاً ، وفي الوقت نفسه منح ابن عمته محمد بن مسلم بن قريش الرحبة والرقة وحران وسروج والخابور إقطاعاً أيضاً ، وحين صنع السلطان ملك شاه هذا أحيا ــ ولو جزئياً مملكة مسلم بن قريش [٢] .

---

[1] ابن أبي الهيجاء : ١٣٣و ، ابن العميد : ٥٧٠-٥٧١ ، الكامل ط ليدن : ٩٦/١٠-٩٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٩٧٩/٧ ظ ، ٩٨ ظ ، زبدة الحلب : ٩٨/٢-٩٩ ، مرآة الزمان : ٢٣٩ ، مفرج الكروب : ١٦/١-١٧ ، المختصر في أخبار البشر : ٢٠٧/١ ، ابن خلدون : ٥٨٩/٤ .

[2] الكامل ط ليدن : ١٠٥/١٠ ، الباهر : ٨ ، العظيمي : ١٨٦ ظ ، زبدة الحلب : ١٠٠/٢-١٠١ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٩٨/٧ و ظ ، مفرج الكروب : ١٨/١ ، المختصر في أخبار البشر : ٢٠٧/١-٢٠٨ ، تاريخ الإسلام للذهبي ٥٠ or ، ١٥ ظ ، ابن خلدون : ٥٩٠/٤ ، ابن كثير ١٣١/١١ ، البستان الجامع : ٩٢ و .

ولقد أمضى السلطان ملك شاه عدة أيام في حلب ثم ذهب إلى أنطاكية فتسلمها ، وبقي فيها بضعة أيام ، وقبل عودته إلى حلب عين أحد ضباطه واسمه يغي سيان حاكماً على أنطاكية .

وفي حلب قضى ملك شاه فترة عيد الفطر لسنة (١٧٩ هـ / كانون الثاني ١٠٨٧م) ثم غادرها متوجهاً شؤرقاً نحو خراسان .

وقبل أن يغادر ملك شاه مدينة حلب جاءته رسالة من نصر ابن علي أمير شيزر يعترف فيها بالطاعة للسلطان ، ويتنازل له عن اللاذقية وآفاميا وكفر طاب وخلف ملك شاه وراءه آق سنقر قسيم الدولة والياً على حلب يساعده تركي اسمه نوح في ولاية القلعة ، وترك عند قسيم الدولة حامية مؤلفة من (٤٠٠٠) فارس ، وفي طريقه إلى خراسان عين ملك شاه بوزان حاكماً على مدينة الرها [٢].

لقد كانت حملة ملك شاه هذه ثاني حملة كبيرة يقودها أحد سلاطنة السلاجقة حتى حلب .

لقد سارت هذه الحملة على الطريق نفسه الذي سلكته حملة آلب أرسلان من قبل ، إنما حققت مالم تحققه تلك الحملة ، فقد وصلت الإمبراطورية السلجوقية إلى ذروتها في الاتساع ، فقد استطاع ملك شاه أخذ الرها ، وحلب وأنطاكية ، وذلك أمر أخفق أبوه في تحقيقه .

وفي الحقيقة لقد كانت حملات آلب أرسلان ثم حملة ابن جهير وحملة ملك

---

(2) العظيمي : ١٨٦ ظ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٣ ، الكامل ط ليدن : ١/٩٨-١٠٧ ، الباهر : ٨ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٣/٢٦٧ ظ ٢٦٨ ظ ٢٧٢ و ، زبدة الحلب : ٢/١٠١-١٠٢ ، مرآة الزمان سويم : ٢٤٠-٢٤١ ، مفرج الكروب : ١/١٨-١٩ ، تاريخ الإسلام للذهبي : or ٥٠ ، ١٤ ظ ، ١٠ ابن أبي الدم : ١٣٦ ظ ، البستان الجامع : ٩٢ و ، التاريخ المنصوري : ٧٥ و ، المختصر في أخبار البشر: ١/٢٠٧ ، ابن كثير : ١١/١٣٠-١٣١ ، ابن خلدون : ٤/٥٩٠ ، الروضتين : ١/٦١ .

شاه هذه أكثر من حملات عسكرية ، لقد كانت حلقات من حلقة تدفق التركمان علـى بـلاد الشام والجزيرة ، فحملة آلب أرسلان جلبت إلى الشام أتسز وتتش وأفشـين مـع أتباعهم ، للدخول إلى الشام ومع حملة ملك شاه الأخيرة أصبحت الشـام إلى حـد ما الجزيرة ، أجزاء من الإمبراطورية السلجوقية الواسعة ، وقد افتـتحت هـذه الحملة عهداً جديداً في تاريخ الشام والجزيرة ، وهو عهد الحكم السلجوقي المباشر ، وسيكون هذا العهد موضوع فصلنا المقبل .



الفصل السادس

بلاد الشام والجزيرة
تحت الحكم السلجوقي المباشر

Damascus University



إن ما نملكه من معلومات عن حكم تتش في دمشق قليل ولا يفي بالغرض ، ذلك أن ما جاء من معلومات في مصادرنا المعروفة ، ولا سيما تاريخ دمشق لابن القلانسي ، تتناول العلاقات الخارجية لتتش مع أعماله التوسعية . ولا تتحدث عن طبيعة حكمه ، ولا عن علاقاته بالدمشقيين ، وهي لا تبين كيف صارت أحوال هذه المدينة في زمنه بعدما حل بها ما حل على يد أتسز .

هذا ولم تصلنا ترجمة مطولة لتتش ، فترجمته عند ابن عساكر قصيرة وغير كافية ، ثم إن المجلد الذي يحوي حرف الثاء من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، يعد في حكم المفقود ، يضاف إلى هذا أنه ما من أحد من المؤرخين — في حدود معرفتي — قام بموقف مؤلف خاص عن حكم تتش وأسرته في بلاد الشام .

إن أهم ما في حكم تتش هو علاقته بآق سنقر قسيم الدولة ، الذي خلفه السلطان ملكشاه وراءه والياً على حلب ، وفي إطار هذه العلاقة تدخل أعمال تتش التوسعية ثم مساعيه لنيل السلطنة ، ومن حسن الحظ أن ما وصلنا من كتاب بغية الطلب يحوي ترجمة جيدة لآق سنقر ، ومن هذه الترجمة التي نشرت مع ملاحق هذه الدراسة التي تنتشر لأول مرة ، ثم مما جاء في مصادرنا من معلومات ، وهي كمية لا بأس بها ، لأن آق سنقر كان أباً لزنكي مؤسس الدولة الأتابكية وجداً لنور الدين الشهيد بطل الحروب الصليبية الحقيقي ، يمكننا أن نكوّن صورة مفيدة وشبه وافية عن حكم آق سنقر في حلب ، من ثمّ عن علاقته بتتش .

لقد دام حكم آق سنقر في حلب ما يقارب سبع سنوات ، وكانت فترة

الحكـــم هذه فترة هامة في تاريخ حلب وشمال بلاد الشام ، لأنها أحدثت تغييرات أساســية شملت كل جوانب الحياة ، ونحن نجد أن لآق سنقر في روايات المؤرخين الذيـــن تحدثـــوا عن هذه الفترة واضح الشخصية بارزاً وراء كل حدث ، ممدوحاً مدحاً كبيراً ، لا لأنه كان والد زنكي ، وجد نور الدين محمود ، بل لأنه " أحسن فيهـــا (حـــلب) السياسة والسيرة ، وأقام الهيبة ، وجمع الزعار وأفنى قطاع الطرق ومخيفي السبيل ، فشكر بذلك الفعل ، وأمنت الطرق والمسالك ، وسار الناس في كـــل وجه بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار . وعمرت حلب في أيامه بســـبب ذلك بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات ، ورغب الناس في المقـــام بها للعدل الذي أظهره فيهم ، ورخصت الأسعار في أيامه الرخص الزائد ، وقـــرب الحلـــبيين وأحبهم الحب المفرط ، وأحبوه أضعاف ذلك ، وأقام الحدود وأحيـــا أحكـــام الإسلام وعمر الأطراف ، وآمن السبل وقتل قطاع الطرقات ، وطلـــبهم في كـــل فج ، وشنق منهم خلقاً ، وكان قد كلما سمع بقاطع طريق في موضـــع قصـــده وأخذه وصلبه على أبواب المدينة ، وكثرت في أيامه الأمطار ، وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب من الجميل بما أحوجهم أن يتوارثوا الـــرحمة عليه إلى آخر الدهر " وفي أيامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنـــتين وثمانين ١٠٨٩م واسمه منقوش عليها إلى اليوم ، وهو الذي أمر ببناء مشهد قرنبيا ووقف عليه الوقف ، وأمر بتجديد مشهد الدكة " [١] .

لقـــد كـــان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لحلب ، أخذ فعلياً مكان أميرها العربي ، وفي حين أننا نجد أن نفوذ آق سنقر وسيطرته ينفذان نفاذاً عميقاً في كل

---

[١] ابـــن القلانسي : ١١٩ ، الكامل ط ليدن : ١٠/١٠٧ ، الباهر : ٨ ، زبدة الحلب : ٢/١٠٢-١٠٣ ، بغيـــة الطـــلب أحمد الثالث : ٣/٢٦٧ ظ ، ٢٧٢ ظ ، مفرج الكروب : ١/١٩ ، مرآة الزمان سويم : ٢٤٤ .

جـــانب مـــن جوانب الحياة في شمال بلاد الشام ، نجد أن سلفه الأميرالعربي كان يعيـــش في قـــلعة حلب شبه منعزل عن مباشرة الحكم بنفسه ، ولم يكن ليهتم إلا بســـلامة حكمـــه وجمع الضرائب ولذة العيش ، ولهذا أثر الأمراء البدو قليلاً في الحلبيين . وفي الواقع كانت حلب تدار من قبل رجالات المدينة ، فالأمير البدوي يهـــتم عادة بحماية قبيلته من الخطر الخارجي ، وليس من شأنه التدخل في الشؤون الفـــردية والخاصـــة بأفراد القبيلتة ، وعلى عكس هذا تماماً ، كان آق سنقر الذي فـــرض نفســـه على كل أمر وتدخل في كل قضية ، وصرف اهتمامه إلى شؤون الإمارة من صغيرة وكبيرة ، وأشرف بذاته على تنفيذ كل أمر ، ولم يتساهل حتى مـــع الحيوانات في مخالفة أوامره ، وأخذ بفكرة المسؤولية العامة ، كما طبق مبدأ العقوبة الجماعية .

يـــروي ابـــن العديم بأن آق سنقر : " كان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عنهم أحدهم قفل ، أو أحد الناس ، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأمـــوال مـــن قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم ونـــاموا ، وقـــام أهل القرية يحرسوهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته " ، ونادى آق سنقر " في بلد حلب لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده ... فخرج يوماً يتصيد فمرّ على قرية مـــن قرى حلب فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله إلى القرية ، فقال له : ألم تسمع مناداة قسيم الدولة ، بأن لا يرفع أحد متاعاً ولا شيئاً من موضعه ؟ فقال لـــه : حفظ الله قسيم الدولة قد أمنا في أيامه وما نرفع هذه الآلة خوفاً عليها أن تسرق ، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي إلى النير فتأكل الجلد الذي عليه ، فنحن نحفظه منها ونرفعه لذلك .

فعــاد قســيم الدولة من الصيد ، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في بلد حلب ، فصادوها حتى أفنوها من بلد حلب ، قلت (أي ابن العديم) وهي إلى الآن (القرن السابع الهجري / الثاني عشر الميلادي) لا يوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد [1] .

لقد كان آق سنقر يتصرف في حكمه تصرف حاكم مطلق له مبادئه الخاصة ومفاهــيمه الذاتية ، ولا غرابة في هذا ، فهو قد نشأ وتدرب في البلاط السلجوقي في إيــران ، وفي هــذا البلاط تكونت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة ، ولقد كــانت تقاليد هذا البلاط " أوتوقراطية " لقد نبعت من أصول تركية ، وتأثرت تأثــراً شــديداً بتقاليد إيران المسلمة ، ولقد جاء تطبيق هذه المبادئ في شمال بلاد الشــام لأول مرة بتجربة جديدة خطيرة على أناس اعتادوا منذ قرون عديدة على طرائق البدو العرب في الحكم ، وعلى مبادئهم في السياسة والإدارة .

ففــي أثناء فترات الحكم العربي سبقت هذه التجربة الجديدة ، اعتمد الأمير البدوي على رجال عشيرته اعتماداً رئيسياً وتأثر بهم ، لذلك كانت دولته بدوية ، ولقد بقيت هكذا دونما تغيير ، لأن فترة الحكم المرداسي مثلها مثل الفترة الحمدانية الــتي سبقتها كانت متقطعة لم يتح فيها السبيل ، ولم تقم بها الفرصة لإحداث أي تغيير مؤثر ، ولقد كان شيوخ العشيرة في الفترة البدويــة العربيــة المرداسيــة ، هــم الشخصــيات البارزة في الدولة ، وشغلت هذه الشخصيات مراكزاً سياسية هامــة في حيــاة الإمارة وطبعوها بطبائعهم وعاداتهم ، ولقد وصل فضل شيوخ القبائل مع أتباعهم عدم النظام ، وآثروا الفوضى ، وكان لهم اعتباراتهم ومقاييسهم الخاصــة فيما يختص بمسألة الإخلاص السياسي ، وذلك بأن تأرجحوا بين الفئات

---

[1] بغية الطلب أحمد الثالث : ٣/٢٦٨ و ظ ؛ زبدة الحلب : ٢/١٠٤-١٠٥ .

المتصارعة ، وأحبوا الفتنة وكرهوا الأمن والمركزية والاستقرار والديمومة . ولقد مكن هذا الوضع فئات كثيرة داخلية وخارجية من التجمع وإنشاء المنظمات ثم ممارسة النفوذ والمشاركة في تقرير الأمور ، كما أن هذا قد ترك الباب دائماً مفتوحاً على مصراعيه أمام أية جماعة أجنبية لها بعض القوة والتنظيم ، حتى تتغلغل ثم تستلب بعد ذلك الحكم والسيادة لنفسها ، كما فعل التركمان ، ولقد مر بنا خبر هذا كله .

على الرغم مما تميزت به فترة الحكم العربي من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي ، لقد كانت هذه الفترة خصبة من الناحية الفكرية والحضارية ، ففيها عاش العربي ونظم شعره ، وبشر بفلسفته ومبادئه الخاصة ، وفيها وجد ابن سنان الخفاجي وابن أبي حصينة وابن حيوس وغيرهم من الشعراء العظام ، ومع الحرية السياسية والفكرية ، وجدت أيضاً الحرية الدينية ، إذ مارس الناس معتقداقم دونما ملاحقة أو تنكيل .

ويعتمد كل حكم (أوتوقراطي) على قوات محترفة (أو شبه محترفة) ، وهكذا لقد كان حكم آق سنقر وحكم غيره من التركمان في الشام حكماً عسكرياً ، فآق سنقر كان أحد ضباط جيش السلطان ملك شاه ، ومثله كان يغي سيغان صاحب أنطاكية وبوزان صاحب الرها ، فبعدما عُين السلطان ملك شاه آق سنقر حاكماً على حلب ترك عنده قوة عسكرية مؤلفة من (٤٠٠٠) فارس ، ثم لما كان حكم آق سنقر قد خلف الحكم البدوي العربي فإن الفراغ الذي تركه شيوخ القبيلة البدوية قد ملأه ضباط الحامية العسكرية ، وهكذا أصبح الضباط الشخصيات المرموقة في البلاد ، وبذلك نشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الضباط ، ولقد نمت هذه الطبقة واضطردت قوتها وتطورت بسرعة مذهلة ، حتى

Damascus University

غـدا الضـباط رجال الجماعة الذين يملكون القدرة على إحداث التغيير السياسي وأيضاً غير السياسي . ومع ظهور كل ضابط طموح ظهر شيء جديد لم يكن في الغالب أقل من أسرة حاكمة جديدة ، ويكفي دليلاً على هذا أن نتذكر أن زنكي مؤسس الدولة الأتابكية ثم صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية كانا ضابطين .

ومن طبائع الحكم (الأوتوقراطي) الاستبداد المقرون بالأبهة والعظمة ، وعلى هـذا الأساس نجد أن جماعة الأحداث في حلب أخذوا يفتقدون قوتهم وسيطرتهم التقـليدية مع قيام الفتح السلجوقي وتوطد حكم آق سنقر في شمال بلاد الشام ، ولقـد جاء المؤرخ الحلبي أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سـنة (ثمـانين وأربعمائة للهجرة / ١٠٨٧م) قوله : " فيها استقرت الرتبة بحلب للأمـير قسيم الدولة آق سنقر من قبل السلطان العادل ، أي الفتح ، وتوطدت له الأمـور بها ، وأقام الهيبة العظيمة ، التي لا يقدر عليها أحد من السلاطين ، وأظهر فيهـا مـن العـدل والإنصاف مع تلك الهيبة ما يطول شرحه " . وإقامة " الهيبة العظـيمة " لا يـتم بدون قوات مسلحة والاحتفاظ بالعساكر يكلف الكثير من الأمـوال ، والأموال في العادى تأتي من جيوب المحكومين ، ومن ثمّ فهذا يعني أن الحكم السلجوقي الجديد قد جلب معه إلى الشام زيادة في الاعباء المالية ، وليتصور المرء حالة بلد عانى من التهديم والسلب والنهب سنين طويلة ، ثم عندما استقرت فيه الأمور ، ابتلى بحكم (أوتوقراطي) عسكري مبتز ، وبعد هذا كان عليه والحالة هذه أن يتصدى لغزو خارجي جديد .

جـاء عن محمد بن عبد الملك الهمداني مؤرخ القرن الثاني عشر الميلادي في كتابه عنوان السير في محاسن أهل البدو والحضر في ثنايا حديثه عن حكم آق سنقر قسـيم الدولـة في حلب قوله : " واستغلها يعني مدينة حلب فقط كل يوم ألف

وخمسمائة دينار ، وفي سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١م) وصل السلطان ملك شاه إلى بغداد ، ووصل إليه أخوه تتش وقسيم الدولة آق سنقر وغيرهما من حكام الإمبراطورية ، وفي بغداد تم إجراء بعض الاحتفالات الكبيرة التي تخللها عرض للعساكر والمواكب ، ولقد كان موكب آق سنقر قسيم الدولة من العظمة بمكان إذ (لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه) [1] .

ومن العادة أن يتصنع الحاكم الأوتوقراطي التقوى ويتظاهر بالاهتمام بمصالح (رعيته) ومنافعهم ، ويحرص على أن يبدو مهتماً بالأمن كارهاً للظلم ، وأن كل حركة من حركاته وسكناته فيها عدل وتقوى وصلاح ونزاهة نابعة من القلب ، ولها الكثير من الصفات القدسية الربانية ، وعلى هذا يبدو كل حاكم أوتوقراطي وعليه مظاهر التعقل والاعتدال ، ولهذا يحارب كل تطرف ، ويقف في وجه كل النزاعات والبدع الجديدة مهما كان نوعها وهدفها ، فالبدعة هرطقة وعليه أن يحارب كل هرطقة . ولقد مر بنا أن آق سنقر جدد في أيامه عمارة منارة حلب بالجامع . كما أمر ببناء عدد من المشاهد الجديدة مع ترميم بعض المشاهد القديمة ، رغم أن هذه القديمة كانت مشاهد شيعية ، وكان سنياً من أهدافه إقامة الحدود الشرعية ، وإعادة حكم السنة ، ولكن لما كانت غالبية أهل حلب شيعة اثني عشرية ، فلقد تقرب إليهم بترميم بعض أماكنهم المقدسة ، ذلك أن مقتضيات السياسة هي فوق كل اعتبار .

وعندما يظهر الحاكم الأوتوقراطي التدين ، فإن ذلك يستلزمه تقريب المتدينين منه والاعتماد عليهم ، ولقد كان الأمير البدوي العربي يقرب الناس إليه

---

(1) الكامل ط ليدن : ١٣٣/١٠-١٣٤ ، الباهر : ٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٧٥ ، مفرج الكروب : ١ /١٩ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٢٦٧/٣ ظ ٢٧٢ ظ .

لإبداعهم وتفوقهم في فن من الفنون ، لا لتقواهم وتدينهم ، لذلك كانت حاشية الأمـير المرداسي ومن قبله حاشية الأمير الحمداني فيها من الناس كل نموذج ، مما أعطاها صفة الحياة المتدفقة والشمول والحضارة المبدعة ، لكن عندما أخذ الحاكم المطلق يقرب المتدينين إليه اضطر إلى إضفاء صفة محددة على الدولة ، وهذه الصفة غالباً لم تتعد التزمت والجمود ، ثم إن في عملية تقريب فئة ـــ في العادة ـــ إضراراً بالفئات الأخرى ، ولقد كان لذلك نتائجه غير المحمودة على الحضارة ، ثم لم يكن لذلــك نــتائج حميدة على الدين نفسه ، لأن العملية تمت حسب أهواء السياسة ومقتضــياتها ، ومهمــا يكن الحال فإن تقريب رجال الدين من الحاكم قد خلق تدريجيــاً طبقة جديدة في المجتمع وفي الإسلام ؛ ألا وهي طبقة (الكهنوت) وهذا أمر جديد وخطير في تاريخ الإسلام ، لطالما حرص هذا الدين منذ بدايته على تجنبه ولكــن الــذي حدث أن طبقة من رجال الدين المحترفين قد وجدت وتطورت ، وأصــبحت لها مكانتها ونفوذها ومصالحها الخاصة ، حتى إنه مرّ وقت أصبحت هــذه الطبقة تضم فيه عدداً من الأسر يرث فيها الوالد وظيفة أبيه ومنصبه ، مثلما كان الإقطاعي وسليل الأسرة النبيلة يرث ويورث ، وفي غالب هذه الأحيان قامت هــذه الطبقة بإعطاء تفسيرات للدين تتماشى ومصالحها ومنافعها ، ولقد جمد هذا الدين ، وخلق فراغاً غالباً ما أشغل من قِبل أصحاب الأهواء ، ونادراً من قِبل ثوار حقيقيين أرادوا أن يرجعوا للإسلام روحه وحيويته وأهدافه الحقة .

وفي تاريخ بلاد الشام كان هناك تنافس بصورة دائمة ، أو بالأحرى صراع مــن أجــل السيادة بين الشمال والجنوب ، ولقد مثلت دمشق منذ القرن السابع الميــلادي الجــنوب ، كما مثلت حلب في الشمال في هذا الصراع ، ولقد كانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية ، لكن غالباً

مـــا كانت سياسية ، إذ حاول حكام دمشق من طرفهم وحكام حلب من الطرف الآخـــر مد سيطرتهم مداً كاملاً على الشام ، ومما يدهش أن الشام نادراً ما عرفت الوحـــدة السياســـية لفترة طويلة ، بل تعودت على التمزق والدويلات وتبعاً لهذه القـــاعدة المؤسفة ، حدث صراع بين تتش وآق سنقر ، وسنجد تتش ينتصر على آق سنقر ويقتله ، ومن ثم يوحد شمال بلاد الشام مع جنوبه ، لكن تتش لن يلبث طويلاً فإنه يقتل فيرثه في حلب ابنه الأكبر رضوان ، وفي دمشق ولده الآخر دقاق ومن جديد يبدأ الصراع بين دمشق وحلب ، وفي غمرة الصراع هذا تصل الحملة الصليبية الأولى إلى الشام .

لقـــد جهد تتش منذ أن أصبح حاكم دمشق في العمل على مد سلطانه على بلاد الشام وبخاصة المدن الساحلية ، التي كانت تدين بالطاعة للخلافة الفاطمية ، أو تحكـــم مـــن قبلها مباشرة ، ويروي سبط بن جوزي بأن تتش طلب في سنة (٤٨٠ هــــ / ١٠٩١م) من أخيه السلطان ملك شاه أن يمده بما يمكنه من طرد الفـــاطميين مـــن الشـــام ، واحتلال بلدان الساحل الشامي ، وإخضاعها للحكم السلجوقي ، وبأن السلطان استجاب لنداء تتش هذا ، فأوعز إلى قسيم الدولة آق ســـنقر والي حـــلب ، وإلى بوزان صاحب الرها بأن يقدما إلى تتش كل ما كان يحتاجه من مساعدات [1] .

ويبدو أنه لم تنفذ أوامر السلطان هذه ، فلم يذهب بوزان ولا آق سنقر إلى مســـاعدة تـــتش ، كمـــا أن تتش لم يقم بأي عمل عسكري ملحوظ ضد بلدان الساحل ، لكن جيشاً فاطمياً وصل في سنة (٤٨٢ هـــ / ١٠٨٩م) إلى الساحل

---

(1) مـــرآة الزمان سويم : ٢٤٤ ، الكامل ط ليدن : ٧٨/١٠-٩٤ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٢٦٧/٣ ظ ٢٧٢ ظ ، ابـــن أبي الدم : ١٣٤ و ١٣٦ ظ ، مفرج الكروب : ١٩/١ ، التاريخ المنصوري : ٧٥ و ، النجوم الزاهرة : ١١٣-١١٦-١٢٥ .

الشامي ، وتمكن من أخذ صيدا وصور وجبيل وعكا ، ثم قام بحصار بعلبك، وأثناء الحصار وصل إلى المعسكر الفاطمي خلف بن ملاعب صاحب حمص وآفامية ، حيث قابل قائد القوات الفاطمية واعترف له رسمياً بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه . لقد استولت الحملة الفاطمية أثناء وجودها في الشام على بعض أراضي تتش [1] . ونتيجة لهذا كرر تتش نداءه لطلب المساعدة ، وهنا أمر السلطان ولاته في الشام بالتحرك لمساعدة تتش ، وأن يتوحدوا معه للقيام بعمل تأديبي ضد خلف بن ملاعب صاحب حمص ، ولكي يقوموا بمحاولة الاستيلاء على جميع أملاك الفاطميين في الشام .

ويبدو أن السلطان ملك شاه قد عهد إلى تتش بقيادة القوات المتجمعة ، كما يبدو أن آق سنقر وبوزان قد قبلا بذلك مكرهين ، فهما لم يرغبا بقيادة تتش لأسباب شخصية ، ذلك أن كل ما كان سيربح كان سيكون مآله إلى تتش ، ولقد كانت أسباب القيام بالعمل التأديبي ضد خلف بن ملاعب ليس فقط لاعترافه بالخليفة الفاطمي سيداً له ، وإنما بسبب سلوكه العام والشكوى التي رفعها أهل الشام إلى السلطان ضده ، ذلك أنه كان جباراً ظالماً ، يقطع الطريق ويخيف السبيل .

وفي سنة (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠م) اجتمعت قوات بوزان وآق سنقر قسيم الدولة ويغي سيغان وتتش على حمص ، وسبقهم بوزان ، فلم يتمكن خلف بن ملاعب من الخروج من حمص " فاقتحموا حمص وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه " ولقد طلب كل واحد من الأمراء حمص

---

(1) الكامل ط ليدن : ١٠/١١٦-١١٧ ، ابن ميسر : ٢/٢٨ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة : ٤٨٢ هـ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ١٧و ، النجوم الزاهرة : ٥/١٢٨

لنفسه " فكتبوا جميعاً إلى السلطان فأنعم بها على أخيه تاج الدولة " .

ليس من الواضح مما جاء في روايات المؤرخين عن الخطوة التي قام بها تتش وبقية الحكام ، فلقد جاء في هذه الروايات أن مدينة آفامية قد تم الاستيلاء عليها في العام نفسه من قبل آق سنقر قسيم الدولة ، ونحن لا نعرف أكانت القوات السلجوقية قد تابعت سيرها نحو طرابلس بعد أن استولت على حمص أم أن كل قائد من القادة الأربعة عاد إلى ولايته ثم اتحد في العام التالي مع الباقين للزحف ضد طرابلس ؟ ومهما كان الحال فإنه من المرجح أنهم زحفوا على طرابلس مباشرة بعد الاستيلاء على حمص .

ويبدو أن منح حمص لتتش قد أغضب آق سنقر ، لذلك عندما ذهب مع تتش لفتح طرابلس كان في قرارة نفسه يريد العمل على الإبقاء على طرابلس مستقلة ، ولمنع تتش من الاستيلاء عليها ومن ثم ضمها إلى أملاكه ، وفي طرابلس كان ابن عمار قاضي المدينة وحاكمها قد أعد عدته للدفاع عن طرابلس ، وأول ما قام به هو أنه احتج ضد الحصار ، وأبرز وثائق موقعة من قبل السلطان ملك شاه فيها ، يعترف له بسلطانه على طرابلس ، ويبدو أنه كان على بينة بما كان تتش وآق سنقر من التحاسد والتباغض لذلك اتصل سراً بآق سنقر قسيم الدولة وعرض عليه مبلغ (٣٠,٠٠٠) دينار إن هو ساعده في وقف حصار طرابلس ، وهنا أخبر آق سنقر تتش بأن الوثائق التي أبرزها ابن عمار صحيحة ، وأنهم ــ على هذا ــ بحصارهم لطرابلس يخالفون أوامر السلطان ملك شاه .

ووقع جدال بين تتش وآق سنقر قسيم الدولة ، تطور إلى خصام ، قام على أثره آق سنقر بسحب قواته والتوجه بها نحو حلب ، وتخلى بوزان أيضاً عن تتش وانسحب مع قواته ، وهنا وجد تتش نفسه لا يملك القدرة على متابعة حصاره

لطرابلس لذلك جمع هو أيضاً وعاد خائباً إلى دمشق [1] .

وعلى طريقه إلى حلب قام آق سنقر قسيم الدولة كما يبدو بالاستيلاء على آفاميـــة التي كانت جزءاً من أملاك خلف بن ملاعب ، وبعد أن استولى عليها لم يحـــتفظ بها لنفسه بل سلمها إلى نصر بن علي الأمير المنقذي لشيزر ، وهذا يوحي بأن العلاقات بين آق سنقر قسيم الدولة وأسرة آل منقذ كانت طيبة . وفي الواقع لم تكـــن العلاقات دائماً طيبة بينهما ففي سنة (١٠٨٨م) سبق لآق سنقر أن قام بحملة ضد شيزر وحاصرها محاولاً الاستيلاء عليها [2] .

وعلى كل حال يبدو أن منح آق سنقر قسيم الدولة آفامية للحاكم المنقذي لم يكن بدافع حب وطيب علاقات معه ، بل بسبب سوء علاقاته مع تتش ، ففي استيلائه على آفامية كان يحرم تتش من أخذها ، وهكذا يبعده عن حدود حلب ، ولكن لما كان يقدر أنه لن يستطيع الاحتفاظ بها ، لذلك منحها للحاكم المنقذي ، وبذلك أبقى تتش محروماً منها ، وفي الوقت نفسه زاد في قوة الإمارة المنقذية ، التي وقعت بين أراضي تتش وأراضي حلب ، وكانت بإمكانها أن تقوم مقام حاجز بين شمال بلاد الشام وجنوبه ، ذلك أنه لم يقف حكامها إلى جانب آق سنقـــر فـــي

---

(1) ابن القلانسي : ١٢٠-١٢١ ، الكامل ط ليدن : ١٠/١٣٦-١٣٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٥/٢٢٠ ظ ٢٢٢ ظ ، زبـــدة الحلب : ٢/١٠٦ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة : ٤٨٢-٤٨٤ هـــ ، مفرج الكروب : ١/١٩-٢٢ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ١٩٥و ظ ، المختصر في أخبار البشر : ١/٢١٢ ، ابـــن كثير : ١١/١٣٩-١٤٠ ، النجوم الزاهرة : ٥/١٢٨-١٣٠-١٣٢ ، طرابلس الشام : ٧٠-٧٢ .

(2) ابـــن القلانسي : ١٢١ ، العظيمي : ١٨٧ ، الكامل ط ليدن : ١٠/١١١ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٢٧٢ و ، ٥/٢٢١ ظ-٢٢٢ و ، زبـــدة الحلب : ٢/١٠٥-١٠٦ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث ٤٨١-٤٨٤ هـــ ، مفـــرج الكـــروب : ١/١٩-٢١ ، المختصر في أخبار البشر : ١/٢٠٨ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ١٩ و ظ ، النجوم الزاهرة : ٥/١٣٢ .

الصراع الذي لا بد أنه واقع بينه وبين تتش .

وفي هـــذه الأثناء قام السلطان ملك شاه باستدعاء جميع ولاته في بلاد الشام والجزيـــرة إليه ، ففي (٢٨ رمضان سنة ٤٨٤ هـــ / ١٣ تشرين ثاني ١٠٩١م) كـــان مـــلك شاه قد وصل إلى بغداد بقي فيها عدة أشهر يحتفل ويستعرض قواته ويســـتقبل ولاته ويبحث معهم مشاكل مناطقهم وقضاياها ، وفي بلاط ملك شاه تلاقـــى تتش مع قسيم الدولة في حضرة السلطان وقام تتش برفع شكواه ضد آق سنقر وقال : " كان من الأمر كذا وكذا ، فقال له قسيم الدولة : تكذب ، فقال له السلطان يقول لأخي كذا ، قال : نعم يطلع الله في عينيه ما يريده لك ، ويطلع في عيني ما أريده لك " وقنع السلطان بحجج آق سنقر وحكم على أخيه تتش .

لقـــد روى هذا كل من المؤرخين علي بن مرشد بن منقذ وابن الأثير وسبط بن الجوزي ، لكن ابن الجوزي قام بعد أن روى هذا الخبر بالتعليق عليه بقوله : " وهذا بعيد فإن السلطان وصل إلى حلب ولم يلتقه تتش لأنه كان مستوحشاً منه " ولقـــد روى كل من العماد الأصفهاني وابن واصل الحموي خبر وصول السلطان ملك شاه إلى بغداد ، مع احتفالاته ، ومجيء آق سنقر وبوزان إليه ، لكن لم يذكر اسم تتش بين من جاء إلى بغداد ، ولم يتعرض العماد لمسألة الخلاف بين تتش وآق سنقر ، لكنه وابن واصل مثلهما مثل بقية المؤرخين ذكرا أن السلطان ملك شاه قد عهد إلى أخيه تتش بالعمل على فتح أملاك الخلافة الفاطمية في الشام . ومن أجل هذا " أمر مملوكيه بوزان صاحب الرها وآق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هـــذا الغـــرض ، ويساعداه على أداء هذا المفترض " . ولقد مر معنا خبر احتلال حمص وكيف أن السلطان ملك شاه قد أنعم بها على أخيه تاج الدولة .

إن في تعيين تتش قائداً للقوات السلجوقية المهاجمة لحمص ومنحه بعد هـــذا

حكـــم هذه المدينة إشارة توحي بأن تتش كان قد وصل بعد تركه لحلب ، وتجنبه الالتقاء بأخيه إلى التصالح مع السلطان ملك شاه ، وإذا كان هذا قد وقع فعلاً وتم حدوثـــه فـليس هناك سبب يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن تتش قد سافر فعلاً إلى بغـــداد ، وعـــرض قضية خلافه مع آق سنقر على أخيه السلطان ، وخسر هذه القضـــية نتـــيجة لاتهام آق سنقر بالكذب ، ثم لفضحه نواياه السيئة وخططه تجاه السـلطان ، وعندما أراد تتش العودة إلى دمشق أجبر على ترك أحد أولاده رهينة عند السلطان ، وقد ملأ هذا قلب تتش حقداً على آق سنقر لذلك سنجده في سنة (٤٨٧ هـــ /١٠٩٤م) يقوم بقتل آق سنقر بيديه جبراً ، وسنأتي على بحث هذا بالتفصيل ، والهام أن نذكر هنا بأن آق سنقر قد ترك بغداد أيضاً ، وعاد إلى حلب لكن بمكان أعلى ومركز أقوى وأثبت " [١] .

ولم تكـــن قضـــية الصراع بين تتش وآق سنقر هي القضية الوحيدة ، التي عاشها البلاط السلجوقي للسلطان ملك شاه أثناء وجوده في بغداد ، ثم بعد تحركه مـــنها ، لقد كان سيد الإمبراطورية السلجوقية الفعلي زمن ملك شاه وزيره نظام المـــلك ، وكان ملك شاه يريد الخلاص من نظام الملك للانفراد بالسلطة وحده ، كمـــا أراد مـــلك شاه في الوقت ذاته إخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة والمدينة ، وتآمر أطراف التنازع هذه ضد بعضها بعضاً ، وسقط الوزير نظام الملك أولاً ، ثم لحقـــه بعـــد فـــترة وجيـــزة مسموماً السلطان ملك شاه في (٦ شوال ٤٨٥ هـــ / ٢٩ تشرين الثاني ١٠٩٢م) وأخيراً لم تطل أيام الخليفة المقتضي بعد ملك شاه ، إذ توفي هو الآخر في سنة (٤٨٧ هـــ / ١٠٩٤م) فجأة وعمره ثمان

---

[١] الكامل ط ليدن : ١٠/١٣٣-١٣٤ ، الباهر : ٨ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٣/٢٦٩ ، مرآة الزمان : حـــوادث ســـنة : ٤٨٥ هـــ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٦٥-٦٦-٧٥ ، مفرج الكروب : ١/١٩ ، النجوم الزاهرة : ٥/١٣٣ .

وثلاثون سنة وتسعة أشهر .

عـــندما مـــات ملك شاه كان عمره ثمان وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وسبع وعشرين يوماً ، وقد خلف عدداً من الأولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه اعـــتلاء عرش السلطنة الشاغر ، وقام صراع بين السلاجقة من أجل خلافة ملك شاه ، واحتضنت كل فئة وحزب أحد الصبية ، وجاهدت باسمه من أجل السيطرة على الإمبراطورية (١) .

ولقـــد اتخـــذ آق سنقر قسيم الدولة وبوزان صاحب الرها لنفسيهما موقفاً واحـــداً ، وتأرجحـــا بين الفئات السلجوقية المتصارعة حتى واجها الموت نتيجة لحادث واحد ، ويروي ابن العديم أن آق سنقر ومعه بوزان قد اعترفا أولاً بسلطنة محمود الابن الأصغر لملك شاه (٢) ، لكنه لم يلبث أن بدل اعترافه وتحول بولائه .

عـــندما أخـــبر تتش بوفاة أخيه السلطان ملك شاه أعلن نفسه خليفة لـــه وسلطاناً للإمبراطورية السلجوقية ، ولكي ينال السلطة فعلاً ويعترف به الجميع ، ولكي يمتن مركزه قام تتش بتجنيد جيش كبير ، وفي حلب لاحظ آق سنقر قسيم الدولـــة مدى خطورة تحركات تتش هذه ، وفي الوقت نفسه علم بأن أولاد ملك شـــاه يحـــاربون بعضهم بعضاً من أجل خلافة أبيهم ، وليس هناك ما يشير إشارة قاطعة إلى رجحان كفة فئة على أخرى ، وفي هذه الظروف ومن زاوية إدراكه أنه لا يملك القوة الكافية لمقاومة تتش أو التصدي له قام آق سنقر مكرهاً بالاعتراف بتـــتش ، وأعلن استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه ، وفي سنة (١٠٩٣م)

---

(1) ابن القلانسي : ١٢٥ ، تاريخ الدولة العباسية : ١٠٥ ظ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ٦٤-٧٥ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٧١ ، زبدة الحلب : ١٠٦/٢ ، مفرج الكروب : ٢٣/١ ، الكامل ط ليدن : ١٠/ ١٤٢-١٤٣ ، الروضتين : ٦٥/١ .

(2) زبدة الحلب : ١٠٦/٢ .

ربما في شباط مر تتش بأراضي حلب متوجهاً شرقاً يريد خراسان ، وفي الطريق التحق به آق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وبوزان ، وأثناء تحركهم هذا استولوا على الرحبة ونصيبين وأكثر مناطق الجزيرة . وقرب الموصل خاضوا معركة كبرى أتوا بها نهائياً على قوة عقيل ، ثم على الدولة المروانية .

عقب وفاة مسلم بن قريشس العقيلي استولى على الموصل إبراهيم بن قريش أخو مسلم . وفي سنة (٤٨٢ هـ / ١٠٨٩م) استدعى السلطان ملك شاه إبراهيم إليه ، ليحاسبه ، فأما حضر عنده اعتقله وأنفذ فخر الدولة بن جهير إلى البلاد فملك الموصل وغيرها ، وبقي إبراهيم مع السلطان ملك شاه ، وسار معه إلى سمرقند ، وعاد إلى بغداد فلما مات ملك شاه أطلقته تركان خاتون إحدى أرامل ملك شاه من الاعتقال فسار إلى الموصل .

وأثناء حياته كان ملك شاه قد أقطع عمته صفية مدينة بلد ، وكانت صفية هذه زوجة شرف الدولة مسلم بن قريش ، ولها منه ابنه علي ، وكانت قد تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه إبراهيم ، فلما مات ملك شاه قصدت الموصل ومعها ابنها علي واستطاعت أخذ الموصل . وهنا وصل إليها زوجها إبراهيم " فسلمت البلد إليه فأقام به ، فلما ملك تتش نصيبين أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ، فامتنع إبراهيم عن ذلك ، فسار تتش إليه ، فلما عرف إبراهيم خبره جمع وحشد واستصرخ واستنجد .

ثم تقدم نحو تتش في ثلاثين ألفاً ، وكان تتش في عشرة آلاف ، وكان آق سنقر على ميمنته ، وبوزان على ميسرته . والتقى الجيشان في مكان يعرف بالمصنع على نهر الهرماس نهر مدينة نصيبين ، واختلط الفريقان واشتد القتال ، وانكشفت المعركة عن قتل جماعة من الأتراك والعرب ، وعاد كل فريق منهما إلى

مكانـــه ، فلما استقر بالعرب المنْزل عاد عسكر تاج الدولة إليهم ، وهم فارون ، وحمـــل عليهم وهم غافلون فانهزمت العرب واخذهم السيف ، فقتل منهم العدد الكـــثير ، والأكثر من الرجالة المقيمين في المخيم ، وقتل الأمير إبراهيم بن قريش وجماعـــة من الأمراء والمقدمين من بني عقيل وغيرهم ، وقيل إن تقدير القتلى من الفـــريقين عشرة آلاف رجل ، واستولى النهب والسلب والسبي على من وجد في المخيم ، وامتلآت الأيدي من الغنائم والسواد والمواشي والكراع ، فقد بيع الجمل بديـــنار واحد ، والمائة شاة بدينار واحد ، و لم يشاهد أبشع من هذه الوقعة ، ولا أشـــنع مـــنها في هذا الزمان ، وقتل بعض نساء العرب أنفسهن إشفاقاً من الهتيكة والســـبي ، ولما عادوا بالأسرى والسبي ووصلوا بشاطئ الفرات ، ألقى جماعة من الأسرى أنفسهم في الفرات فهلكوا " .

لقد حدثت هذه المعركة سنة (٤٨٦ هـــ / ١٠٩٣م) ، وكان ضمن قوات إبراهـــيم بن قريش بعض القوات الكردية ، فلما قتل مع إبراهيم حسين بن نصر الدولـــة بن مراون ، لذلك ارتأى تتش أن يتابلع احتلال جميع مناطق الجزيرة وأن يقـــوم بتصـــفية الدولة المروانية قبل أن ينحدر شرقاً ، وعلى هذا تحرك نحو " آمد ومـــلكها وأقـــام أيامـــاً قلائل ، وسار إلى أن وصل إلى ميافارقين " فتسلمها هي الأخرى بالأمان وبذلك أتى على الدولة المروانية وأنهاها من الوجود .

إن الانتصارات التي حققها تتش قد حسنت من وضعه وقوت مركزه لذلك كـــتب إلى الخليفة في بغداد يطلب منه أن يأمر بأن يخطب له بالسلطنة على منابر بغـــداد وبلدان الخلافة العباسية ، ويتوعده إن لم يستجب لطلبه ، فلم يعبأ الخليفة بـــتهديداته ، و لم يـــولِ طلبه اهتماماً كبيراً بل كتب إليه " إنما تصلح للخطبة إذا حصـــلت الدنيـــا بحكمـــك والخزائن التي بأصبهان ، وتكون صاحب المشرق ،

وخراسان ، ولم يبقَ من أولاد أخيك من يخالفك ، أما في هذه الحال فلا سبيل إلى مـــا التمسته ، فلا تعد حد العبيد ، وليكن خطابك ضراعة لا تحكماً ، وسؤالاً لا تجبراً ، وإن أبيت قتلناك ورديناك وأتاك من الله ما لا قبل لك فيه " .

وأمـــام هذا الموقف قرر تتش التوجه مباشرة إلى خراسان وعدم الذهاب إلى بغداد ، وفي خراسان كانت ملامح الصراع بين أبناء ملك شاه ، قد توضحت بأن رجحت الكفة لصالح بركياروق الابن الكبير ، وعندما وصل تتش إلى مدينة تبريز " انفصـــل عـــنه قسيم الدولة صاحب حلب ، وعماد الدولة بوزان صاحب الرها مغاضـــبين ، وقصدا ناحية السلطان بركياروق عند مدينة الري قرب مدينة طهران الحاليـــة ، وقدمـــا له المساعدة فقوي مركزه بهما ، وكانت فلول قبيلة عقيل قد الـــتحقت أيضـــاً بمعسكر بركياروق ، وضعفت بهذا صفوف تتش ، واضطر أمام الحال الجديد أن لا يتابع سيره نحو الري للقتال ضد بركياروق بل عاد أدراجه نحو ديار بكر ، وحرض آق سنقر قسيم الدولة وبوزان بركياروق ضد تتش ، وحذراه من أن يهمل أمره ، وطلبا منه أن يعامله " قبل إعمال خطبه وتمكنه من الغلبة على الســـلطنة ، للاستيلاء على أعمال المملكة ، وأشارا عليه بالمسير في هذا الوقت " وطلـــبا منه أن يسير معهما وفعلاً صحبهما إلى مدينة الرحبة ، ويبدو أن تتش قد كـــان في الرحبة عندما توجهوا نحوها ، لكنه لما علم بزحفهم إليها وتوجه صاعداً على طرف الفرات قاصداً بلد أنطاكية ، وتوقف بركياروق في الرحبة ، وفيها قام بعقد تحالف بين آق سنقر قسيم الدولة وبوزان من جهة ، وبين علي بن مسلم بن قريش العقيلي من جهة أخرى ، وكان علي هذا قد خلف عمه إبراهيم بن قريش في زعامـــة قبيـــلة أو بالأحرى ما بقي من قبيلة عقيل ، وتوجه بوزان إلى الرها ، وسار قسيم الدولة إلى حلب وبرفقته بعض من عساكر بركياروق ومن أفراد قبيلة

عقيـــل وغيرها من القبائل ، ولقد وصل آق سنقر إلى حلب في (تشرين الثاني من العام نفسه ١٠٩٣م) [1] .

وانـــتهى خبر وصول آق سنقر إلى حلب إلى تتش ، وورد عليه نبأ بانكفاء السـلطان بـركياروق من الرحبة إلى بغداد ، وأن عزمه أن يشتو بها ، وأقام تاج الدولة بأنطاكية مدة ، فقلت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وخوطب في العودة إلى الشام ، فلم يفعل ، وعاد إلى دمشق (آخر ذي الحجة من سنة ٤٨٦ هـــ / أواخر كانون الثاني ١٠٩٤م) ، وفي حملته الأمير وثاب بن محمود بن صالح ، وبنو كامل وجماعـــة من العرب لم يجسروا على الإقامة في الشام خوفاً من قسيم الدولة ، وفي دمشق أخذ تتش يعمل من جديد على تقوية جيشه وتجنيد قوات جديدة ، وعلى إعداد ما لزم من العدة كي ينال السلطنة ، وفي حلب قام آق سنقر بعمله بالإعداد للتصـــدي لتـــتش ، ومنعه من مغادرة بلاد الشام إن لم يكن لانتزاع دمشق منه ، وكـــاتب آق ســنقر للسلطان بركياروق وطلب منه المساعدة ، كما استنجد بمن جـــاوره مـــن حكـــام السلاجقة في مدن الجزيرة " فوصل إليه كربوقا صاحب الموصـــل وبـــوزان صـــاحب الـــرها ، ويوسف بن آبق صاحب الرحبة في ألفين وخمسمائة فارس " .

وقـــام آق سنقر أيضاً بتجنيد قوات أضافية من قبيلة ، وجدير بالملاحظة أن معظـــم قـــوات تتش التي جندها هو أيضاً في جيشه كانت من بين القبائل البدوية

---

[1] ابن القلانسي : ١٢١-١٢٤ ، تاريخ الفارقي : ٢٣٠-٢٣٧ ، العظيمي : ١٨٧ ظ ١٨٨ ، الكامل ط ليـــدن : ١٤٩/١٠ -١٥١ ، الـــباهر : ١٣ ، المنـــتظم : ٧٧/٩ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٤ و ظ ، ابن العميد: ٥٧٤ ، زبدة الحلب : ١٠٦-١٠٨-١١٠ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٢٧٢/٣ ، مرآة الزمان أحمـــد الـــثالث : حوادث سنة ٤٨٦ هــ ، الروضتين : ٢١٤/١ ، البستان الجامع : ٩٢ ظ ، النجوم الزاهرة : ١٣٧/٥-١٣٨ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٥٠ or ، ٢٠ ظ ٢١ و ، ابن كثير : ١٤٤/١١ .

العــربية ومن جملة ذلك قبيلة كلاب التي يبدو أن أفراد الأسرة المرداسية كانوا قد فقــدوا قســماً كبيراً من سلطاهم عليها بعد سقوط أسرقم في حلب ، ففي أيام سنقر التي نحن بصدد الحديث عنها كان أبرز أمراء قبيلة كلاب هو شبل بن جامع وكــانت له السيادة على الجزء الأكبر من القبيلة ولقد قطن هذا الجزء في المنطقة الجنوبية الغربية لحلب ، أما ما نبقى من القبيلة فقد كان تحت إمرة الأمير المرداسي وثــاب بــن محمود الذي كان لــه علاقات طيبة مع تتش ، لذا انخرط وأتباعه تحت لوائه .

ولم تكــن العلاقات على نحو عام جيدة بين آق سنقر وقبيلة كلاب ، لكنه أي ستقر كان مجبراً على تجنيد الكلابيين في جيشه ، لأن ما كان لديه من القوات الــتركية ، لم يكــن كافياً ، ثم إن ما جاءه من مساعدات ونجدات ، كان دون الحاجة ، ويبدو أن قبيلة كلاب كانت المصدر الأفضل إن لم يكن الفريد في شمال بلاد الشام للتجنيد ، ولقد كان آق سنقر على بينة ومعرفة تامتين بميول الكلابيين ومشــاعرهم غــير الودية تجاهه ، وكان لهذا دائماً يشك بهم ويرتاب لتصرفاتهم وإخلاصهم له .

(وفي شــهر ربيــع الأول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة / آذار ـــ نيسان ١٠٩٤م) خرج تاج الدولة تتش من دمشق ومعه خلق عظيم من العرب ، ولقي يغــي سغان بعسكر أنطاكية بالقرب من حماة ، وأقاموا هناك أياماً ، وزوج ولده رضوان من ابنة يغي سغان وسيره عائداً إلى دمشق ، وسار تاج الدولة بعساكره " فــتهيأ آق سنقر للقائه وللخروج إليه ، واستدعى منجماً ليأخذ له الطالع فحضر عــنده واخــتار له وقتاً وقال : تخرج الساعة ، فركب ومعه النجدة التي وصلته ، وجماعــة كــثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل ، وكان قد

أطلقهما من الاعتقال ومحمد بن زائدة ، وجماعة من أحداث حلب ، والديلم والخراسانية في أحسن زي وأكمل عدة ، وقيل إنه قد عسكره بعشرين ألف فارس ، وقيل كان يزيد على سنة آلاف ، وقصد تاج الدولة يوم (السبت التاسع من جمادى الأولى من السنة ٤٧٨ هـ / ٢٦ مايس ١٠٩٤م) .

وقطع آق سنقر سواقي نهر سبعين على بعد ستة فراسخ من حلب قاصداً عسكر تتش ، وكانت عساكر كربوقة وبوزان لم تتمكن من قطع بعض السواقي فأقاموا على حالهم ، وكان أول من برز في الحرب آق سنقر ، فالتقى الفريقان .

ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من العرب ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة ، وفي وقت المصاف ، ثم نقلهم إلى القلب ، فلم يغنوا شيئاً ، وجعل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت ، وانهزمت العرب ، وعسكر كربوقة وبوزان وكربوقة معهم إلى حلب، ووقع فيهم القتل ، وثبت قسيم الدولة فأسر أكثر أصحابه .

وحمل إلى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه ، قال له : " لو ظفرت بي ما كنت صانعاً في ، قال أقتلك ، قال : فإني أحكم عليك بحكمك في " ، وقام تاج الدولة إليه ، " فضرب رقبته بيده وقطع رأسه ، وأصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه رأس الأمير قسيم الدولة " ، وكان كربوقة وبوزان قد عولا على الاعتصام بحلب ، وانتظار وصول النجدة من السلطان بركياروق " لأن كتابه الطائر وصل إلى حلب يخبر بوصول النجدة إلى الموصل ، وقررا مع الأحداث ذلك " . ووصل تتش إلى حلب والأمور لم تقرر بعد تقريراً نهائياً ، وسببت سرعة وصول تتش إلى أسوار حلب ارتباكاً بين صفوف أهاليها وأحداثها وتركمانها ، وفي ساعة الحيرة هذه وثب " قوم من الأحداث ممن لا يعرف ولا يذكر ، ففتحوا

بـــاب أنطاكية ونادوا بشعار تاج الدولة ، فدخل وثاب بن محمود بن صالح " في مقدمة أصحاب تاج الدولة إلى حلب ، وسكن البلد ، فنزل الوالي بقلعة الشريف وسـلمها إلى تـاج الدولة فدخلها وبات فيها ، فراسله نوح إلى القلعة الكبيرة ، وسـلمها إليه بعد أن توثق منه وطلع تاج الدولة إليها في الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة .

وقـبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبته صبراً ، وأخذ كربوقاً واعتقله بحمص ، وأقطع الشام لعسكره ، وأقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سغان " .

" ورحـل السـلطان تاج الدولة عن حلب في المعسكر إلى ناحية الفرات ، وقطعـه وقصـد حران ، فاستعادها ، وكذلك سروج والرها ، وقصد ديار بكر وعـدل عن طريق السلطان بركياروق لأنه كان نازلاً بأرض الموصل طالباً لخاتون زوج السـلطان مـلك شاه والدة أخيه محمود ، وكانت مستولية على أصفهان وجميـع الأمـوال ، لمكاتـبات ومراسلات ترددت بينهما في معنى الوصلة بينها وبيـنه ـ أي تـتش ـ واسـتقر الملك لـه ولها ، وكانت قد منعت السلطان بركياروق التصرف في تلك الأعمال .

وفي هـذا الوقت حدثت زلازل في يوم وليلة دفعات لم يسمع بمثلها في كل زلـزلة منها تقيم وتطول بخلاف ما جرت بمثله العادة ، ورحل تاج الدولة عقيب ذلـك ، ولم يـتمكن من الإتمام على سمته ، وعرفت خاتون الخبر ، فخرجت من أصـفهان في عسـاكرها لـلقاء تاج الدولة ، فعرض لها في طريقها مرض حاد ، فتوفيت وتفرق عسكرها إلى جهة السلطان بركياروق وإلى غيره .

وحـين عرف بركياروق ذلك سار في الحال إلى أصفهان فدخلها وملكها ، ووصـل مـن عسـكر خاتون إلى تاج الدولة خلق كثير ، وكذلك من عسكر

بـــركياروق ، فتضاعفت عدته ، وقويت شوكته ، ودعي لــه على منابر بغداد ، ووصـــل إلى همذان ، وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه فيمن بقي من الأجناد في الشام ، فسار إلى حلب ، ومن حلب إلى العراق ، ومعه الأمير نجم الدين بن غازي بن أرتق ، والأمير وثاب بن محمود بن صالح ، وجماعة مـــن أمـــراء العرب ، وأتراك حلب القسمية (نسبة إلى قسيم الدولة آق سنقر) وتوجه صوب بغداد على الرحبة ".

وبعث تتش يوسف بن آبق على رأس قوة نحو مدينة بغداد للاستيلاء عليها ، أمـــا هو فتوجه نحو أصفهان ، وفي أصفهان كان السلطان بركياروق مريضاً بعد إصـــابته بـــالجدري ، لاذلك سار تتش نحو الري ، وراسل أمراء التركمان الذين كـــانوا في أصـــفهان يدعوهـــم إلى طاعته ، ويبذل لهم البذول الكثيرة " فأجابوه يعدونـــه بالانحياز إليه ، وهم ينتظرون ما يكون من بركياروق ، فلما أوفي أرسلوا إلى تـــتش ليس بيننا غير السيف ، واسر مع بركياروق من أصفهان " نحو الري ، وقبل أن يصلوها أقبلت إليهم العساكر من كل مكان حتى صاروا في ثلاثين ألف ، فالتقوا مع جيش تتش ـــ بموضع قريب من الري ـــ فانهزم عسكر تتش وثبت هو فقتل ، قتله غيلة بعض أصحاب آق سنقر صاحب حلب ، أو بوزان صاحب الرها أخـــذ بثأر صاحبه "[1] ، وكان هذا في شهر (صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة هجري / شباط ١٠٩٥) .

---

[1] ابـــن القلانسي : ١٢٦-١٣٠ ، أخبار الدولة السلجوقية : ٧٥-٧٦ ، ابن عساكر : ٤٣٤/١٠ ، تاريخ دولـــة آل سلجوق : ٧٦-٧٧ ، راحة الصدور : ٢١٤-٢٢٠ ، العظيمي : ١٨٧ ظ - ١٨٨ ظ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٤ و ظ ، الكامل : ١٤٩/١٠ ، ١٥١-١٦٦-١٦٧ ، الباهر : ١٣ ، المنتظم : ٧٧/٩ ابـــن العميد : ٥٧٤-٥٧٧ ، زبدة الحلب : ١٠٦/٢-١٠٨-١٠١٠-١١٩-١٢٠ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٢٧٢/٣ ظ ، ٨٩/٤ و ٩٥ ، مرآة الزمان أحمد الثالث : حوادث سنة ٤٨٦-٤٨٨ هـــ ، =

إن مقتل كل من آق سنقر قسيم الدولة وبوزان ، ثم تتش قد ختم مرحلة من مراحل تاريخ بلاد الشام ، والجزيرة تحت الحكم السلجوقي ، وفي الواقع أنه قد ختم حقبة متميزة من تاريخ الشام والجزيرة ، وابتدأ حقبة متميزة جديدة هي حقبة بداية الحروب الصليبية ونشاط الدعوة الإسماعيلية الجديدة ، التي أسسها حسن الصباح "[1] .

ولقد كان تتش وبوزان وآق سنقر ورجال طبقتهم تركماناً قاموا بإلحاق بلاد الشام والجزيرة بالإمبراطورية السلجوقية ، ولقد كانت مواطن ولادتهم خارج الشام والجزيرة ، وجاؤوا هم غزاة إلى الشام والجزيرة مواكبين للهجرة التركمانية الكبرى ، وبموتهم انتهت طبقتهم ، ومهما ختمت المرحلة التي عاشوها ، وبدأت بعدها مرحلة جديدة فيها حكام الشام والجزيرة من السلاجقة ، لكن كلهم ولدوا في إحدى مدن أو بلدان الشام والجزيرة ، وفيها نشأ ، وفي الوقت الذي تبدأ به مرحلة الحكام السلاجقة " الشاميين والجزريين " هذه تعرضت الشام لهجرة بشرية وغزو جديدين . المهاجرون الغزاة الجدد ، كانوا مثلهم مثل التركمان من أصول غير سامية ، وهم وإن اختلفوا عن التركمان في المعتقد والوطن الأم ، فقد وجدت أوجه تشابه كثيرة تجمعهم بالتركمان ، يقول المؤلف المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى وكتب عنها : " لقد كان حقاً ما قيل من أنه لا يجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس إن كان من غير الفرنجة والترك "[2] .

= تاريخ المنصوري : ٧٥ ظ ، مفرج الكروب : ١/٢٢-٢٥ ، المختصر في أخبار البشر : ١/٢١٤-٢١٧ ، البستان الجامع : ٩١ ظ — ٩٢ ظ ، النجوم الزاهرة : ٥/١٣٧-١٣٨ ، تاريخ الإسلام للذهبي: ٥ or ٢٠ ظ ، الروضتين : ١/ ٦٥ ، ابن كثير : ١١/١٤٤ .

[1] ارجع إلى الدعوة الإسماعيلية للمستشرق الكبير برنارد لويس الذي نقلته إلى العربية ط بيروت ١٩٧١ .

[2] أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، الترجمة العربية ط القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤١ .

وفي الوقت نفسه تزول أيضاً طبقة قادة الحملة الصليبية الأولى ويجيء إلى الوجود جيل من الصليبيين (الشاميين والجزريين) له صفات وملامح فيها الكثير من الجدة ، وهنا يتمكن الجيل المسلم الجديد من البدء بكسب الجولة ، وتأخذ حركة التحرير والاسترداد الإسلامية صفة الفعالية والتأثير .

ستكون هذه المراحل مما سيدرس في مكان آخر ، وسأكتفي هنا بدراسة فترة حكم كل من رضوان بن تتش وأخيه دقاق في الشام ، لأن حكمها يشكل جسراً بين فترة ما قبل الحروب الصليبية والمراحل الأولى لهذه الحروب .

بعد أن استولى تتش على مدينة حلب عقب قتله لآق سنقر قسيم الدولة ، وقبل أن يغادر هذه المدينة متوجهاً شرقاً حيث لقي حتفه ، قام بإسناد أمور السلطة في حلب إلى أبي القاسم بن بديع ، وكان من أهالي مدينة حلب ، وقد أسند تتش إليه منصب وزارة حلب ، وكان حكم مدينة حلب نفسها بيد رئيسها بركات بن فارس الذي عرف باسم المجن الفرعي ، وكان المجن الفرعي هذا هو مقدم أحداث حلب ، وصاحب الكلمة الأولى فيهم .

وكان تتش قبل أن يصل إلى حلب ويفتحها قد أعاد ولده الأكبر رضوان إلى دمشق ، وإلى رضوان أوصى بالأمور من بعد أن أصابه مكروه ، وكان رضوان آنئذ صبياً في الثالثة عشرة من عمره ، ذلك أنه ولد في دمشق سنة (خمس وسبعين وأرعمائة) وفيها نشأ في حجر أبيه ، وكان أبوه قد زوج أمه إلى أحد شخصيات تركمانة الكبار ، وكان اسم هذه الشخصية حسين وعرف عادة باسم جناح الدولة ، وأحياناً باسم باقي الدولة .

كان جناح الدولة أتابكاً لرضوان بن تتش ، وكلمة أتابك تعني في الأصل الأمير الأب ، فهي كلمة مركبة من (أتا : ومعناها أب ، أو عم ، وبك : وتعادل

أمـير أو مقدم أو سوى ذلك من ألفاظ الزعامة) ، فلقد كان من عادة السلاجقة كتركمان أن يطلقوا بعض زوجاتهم عقب إنجاب إحداهن لغلام ؛ وكانوا ينعمون بالمطلقة (زوجة) لإحدى شخصيات دولتهم من التركمان ، والطلاق كان يحصل لأسـباب دينية وسياسية ، دينية وهي عدم سماح الشرع بالجمع بين أكثر من أربع زوجـات حرائر ، وسياسية وهي أن الحاكم السلجوقي كان يجد نفسه راغباً أو مـرغماً عـلى الـزواج بأكثر من أربع فتيات إما للشهوة أو للمكانة السياسية والاجـتماعية للفـتاة ، أو للأمرين معاً ، وحين كان يتم تطليق إحدى الزوجات ومـن ثم تزويجها كان الأمير السلجوقي يحقق بعض الغايات السياسية أيضاً ، فهو يـربط المـنعم عليه (بالمطلقة) بالأسرة الحاكمة ، ثم هو يؤمن بالوقت نفسه مربياً جـيداً لولـده مع حزب وقوة تحميه ، ومع مرور الأيام وتقلب الدول لقد تطور منصـب (أتابك) وتمتع بصفات ومزايا أخرى غير التي ذكرت ، كما أدخل عليه الكثير من المزايا الجديدة ، ليس هنا المجال للحديث عنها حديثاً مفصلاً .

لقـد كـانت مدينة حمص هي إقطاع جناح الدولة حسن ، ويبدو أن تتش كـان قـد أسند إليه أمور الأشراف على أعمال حلب ، وليس من المؤكد أكان جناح قد كان برفقة تتش في خراسان عند مقتله أم أنه كان في مدينة حلب ، ومن الأرجح أنه كان في مدينة حلب ولم يكن برفقة تتش .

وعندما كان تتش في خراسان متوجهاً لحرب ابن أخيه بركياروق أرسل عند وصوله إلى همذان كتاباً إلى ابنه رضوان " يستدعيه إليه من دمشق وأمره أن يحضر معـه مـن تخـلف في الشام من العسكر ، فامتثل إلى أمر أبيه وخرج من دمشق بالعسـكر مـتوجهاً إلى أبيه ، ووصل إلى عانة ، وقيل إلى الأنبار ، فبلغه قتل أبيه تتش ، فحط رحيمة وسار مجداً عائداً فوصل إلى حلب وتسلمها من وزير أبيه أبي

القاسم بن بديع (سنة ثمان وثمانين وأرعمائة / ١٠٩٥م) ، وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه .

وأخــذت فلول قوات تتش وعساكره ومؤبديه تتوارد إلى حلب ، وهنا أراد كــل مــن رجــالات دولة تتش وحلفائه وبخاصة يغي سغان صاحب أنطاكية ، ويوســف بــن آبــق ، وبعض أولاد أرتق أن يتفرد بالتحكم برضوان ، ومن ثم السـيطرة عــلى ميراث تتش في الشام والجزيرة ، ولقد ابتغوا جميعاً إعادة بلدان الجزيــرة مع دمشق إلى الحظيرة ، ولقد كان من بين فلول جيش تتش التي جاءت إلى حــلب دقاق الابن الثاني لتتش ، وخاف دقاق على نفسه من أخيه رضوان ، وكــان نائب القلعة في دمشق يدعى ساوتكين وأراد ساوتكين أن يحتفظ بسلطانه واستقلاله في دمشق ، لكنه كان يحتاج إلى إضفاء نوع من الشرعية على حكمه ، لهذا راسل دقاق بن تتش ، فهرب المذكور سراً من حلب إلى دمشق حيث دخلها وأصبح حاكمها الشرعي ، وهكذا عاد التمزق مرة ثانية إلى الشام ، وأصبح الآن إعادة السيطرة على دمشق الشغل الشاغل لرضوان ، ولو صرف الكثير من جهده ووقــته وطاقات دولته ، وكان لتتش ولدان آخران ، وخشية أن يفعلا فعلاً يشابه ما صنع أخوهما دقاق قام رضوان بإعدامهما .

وقــامت مفاوضات بين رضوان بن تتش والسلطان بركياروق أدت إلى أن أطلق رضوان الأسرى الذين كان والده أخذهم في حربه مع آق سنقر ، وبالمقابل أطــلق الســلطان بركياروق سراح الأسرى ، الذين أخذهم في حربه مع تتش ، وكــان من بين الذين كسبوا حريتهم طغتكين هذا الذي عرف باسم أتابك ظهير الديــن ، كان من ألمع ضباط تتش ، وقد حظي عنده بمكانة عالية ، نظراً لطاقاته ونشــاطه ونبوغه ، " وسلم إليه ولده الملك شمس الملوك دقاق ، واعتمد عليه في

تربيته وكفالته ، وتزوج طغتكين خاتون صفوة الملك أم دقاق ، وهكذا أصبح أتابكاً حسب ما جرت عليه العادة .

وعقب خلاصه من الأسر توجه عائداً إلى دمشق ، فوصلها " في سنة (٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م) فتلقاه الملك شمس الدولة دقاق وعسكره وأرباب دولته وبولغ في إكرامه واحترامه وردّ إليه النظر في الاسفهسلارية ، واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسة البيضة ، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وأمراء الدولة العمل على ساوتكين والإيقاع به ، وتمم عليه الأمر وقتل " .

ولما كان رضوان بن تتش مائلاً إلى دمشق ومحباً لها ومؤثراً للعودة إليها ، ولا يختار سواها لمعرفته بمحاسنها ، وترعرعه فيها ، فجمع وحشد واستنجد بالأمير سكمان بن أرتق ، وكان إقطاع سكمان سروجاً في الجزيرة ، فسار سيكمان نحو حلب ، وقطع الفرات ، وفي طريقه لقيه يوسف بن آبق ، ففرض نفسه عليه ، لكن عندما وصل حلب استطاع بمساعدة جناح الدولة حسين الخلاص من يوسف إذ ذهب إلى أنطاكية إلى يغي سغان صاحبها ، وأقطع رضوان سكمان بلدة معرة النعمان وأعمالها ثم سار معه نحو دمشق ، وكانت سنة (٤٨٩ هـ /١٠٩٦م) قد دخلت وحاصر رضوان دمشق ، لكنه أخفق في أخذها ، نظراً للتدابير الجيدة في الدفاع عنها ، ولما وجد رضوان أنه لا جدوى في حصاره لها . توجه جنوباً فنهب أعمال حوران ، وهنا تركه سكمان حيث ذهب إلى مدينة القدس ، وكانت إقطاعاً لأخيه إيل غازي فتسلمها ، وعاد رضوان إلى حلب ، كي يجدد الاستعداد لحملة ثانية على دمشق [1] .

---

[1] ابن القلانسي : ١٣٠-١٣٢ ، ابن عساكر : ٥٠/٦ ظ ، العظيمي : ١٨٨ ظ ، الكامل ط القاهرة : ٨/ ١٧٥-١٧٦ ، زبدة الحلب : ١١٩/٢-١٢٢ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٩٧/٤ و ظ ، ٨٩/٦ و ظ ، ابن أبي الهيجاء : ١٣٤ ظ ، التاريخ المنصوري : ٧٥ ظ ، المختصر في أخبار البشر : ٢١٦/١-٢١٧.

Damascus University

وعقـــب عودة رضوان إلى حلب راسله يوسف بن آبق ، واستأذنه في المجيء إلى حـــلب للدخول في خدمته فأذن له ، ووصل يوسف إلى حلب وسكنها " ثم خـــاف رضوان وحسين منه ، فتقدما إلى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بـــالمجن الفـــرعي بقـــتله ، فهجم عليه وأصحابه فقتلوه ونهبوا داره وأخذوا رأسه وسيروه إلى بزاغا ومنبج ، فتسلموها من أصحابه ، وبعد هذا خرج جناح الدولة حسين ورضوان فأغارا على بعض أعمال أنطاكية التابعة ليغي سغان ، واحتلا تل باشـــر وشيح الدير ، ولقد أغضب هذا مع مقتل يوسف بن آبق يغي سغان الذي أخذ يعد العدة للثأر .

ومـــرة ثانية توجه رضوان مع حسين وبصحبتها عساكر حلب نحو دمشق ، وهـــنا تحرك يغي سغان بسرعة نحو دمشق منجداً لدقاق " فضعفت نفس رضوان عـــن دمشـــق فسار إلى بيت المقدس ، فتبعه طغتكين ودقاق ويغي سغان وأقاموا متحابســـين مدة ، وأشرف عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية واتـــبعه رضـــوان ، ثم وصل سكمان أيضاً على البرية إلى حلب ، ووصل دقاق وطغتكين إلى ناحية حلب واستنجد رضوان بسليمان ابن ايلغازي صاحب سمياط فوصـــل إلى حـــلب بعسكر كبير ، واجتمع العسكران بقنسرين على نهر قويق ، وتحاربا فهرب دقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سغان إلى أنطاكية " .

ولقد استغلت الخلافة الفاطمية في القاهرة أمور هذا النِّزاع وأحداثه فأرسل أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي حملة عسكرية استطاعت بعد جهد انتزاع القدس من الأســـرة الأرتقية ، ثم أكدت النفوذ الفاطمي على مناطق الساحل الشامي مثل مدينة صـــور ووطدتـــه ، وكان هذا سنة الحملة الثانية على دمشق (٤٨٩- ٤٩٠ هـــ / ١٠٩٥-١٠٩٦م) ومـــن قبل في سنة (٤٨٦ هـــ /١٠٩٣م) بعيد وفاة السلطان ملك شاه ، وأثناء انشغال تتش وآق سنقر في الصراع من أجل السلطنة . انستقل بدر

الجمـــالي والـــد الأفضل تلك الحالة فأرسل حملة عسكرية إلى الساحل ، واستطاعت تلك الحملة احتلال مدينة صور وإعادها إلى حظيرة الخلافة الفاطمية .

واســـتغل أهالي آفامية أيضاً الصراع بين ولدي تتش ، فثاروا بحاكمهم التركي الـــذي كان تتش قد خلفه فيها بعد انتزاعه لها من الأسرة المنقذية أثناء سعيه للسلطنة واســـتطاع الفـــاطميون الذيـــن كـــانت غالبيتهم إسماعيلية من أتباع القاهرة طرد حـــاكمهم الـــتركي في سنة (٤٨٨ هـــ) وذهب وفد منهم إلى القاهرة ، فرجعوا بخلف بن ملاعب الذي كان نجا من سجنه في خراسان رجعوا به والياً عليهم .

وأثـــناء فـــترة الصراع هذه استطاع كربوقا بعدما أطلق رضوان سراحه من السجن الذي كان تتش قد أودعه به عقب انتصاره على آق سنقر استطاع كربوقا تجنيد جيش من التركمان في الجزيرة ، وبوساطة هذا الجيش احتل حران ، ثم أخذ نصـــيبين من محمد بن مسلم بن قريش العقيلي ، ثم احتل مدينة بلد ، وغرق محمد بـــن مسلم ، وسار إلى مدينة الموصل ، وكانت في حوزة علي بن مسلم بن قريش العقيلي ، فحاصرها حتى " عدمت الأقوات بها ، وكل شيء حتى ما يوقدونه ... فـــلما ضـــاق بصاحبها علي الأمر فارقها وسار إلى الأمير صدقة بن مزيد أمير بني أســـد ـــ بالحـــلة ـــ وتسلم كربوقا البلد بعد أن حصره تسعة أشهر " وبعد هذا وبعـــد أن وطد نفسه في الموصل أراد إتمام مد نفوذه على الجزيرة ، وكان حاكم الجزيـــرة ابن عمر قد اعترف بسلطانه فسار إلى بلدة الرحبة على الفرات فاحتلها وضمها إلى مملكته الجديدة [1] .

---

[1] ابن القلانسي : ١٢٤-١٣٢-١٣٣ ، ابن مسير : ١٩/٢ ، العظيمي : ١٩٠ و ظ ، الكامل ط القاهرة : ١٦٨/٨-١٧٩-١٨١-١٨٤-١٨٩ ، زبـــدة الحـــلب : ١٢٢/٢-١٢٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٨٩/٦ و ظ ، تاريخ الإسلام للذهبي : or ٥٠ ، ٢١ و ، انظر ترجمة خلف بن ملاعب بين ملاحق آخر كتابي المدخل .

إن إخفاق رضوان في أخذ دمشق للمرة الثانية لم ينه مطامعه في هذه المدينة ، كما لم يوقفها " تواصل الأخبار بظهور عساكر الفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة " ولقد قلق الناس في بلاد الشام وسواها لسماع هذه الأخبار وانزعجوا لاشتهارها ، لكن رضوان كان يزعجه أن يبقى محروماً من دمشق ، وكان أمر المحافظة على حكمه في حلب هو الذي يشغل باله ويقلقه . ويبدو أنه أراد أن يتخلص من جناح الدولة حسين وينفرد بحكم حلب " واستشعر حسين ابن رضوان ، وأحس بتغيير نيته تجاهه فاضطر إلى الهرب من حلب ليلاً إلى حمص ومعه زوجته أم رضوان .

وهنا عول على قصد مدينة حمص لانتزاعها من جناح الدولة حسين ثم قصد مدينة دمشق لانتزاعها من أخيه دقاق ، وراح رضوان يفتش عن حلفاء ، فكان أن التفت إلى يغي سغان صاحب أنطاكية فتصالح معه ، وتحالف ، ثم توجه بأنظاره نحو القاهرة ، ووصلت إليه بعثة فاطمية أرسلها الأفضل أمير الجيوش ووزير مصر وصاحب الكلمة فيها . وكان مع البعثة بالإضافة إلى الهدايا الكثيرة رسالة من الخليفة الفاطمي المستعلي وأخرى من الأفضل وتم الاتفاق بين رضوان والبعثة الفاطمية على أن يقيم رضوان الدعوة في بلاده للخليفة المستعلي والأفضل بن بدر الجمالي . وأن تقوم القاهرة بإرسال جيش يساعده على استرداد حمص واحتلال دمشق ، وفعلاً أمر رضوان بإعلان الدعوة للفاطميين وتوجه جنوباً ، وعند شيزر حدثت خلافات بين أمراء جيشه ، فلم يتابع سيره جنوباً بل عاد إلى حلب ، وبنفس الوقت ضغط عليه من قبل أمراء التركمان للإقلاع عن الدعوة للفاطميين والعودة للطاعة العباسية ففعل و لم تستمر الدعوة للفاطميين سوى أربع جمع ومن ثم قطعت و لم تعد أبداً بعد هذا "[1] .

---

[1] ابن القلانسي : ١٣٣-١٣٤ ، العظيمي : ١٩٠ و ظ ، الكامل ط القاهرة : ١٨٤/٨-١٨٥ ، زبدة الحلب : ١٢٧/٢-١٢٩ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٩٧/٤ ظ ، ٨٩/٦ ظ .

ووصلت جموع الفرنجة إلى أنطاكية وأخذت في حصارها . وكان الحصار شديداً امتد فترة طويلة ، أخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيد جهودهم ، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم . وكانت الفرص مناسبة ومساعدة ، وأخيراً سقطت أنطاكية بسبب خيانة أحد كبار العساكر ، عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكلاً إليه ، وعندما دخل الصليبيون أنطاكية في (٣ حزيران ١٠٩٨م) ذبحوا كل من وجدوا فيها من المسلمين وفر يغي سغان ، وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعاً من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به ، ولم يكن سقوط مدينة أنطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين ، وأخيراً تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة ووصلت أنطاكية ، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة ، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار ، وكان من الممكن إيقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين ، نار حامية القلعة ، ونار التركمان من خارج الأسوار ، لكن أنانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الفشل والهزيمة .

ويصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان الحالة أثناء الحصار بقوله : " أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا . ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب نظراً لأنه لم يعد يسمح لهم بأكل الخبز لمن معه الخبز ولا بشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطاً من الجير والكلس وشيدوا حصناً جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنيتنا ، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في وادٍ قريب من

القلعة ... أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلاً ونهاراً ، تاركة إياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصاراً شديداً لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها إلا ليلاً أو إخفاءاً ، وبذلك كنا نعاني الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء ، الذين كانوا في العدد الكثيف " .

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس ، أن القديس أندرواس قد تراءى له وقال له : " إنني الحواري أندرواس ، اسمع يا بني عرج ... على كنيسة القديس بطرس القسيان وستجد بها حربة تخلصنا يسوع المسيح الذي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب " وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة وأتباعهم ، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير " داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون ، وإن لم تجدوها فالهلاك محقق ، وكان قد دفن من قبل ذلك حربة في مكان فيه ، وخفا أثرها ، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ، أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين عن خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن نقف على الباب ، فنقتل كل من يخرج ، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال : لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معالجتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبقَ بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافاً عظيماً ، فولى المسلمون منهزمين

لمـــا عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والإعراض عنهم ، وثانياً من منعهم عن قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة عليهم ، ولم يضرب منهم بسيف ، ولا طعن برمح ولا رمي بسهم " .

إن في رواية ابن الأثير من أن الهزيمة قد تمت على المسلمين " ولم يضرب أحد مـــنهم بسيف ولا طعن برمح ولا مي بسهم " مبالغة وتجاوز للحقيقة ، ذلك أن صاحب أعمال الفرنجة وهو شاهد عيان ، يذكر خلاف ذلك ، فهو يقول : " بعد أن فـــرغ الجميـــع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحـــتفالات التي أقاموها في شتى الكنائس أخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما انـــتهوا من ذلك كله تناولوا القربان ، الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

ثم شـــكلت ســـت فـــرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون ، وكونت فلاندر ، وفي الثانية دوق جودفري ورجاله ، وفي الثالثة روبرت الترمندي مع فرسانه ، وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص ، وكان معه رجاله وأتـــباع ريموند الصنجيلي الذي تخلّف لحراسة الحصن خوفاً من هجوم الترك عليه ومـــنعاً لهـــم من النُزول إلى المدينة ، وكان في الفريق الخامس تنكريد ابن المركيز بصحبة رجاله ، وفي الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه

ولمـــا تدثـــر أسقفنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين إليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، على حـــين اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنـــا مـــن ناحيـــة البـــاب،

المقابل للمحمرة .

ولمـــا رأى كربوقا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة في إثر الأخرى قال : " دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حين ذاك خيراً مما لو كـــانوا في أيدينا " . إلا أنه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجية تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة ، أن يعلن الارتداد إذا شاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، إذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك.

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في أثره بـــالخطى نفسها ، ثم انشطر الترك شطرين ، اتجه إحداهما ناحية البحر ، على حين أقام رجال الفريق الآخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يبيته العـــدو لهـــم ففعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفري وكونـــت ترمندي ، وألقوا قيادتها إلى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شـــرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين وأحدقت برجالنا تنضحهم بـــرماحها وترميهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر ، أن لم تعـــد لهـــم القدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم ويلوذوا بالفرار ، فلما تبين هؤلاء الإشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شـــطر معســـكره ، وتوجه الدوق جودفري وهيج العظيم ، وكونت فلاندر إلى ســـاحل النهر ، وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كـــرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى ، فتعالى صياح الترك

والفـــرس ، أمـــا نحن فقد مجدنا الإله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وإياهم في القتال وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استـــولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في آثارهم حتى خيـــامهم ، وآثـــر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن قصهم إياهم أجدى من الاســـتيلاء عـــلى الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي ... فخلف العدو وراءه خـــيمه وذهـــبه وفضـــته وكثيراً من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبيذ والطحين ، وكثيراً غير ذلك مما كان يلزمنا " .

وســـقطت عقـــب هذاه الهزيمة قلعة أنطاكية في (٢٨ تموز ١٠٩٨م) وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوباً ، وكان قبل أن تسقط أنطاكية ، وحـــتى قـــبل أن يصـــل الصليبيون إليها ، انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخي جودفري ، الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية ، وتوجهت من مرعش شـــرقاً ، فتمكـــنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية ، وأخيراً وصلت إلى الرها فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لإحدى إمارات الصليبيين في الشـــرق ، وكان من أسباب نجاح هذه الفئة ومن أسباب النجاح عند أنطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا يدينون بالمسيحية ، وكانوا إما سرياناً وإما من أصل أرمني [1] .

يضـــاف إلى هـــذا ان ســـيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية مكـــروهة ، وليس لها قواعد متينة ثم أن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان

---

[1] أعمـــال الفـــرنجة : ٨٢-٨٥-٨٦-٩٢-٩٦ ، ابن القلانسي : ١٣٣-١٣٦ ، العظيمي : ١٩١ و ظ ، الكـــامل ط القاهـــرة : ٨/١٨٦-١٨٧ ، زبدة الحلب : ٢/١٢٩-١٣٨ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٨٩/٦ ظ ٩٠ و ، الحـــروب الصليبية لرفيق التميمي القدس : ١٩٤٥ ص ٤٤-٥٠ ، الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ : ٢/٢٠٠-٢١٨ .

على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر ، ثم إن الأرض لم تكن بعد أرضاً تركمانية والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم ، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني ، إنما بلا ريب من القوة والكفاية بمكان.

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوباً ، وذلك بعد أن جعلوا أنطاكية مركزاً لإمـــارة صليبية ثانية في الشرق واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حـــلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ، فلقد استولوا عـــلى الـــبارة ، وأتوا على معرة النعمان وعلى معظم من كان فيها من سكان ، وأخذوا يجردون حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا إلى أسوار المدينة ، ولقد ضـــعف أمر رضوان في حلب كثيراً ، فأخذ يفتش عن مخرج يحتفظ به بحكمه في حلب ، وبات يبحث عن حلفاء يساعدونه في الإبقاء على حكمه ، وإذا أمكن في الاســـتيلاء عـــلى بعض الأراضي التي كانت في أيدي بعض الحكام المسلمين مثل آفامية وحمص ودمشق ، ولقد وجد في أتباع هذه الدعوة الإسماعيلية الجديدة التي أسســـها حســـن الصباح الحليف ومنح رضوان أتباع هذه الدعوة ودعاتها الحرية للعمل والتصرف بحلب .

ولقـــد أغضب هذا كله أهالي حلب ، ودفعهم للعمل للتخلص من رضوان وقـــاد المجن الفوعي بركات بن فارس ، رئيس حلب ومقدم أحداثها الحركة ضد رضوان " وكان هذا المجن أولاً من جملة اللصوص والشطار وقطاع الطرق الذعار فاستتابه قسيم آق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفائته ومعرفته بالمفسدين وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الآخرة بالفوعه [1] . ويسري إلى حلـــب

---

[1] الفوعة تتبع الآن معرة مصرين التابعة لمحافظة حلب ، وتبعد عن معرة مصرين مسافة (٤كم) وعن إدلب (١٣ كم) انظر التقسيمات الإدارية في الجمهورية العربية السورية دمشق ١٩٥٨ ص ٢٥٠ .

ويسرق منها شيئاً ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة والصبح فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في أيام قسيم الدولة وأيام تاج الدولة ، وبعده في أيـام رضـوان وامـتدت يده ، وحكم على القضاة ومن دونهم ... وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء وأخذ الأموال وارتكاب الظلم " .

وأعلن المجن الثورة على رضوان وتعصب معه الحلبيون وساعدوه فسيطر على مديـنة حـلب ومصر وحصر رضوان في القلعة وهنا " أمر رضوان منادياً نادى بالقـلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع .فانقلب الأحداث عنه " وخذلـه الحلبيون وتخاذلوا عنه ، وأيد الأحداث الرئيس الجديد وأعطوه ولاءهم ، وقد أضعف هذا موقف المجن فاضطر إلى الاختفاء ، وبعد فترة ألقى رضوان القبض عـليه ، وعلى أولاده ، وذويه ، وأودع رضوان المجن السجن وهناك " عذبه عذاباً شـديداً بـأنواع شـتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فما عذبه به أنه أحمى الطشت حتى صار كالنار ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابـه وضب فيها الرزز والحلق . ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد والـلحم ، ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال : ويلك لا تعرف ، أحضر خشبة وضـعها عـلى الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل وثقـب الكعب . فلما فرغ قيل لـه تجد طعم الحديد ؟ ، فقال : قولوا للحديد كيـف يجـد طعمي ؟ ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل الملك رضـوان من ماله إلا ما قر به غلام أو جارية وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله . ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو الشرق ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين (١٠٩٨م)

وسلمت رئاسة حلب إلى صاعد بن بديع ، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عالٍ يا معشر أهل حلب من كان لي عنده مال ، فهو في حل منه [1] .

وازدادت مع الأيام قوة الصليبيين في الشام فتمكنوا من احتلال مدينة القدس فقد اقترفوا مذبحة شنيعة مروعة ذهب ضحيتها سكان المدينة ، ولقد ترك لنا صاحب أعمال الفرنجة وصفاً لسقوط القدس في (١٦ تموز ١٠٩٩م) ، فقال : " تقدم واحد من فرساننا واسمه ليتو واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار إلى داخلها ، فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردهم معملين فيها القتل والتذبيح ، حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ... ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل الشرقيين ومطاردهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم ... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات.

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل ، وهاجموا الشرقيين رجالاً ونساءً ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وصدر الأمر ... بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج

---

[1] ابن القلانسي : ١٣٥ ، العظيمي : ١٩٠ ظ ، الكامل ط القاهرة : ١٧٩/٨ ، زبدة الحلب : ١٣٨/٢-١٤١ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٩٢/٦ و .

بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسلم " .

ومع ازدياد قوة الصليبيين تقلصت قوة حكام الشام من التركمان ، ونقصت مساحة أراضي دولهم ، كما ازدادت خلافاتهم وتأصلت فرقتهم .

وفي (شعبان ٤٩٣ هـ / حزيران ١٠٠٠م) حقق الصليبيون انتصاراً كبيراً على رضوان بن تتش وعسكر حلب " فقتلوا خلقاً من الناس وأسروا خلقاً ، وفي هذا الوقت كان دقاق بن تتش وعساكره يحاربون في الجزيرة ، وطبعاً ليس ضد الفرنجة ، بل ضد التركمان حكام الرحبة ، وديار بكر ، وميافارقين ، واحتل دقاق ميافارقين ثم رتب فيها من ينوب عنه وعاد إلى دمشق .

ولم ينسَ رضوان أمام ما حل به بحمص ، ولم تمت مطامعه فيها ، فدبر مع مقدم الإسماعيلية أتباع الدعوة الجديدة أو الحشيشية كما دعاهم أهل الشام في حلب أمر اغتيال جناح الدولة حسين ، وفي (رجب سنة ٤٩٦ هـ ١٠٠٣م) وثب قوم من الباطنية كانوا في زي الصوفية عليه فأردوه قتيلاً في جامع حمص عندما وقف ليؤدي صلاة الجمعة ، ولم يحصل رضوان من هذا الاغتيال على حمص فقد راسل الذين تسلموا زمام الأمور بها بعد اغتيال دقاق صاحب دمشق ، فأسرع بالمجيء إليها " وتسلمها وأحسن إلى أولاد جناح الدولة ، وسار بهم إلى دمشق ، فأقر عليهم إقطاع أبيهم " .

ويبدو أن عملية اغتيال جناح الدولة شجعت طغتكين أتابك دمشق للتخلص من دقاق ، ولقد تولت أم دقاق زوج طغتكين مهمة التخلص من ابنها فزينت " له

Damascus University

جاريــة فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم " ، وكان هذا في العام الذي تلى عام اغتيال جناح الدولة [1] .

وفي العام الذي تلى وفاة دقاق أي (٤٩٨ هــ / ١١٠٥م) أوقع الصليبيون برضــوان بن تتش وأهالي حلب هزيمة كبيرة جديدة قرب أرتاح وهو حصن كان يقــع قرب حلب ، ولقد قتل من المسلمين في هذه المعركة " مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين ، وقصد الفرنج حلب فأجفل أهلــه ، ونهــب مــن نهب وسبي من سبي ، واضطربت أحوال حلب ... وتبدل الخــوف بعد الأمن والسكون " وجرد الفرنجة حلب من معظم أملاكها إلى درجة أنــه لم يــبقَ في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه ، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء ، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية هي غير آمنة " .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فمضى بعضهم في سنة (٥٠٤ هــ / ١١١٠م) إلى بغــداد واستغاثوا في أيــام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر فجهز السلطان محمد بن ملك شاه الــذي خلف بركياروق مودوداً صاحب الموصل ، وأحمد أيل الكردي وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة ، ومات سكمان قبل وصوله إلى حلب ووصلت العســاكر إلى حلب فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوههم ، وأخذ إلى القلعة رهــائن عــنده من أهلها لئلا يسلموها ورتب قوماً من الجند والباطنية ، الذين في خدمــته لحفــظ السور ، ومنع الحلبيين من الصعود إليه ... وبقيت أبواب حلب

---

[1] أعمال الفرنجة : ١١٨-١٢٠ ، ابن القلانسي : ١٣٧ ، ابن عساكر : ٥٠/٦ ظ ، العظيمي : ١٩١و ، ١٩٢و ، الكــامل ط القاهــرة : ١٨٧/٨-١٩٠ ، زبدة الحلب : ١٤١/٢-١٤٧ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ١٩٧/٤ ظ ، ٩٨و ، ٩٢/٦ و ، الحروب الصليبية [illegible]

مغـلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه ، وكثرت اللصـوص ، وخـاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسـلموا البلد ، وترك الركوب بينهم ، وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر ، أي عساكر مودود وأصحابه ليأخذونه " .

واضطر مودود وأصحابه إلى الرحيل جنوباً ، وقرب شيزر انتصروا على فئة من الصليبيين وقام تحالف بين مودود وطغتكين اتابك في دمشق ، لكن عندما بدأ هـذا الـتحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في (يوم الجمعة الأخـيرة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥ تشرين الأول ١١١٣م) ، وكان فعلـته من الحشيشية ، ولا ندري مدى حصة رضوان في الإعداد لهذا الاغتيال ، ومهما يكن الحال فإن رضواناً لم ينعم بالحياة بعده ، إذ توفي هو الآخر في كانون الأول من السنة نفسها ١١١٣م) ، ولقد " كان الملك رضوان نحيلاً شحيحاً يحب المال ، ولا تسمح نفسه بإخراجه ، حتى إن أمرائه وكتابه كانوا ينبزونه بأبي حبة ، وذلـك هو الذي أضعف أمره وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية ، وجدد في حلب مكوساً وضرائب لم تكن " وعندما توفي رضوان ترك شمالي بلاد الشام في حالة لا تحسد عليها ، ولقد خلفه في حكم حلب ابنه آلب أرسلان ، وكان آلب أرسلان هـذا صـبياً في التاسعة عشر من عمره " ألثغاً لا يحسن الكلام ، فدعي بالأخرس لذلك ، وكان مهوراً قليل العقل سفاكاً للدم منهمكاً في المعاصي " .

ولقـد اقتتح حكمه بقتل اثنين من أولاد أبيه ، وتدهورت أحوال حلب في زمـنه كثيراً ، ولقد سبب حمقه انفضاض من بقي من الناس من حوله ، وفي زيادة الدمار في شمالي الشام ، وخاف رجال الحكم في حلب على أنفسهم منه ، فدبروا

اغتياله ، وكان ذلك بعد سنة من وفاة والده رضوان [1] ، وبمقتله طويت صفحات حكم أسرة تتش في الشام ، ولقد كانت صفحات قاتمة ليس فيها إلا الدمار والقتل . وفي ساعات الظلام الدامس هذه التي كانت مخيمة على الشام ، كانت هناك تباشير للنور أخذت تلوح مشرقة من الشرق حتى الموصل ، ومن الموصل أخذ النور يزداد حتى عم الشام كله ثم انتقل إلى مصر .

ولعل من المفيد أن نلحق بهذا الفصل ملحقاً موجزاً عن التاريخ السلجوقي بعد مقتل تتش ، وليكون بمثابة مدخل إلى الفصل التالي .

فبعدما انتصر بركياروق صار سلطاناً للدولة السلجوقية ، لكن أيامه لم تطل إذ توفي سنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٤م) وتميز عهده بدوام الحروب الأهلية بين التركمان وبانفراط عقد وحدة الدولة السلجوقية وتمزقها إلى عدة دول ، وبشهود بلاد ما وراء النهر تحركات بدوية جديدة .

وبعدما توفي بركياروق تقرر نقل مذهب السلطنة لأخيه محمد طبر ، وكان محمد هذا قد صارع بركياروق على السلطنة ، وتدخل في الصراع أخ ثالث لهما عرف بسنجر ، وقبيل وفاة بركياروق تم الاتفاق بين الأخوة الثلاثة على أن تكون خراسان ومنطقة ما وراء النهر إلى سنجر ، وأن يكون العراق لبركياروق ، بلاد الشام والموصل وبعض المناطق الأخرى لمحمد طبر ، وحمل كل واحد من الثلاثة لقب سلطان ، وأصبحنا الآن نرى بين السلاجقة نوعين من السلطنة : سلطنة عظمى تسيطر على الخلافة في بغداد ، وسلطنة أدنى يسيطر صاحبها على بعض المناطق ، ويدين بالطاعة الاسمية للسلطان الأعظم .

---

[1] ابن القلانسي : ١٤٢-١٩٢ ، العظيمي : ١٩٢-١٩٧ و ، الكامل ط القاهرة : ٨/٢٢٢-٢٦٨ ، بغية الطلب أحمد الثالث : ٣/٢٨٨ ظ ، ٢٩٠ و ، ٦/٨٩ و ، ٩٤/ ظ ، زبدة الحلب : ٢/١٤٦-١٧٢ .

وليس في عهد السلطان محمد طبر ما يميز سواه ، سوى أنه انشغل في حل المشاكل الداخلية ، بخاصة مشكلة الحشيشية الفرقة الإسماعيلية الجديدة التي أسسها حسن الصباح ، فاستولت على عدد من القلاع الحصينة على رأسها ألموت ولمسر ، وباشرت تمارس الاغتيال السياسي ، ولقد جرد طبر عد حملات ضد الحشيشية ، ولكن جميع هذه الحملات لم تأت بنتيجة حاسمة ، وتوفي السلطان محمد طبر سنة (٥١١ هـ / ١١١٧م) ، وبعد وفاته تجدد الانشقاق بين التركمان وقام صراع من أجل خلافته [1] .

لقد أوصى السلطان محمد طبر بولاية عهده إلى ابنه محمود ، وكان عندما توفي أبوه في الرابعة عشرة من عمره ، ووافق الخليفة المستظهر بالله العباسي على ذلك ، لكن السلطان سنجر صاحب خراسان وجد أن من حقه أن يعلن سلطاناً أعظم للسلاجقة ، وسبب إعلانه هذا وقوع الحرب بينه وبين محمود ، ولقد هزم سنجر جيوش محمود ، ثم استقبل ابن أخيه وعفا عنه وعينه نائباً له في العراق ، وعاد إلى خراسان إذ شغل نفسه هناك لمدة تزيد على الأربعين عاماً .

وتأثر سنجر ومملكته بأحوال الصين آنذاك ، فقد تخلصت الصين من حكم سلالة لياو (liaeo) التي كانت شعوب الخطا التركية ، وتحرك الخطا غرباً مغادرين الصين ، فضغطوا على سواهم من قبائل الترك في منطقة ما وراء النهر ، وهكذا تهددت أملاك سنجر في هذه المنطقة ، وكانت القبائل التي هددت أملاكه من الغز والقرلق ، وفي سنة (٥٣٦ هـ / ١١٤١م) هزم هؤلاء السلطان سنجر في معركة قرب سمرقند ، واستمر الصراع بين سنجر وهذه القبائل بعدما نزلت في مناطق خراسان وتمكن الغز من هزيمة سنجر وأسره سنة (٥٤٨ هـ / ١١٥٣م) ، وقد

---

[1] الحسيني : ٧٩-٨٤ ، العماد الأصفهاني : ٨١-١٠٦ ، الراوندي : ٢٣٤-٢٥٥ ، الحشيشية : ٦٨-٨٣.

بقـــي سنجر في آسرهم مدة ثلاث سنوات هرب بعدها ، ووصل إلى مرو إذ توفي بعد قليل من سنة (٥٥٢ هـــ / ١١٥٧م) .

وبمـــوت سنجر انتهى عصر مهم من تاريخ الدولة السلجوقية ، فلقد تفتت السلطنة إلى عدة سلطنات ، ودول أتابكية كان أشهرها ، دولة سلاجقة العراق ، ودولة سلاجقة الروم ، ودولة سلاجقة كرمان ، وأشهر الدول الأتابكية ، أتابكية الموصل ، وأتابكية سنجار ، وأتابكية الجزيرة ، وأتابكية دمشق .

نتائج قيام السلطنة السلجوقية :

ـ لقد استطاع السلاجقة تأسيس إمبراطورية واسعة ضمت لأول مرة منذ أمد بعيـــد أجزاءً من الأرض لم تعرف الطاعة للعباسيين منذ عهد حكم الخلفاء ، ولقد كـــان الســـلاجقة مســـلمين سنة ، واحتفظوا بالخلفاء حكاماً اسميين ، لكن قيام الإمـــبراطورية الســـلجوقية قد قوى الخلافة ، وبعث الحياة فيها ، فلقد امتد نفوذ الخـــليفة ـــ ولـــو كـــان اسمياً ـــ على مناطق جديدة ، كما أن محاربة السلاجقة للشيعة قد قوى من مركز الخليفة العباسي السني .

وكـــان لقب السلطنة الذي أطلقه حكام السلاجقة على أنفسهم من بعض الجوانب تطوراً لمنصب إمرة الأمراء ، واستمرار للتقاليد التركية في الحكم المزدوج واســـتمر اســـتعمال هذا اللقب فيما بعد من قبل الحكام وأصحاب السلطة دون الخـــلفاء ، ولقـــد اعتمد السلاجقة في حكمهم وإدارتهم على طبقة من الإداريين الفرس ، وكانت تقاليد السلطنة عندهم مزيجاً من التقاليد التركية والفارسية ، التي نمـــت زمـــن الدولة السامانية ثم الدولة الغزنوية بعدها ، ولقد تطور نظام الإقطاع العسكري زمن السلاجقة ، كما وجد لديهم نظام الأتابكية ودول الأتابكة ، فلقد كان من عادة سلاطين السلاجقة الزواج من أكثر من امرأة ، ولما كان الإسلام لا

يسمح بالجمع بين أكثر من أربع حرائر ، ثم لوجود عدد من الضباط سادة العشائر التركمانية بين حاشية السلطان ، فقد كان السلطان يقوم بتطليق بعض زوجاته ويمنح المطلقة أمرائه ، ويعهد إليه بتربية ابنه منها ، ويصبح الأمير عند قيامه بهذا العمل أتابكاً ، ولفظة أتابك مؤلفة من كلمتين (أتا وبك) وتعني أتا عم أو أب ، وتعني بك أميراً ، فالأتابك هو الأمير العم ، وأسس بعض التابكة دولاً كان أشهرها دولة أتابكة الموصل ، التي أقامها عماد الدين زنكي ، التي اشتهر منها ابنه نور الدين رجل الحروب الصليبية الأول .

ولقد أحدثت هجرة التركمان إلى إيران والعراق والجزيرة والشام تأثيراً بشرياً واجتماعياً كبيراً ، فلقد أزالت الهجرة طبقات الأرستقراطية المحلية ، وأحلت محلها طبقات تركية جديدة ، كما أن الهجرة جلبت أعداداً وفيرة من الترك ، ولقد اختلط الترك بسلاطين المنطقة المحليين أو طردهم . وأدى هذا إلى ردود فعل كبيرة تجلت في عدة مظاهر كان أبلغها وأخطرها حركة الحشيشية ، وهي حركة أسسها حسن الصباح بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر سنة (١٠٩٤م) ، وقسم آخر أيد المستعلي ثاني أولاده ، ولقد عين المستعلي على عرش القاهرة وقتل نزار في الإسكندرية ، وكان حسن الصباح ممن خرج على المستعلي وقال بإمامة نزار ، واستطاع حسن الصباح أن يستولي على عدد من القلاع الحصينة ، ومارس الاغتيال السياسي وسيلةً للقضاء على الخلافة السنية وعلى دول السنة .

وعلى الرغم من قيام حركة الحشيشية فلقد عجل قيام الدولة السلجوقية في انتعاش الفكر السني وإعادة سيطرته على العالم الإسلامي ، بعدما كان واقعاً تحت نفوذ الشيعة وتقلص في كل مكان ، وأدى الانتعاش السني مع تفتت السلجوقية إلى انتعاش مؤسسة الخلافة ، وأخذ خلفاء بني العباس يعملون من أجل التحرر من

نفوذ السلاجقة ، وخاضوا في هذا السبيل عدة معارك سياسية وحربية واجتماعية وحقق العباسيون نجاحات كبيرة في هذه الميادين ، وبرز هذا خاصة في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٤-٦٢٢ هـ / ١١٨٠-١٢٢٥م) .

فلقد شجع هذا الخليفة حركة الفتوة ، وأراد أن يجعل من مبادئ هذه الحركة رابطاً يوحد ممالك الدولة العباسية [1] ، كما أن هذا الخليفة قام بأعمال كثيرة في سبيل تقوية دولته ، ودخل في تحالفات داخلية وخارجية .

إن هذا الموضوع من الخطورة بمكان ، وسنقف عند بعض أخباره في الفصل التالي مع أمل العودة إليه فيما بعد أثناء الحديث عن التاريخ المملوكي .

---

(1) انظر كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلي .

Damascus University



الفصل السابع

الإمبراطورية المغولية

Damascus University



الإمبراطورية المغولية

هـــنالك في غرب الصين وشمالها تقع رقعة شاسعة من الأرض تنبع منها أنهار سيبيريا العظيمة ، وتؤلف السهوب جزءاً كبيراً منها ، ويتكون الباقي من صحارى والمناخ في هذه الأماكن البعيدة عن البحر هو مناخ قاري ، تتخلله تغيرات متطرفة في درجـــات الحرارة ، ويؤلف الشرخ الذي تقع فيه بحيرة بايكال الحدود الشمالية لهذه الرقعة ، أما في الغرب فهناك عقدة جبال ألطاي العالمية ، فبعد أن هدأت جلبة ذلك الطوفان العظيم المتجه شرقاً من هجرات الشعوب الهندو ـــ أوربية أصبحت هـــذه الرقعة نحو عام ٢٠٠ ق.م المكان الذي تجمعت به قوى متنافرة ، قدر لها أن تكـــون ســـبباً في تغيـــير الصورة البشرية لسكان أواسط آسيا وتحديد شخصيتها الأساســـية حـــتى هذا اليوم ، فلقد كانت هذه المنطقة مقراً لسكن أمتين مختلفتين تعيشان جنباً إلى جنب ، وتجمعهما خصائص مشتركة كثيرة ولكن تفرقهما اللغة وهاتـــان الأمـــتان هما الأتراك والمغول ، فمن بداية العصر المسيحي نجد المصادر الصينية تذكر باطراد جماعات تنتمي لكل من هاتين الأمتين تقوم بغارات متكررة بقصد السلب والنهب ، وهذا ما جذب انتباه الصينيين ، ولكن بناء السور الصيني العظيم أخيراً وضع حداً لتدميرهم وتخريبهم ،

إن هجـــرة قـــبائل الهون إلى الغرب بدأت من هذه المنطقة على حين بدأت البـــنية السياســـية للأتراك تتبلور في هذه المنطقة أيضاً ابتداءً من القرنين السادس

والسابع الميلادي بعد أن تأثروا بكل من الثقافتين الإيرانية والصينية ، وقد استطاع هـؤلاء الأتـراك أن يندفعوا باتجاه المناطق الجنوبية الغربية إلى الأراضي التي سميت باسمهم وهي تركستان .

وقـد أنشأ الأتراك كيانات سياسية مثل دولة كوك ترك وأوغور ولم تشغل هـذه الكيانات مكاناً فعالاً في شؤون آسية فحسب ، بل بسبب سياستهم الدينية ونشـاطهم الـتجاري ، قاموا بأثر رائد في تاريخ البشرية بأجمعها ، فلقد اجتاح الأتراك الأوائل مناطق نهر الفولغا حتى منطقة ما بين النهرين ، وأما المغول فقد بقوا في حالـة هدوء وركود في وطنهم خلال تلك الفترة ، ولم يشغلوا أي مكان على مسرح الأحداث العالمية ، وكان يشار إليهم غالباً باسم التتار ، وكان الاسم يطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر ، التي عاشت في أقاصي الأصقاع الشرقية ، ولكن اسم التتار اكتسب في هذه الأيام معنى آخر (كما سنبين فيما بعد) .

انقسمت الأمة المغولية إلى عدة أقسام وعدة قبائل ، ففي أقاصي الغرب بين أعـالي نهر أرتش ونهر أورخون شمال جبال (الطاي) سكنت هنالك قبيلة نيمان وبسـبب اقـتراب هذه القبيلة من قبائل الأوغور التركية في الجنوب ، لهذا فقد امتصـت قـبائل النيمان في مرحلة مبكرة عناصر متعددة من ثقافة آسية الوسطى كحـروف الهجـاء (الأوغرية) والديانة المسيحية حسب الطقوس النسطورية ، وبالنسبة للحضارة ، كان هؤلاء أكثر القبائل المغولية حضارة ، وعلى مقربة منهم سـكنت قـبائل كرايت الذين انضموا إليهم في الشرق وعلى امتداد جنوب نهر أورخـون ، وفي أواسـط الألف الأول الميلادي كانت أكثرية قبائل كرايت قد اعتـنقت الديانـة المسيحية حسب المذهب النسطوري ، وفي شمال كرايت على حـوض نهـر سلنجا الأوسط والأدنى عاش المركيت ، وفي غرب المركيت وشمال

النـسيمان عاشت قبيلة يورتاس المتخلفة جداً ، وقد صنف الصينيون التتار والقبائل المغولية طبقاً لدرجات حضارتهم إلى التتار البيض ، وهم من المنطقة الجنوبية شمال الحـدود الصينية مباشرة ، ثم التتار السود بعيداً عنهم إلى الشمال ، وأخيراً التتار المتوحشـون ، أو ساكنو الغابات ، الذين كانوا يعيشون على الصيد وقد اعتنقوا الديانـة الشامانية[1] ، وقد ظل الكهنة الشامانيون لعهد طويل يعدون الأشخاص الموثوقـين المعتمد عليهم أكثر من غيرهم في تلك المنطقة ، وفي الوقت نفسه الذي اعتـنق به هؤلاء المغول الديانة المسيحية ، بدؤوا يتقدمون سياسياً واقتصادياً ، وفي السنوات الأولى في القرن العاشر الميلادي أوقعوا بقبائل الكرغيز التركية وأجبروها على الجلاء من منغوليا إلى نهر ينسي وطردوا الخطا إلى الحدود الشمالية للصين .

وهـناك أسس الخطا إمبراطورية (لياو) الهامة ، وهكذا نتيجة لذلك بدأت اتصـالات المغـول الوثيقة والمنتظمة بالحضارة الصينية وفي الوقت تحركت قبائل النـيمان إلى الغـرب ، وبدأت تعيث في حملات تخريبية متلاحقة في أواسط آسية وسـقطت إمبراطورية (لياو) نحو عام ١١٢٥م ، وهرب فرع من فروع (لياو) غـرباً من الصين إلى منطقة حوض نهر تريم وفرغانة ، وهناك أسسوا دولة جديدة هـي دولـة قـرة خطاي التي دامت نحو مئة عام ، وبسقوط إمبراطورية (لياو) عـادت الحياة كما يبدو في بلاد المغول إلى سابق عهدها من الفوضى والصراعات وكـانت السـلطة تنتقل بين اتحادات تتألف من قبائل مختلفة تتنافر أحياناً وتتحد أحيانـاً أخـرى ، وكانت القضايا المتنازع عليها عادة هي السيطرة على القبائل والعشـائر الصـغرى ، وعلى تملك قطعان المواشي ، أو قل بصورة عامة السلب

---

[1] اصطلاح أطلق على مجموعة من الديانات البدائية ، التي استقطبت حول شخصية الكاهن الذي عرف في سيبيريا باسم (شامان) ومن هذه العبارة اشتقت التسمية الحديثة ، والشامان تصير إليه وظيفة وراثية أو باختيار سماوي ، ويمر في عدة أطوار حتى يتمكن من ممارسة

والنهب ، فلم يظهر أي نوع من مفاهيم ، أو حتى تصور مفاهيم ، حضارية عليا في تلك الحقبة .

وفي غمرة هذه الخصومات غير المتناهية ظهر شخص اسمه يسوغاي ، وكان سليل عائلة نبيلة قديمة من قبيلة مانخول (مغول) ولكن المصادر التاريخية تختلف في تحديد أهمية وسلطته ، فالكثيرون يصفونه بأنه قائد فئة من عشرة جنود على حين تصفه مصادر أخرى بأنه كان أميراً مستقلاً ، هذا ولا نجد في حياته عملاً بارزاً يميزها بل إنه قضاها في قتال مستمر دفاعاً عن أملاكه . وعندما مات في عام ١١٥٦م ، ترك عدة أبناء كان أكبرهم تيموجين في العاشرة من العمر ، وطبقاً للعادات المغولية فإنه كان يسكن مع عائلة ختنه المستقبلية ، وقد اضطر هذا الصبي بسبب المصيبة التي نزلت به أن يظل دائم التنقل منذ نعومة أظافره لتأمين حقوقه الوراثية ، وحتى يحقق إدعاءاته كان مجبراً على الالتجاء إلى أصدقاء أقوياء ذوي نفوذ .

واستطاع أن ينال الدعم والتأييد من قبل أمير كرايت طغريل (توريل) الذي ساعده في غزوته ضد قبيلة ميركت ، التي كانت قد أغارت على معسكره وخطفت زوجته (بورثي) وحققت له انتصاراته استعادة زوجنه (بورثي) مع كثير من الهيبة والنفوذ ، حتى إنه استطاع نحو عام ١١٩٦م أن ينتزع إعلان زعامته المتفوقة على قبيلة المانخول وفي الوقت نفسه حصل على لقب جنكيز خان (وهو اللقب الذي لا يزال معناه غير واضح لغوياً) وأيد أعيان القبائل المغولية وزعماؤها بما فيهم صديقه القوي جاموخا ارتقاءه وحيازته اللقب .

وسارت أعمال جنكيز خان ومجهوداته حتى ذلك الحين في مسارها الطبيعي واستطاع بفضل جهوده الخاصة أن يجمع حوله جمهرة من المؤيدين المخلصين ،

الذيــن كان يثق بهم ثقة عمياء ودونما تحفظ ، كما مكنته انتصاراته من أن يوزع العطايا السخية والمناصب العالية على مؤيديه وأنصاره ، وجذب نحوه قسماً كبيراً من العناصر المتأرجحة ، التي لم ينعدم وجودها أبداً في تلك السهوب ، لكن هذه الــتطورات لم تســاهم في تجاوز الترتيبات الداخلية والتقاليد القبلية الأرستقراطية لهــؤلاء الــبداة أو تخطيها ، ولم يكن لها أي تأثير في تاريخ العالم . ولكن نشاط تــيموجين وحيويــته كــانت تبــتغي أهدافاً أبعد وأجدى ، ولذلك فإن أعمال اللصوصية وقطع الطرق ، التي هي قضية تافهة بحد ذاتها ، أجبرته على اتخاذ بعض الإجراءات ضد صديقه القديم جاموخا ، وسواء دلت هذه النــزاعات على نشوء حركتين : إحداهما مؤسسة المجموعات العريضة التي تؤيد (جاموخا) ، والأخرى المؤسســة عــلى الحركة الأرستقراطية المؤيدة لجنكيز خان كما تدعي التحريات الحديــثة وبخاصــة التحريات التي تبناها الاتحاد السوفييتي أم لا ، وعلى الرغم من ذلــك فإن هذه القضية تظل مدعاة للشك في ضوء الوضع الراهن ، إذ لا مندوحة لــنا عن القول : إن الجيشين اللذين حدثا في منغوليا والتأثيرات الثقافية الطاغية ، التي نتجت عن الهجرات في القرون الماضية ، تسببت في نشوء توتر اجتماعي وجد لـــه متنفســاً في الخصــومات والــنــزاعات بين مختلف ملوك تلك السهوب وزعمائها ، وفي إحدى المعارك الفاصلة التي اشترك بها عدد لا يستهان به من الجند خــذل تيموجين ، واضطر إلى الانسحاب إلى منابع نهر أونون ، إذ مكث مدة ، فهو لم يستطع أن يسترد هيبته ونفوذه إلا بعد القضاء على قبيلة التتار ، ذلك الأمر سبب لــه الحظوة لدى أسرة كين التي كانت تحكم آنذاك في شمال الصين ، وهنا نــال حليفه طغريل (توريل) اللقب الصيني وانج خان ، وبدا الآن جلياً لزعماء القبائل المغولية الأخرى أن تيموجين كان يطمح للوصول إلى مركز أعلى بكثير مما

كان عليه قبلاً ، ورأوا أن الطريقة الوحيدة لمجابهته وكبح جماحه هي تكوين تحالف ضـــده جعلوا (جاموخا) رئيساً له وفي مواجهة هذا الوضع الخطير أظهر جنكيز خـــان جـــرأة وجسارة ودهاء لا يتسم بها إلا القائد البدوي الصلب ، وقد وضع جـــنكيز خان خططه على أساس أن يقهر كل قبيلة من أعدائه على حدة وبخاصة قبيـــلتي مـــركيت ونيمان ، وبذلك يصبح بقوة السلاح صاحب المقام الأول في منغوليا ، ومع ذلك فقد حاول خصومه محاولة أخرى يائسة للقضاء عليه ، وذلك بحبك مؤامرة اشترك بها (وانج خان) نفسه ولكن (تيموجين) علم بالمؤامرة في الوقـــت المناسب ، وهاجم وانج خان وقضى عليه وعلى قبيلة كرايت ، ولم يمض وقـــت طويـــل حتى سحق قبيلة نيمان وجاموخا ومركيت في معارك طاحنة عام ١٢٠٤م وقام بعد هذا بإفناء جزء من رجال القبائل المقهورة ، الذين بقوا أحياء ، وألحق قسماً منهم في وحدات جيشه ، ويظهر أن جاموخا قد أسر بعد ذلك بقليل وأعـــدم ، وأمـــا كوشلوغ قائد قبيلة نيمان الذي إما كان ، وإما أصبح مسيحياً نسطورياً ، فقد هرب باتجاه الغرب إلى قرا ـــ خطاي حيث استلم السلطة هناك.

إن سلسلة الانتصارات هذه التي بالكاد عرفت التوقف ، انتهت بالقضاء التام عـــلى جميع القبائل المعادية ، ورفعت مقام جنكيز خان في مدة عقد من الزمان إلى مركـــز الحـــاكم المطلق دون منازع لمنغوليا ومنحته سلطة فوق شعبه لم ينلها أي حـــاكم قبـــلي في حياته منذ أجيال ، وعمد الآن إلى توحيد جميع القبائل المنغولية تحـــت ســـلطانه وهكذا أصبح يرى نفسه أساساً لأمته ، ومعبراً عن إرادة الشعب المغـــولي ، وكانت أولى رغباته أن يمنح حق الشرعية للسلطة ، التي جسدها نجاحه في شخصـــه ، وفي ســـنة ١٢٠٦م اســـتعمل نفـــوذه لعقد اجتماع وطني عظيم (أوقوريـــلطاي) عينه به المجتمعون سيداً للمغول دون منازع ، وثبتوا لقبه جنكيز

خـان ، وكـرس هذا العمل رغبة جميع المغول ـــ التسمية التي دعت القبائل بها أنفسـها مـن الآن فصاعداً ، مشتقة ذلك من عبارة (مانخول) ـــ بأن يتصرفوا بـأمورهم السياسـية وحدة مستقلة ، كما أنه خلع على الحاكم الجديد سمة من سمـات الأمـور الخارقة للطبيعة ، أصبحت بها أوامره لا تتسم بالسلطة الدنيوية المطـلقة فحسـب ، بـل تتخذ طابعاً إلهياً أيضاً ، فقد اعتمدت التطورات المقبلة اعـتماداً كـلياً على إرادة جنكيز خان ونشاطه ونجاحاته العسكرية ، وصار هو وحده القادر على أن يعطي البرهان الكامل على سمو مقامه وجلاله اعتباره اللذين يحققان طموحات الشعب المغولي بأجمعه .

لا شك أنه كان للشعب المغولي طموحاته ، وإن لم يملك جميع أفراد المجتمع المغـولي درجـة الحماسة نفسها لتنفيذ تلك الطموحات وعلى كل حال كانت الجماعـات القياديـة تعـرف بالضـبط ما تريد ، وكما هو الحال في المجتمعات الإقطاعيـة نصف البدوية ، لم يكن يهمهم إلا أنفسهم ، وبالحب الغريزي لتملك الأرض الذي يمتاز به سكان السهوب بدا هؤلاء يتوقون لإخضاع المناطق المجاورة ذات الطـابع الحضاري المتفوق ، ولم يكن هدفهم الاقتباس أو تعلم أي شيء من الحضـارات الموجودة ، بل دفعهم حبهم للغنائم ، التي لا تعد ولا تحصى وأملهم بالحصـول على الرفاهية المنشودة في طرق الحياة ، لذلك لم يعودوا يهتمون بالقيام بحملات للسلب كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم منذ القديم ، بل أصبح هدفهم إنشاء دولة مترامية الأطراف ، وإمبراطورية عالمية تشمل جميع أنحاء العالم المعروف حيـنذاك ، وإن مـثل هـذه الأفكار على الرغم من أنها غريبة ، إلا أنها لم تكن بـالجديدة ، فالصـين كانت تعد منذ زمن طويل مركز العالم ، مع أن الصين لم تحـاول أن تحكـم العالم ، وإن مركز الإمبراطورية الصينية المتوسط ربما أسهم في

الإيحـــاء بفكـــرة الإمبراطورية المغولية البدائية . وقد أسهمت النظريات المسيحية بإيجـــاد الكنيســـة العالمية الموحدة التي تحكمها قيادة مركزية موحدة بهذه الفكرة أيضـــاً [1] ، وذلـــك أن بعض القبائل المغولية كانت قد اعتنقت الديانة المسيحية النسطورية منذ نحو قرنين من الزمان ، وهكذا فقد تسربت إليهم الأفكار المسيحية ولمـــا كـــان ليس لدينا سوى الاستنتاجات المنطقية إذ ليس هناك أية دلائل حسية مباشرة عن الأفكار السياسية المعاصرة ، فلذلك يبدو أنه قد حدث تحول غريب في الـــنظريات العقائدية المسيحية التي انقلبت إلى أفكار سياسية ، كان لها أهميتها في تطور مفهوم الإمبراطورية العالمية لدى المغول .

وانتشـــرت سمعـــة جـــنكيز خان وسادت أنظمته وتعاليمه في طول البلاد وعرضـــها خلال جميع أصقاع منغوليا ، وشعر أفراد الشعب المغولي بأنهم أصبحوا أصحاب رسالة عالية ، وأنهم جبلوا في طاقة عظيمة فأصبحوا جسماً واحداً طاغياً ســـرعان مـــا برهن بأنه قوة متفوقة على جميع الإمبراطوريات المجاورة ، ولم يحتج تـــيموجين إلى أكثر من بضع سنوات لإتمام التنظيمات الداخلية لدولته وللحصول عـــلى الأسلحة والتجهيزات عن طريق فتح علاقات تجارية جديدة ، ثم بدأ بتسيير الحملات الحربية التي أثمرت في إرساء دعائم الإمبراطورية المغولية العالمية ، وتوجه شرقاً في أول الأمر ضد الصين ، تلك البلاد التي كانت دائماً تدغدغ آمال المغول بسبب العلاقات الثقافية والتجارية منذ القديم ، وتوغلت قواته فيها حتى أصبحت أمـــام عاصمة أسرة كين بعد حملتين متواليتين عام ١٢١٥م واستسلمت لـــه تلك العاصـــمة أخيراً ، ثم انهارت الإمبراطورية الصينية الشمالية ، وبدأ المغول يوطدون

---

(1) إن العلاقـــات بين المغول والمسيحية موضوع خطير ، سنتناوله في دراسة وثائقية تتركز على نحو أساسي على العلاقات مع الكاثوليكية.

سلطتهم في النصف الشمالي للممتلكات الصينية الهائلة . أما الإمبراطورية الجنوبية فقد بقيت دون أن تمس ، وبقي ذلك مؤقتاً فقط .

إن سرعة الانتصارات في الشرق قد عنت الكثير بالنسبة للمغول ، فقد زادت مواردهم وملكوا الفرصة وتشجعوا بمغامرات جديدة ، وفوق كل شيء بث فيهم روح الثقة بنفوسهم وبقوتهم ، فإمبراطورية الصين الشمالية مهما كانت ضعيفة فإنها بدت قوية وعظيمة في أعين ساكني السهوب وإذا كانوا قد نجحوا في كسر هذه الإمبراطورية بسرعة فائقة ، فلم يكن ذلك إلا إشارة إلهية بأن السماء قامت بإسناد العالم للمغول .

وكان موقف الصينيين بالنسبة للغزو المغولي على العموم هو الموقف نفسه الذي وقفه الصينيون دائماً خلال تاريخ بلادهم الطويل ، قد خضعوا لسلطة الحكم الأجنبي ولكنهم أغرقوا هذا الحكم بقوة حضارتهم الهائلة ، التي سرعان ما استسلم لها ذلك الحكم استسلاماً تاماً ولكن الصينيين لم ينسوا أبداً أن هؤلاء الغزاة كانوا أجانب ، وأن حكمهم لا يتفق مع مبدأ السيادة الصينية في المملكة المتوسطة ، فمع ذلك التحق الصينيون بخدمة المغول ، وبصورة خاصة في العاصمة قراقورم التي ظهرت تلك الفترة على الآرخون الأعلى ، وأصبح أحد أبناء أسرة الخطا المهزومة وهو (بي ــ لو ــ تشو ــ تساي) وزيراً للخانات ، وأنجز أعمالاً هامة في بناء الإمبراطورية المغولية . ومن المؤكد أنه لم يكن وحيداً في عمله ، بل كان معه عدد كبير من الصينيين الذين كانوا يساعدونه زملاءً أو مرؤوسين في الإدارة ، أو عاملين حملة لرسالة الحضارة الصينية والتجارة ، وكان لتسرب الثقافة الصينية أثره المثمر في المغول ، فقد وجدت الأفكار الصينية طريقها إلى الياسا ، أي إلى لب الحياة المغولية ، وأصبح المغول يستعملون المفاهيم الصينية في فنون الحرب

والقـــتال ، كمـــا أنهم استعملوا الأسلحة الصينية ، بما في ذلك البارود في حملاتهم الحربية التالية .

إن صـــفات جـــنكيز خان الفائقة وشخصيته الفذة ، لا تظهر في انتصاراته العســـكرية فحسب ، بل في ميادين أخرى ليست أقل لأهمية ، إذ لا يسعنا إلا أن ننظر بإكبار وإعجاب إلى منجزاته مشرعاً قانونياً ومنظماً للأمة المغولية ، فقد جمع ورتب ووسع الفقرات القانونية ، التي كانت سائدة بين مواطنيه وأنتج " الياسا " أو القـــانون الأساسي للدولة ، ونظم هذا القانون الحياة العامة المغولية لمدة طويلة بعد موته [١] .

وبالإضافة إلى التنظيمات العسكرية فقد احتوى الياسا على مواد تنظيم الحياة المدنيـــة ، وشدد هذا التشريع على مبدأ الملكية الشخصية ، وهكذا عاقب السرقة وقطـــاع الطـــرق بصرامة وشدة متناهية ، إذ أصبحت عقوبة الموت توضع على الذنـــوب الصـــغيرة جداً ، كما نظمت الحياة العائلية أيضاً فأصبحت المرأة تتمتع باستقلال واسع واحترام عظيم ، ويظهر هذا لنا التباين الشاسع بين مركز المرأة هنا ومركزها عند الشعوب الأخرى ، وقد تميزت المرأة أيضاً بانخراطها رديفاً للجيوش أثناء الحملات العسكرية ، فلم تكن المرأة تهتم بإدارة شؤون المترل وتربية الأطفال فحســـب ، بـــل كـــانت ترافق الجيش في حملاته وتهتم بشؤون الرجال المحاربين وحاجاتهم ، وفي أثناء المعارك كانت النساء تحفظ في عربات خاصة في المعسكرات ولكن في حالة الطوارئ ووقت الخطر الشديد كن يشتركن بالقتال ، هذا الوضع

---

(1) معلوماتـــنا عن نصوص الياسا قليلة وأوسع الفقرات التي وصلتنا من هذا القانون يحفظها لنا مؤرخ مصر الإسلامية " المقريزي " انظر كتاب :

Furdamental PRI .Neiplos of Mongollaue py Valentin , A. Riasanavsry in Diana university 1965 .

المستقدم السَرَاقي للمرأة ، يفسر لنا سبب ظهور صور المرأة في الفن الشرقي للمرة الأولى في الفترة المغولية [1]، ولتأمين نفقات الدولة والإدارة نص على إقامة نظام ضرائب مزدوج مع ضريبة على رأسمال التجار ، كما أنشأ جنكيز خان خدمات بريدية رسمية تولت نقل معلومات المخابرات مع الأوامر والتعليمات من أدنى الدولة إلى أقصاها بسرعة مدهشة ، وهذه أيضاً ربما استعيرت من أساليب كانت متبعة لدى حضارات أقدم ..

إن الإحساس بالتفويض الإلهي لم يكن بالطبع كافياً لترجمة إرادة السماء إلى حقيقة واقعة وللوصول إلى هذه الغاية ، وكان من الضروري بناء قوة مادية متفوقة على قوى الدول المجاورة ، أو بكلمة أخرى تنظيم جيش هجومي ضارب ، ولقد ثبتت شجاعة الجندي المغولي في القرون الماضية ، وما إن حان الوقت لتكامل هذا الجيش على هيئة قوة وطنية هائلة ، حتى بدأ جنكيز خان بتنفيذ هذا الواجب دون إبطاء أو تلكؤ ، وقد قسم الجيش المغولي بكاملة إلى وحدات على أساس النظام العشري ، فأصبح كل عشرة جنود يؤلفون فئة يقودهم قائدهم وألفت كل عشر فئات من هذا النوع جماعة أو " قرن " وكل عشرة من هؤلاء صاروا يؤلفون كتيبة أو " شاياد " وقاد الجماعة المؤلفة من عشرة آلاف رجل (جنرال) وكونت تشكيلاً تكتيكياً مستقلاً ، وألحق كل جندي بقطعة معينة على نحو دائم ، ورتبت هذه الوحدات الأخيرة على شكل جماعات عالية التنظيم وزعت إلى : (ميمنة وميسرة وقلب) وكان هذا كما هو معلوم مظهر من المظاهر الدائمة للجيش ، ولم يبدع إبداعاً خاصاً أو نشأ عرضياً أثناء المعركة فقد تشربت روح الجيش

---

[1] في هذه المقولة شيء كبير من المغالاة تنفيها الدراسات الحديثة لحضارة الشرق وفنونه وخاصة الإسلامي منه ، فجدران قصر الحير حوت عدة صور نسائية وكثير غير جدران الحير من الأماكن حوى الشيء نفسه .

الجديد بالنظام الصارم ، وكان أي خرق للنظام أو تهاون في تنفيذ الواجب أو أي عمل جبان يعاقب دونما شفقة أو رحمة بعقوبة الموت ، وثقة جنكيز خان التي وضعها برفاق شبابه الذين أصبحوا الآن يتقلدون أرفع مناصب الجيش ، وضعت تحت تصرفه عدداً من الرجال المساعدين المدربين الممتازين ، الذين يستطيع أن يثق بهم ويعهد إليهم بتنفيذ جميع خططه وأوامره ، على حين كانت العادة اتباع النماذج الصينية لتي ربما أثرت في نظام تشكيلات الجيش ، إلا أن عبقرية جنكيز خان الفريدة أضافت وأثرت في هذا النظام والتشكيلات تأثيراً واضحاً .

" إن الأمم المتشبعة بالأفكار الدينية التبشيرية سواء أكانت تلك الأفكار روحانية صرفة أم ذات صفة دنيوية ، هذه الأمم تكتسب قوة هائلة ، ورغبة بالتوسع كما يظهر مثلاً عند ارتفاع شأن الإسلام [١] .

وما إن رست هذه الفكرة في أذهان الطبقات الحاكمة في الأمة المغولية ، حتى كان هناك ضغط شديد لتنفيذها ، وإن ارتقاء جنكيز خان كان يعني أن هنالك قائداً قد تم اختياره وأنيط به تنفيذ إرادة الشعب ، وليس هنالك من شك أن الخان العظيم الجديد كان يعتقد جازماً أنه يحمل تفويضاً إلهياً [٢] ، وكان موقفه بالنسبة للدول المجاورة ، كما تشهد بذلك كثير من المصادر المختلفة ، هو برهان ساطع على هذا القول ، كما يقول في كلماته الشهيرة التي رددها المغول في كل مكان " هنالك شمس واحدة في السماء وسيد واحد على الأرض " . وعندما بدأ جنكيز خان بإعادة تنظيم القوى الوطنية للمغول أخضعهم لنظام قاسٍ لم يكن

---

(1) هذه مغالطة ومقارنة في غير مكانها ، فالإسلام منذ بدايته له الصفة العالمية فالنبي (ص) بعثه الله لهداية البشر أجمعين ، وحين خرج المسلمون من شبه الجزيرة خرجوا لتحرير بني البشر وليس لبناء إمبراطورية .

(2) توحي المصادر الصينية المعاصرة لجنكيز خان وبخاصة كتاب (التاريخ السري للمغول) إنه أي جنكيز خان مارس مكانة الشامان بين قومه .

معروفاً من قبل ، ورأى في نفسه أداة ربانية ، وكان الرأي العام المغولي يميل للسير معــه قدماً في هذا المضمار ، إذ ليس هنالك أي تفسير آخر للحقيقة التي ظهرت ، وهي عدم وجود أية معارضة تستحق الذكر لسياسته بين أفراد شعبه ، وهكذا فقد اكتسبت الأمة المغولية القوة اللازمة لتأسيس إمبراطورية ليس لها مثيل في اتساعها ولم يشهد العالم خلال عصور التاريخ لها شبيهاً .

إن النجاح في الصين كان مؤشراً ونقطة انطلاق لانتصارات مستمرة للمغول فبعد سنتين فقط من انتهاء الحملة الصينية ، وجه جنكيز خان اهتمامه إلى الغرب ، حيــث كــانت في تلك المنطقة دولة خوارزم شاه ، وكان يحكمها محمد الثاني ، الــذي وصل آنذاك إلى قمة مجده [1]. لكن ما إن خضع الغوريون طواعية لحكم جــنكيز خان سنة ١٢٠٧م حتى ظهرت دولة خوارزم شاه بمظهر الخصم المرعب لــلمغول ، كمــا كــانت صــورة الصين الشمالية ، وكانت العلاقات المغولية الخوارزمشاهية غير واضحة المعالم ، وقد ذكرت المصادر الشرقية المتأخرة أن خليفة بغــداد النشــيط الناصر لدين الله (١١٨٠هــ / ١٢٢٥م) اتصل عندما تأزمت الأمــور بينه وبين محمد الثاني بالحاكم المغولي وحرضه على الهجوم على خوارزم شــاه من المؤخرة وتدل هذه الرواية على أن الخليفة نفسه الذي كان لا يزال اسمياً عــلى الأقل ، هو الرئيس الأعلى للمسلمين ، هو الذي جلب عليهم أعظم كارثة حــلت بهــم في التاريخ [2].وهنالك روايات معاكسة تقول إن محمداً الثاني كان

---

[1] أفضل مصادر تاريخ خوارزم شاه هو كتاب (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، تأليف محمد بن أحمد النسوي ط القاهرة ١٩٥٣ .

[2] تذهب الآراء إلى أن جنكيز خان وقومه كانوا لا يعرفون بوجود عراق ولا خلافة عباسية ولا بلدان العالم الثالث في الشام وسواه ، وإن رسالة الناصر إلى جنكيز خان هي التي حملت إليه هذه المعلومات لأول مرة وجعلته يخطط لفتوحات أوسع ، قد يكون هذا صحيحاً ، وقد يكون أصح منه إن رغبة المغول في فتح =

يـبدي قلقاً بالغاً حول معاكسة جيرانه في الشمال الشرقي ، وكان دائم الاهتمام للحصـول عـلى المعـلومات حول قوهم العسكرية وأحوالهم الداخلية بوساطة الجواسيس ، وفي المقابل كان التجار الذين أرسلهم جنكيز خان ليسوا مجرد تجار ، بـل كانوا جواسيس أيضاً . وعلى كل حال فقد كان محمد الثاني ينظر إليهم بهذا المنظار ، وكان يعدمهم بالجملة معدا القليل منهم .

وبسـبب سوء المعاملة التي لقيها ممثلو الحاكم المغولي ، لجأ رد الفعل المغولي إلى أسـلوب وطـريق لا مناص عنه ، وهو الإعلان السريع للحرب ، ولربما كان محمد الثاني غير عالم بذلك لأن ذلك الأسلوب لم يكن معروفاً في غرب آسية حتى ذلك العهد ، ولكن اتضح في عدة مناسبات تالية للعالم الإسلامي ، أن ذلك كان نتـيجة الغدر بسفراء المغول ومبعوثيهم ، فبعد أن رد جنكيز خان هجوماً قام به شـاه خـوارزم على نهر جيحون ، اندلعت جحافله إلى الأمام باتجاه خراسان ، وساقت جيش محمد أمامها سوقاً مذهلاً ، ترك انطباعاً شديداً على المنطقة بأجمعها فحـتى ذلـك الوقـت كان حكام خوارزم في إيران يعدون بأنهم لا يغلبون ولا يقهـرون ، ولكن الأمر انقلب الآن ، وأصبحت قدرهم وجبروتهم تتراجع وتنهار باستمرار أمام فيالق جنكيز خان ، والحقيقة أن أساليب الهجوم المفاجئة التي اتبعتها خيالـة المغول ، لم تكن السبب الرئيس في هذا الانهيار للأعداء ، لأن جيش محمد كان يحتوي على أعداد كبيرة من الأتراك الذين اعتادوا على مثل هذه الأساليب ، ولكن من المحتمل أن الجيش الخوارزمي قد دخل الرعب في قلوب جنده من جراء آلات الحصـار الجديـدة ، التي استعملها المغول ، وهي ذات أصل صيني كما أنه

= أراضي خوارزم شاه أسبق من رسالة الناصر المزعومة ، وإن فتح أراضي خوارزم شاه وسع رقعة دولة المغول ، وجعلها تجاور أراضٍ إسلامية جديدة ، لذلك قامت الرغبة مجدداً على فتحها وهكذا ...

ليس من الخطأ أن نعزو انكسار محمد الثاني إلى عدم فعالية جيشه متعدد الجنسيات ثم إنــه كان كلما توغل الجيش المغولي غرباً ، زاد عدد الأتراك الذين انضموا إليه طوعاً أو كرهاً ، ففي أيام الزحف على خراسان ، كان جيش جنكيز خان يتألف مــن الأتــراك بصورة رئيسية شبه عامة وكان جنكيز خان يعمد دائماً إلى إغراء الأتــراك الذيــن كــانوا يخدمون في جيوش الأعداء ، بأن يهجروا تلك الجيوش وينضــموا إلى جيشــه مذكراً إياهم بالحماقة التي يرتكبونها إذا استمروا بممارسة التراع الأخوي ، ولقد عانى محمد الثاني مشاكل من هذا النوع مع رجاله في ابتداء تــلك الحملة مباشرة ، على حين أثرت بعض الانتفاضات التي حدثت في مؤخرة جيشه في موقفه وسببت خسرانه لرباطة الجأش اللازمة لكسب أي معركة .

وجعــل التراجع والهرب المستمر لمحمد الثاني من المستحيل على مراكز المدن العظــيمة في خراسان (وما وراء النهر) مثل مرور بخارى وسمرقند ، أن تبقى في وضــع يمكنها من المقاومة الإيجابية مدة طويلة ، فلم يعد لدى هذه المدن أي أمل بالمساعدة أو الغوث ، مادام الجيش الخوارزمي يتراجع ويتراجع ، فبعد أن رفضوا الــنداءات الأولية للاستسلام(وكانت هذه العادة المتبعة لدى المغول في حروبهم) شدد الحصار وبمساعدة الأساليب الحديثة من أسلحة الاقتحام مثل الكبش والمجانيق والنيران الحارقة والتدخين ، هزمت هذه المدن وأخذت عنوة وكان مصيرها رهيباً فقد ذبح قسم عظيم من السكان دونما شفقة أو رحمة [1] . وأدت هذه الكارثة إلى تحطيم الازدهار الاقتصادي والثقافي في آسية الوسطى ، فلم تستطع تلك المدن منذ

---

[1] أتت المصادر العربية و الإسلامية على وصف ما قامت به الجيوش المغولية مثل سيرة جلال الدين منكبرتي والكــامل في التاريخ وجامع التواريخ وتاريخ الجويني كما أن يوميات الراهب التاوسي شانق شن الذي اســتقدمه جنكيز خان ليعلم قومه الأبجدية ، قدمت وصفاً وثائقياً لحالات الدمار في خراسان وما وراء النهر ، ونقوم الآن بتعريب هذه اليوميات لنشرها .

تلك الكارثة أن تستعيد مكانتها السابقة إذ كانت مراكز حيوية في صرح الحضارة الإسلامية ، وكان من سياسة المغول أن لا يتعدوا على العلماء والفنانين والحرفيين الذيـــن ممكـــن أن يستفيدوا منهم ومن خدماتهم ، وكذلك النساء والأطفال كي يســتخدموهم عــبيداً ، وقد تركوا بعض الرجال في سن الجندية أحياءً أيضاً كي يســتخدموهم كبش فداء في حصار تالٍ ، أو أي هجوم إذ كان يقذف بهم أمام الجــنود المغول ويجبرون على صدام بني جلدتهم ، ولم يكن هنالك أي مهرب أو مــنجى لهــم من تلك الورطة ، فإما أن يهاجموا اسوار بلدانهم ، وإنما أن يحصدوا دونما شفقة أو رحمة .

إن هـــذه الأساليب المخيفة وانسحابات محمد الثاني المستمرة فتحت الطريق خلال بلاد خراسان الشمالية أمام قائدي جنكيز خان ، وهما سوبوتاي وجبه (أو شــبه) ، وفي مدى عامين اندفعا حتى وصلا إلى هضبة أذربيجان إذ لم يصادفا أية مقاومـــة تذكر ، إلا في تلك الهضبة ، ومع أن هذه المقاومة لم تكن منظمة إلا أنها استمرت لعدة سنوات بقيادة جلال الدين منكبرتي [1] .

وهو أحد أبناء محمد الثاني (الذي كان قد توفي في أثناء تلك الحروب) وكان جـــلال الدين هذا مغامراً شجاعاً ، وقد تنقل في إيران من القوقاز إلى نهر السن ، ثم رجـــع إلى شمال الهند ، قبل أن يباغته المغول بالالتفاف عليه ، ثم ظهر في العراق ثانيـــة ، وبعدهـــا في جورجيا ، وكان يشتبك دوماً مع سرايا المغول ، ولكنه قتل أخيراً في عام ١٢٣١م على يد أحد رجال العصابات الأكراد .

وفي هذه الأثناء كان المغول قد اندفعوا عام ١٢٢٣م حول الطرف الشرقـــي

---

(1) هـــو ابـــن خوارزم شاه وخليفته ، دون أخباره تدويناً مفصلاً ، معاصره محمد بن أحمد النسوي بالعربية بكتاب اسمه (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي) وقد طبع في القاهرة سنة ١٩٥٣م .

لـلقوقاز ودخلوا روسيا الجنوبية ، وفي معركة نهر كلكا ، قضوا قضاءً مبرماً على جيـش بقيادة بعض الأمراء الروس الذين استعدوا بسرعة للقاء المغول ، وبعد هذا عمـد المغـول إلى نهب بعض المدن في (القرم) ولكن بناءً على أوامر من جنكيز خان ، عادوا إلى الاتجاه شرقاً ، وهكذا كانت المناطق التي هاجمها المغول من آسيا الغربية وأوربا الشرقية هي مناطق محدودة ، ولم تضم هذه المناطق إلى الإمبراطورية المغولية ، أما بلاد العجم الشمالية ، وبخاصة بلاد خراسان فقد مكثت تحت حكم المغـول ، في حـين بقيـت حمـلة عام ١٢٢٣م على القوقاز وروسيا مجرد قصة استطرادية ، تقف على قدم المساواة مع الغارات التي كان يقوم بها الأتراك الرحل والـتي كان الأمراء الروس قد عانوا منها في تلك الأيام ، ولكن دون أن يكون لها أي انعكاس على البنية السياسية في شرق أورية .

وكـان جنكيز خان يخطط للقيام بهجوم جديد على الأقاليم الشرقية ، لكن في نحو ١٨ آب عام ١٢٢٧م وافاه الأجل المحتوم ، فتعطلت خططه مؤقتاً ، ولكن الإمبراطورية التي أسسها بقيت ، ففي الأزمة التي تبعت موته لم يتجرأ أي عدو من أعدائـه على رفع النير المغولي والتخلص من تحكمه ، ولكن وحدة الإمبراطورية لم يحـتفظ بها تماماً ، فقد كان قرار جنكيز خان ووصيته أن تقسم الإمبراطورية بين أبـناء زوجـته الرئيسة الأربعة ، الذين كانوا قد اشتركوا اشتراكاً فعلياً في الحكم أثناء حياته ، وطبقاً للتقاليد المغولية القديمة ، كان الابن الأصغر هو الوارث الرئيس والوصـي عـلى أمـلاك والده ، وأخذ بهذا المبدأ فقد أصبحت الأراضي المغولية الأساسـية من نصيب الابن الأصغر الذي كان يدعى تولوي ، وأما الأبناء الثلاثة الـباقون فقد كان توزيع المملكة بينهم كما يلي : " أخذ جغتاي الأراضي الواقعة شمال نهر جيحون ، وشمال برقة ، والتي يدعوها السكان في الغرب بمنطقة ما وراء

النهر ، وأخذ أوكتاي الأراضي الواقعة في أقصى الشرق ، وأما الأكبر جوجي فقد نال الأراضي الواقعة في الغرب ، أي روسيا ، ولم يكن هذا التقسيم دقيقاً تماماً لأن الإمبراطورية لم تكن قد وصلت إلى الاتساع الذي كان يتصوره جنكيز خان فقد كان يطمح بالتقدم نحو البحر الغربي ، مع أن معلوماته عن جغرافية الغرب كان يشوبها الغموض ، وفوق ذلك فقد توفي الابن الأكبر جوجي قبل موت والده بستة أشهر ، وهكذا أصبح أبناؤه الورثة المباشرين لجدهم .

لم يترك جنكيز خان قبل وفاته أية تعليمات بالنسبة لوحدة الإمبراطورية ، فهو لم يكن يقصد أن تتمزق الإمبراطورية بعد وفاته ، بل كان يرغب في أن يمارس أحد أبنائه السيادة على إخوته حاكماً أعظماً ، أو (خان أعظم) وكان من الواجب أن يملأ هذا المركز طبقاً لرغبة الإمبراطور المتوفى ، ولكن لما كان المؤسس الخالد الذكر ، لم يخصص أحداً باسمه اتفق على أن يجري الاختيار عن طريق الاختيار ، وهكذا بعدما تم عقد الجمعية الوطنية العامة (القوريلتاي) عام ١٢٢٩م اتفق الإخوة دونما أية صعوبات على تنصيب أوكتاي ، ولكن هذا لم يرث أياً من مواهب والده الحربية ، وفي الروايات التاريخية التي وصلتنا ، يوصف بأنه كان هادئاً ولا يميل لاستعمال القوة ، وكان ذا ضمير حي ، وداهية ثاقب النظر ، وسع عاصمة ملكه قره قورم ، وزينها بالمباني والصروح الفخمة ، وعمل على استحداث زراعة الخضراوات والفواكه في ضواحيه ، ونظم استيراد المؤن من الصين إلى منغوليا ، وأقام علاقات تجارية بين بلاده وبلاد الهند وغرب آسيا ، وكان مهتماً بتوسيع أراضي إمبراطوريتهم طبقاً لتخطيط والده ، ولهذا فقد سمح لإخوته بامتلاك حصصهم من الأملاك المقطعة لهم ، كما تابع تدريبات جيوشه بصورة عملية ، وذلك بإخضاع الأجزاء الصينية الشمالية الباقية ، وكذلك

بالمطـــارادات الـــتي كانت مستمرة ومنظمة ، حتى أصبحت جزءاً من التدريبات العسكرية اللازمة للجيش .

وفي نحـــو عـــام ١٢٣٦م بدأت جيوش كبيرة جديدة تتحرك نحو الغرب ، وكان هدفها الرئيسي الآن إخضاع أراضي أوربا الشرقية علماً بأن التقدم للمناطق الغــربية الـــبعيدة كان مشمولاً بالخطة العامة ، وعليه فكان على أبناء جوجي ، ونخـــص منه بالذكر باتو الابن الثاني ، أن يستولوا بحد السيف على مناطق الإرث التي حددها لهم جنكيز خان . وهكذا انقضت الجيوش المغولية ـــ التركية ـــ على الأراضي الواقعة في شمال جبال أورال وبحر الخزر ، وبدأت بالاستيلاء على مملكة بـــلغار الفولغـــا حول مدينة بلغار (في اللغة الروسية بلغاري) الواقعة في وسط حـــوض الفولغـــا إلى الجنوب قليلاً من مدينة قازان الحالية ، وكانت هذه الدولة تشغل مكاناً تجارياً وسياسياً هاماً ، فهي سوق للبضائع المحمولة من أواسط آسيا ، ومن أوربا الشرقية ، ومع هذا سقطت عند أول ضربة .

وهكـــذا فـــتحت الطريق إلى روسيا ، ففي السنة التالية اجتاحت الجيوش المغوليـــة دول المديـــنة " في موســـكو وموردن وياروسلان وغيرها من الإمارات الصـــغيرة في أعـــالي مـــنطقة الفولغـــا ، وقد سقطت بعض هذه المدن بعد دفاع مستميت ، ولم يبدِ بعضها الآخر أية مقاومة للفاتحين الذين تجلت قوة فرسانهم في هـــذا المضمار ، وقد كان تفوق المغول العسكري الساحق سبباً في إصابة الروس بـــالذهول وعدم القدرة على الاحتفاظ بمراكزهم ، ومن ثم الخضوع ، ولم تصمد إلا قـــوى الطبيعة ، فهي وحدها قد برهنت على قدرتها على يقاف تقدم المغول ، فعلى حين أنهم كانوا يتقدمون ضد مدينة نوفجورود على بحيرة اليمن ، التي كانت مفـــتاح أبواب منطقة البلطيق ، حدث ذوبان مبكر للثلوج خصوصاً أن الغزاة قد

تأخـــروا قـــليلاً بســـبب مقاومـــة مدينة طورزوق الصغيرة ، وعليه فلم يعودوا يســـتطيعون عبور مستنقعات نوفجورد بسبب الوحول والطين الذي أعاق تقدم الخيالة ، ولهذا قرروا تحويل الهجوم جنوباً ، فبعد أن اخترقوا أراضي روسيا غرب موسكو وصلوا إلى مدينة كوزلسك ، وهي مدينة محصنة احتاجت وقتاً واستعداداً لاجـــتياحها أكـــثر من المتوقع ، ولكن بعد سقوطها حاصر المغول مدينة كييف ، وهـــي مركـــز الأمير الأعظم ورئيس (مطران) أساقفة روسيا القديمة وقلب دولة (روس) القديمة ، وكان أمد الحصار قصيراً ، ففي (٦ كانون الأول عام ١٢٤٠م) ســـقطت المديـــنة بعد أن هرب منها الأمير الأعظم ميخائيل شرنقوف ، وفي أثناء الســـلب والـــنهب الذي تليا فتح المدينة ، وتحطم الكثير من الآثار الفنية والنصب التذكارية الثمينة ، وهكذا انتهت الفترة الروسية الأولى في التاريخ ، (أو الفترة الأوكـــرانية حسب وجهة النظر الأوكرانية) ، وانتقل مركز الثقل في شرق أوربا من هناك إلى إقليم بعيد شمالاً .

أما بالنسبة للمغول فلم تكن هذه الفتوحات إلا مقدمة لطموحاتهم العسكرية الـــتي لم تكن مقصورة على روسيا فقط ، ومن ثم تابعوا زحفهم خلال بودوليا و فولهينيا في إقليم غاليشيا ، وفي منتصف الشتاء أخمدوا مقاومة دولة هالزك ، وهناك انقســـم الجيش المغولي إلى عدة مجموعات كان هدفها مهاجمة الدول التي كانت عـــلى حـــدود أواسط أوربا كل على حدة ، وبالوقت نفسه من اتجاهات ، وقد اســـتنتج مـــن سيد هذه الحملات مع ترك بعض الفسحة لعدم وضوح المعلومات الجغـــرافية لـــدى الغـــزاة أن المغول كانوا يمتلكون خططاً حربية رفيعة المستوى للإطاحـــة بـــأعدائهم وســـحقهم في أماكن يستدرجونهم إليها ، ولكن البحث المستفيض مع عدم وجود سجلات يعتمد عليها ، أثبت أن هذه الفكرة هي محض

تخمين مع أن الدقة في التحركات على مقياس واسع ، وهي السمة التي امتازت بها تلك الجيوش الآسيوية الجرارة ، توحي بوجود تخطيط عام متقن .

اندفع جزء من الجيش المغولي خلال غاليشيا وهزم البولنديين في تشملنك ، واستولى على كراكوف وسار بمحاذاة نهر الأدور إلى المستوطنة التي أسسها الألمان آنذاك وسموها براسلاف ، فدمرها ، ومن الممكن القول مع أنه ليس هنالك دليل مادي على صحة ما نقول إن وحدات مغولية تحركت بالوقت نفسه خلال أواسط بولندا ومورافيا ، حتى وصلت إلى الموقع الذي حدثت به المعركة الفاصلة في سهل فالتساق قرب ليكنتز في (٩ نيسان عام ١٢٤١م) ، ومهما يكن الحال فقد هزم في هذه المعركة الفاصلة الدوق هنري الثامن حاكم سيليسيا مع فرقة ألمانية بولندية هزيمة نكراء وقتل نفسه .

والحقيقة إنه بعد هذه المعركة لم يستمر تقدم المغول إلى الغرب بل بدؤوا بالانسحاب في اتجاه جنوبي غربي خلال تلال سيليسيا وممرات مورافيا إذ حاصروا مدينة أولموتز ، ولا يمكننا تفسير هذا التوقف والانسحاب إلا بكون المغول قد أصبحوا يهدفون إلى جمع شمل المناطق التي احتلوها ، وذلك في ضوء سلوكهم في أماكن أخرى ، ولهذا فلا نستطيع أن نؤيد النظرية التي تقول : إنه بسبب مقاومة الدوق هنري الضاربة في ليكنتز ، توقف تقدم المغول ، وأعيق غزو ألمانيا الوسطى ومن المحتمل أن يكون المغول قد عمدوا في هذا الوقت لاستخدام المعلومات الجغرافية التي كان يزودهم بها أسرى الحرب ، وذلك طبقاً لسياستهم القائمة على إغراء العلماء والفنانين بالتعاون معهم وخدمتهم .

وفي أثناء ذلك كانت بعض مجموعات من الجيش المغولي تتقدم وتجتاح من طريقين خلال جبال الكاربات الجنوبية والوسطى عبر ترانسلفانيا إلى هنغاريا ،

وهـنا باغـتوا المـلك بيلا الرابع وأخذوه على حين غرة ، وفي (١١ نيسان عام ١٢٤١م) هـزموه هـزيمة منكرة في سهل موهي ، أما الجيش الشمالي فاستمر بالـتقدم من خلال مورافيا واتصل بالمجموعة التي كانت في هنغاريا الآن ، وعليه فقـد شهدت الأراضي الأمامية لتخوم ألمانيا الغزاة المظفرين ، وهم يمرون أمامهم وقد كان سلوك المغول في هذه الغزوات غير ثابت المعالم ، ففي سيليسيا ومورافيا فـيما عـدا إبادهم للقوى المحلية المعادية في معركة ليكنتز والاستيلاء على مدينة أولموتـز كـانوا ينهبون ويسلبون ثم يغادرون المنطقة إلى غيرها ، ولكن من جهة أخـرى نجـد أنهم بدؤوا يستقرون في هنغاريا ، وقد ضربوا في تلك البلاد العملة الوحيدة التي وجدت في تلك الفترة من الزمن ، ويظهر من سلوكهم هذا أنهم قد اجـتازوا السهل الواقع بين الدانوب وتسزا مع سهوب نهر الفولغا العليا والوسطى لتكون مقراً لسكناهم في المستقبل ، وأرضاً يرعون بها ماشيتهم .

وفي يوم (١١ كانون الأول عام ١٢٤١م) توفي الخان الأعظم في قره قورم وبفضـل نظام البريد عالي الفعالية والتنظيم انتشر الخبر بسرعة ، وهذا هو السبب الـذي جعل باتو وقواده يتقهقرون شرقاً مع جملة جنودهم ، وزحف أحد الفيالق عـلى محاذاة نهر الدانوب ، وانقض فيلق آخر خلال كواتيا وسلوفانيا ، ثم شقوا طـريقهم خلال أجزاء بلغاريا التي تقع حول نهر الدانوب ، أو رجعوا إلى المنطقة المفـتوحة شمال البحر الأسود على طول نهر الفولغا حيث توقف (باتو) انتظاراً لما سـوف تتمخض عنه الأحداث حول خلافة الخان العظيم المتوفى ، ومن ثم أفلتت مـن قبضته جميع الفتوحات التي أحرزها في هنغاريا ، على أنه نتيجة لمرور المغول خلال بلغاريا تم خضوع ملك تلك البلاد لسيادة الخانات على نهر الفولغا .

وفي هذا الوقت كانت الخصائص الثقافية للقبائل المتنقلة التابع (لباتـو) تلك

القبيلة البدوية التي تدعى بالقبائل الذهبية ربما نسبة لخيمة الخان المذهبة ، كانت هذه الخصائص لا تزال بدوية صرفة ، ولهذا لا عجب إذا رأينا (باتو) يختار الأجزاء ذات الصفات السهوبية من أراضي الفولغا الوسطى والعليا ومنطقة شمال شرق البحر الأسود ، لتكون مركزاً لاستقرار المغول واستيطانهم في شرق أوربا . وهنا وجدت المراعي المناسبة لخيول الجيش الظافر والفضاء الواسع الرحب لمربي القطعان من المغول ، الذين كانوا يحلو لهم ممارسة العادات البدوية على طول مجرى نهر الفولغا ، وقد اختيرت أول عاصمة بنيت للمغول في جوار قرية سلترينوي الحالية ، وهي في منتصف الطريق ما بين مدينتي ستالينغراد الحديثة واستراخان ، وكانت هذه العاصمة تدعى (ساراي القديمة) ، وقد اكتسبت مظهر المدينة كما حدث مع (قره قورم) ، وهنا كان باتو يقضي أشهر الشتاء على الأقل ، ومن ثم بنى القصور لنفسه ولرجاله المقربين ، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت هذه المدينة مشهداً لأول تقارب حميم بين مغول روسيا والحضارة الإسلامية في غرب آسيا ، وذلك كما صوره مبعوث البابا المبشر (جيوفاني دي بلانو كاربيني) الذي مر خلال أراضي الإمبراطورية المغولسية على الفولغا بين عامي (١٢٤٥-١٢٤٦م) فقد بدا لهذا المبشر (كاربيني) أن الوجود الجغرافي للتار في هذه المنطقة هو أمر محقق للغاية ، وأن هذه الإمبراطورية التي أسسها (باتو) بحملاته يجب أن يحكمها (باتو) وخلفاءه ، وذلك طبقاً لرغبات جده جينكيز خان ، وكانت حدودها الجنوبية هي جبال القفقاس ، ذلك لأن المملكة الرئيسة في تلك الجبال ، وهي مملكة جورجيا كانت قد أجبرت على قبول التبعية للمغول .

ولم يعد من السلامة في شيء بالنسبة (لباتو) أن يسعى لزيادة رقعة أملاكه ، فالخصومات حول تولي العرش ، أي عرش جميع المغول استمرت طوال عشر

السنوات التالية ، وهذا ما اضطره إلى تركيز جميع جهوده على شؤون آسيا الوسطى ، ولما لم تكن هنالك ترتيبات لوراثة العرش ، فقد عين خبراء الدولة وأعيانها (توراكينا أرملة أوكتاي) [1] وصية على العرش ، وهذه دلالة أخرى على المركز الفريد الذي كانت تحمله المرأة في المجتمع المغولي .

وقد ناضلت توراكينا بكل قواها لتؤمن لابنها كيوك استرداد ميراثه من أبيه ، وقد قاومها باتو وذلك لأنه كان يطمح للوصول إلى العرش ، لكونه من أولاد أكبر أبناء جنكيز خان ، وربما أيضاً لأنه كان لا يرضى القبول بزعامة كيوك لأسباب دينية وثقافية ، فقد كان باتو مثل جنكيز خان ، وجوجي من قبل ينظر نظرة استخفاف ولا مبالاة إلى جميع الأديان السماوية وشبه السماوية في الأقاليم المغولية ، فقد بقي مخلصاً للإيمان الشاماني لآبائه وأجداده ، الذين كانوا يؤمنون بإله واحد ، ولكنهم عدوا الشمس والقمر والأرض والحياة كائنات عليا قدموا لها الصلوات والأضحيات ، وإن المناظرات الدينية التي كانت تعقد أمام هؤلاء الحكام لم يكن لها أي أثر في تغيير أو إضعاف وجهة نظرهم ، هذا ، وقد كان كيوك ينتمي إلى جيل من الشباب يمثل ميولاً مختلفة جديدة بدأت آنذاك بأنها سوف تنتصر في النهاية وتسود بين أمة المغول ، فقد عرفت المسيحية على المذهب النسطوري بين المغول كما ذكرنا سابقاً ، منذ عدة قرون ، ومع توغل الجيوش الفاتحة اكتسب الدين المسيحي قوة داخلية جديدة وحماسة تبشيرية ، وقد تركت هذه الديانة انطباعاً عميقاً على عقلية كيوك ، حتى ولو لم يكن هو نسطورياً

---

[1] بايع أوكتاي ابنه الثالث كوجو بولاية العهد لأنه كان يؤثره بحبه ، لكنه توفي قبل أبيه ، فاختار أوكتاي حفيده شيرامون بن كوجو ليمون ولياً لعهده ، وكان ما يزال طفلاً صغيراً ، واستدعى إليه كيوك ، وكان في روسيا ، ولفظ أوكتاي أنفاسه سنة ٦٣٩ هـ قبل وصول كيوك فتسلمت الوصاية على العرش أم كيوك ، وكانت عاقلة مدبرة تمكنت من ضمان العرش لابنها ببراعتها .

بشخصه ، إلا أنه كان يظهر محاباة عظيمة للمسيحية مدى حياته ، وكان اختيار كيوك لا شك أنه يعني انتصاراً للمسيحيين وانتكاسة للأفكار والعقائد والتقاليد القديمة .

ولكن باتو لم يستطع أن يمنع حدوث ذلك لانتخاب عام (١٢٤٦م) ، ولقد وصف هذا الانتخاب بالتفصيل المبشر جيوفاني دي بلانو كاربيني الذي كان حاضراً شخصياً ، ففي وسط السهل حيث جرى الانتخاب نصبت خيمة هائلة للانتخاب ، حيث تجمع النبلاء والأعيان ، وتجمعت حول هذه الخيمة وعلى مدى البصر قبائل الأمة المغولية ، التي كانت تتوق للمشاركة بكل حب واستطلاع واهتمام في مشاهدة مثل هذه المناظر مع الانتخاب الحقيقي ، ومواكب السفارات الأجنبية ، التي كانت تحضر في مثل هذه المناسبات ، والتي كانت دليلاً في نظرهم على تفوق الأمة المغولية ، وهذا أيضاً كان انطباع كيوك وتفسيره لحضور المبشر كاربيني ، فقد اعتقد أن البابا والملك لويس التاسع ملك فرنسا ، كانا يتوقان لوضع نفسيهما تحت حمايته وسلطته ، ويظهر هذا الاعتقاد بوضوح في الجواب الذي سلمه كيوك إلى بعثة البابا [1] .

وكان اختيار كيوك مؤشراً لاندلاع العداوات والخصومات مع باتو ، وكان كلا الفريقين يعدان أنفسهما للصدام المسلح كلٌّ ضد الآخر ، عندها مات كيوك في نيسان عام ١٢٤٨ ، وقد انتهت بموته كل نزعات الخصام ، وانتهت تلك الآمال المشرقة التي دغدغت أحلام المسيحية بشكلها النسطوري ، وتمتعت بها أثناء حكمه ، كما أن التحول العظيم في حياة المغول الذي كان على وشك الوقوع أصابه بعض الفتور والتأخر لمدة من الزمن ، وعندما حدث هذا التحول أخيراً

---

[1] إن رسالة كيوك إلى البابا محفوظة في أرشيف الفاتيكان .

حدث بسبب التأثيرات الحضارية العالية التي أقحم الفاتحون أنفسهم فيها ، وجاء على شكل يختلف عما كان متوقعاً عندما انتخب كيوك لتولي العرش .

وعهد بالوصاية ثانية إلى أرملة الخان الأعظم ، وأسسها أوغول جايميش عندما فكر باتو أنه من الخير له أن يبقى في أواسط آسيا قريباً من مسرح الأحداث وفي هذه المرة وجد المنتخبون أن لهم الحق في تخطي حق سلالة أوكتاي ، واعترفوا بحق سلالة الابن الأكبر ، أي نسل (جوجي) ، ولما كان (باتو) معترفاً به بأنه هو رأس هذه السلالة رغماً عن أن أخاه الأكبر أوراد [1] ، كان لا يزال على قيد الحياة ، فقد كان له أمل عظيم بأن يصبح الخان الأعظم ، وربما رفض انتخابه بسبب سنه ، وقدم للانتخاب أحد أولاد تولوي الابن الأصغر لجنكيز خان ، الذي ظل حتى الآن قابعاً في الظل ، وهكذا تقرر أخيراً في العام ١٢٥١م اختيار منكو [٢] . وهو أمير نشيط شجاع كان مؤيداً لباتو على الدوام ، واشترك في حملاته في روسيا ، وفي تلك الأثناء قام أحد الأمراء بحبك مؤامرة ليؤثر في اختيار الناخبين ، ولكن هذه المؤامرة أخمدت في مهدها ، واستطاع باتو أن يرجع إلى الفولغا وهو راضٍ عن نتيجة الانتخابات .

وبفضل والدته الفاضلة استفاد مونكو من تربيته القويمة ، وعلى الرغم أنه لم يكن مسيحياً كوالدته لكنه كان متسامحاً جداً ، حتى إن جميع الأديان استطاعت أن تعيش وتتعامل بحرية جنباً إلى جنب أثناء حكمه ، واستطاعت المسيحية النسطورية أن تشق طريقها بنجاح في هذا المضمار ، وبالوقت نفسه استطاع المسلمون والبوذيون أن يرسلوا دعاتهم للتبشير بدياناتهم في منغوليا .

---

(1) انظر شجرة النسب في آخر الكتاب العالم الإسلامي في العصر المغولي .

(2) تختلف المصادر حول رسم هذا الاسم .

وهكــذا أصبح المتعصبون للديانة القديمة أقل عدداً وأدنى نفوذاً في العاصمة (قره قورم) التي كبرت وزادت فخامة وجمالاً وزينة ، ارتفعت الكنائس والمساجد والمعابد البوذية في منافسات لا تخلو من الغيرة والحسد ، ولقد ترك لنا أحد مبعوثي البابا ، وهــو ولهلم فون روبروك الفرنسيسكاني وصفاً شيقاً للنشاط التجاري الشــديد والمنافســة بــين الأديان المختلفة ، واهتمام الخان الأعظم بهذه الأديان والمذاهــب وذلــك أثناء رحلته عبر ساراي على الفولغا إلى العاصمة (قره قورم) وكان ولهلم هذا رجلاً ذا بصيرة عظيمة نفاذة ، وقد أدرك أن اهتمام الخان برجال الديــن مــن كــل مذهب وديانة هو دليل على عدم مبالاته وأن اشتراكه أحياناً باحــتفالات المسيحيين لا يدل على أنه قد التصق بالديانة المسيحية ، ولكن ولهلم أساء الحكم عند اتهام كهنة النسطوريين بممارسة ما كان يعده أعمالاً خرافية ، أو على الأقل تساهلهم في مثل هذه القضايا ، وذلك لأن المقاييس الغربية لا يمكن أن تطبق على الأحوال في آسية الوسطى ، على حين لم يكن الغرب يخلو من خرافات قديمة ازدهرت ونمت هناك .

ويعــتقد ولهلم فون روبروك أن حضارة المغول كانت حضارة بدائية فالعائلة كانت تخضع للنظام الأبوي ، والأزياء بسيطة ، والأمانة والصراحة وإكرام الضيف كانت هي السمات الغالبة ، وأما المرأة المغولية فكانت تتمتع بالحرية التامة ، فهي تستطيع أن تمتلك أملاكاً خاصة بها ، ومن حقها أن تمارس التقاضي أمام المحاكم ، وكانت هي سيدة البيت ومربية الأطفال ، وكان القانون يعاقب زنا الرجل أو زنا المــرأة بــالموت ، وكان للأميرات من الأسر النبيلة نفوذ عظيم ، وقد حدث أن شــغلت أرملة الخان مرتين وظيفة الوصية على العرش عند موت الخان الأعظم ، وفي الوقت نفسه ازدهرت التجارة وبني نظام محكم مدروس للمواصلات في طول

البلاد وعرضها . وقد ساعد العدد العظيم من الأسرى الذين جلبوا من البلاد المقهورة على رفع مستوى الاقتصاد في البلاد وقد قابل ولهلم عدداً كبيراً من الألمان والهنغاريين والفرنسيين ، فضلاً عن السوريين والروس ، وقد احتل الهنغار والفرنسيون مركزاً مرموقاً حرفيين وعمالاً فنيين مهرة ، وكنت تجد المبعوثين والوفود من جميع البلدان في العاصمة (قره قورم) وقد اتبع نظام بروتوكول صارم لتنظيم وصولهم ودخولهم إلى حضرة الخان الأعظم ، ذلك بالإضافة إلى سكناهم وتغذيتهم ، وقد سمح لهم بالحرية التامة وباختلاط بعضهم ببعض ، وببقية أفراد السكان ، وهكذا سنحت لهم الفرصة لتوسيع معلوماتهم عن الحضارة الجديدة ، التي بدأت تبزغ في ذلك البلد الذي كان متأخراً ، وأصبح متقدماً بسبب تأثير الشعوب المجاورة التي ساهمت في نمو الحضارة الجديدة ، هذا وقد أمنت الخدمات البريدية والمواصلات ليس انتشار الأخبار ووصولها بالسرعة الكلية فحسب بل الراحة للمسافرين لدرجة عظيمة ومعقولة وأصبحت (قره قورم) المركز الذي التقت به حضارات آسيا وتفاعلت ، ولأول مرة في التاريخ ارتبطت بلدان شرق آسيا مع بلدان غرب أوربا بطرق تكتظ بحركة سير المستمرة التي لا ينقطع سيلها ، وهكذا تعرف الغرب على الصين التي بقيت محجوبة عن أنظار أوربة منذ إقفال الطريق القديمة التي كانت تمر عبر العجم لتجلب الحرير إلى الغرب ، وهكذا وصلت تقارير وأخبار غير واضحة عن اليابان لأول مرة إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وعلى هذا الأساس فإن تأسيس الإمبراطورية المغولية ، وأن سبب الكثير من الخراب وبخاصة أثناء حروب جنكيز خان لم يخل من نتائج إيجابية في تقريب الأمم بعضها لبعض ، وتقديم محرض مؤثر للحضارة الأوربية فيما بعد .

عــد مونكـــو أن أولى واجباته السياسية هي إتمام تنفيذ وصية جينكيز خان الــذي نفــذ أوكتاي جزءاً منها ، ولذلك بدأ بإعداد الحملات إلى الصين وآسيا الغربية ، ففي الصين كانت المشكلة تتمثل في توحيد الفتوحات التي تمت ودمجها ، ولهذا عمد الخان الأعظم إلى الاحتفاظ بهذه المهمة لنفسه ، وهكذا انشغل مع أخيه (قوبيــلاي) في سلســلة من المعارك طويلة الأمد ، والتي لم تكن قد انتهت عندما مات مونكون في (٦ أيلول عام ١٢٥٩م) أثناء حصار أحد الحصون .

أمــا الحمــلة إلى غرب آسيا فقد أوكل امرها إلى أخ آخر من أخوان الخان الأعظــام وهو هولاكو . وبالإضافة إلى ذلك طلب من جميع قواد الجيش الآخرين أن يخضــعوا جــزءاً من جنودهم الصالحين للخدمة ، والمجهزين للخدمة الفعلية ، وذلــك للالتحاق بجيش هولاكو ، ونتيجة لذلك وصل الجيش الذي حشد وعبئ لإخضــاع آسيا الغربية إلى ذروة القوة التي يمكن أن يصل إليها أي جيش في تلك الفــترة ، وقــد قــدر المستشــرق الروســي ولهلهم بارثولد عدد ذلك الجيش بـــ (١٢٩,٠٠٠) رجل ، وهذا العدد أصغر بكثير من العدد الذي ذكره كثير من الكتاب المعاصرين الذين لا يقلون مبالغة عن المؤلفين الخياليين في الأزمنة القديمة .

كانت الحالة في بلاد العجم منذ غزوة جنكيز خان لا تزال مشوشة والإقليم الوحيــد الذي وطد به الفاتحون سلطتهم على أسس ثابتة تقريباً هو إقليم خراسان في الشــمال الشرقي ، أما في الأقاليم الأخرى فقد احتفظت بعض الأسر الصغيرة باســتقلالها عـــن المغول ، وكان ممثلو السلطات المغولية في حالة خصام وخلاف بعضـــهم مع بعض ، وفي كثير من الحالات ظهرت الخصومات بينهم ، مما سبب اســتدعاء كــثير من الحكام ، ولم يكن هذا في صالح هيبة الدولة المغولية ، أما في القوقـــاز فقد كان الاستخفاف ظاهراً بالسلطات المغولية بالنسبة لسكان (ساراي)

هـــناك ، وهـــذا سببه ـــ ولا شك ـــ وعورة تلك البلاد الجبلية وصعوبة وصول الجيوش المغولية إلى تلك المناطق .

وفي مـــثل هذه الظروف لم يكن الطريق أمام هولاكو سهلاً ممهداً عندما بدأ يغـــزو تـــلك الـــبلاد عام (١٢٥٥م) ولم يلاق المغول أية مقاومة تذكر ، أو أية مقاومـــة منظمة إلا بعد أن وصلوا المنطقة الجنوبية جنوب بحر الخزر ، التي كانت تحيـــط بمركز طائفة الحشيشية المرهوبة الجانب في تاريخها الماضي ، والتي كانت لا تزال مخيفة ، وقد أبدت قلعة (ألموت) وهي مركز الحشيشية مقاومة باسلة ويائسة لـــلهجوم والانقضاض الضاري الذي قامت به حشود المغول ، ولم تستسلم هذه القلعة إلا بعد حصار طويل الأمد ، وكان رئيس الطائفة يدعى (شيخ الجبل) [1] .

وقـــد أعدم على الفور ، وأطلق المغول سراح أحد كبار علماء فرقة الإثني عشرية الشـــيعية والمدعو (نصير الدين الطوسي) توفي عام (١٢٧٤م) وأصبح لهذا العالم حـــذوة ومـــنْزلة رفيعة لدى المغول ، وهو في خدمتهم ، وقد استأنف هذا العالم نشاطاته العلمية واستطاع أن يشيد مرصداً فلكياً في مدينة مراغة شمال بلاد العجم هـــذا وقد رحب المسلمون بسقوط قلعة آلموت لأنهم عدوا ذلك خلاصاً لهم ، إذ أنهم كانوا يعدون أن الحشيشية لا يقِلون في شرورهم وبغائضهم عن الصليبيين .

ولم يمـــضِ وقت طويل حتى تحقق المسلمون أن هولاكو لم يأت إلى بلادهم كصديق ، فبعد أن احتل قلعة آلموت وأخضع الامراء الصغار في الشمال الغربي من بلاد العجم وأمراء اللور الأكراد المستقلين في جبال زاغروس ، بدأ بالزحف رأساً على بغداد ، وكان خليفة بغداد قد جلب على نفسه غضب هولاكو بسبب بعض

---

(1) لم يحمـــل أي من زعماء ألموت لقب شيخ الجبل ، فقد عدهم أتباعهم منذ أمد أئمة ، وكان لقب شيخ الجبل وقفاً على مقدم الحشيشية في بلاد الشام .

التصـرفات السياسـية الخرقاء ، فعلى حين كانت بغداد عاصمة الخلافة تتعرض لأبسـط ظروف الفوضى ، لم تكن موارد الدولة وبخاصة القوة العسكرية والطاقة البشـرية كافية لتحمل مقاومة فعالة لأن القوى غير متكافئة ، ومع ذلك فقد قرر الخـليفة وبجسـارة فائقة أن يقاوم ، وقد ظهر واضحاً للعيان المصير المؤلم الذي سـوف يـتعرض لـه أمير المؤمنين خصوصاً وأن بعض المجموعات في المدينة بدأ تتفاوض مع المغول ، وبينهم أفراد الحامية التركية الذين اتصلوا بإخوانهم الأتراك في جيـش هولاكـو ، وقرروا عدم قتالهم فضلاً عن أن وزير الخليفة كان عالماً بعدم جـدوى القتال ، إلا أن الأمير العباسي العنيد لم يعر أذنا صاغية لأي اقتراح بعمل تسـوية ، وكان مستعداً لتحمل مسؤولية الهجوم المتوقع عليه ، ولم يكن هنالك أي أمـل في تجنب الكارثة ، ففي (١٠ شباط عام ١٢٥٨م) هاجم المغول المدينة واحتـلوا دار الخلافـة ، وأسروا الخليفة وأجبروه أن يبوح لهم بمواضع الذخيرة أو الدفـائن السرية ، وبعد ذلك أعدموه بخنقه بين الزرابي ، وذلك لأن المغول كان لديهم خوف موروث مصدره خرافي في إراقة الدماء الملكية .

إن سقوط بغداد وما صحبه من زوال الخلافة العباسية التي كانت لا تزال لها بعـض الهيـبة والنفوذ الروحي ، أنتج كثيراً من الهيجان والثوران في بلاد ما بين الـنهرين ، فقـد ثـارت ثائرة المسيحيين النساطرة منهم واليعاقبة الذين كانوا لا يـزالون كـثيري العدد ، وخصوصاً في شمال البلاد ، وفي بغداد وكذلك الشيعة الذيـن كـانوا يعيشـون بصورةرئيسة في الجنوب ، وقد أطلق هولاكو بجنوده وسـواهم حرية التصرف ضد جميع أهل السنة من المسلمين ، فقد كان هولاكو نفسـه متأثراً بالمسيحية ومتعاطفاً مع المسيحيين ضد المسلمين بوساطة تأثر زوجته الموهوبة (دوقوز خاتون) ، ففي أثناء نهب بغداد لم يتعرض المغـول لكـل مـن

المسيحيين والشيعة ، الذي كان نصير الدين الطوسي يتكلم باسمهم ويدافع عنهم .

وهكذا استطاع المسيحيون أن يعيدوا بناء كنائسهم ، والشيعة مساجدهم ، وأن يعقدوا احتفالاتهم ومواكبهم الدينية العامة ، وقد اختار الشيعة نقيب الأشراف ليكون ممثلاً لهم ولمصالحهم أمام السلطات .

إن هذا الموقف لهولاكو أصبح له صدى عميق في جميع أنحاء آسيا الغربية ، فأصبح المسيحيون في سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى ينتظرون مجيئهم بفارغ الصبر حتى يتحقق أملهم بتحسين أحوالهم ، وقد أسهموا بالسقوط السريع لكثير من المعاقل في شمال بلاد ما بين النهرين في يد المغول ، ولم تظهر أي مقاومة إلا من قلعة (ميافارقين) التي أبدت مقاومة ضارية سنتين كاملتين ، ولم يأت عام (١٢٥٩م) إلا وأصبح الزحف نحو البحر المتوسط وشيكاً ، وقد رحب المسيحيون في دمشق بدخول هولاكو إلى تلك المدينة ، وأصبحوا يعاملون المسلمين من أهالي دمشق بكثير من الغلظة والغطرسة ، وكانت مدينة حلب قد أخذت عنوة ، وهكذا أصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً أمام هؤلاء .

وبعد ذلك وفي أثناء غياب هولاكو تقدم قواده نحو جيش المماليك ، وقد حدثت المعركة الحاسمة في ٢٣ أيلول عام ١٢٦٠م) في (عين جالوت) في فلسطين وانتهت بانهزام جموع المغول الغزاة ، ففي ذلك القتال المرير حارب المماليك تحت قيادة قطز وبيبرس ، وكان المماليك أيضاً من سكان سهوب أواسط آسيا ، وكان المماليك متمرسين بأساليب القتال والفروسية ، فهزموا القوة المغولية ، وأسروا قائدها المغولي . لقد كانت هزيمة المغول نقطة تحول في التاريخ ، إذ إنها أوقفت المد المغولي وأكدت استمرار استقلال مصر ، وبعد معركة عين جالوت مباشرة : قام القائد بيبرس بقتل قطز ، وأصبح سلطاناً ودخل إلى القاهرة على رأس جيشه

المظفـر . وهكـذا أصبحت دولة المماليك قوة مقابلة وموازية للمغول ، وحصناً واقيـاً للإسـلام ، ولكي يدعم بيبرس سلطته استقبل في بلاطه أحد أفراد الأسرة العباسـية ، وقد اضطر هذا الأمير الذي تحوم بعض الشكوك حول صحة نسبه ، بعـد محاولة موفقة لاسترجاع بغداد من المغول ، أن يلجأ إلى القاهرة وهناك شغل دور المتسـلط أو السيد الديني ، وهذا كان موافقاً لمصلحة بيبرس تماماً ، ومع أن ادعـاء العباسـيين في القاهرة للخلافة حصل على الموافقة الفورية من قبل بعض الأمراء في شمال الهند ، وفاز لبعض الوقت باعتراف عدد من خانات مملكة القبائل الذهبية المغولية ، إلا أنه كان المؤيد والداعي الدائم لسلطة المماليك حتى سقوطهم عـام (١٥١٧م) ، وقد استمرت مصر حتى هذا التاريخ مسيطرة على مقدرات سـورية وفلسطين ، إذ كان يعد تلك المنطقة هي خندقها الأمامي ، إن السبب في عدم وجود هولاكو على رأس جيشه في معركة (عين جالوت) انشغاله بالظروف القاهـرة الـتي تلت وفاة أخيه الخان الأعظم ، فقد سبب موت مونكو حدوث خلافـات عميقـة خطـرة على وحدة الإمبراطورية المغولية ، ولا شك أن الخان الأعظـم كـان يـنوي أن ينصب أخاه أريق بوقا خليفة له ، ولكن أخاه الآخر (قوبيلاي) الذي كان يقاتل في الصين ، ويعد نفسه إمبراطوراً منصباً لتلك البلاد اعـترض عـلى هذا الترتيب واستعد للدفاع عن ادعائه بالسيف ، فبعد أن نصب نفسـه إمـبراطوراً في الصين ، وضع أحد قواده الذين يثق بهم على رأس جيوشه هناك ثم تقدم بشخصه إلى منغوليها ، وكان (بوقا) قد رتب شؤونه في (قره قورم) وتبع ذلك حرب أهلية كانت نتيجتها انقطاع منغوليا عن العالم الخارجي وتعرضها لهـزات اقتصادية عنيفة ، أما هولاكو فقد دعم ادعاءات صديقه وأخيه قوبيلاي ، وهكذا انتهى النِّزاع لصالح هذا الأخير (قوبيلاي) واضطـر (بوقـا) للخضـوع

واختفى من الميدان السياسي نهائياً ، ثم مات عام ١٢٦٦ .

ونتيجة لهذه التحولات في الحوادث أصبحت منغوليا دولة خارج حدود الصين ولا تتدخل بشؤون الصين ، بل بالعكس أصبحت مصدر قوة وتأييد للأسرة المغولية الحاكمة في الصين ، وهي أسرة يونان ، ولكن منغوليا لم يعد لها أية أهمية بارزة في تاريخ العالم (ومثل هذا ما حدث للجزيرة العربية ، وهي مهد الإسلام بعد تأسيس الخلافة الأموية) ولهذا أصبحت السفارات الأجنبية من أجزاء آسية الأخرى بما فيه بعض الممتلكات المغولية السابقة تذهب إلى بكين مباشرة ، وأصبحت أساليب حياة (الخان الأعظم) وبلاطه صينية ، والسيدات في البيت الملكي كن في كل شيء ما عدا الاسم أميرات صينيات ، وكانت مصالح الأمة المغولية يصرفها (قوبيلاي) حسب وجهة نظر الإمبراطورية فقط ، ولكن عملياً كانت هذه المصالح تخضع للتقاليد الصينية ، وبأمر من (قوبيلاي) اخترعت أشكال جديدة للحروف الهجائية (الأبجدية) المغولية على يد أحد الرهبان من (التبت) بدلاً من الحروف التي كانت تدعى (الغورية) ، وهي الحروف التي استعملها المغول وتعلموها في أراضي الغور في بداية القرن الثالث عشر ، والتي كانت مشتقة من حروف سامية قديمة ، ولكن رغم بساطة استعمال هذه الحروف ، إلا أن هذا الطراز الجديد للكتابة الذي يدعى (الخط التربيعي) لم ينل موافقة أو استحساناً لدى الجمهور ، فمن جهة واحدة كانت الاستعمالات القديمة قوية جداً ، ومن جهة أخرى ظهرت أنها أبسط مما لو دعت الحاجة لترجمة اللغة المغولية إلى الأحرف الصينية ، وكنتيجة لهذا استطاع الرسل والسعاة الصينيون أن يقرؤوا الكتابات والوثائق المغولية الحقيقية التي استمرت لتكون الأحرف الغورية ، وهي لا تزال مستعملة حتى اليوم .

لقد سببت الحرب الأهلية لعام ١٢٥٩ تأثيرات سريعة في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية المغولية العتيدة ، فالنِّزاع بين الأخوين قوبيلاي وبوقا كان له نظير في النِّزاع بين هولاكو وخان القبائل المغولية الذهبية بركة ، ذلك أنه بعد موت (باتو) عـام ١٢٥٦ وانقضـاء فترة انتقال أصبح (بركة) عاهلاً للإمبراطورية التتارية في جنوب روسيا ، وكان أول حاكم مغولي يعتنق الإسلام ربما قبل اعتلائه العرش ، ولهـذا السبب لم يوافق على الحملة ضد الخليفة في بغداد ، وحاول أن يتوسط في الأمـر ، ولكـنه لم يستطع أن يمنع الفرقة التي أرسلها من جيشه من الاشتراك مع الفـرق الأخـرى التي أرسلت من الجيوش الأخرى للاستيلاء على بغداد ونهبها ، وكـان كـل هـذا يشعره بالمرارة والحقد لأن مونكو قد جعل بلاد القوقاز وما جاورها وهي أصلاً تابعة لقبائل المغول الذهبية من نصيب هولاكو .

وهكـذا بـدأ (بركة) بتعميق الحقد والكراهية ضد جاره الجنوبي ، ونتيجة لذلك وقف إلى جانب بوقا على حين دعم هولاكو (قوبيلاي) كما رأينا سابقاً .

وعـندا انتصر قوبيلاي وأصبح الخان الأعظم وقع ((بركة) في عزلة سياسية تامـة ، وهكذا قطع جميع علاقاته مع عاصمة الخان الأعظم ، وهي بكين ، ولكن هولاكـو وطد علاقاته مع الخان الأعظم ، وهكذا عمل الحاكمان المغوليان اللذان حكمـا الصين القديمة وبلاد العجم على التعاون فيما بينهما ، على حين تم إهمال أبطـال التقاليد المغولية ونبذوا نبذ النواة ، وقد بقيت العلاقات بين المغول في بلاد العجـم وقبلاي خان علاقات ودية ، هذا وقد كان قبول هولاكو حاكماً لبلاد العجـم ولقـب (إلك خان) نائب الملك بمثابة تثبيت لخضوعه التام لسلطة الخان الأعظم المركزية ، وأما من الوجهة الثقافية فقد كان للعلاقات الوطيدة الجيدة بين البلدين تأثير ونتائج مفيدة لكليهما .

لقد تفجرت العلاقات المتوترة أخيراً بين القبائل الذهبية (وإالالك خان) نائب الملك بحيث تحولت إلى معارك ضارية عندما نشبت الحرب الأهلية بين قوبيلاي ، وبوقا ، وانتهز بركة هذه الفرصة وكان رجلاً نشيطاً فلم يقبل أن يرغم على ترك معقلـه الجـنوبي دون نضال ، وهكذا بدأ في عام ١٢٦١ بالهجوم على القوقاز ، وكـانت بداية حرب غير حاسمة ، فاز (بركة) فيها بمعركة هامة على نهر ترك في (١٣ كانون الثاني عام ١٢٦٣) ، ولكنه لم ينجح في طرد هولاكو من القوقاز .

لم تكـن هذه الخطوة خطيرة ، وبقي الوضع عادياً لو لم يعمل (بركة) على اتخـاذ موقـف لم يسبق له مثيل في تاريخ العلاقات المتبادلة بين الشعب المغولي ، وهـذا الموقف تجلى بأن أمر (بركة) رجال جيشه الذين اشتركوا مع هولاكو في فـتح بغـداد ، أمـرهم أن يتركوا هولاكو ويتوجهوا إلى مصر لدعم المماليك ، وهكذا فإن خان القبائل الذهبية (بركة) اتحد لأول مرة مع قوة أجنبية ضد أخوانه المغـول ، مما سهل انتصار المماليك في معركة عين جالوت التي كانت نقطة تحول فاصلة بالنسبة لنظام المماليك الذي لم يمضِ وقت طويل على تأسيسه علم ١٢٥٩ وتسلم المماليك السلطة ، وتوطدت سلطتهم ونفوذهم من تلك المعركة .

لقـد كان لهذا الحلف بين القبائل الذهبية المغولية ومصر اعتبارات وأسباب سياسية ، ولكن كان هناك عامل هام أيضاً هو التجارة ، ففي التركيبة الاجتماعية كانت الدولتان متشابهتين إحداهما على النيل والأخرى على الفولغا ، تتألف الطبقة الحاكمـة في كل منهما من أفراد يتمتعون بالخصائص التركية ، ويحكمون شعباً ذا طـبيعة مختـلفة تماماً ، وفي كلتا الدولتين اعتنق حكامها الإسلام ، وكان العامل الديني أثره إذ إن العامل الديني كان له وزنه في العلاقات بين شعوب الشرق الأدنى وهكـذا فقد استقبلت الدولتان نبأ التحالف الرسمي الذي عقد عام ١٢٦١ بكثير

من الارتياح ، وكما هي العادة في كثير من الحوادث التاريخية ، يحدث أن تقطع أواصر الرحم والروابط الدموية بين الأخوة ، الذين تحولوا إلى أعداء (أي المغول) ، وأما من وجهة تجارية فقد كانت شواطئ البحر الأسود التي أصبحت تحت قبضة القبائل الذهبية مصدر تصدير عدد لا يحصى من العبيد ، كانوا يصدرون سنوياً إلى مصر أولئك العبيد الذي ارتفع مقامهم إلى القمة ، وأصبحوا سادة البلاد في مصر تحت اسم (المماليك) وكانت هذه التجارة تسير سيراً طبيعياً ما دام الخان في ساراي وإمبراطور القسطنطينية لا يبديان أية معارضة ، وكان إمبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن باليو لوجوس ، قد انتصر تواً ، وأصبح سيد القسطنطينية بعد سقوط النظام اللاتيني الغريب [1] ، فهذا النظام لم يبد أي اهتمام تجاه هذه العلاقات التجارية الوثنية ، ولم يكن بوسعه التدخل في أية مفاوضات تجري بين الدول الإسلامية ، ولكن اهتمام بركة بهذه القضية كان على مستوى أعظم بكثير فعندما بدأ بالتعاون السياسي مع مصر ، وبدعمه الحلف الذي قام عام ١٢٦١ ، وإبرامه معاهدة تجارية وافق عليها البيزنطيون ، أصبح استمرار تصدير العبيد إلى مصر أكيداً ، ومن ثم استمرار إمداد المماليك بالدماء الفتية ، التي مكنتهم من السيطرة التامة على أراضي النيل ، وبالوقت نفسه لم يستطع هولاكو أن يتدخل في هذه الأمور نظراً للقتال الدائر في القوقاز بينه وبين (بركة) ولهذا لم يستطع أن يبق سوى بضعة أسابيع في سورية ، وعلى هذا فإن كثيراً من العوامل ساهمت في جذب هاتين الدولتين بعضهما إلى بعض ، ونظراً لأن أصل المماليك كان من أواسط آسيا فلا عجب أن نجد كثيراً من العادات والتقاليد بما فيه النظام العسكري

---

[1] معروف أن الحملة الصليبية الرابعة حرفت عن هدفها ووجهت نحو القسطنطينية حيث احتلتها ، وأقامت حكم أسرة لاتينية استمرت حتى تم إسقاطها كما أشير أعلاه .

المعمول به على ضفاف الفولغا ، هذا النظام لا عجب أن نجده أيضاً على ضفاف النيل .

ولكن نجد من وجهة نظرأخرى أن حلف (بركة) مع السلطان المملوكي بيبرس الأول كان يمثل خرقاً للتقاليد المغولية السابقة ، فحتى ذلك الوقت لم تتفق أية دولة مغولية ولم تعمل حلفاً مع أية دولة غير مغولية ، ما عدا حالة خضوع الدولة المتحالفة رسمياً أو على نحو غير رسمي للسلطة المغولية ، فحكام جورجيا أو أرمينية مثلاً أو أمراء روسيا المختلفين عوملوا معاملة الأتباع الإقاطعيين ، وإمبراطور بيزنطة وطرابزون كان يعامل مثل هذه المعاملة على الأقل من وجهة النظر المغولية ، أما في حالة مصر فلم يكن الوضع على هذا الشكل ، إذ أن (بركة) قد قبل أن يكون تابعاً للخليفة العباسي في القاهرة ، وهذه خطوة لها دلالتها الإيديولوجية مع أنها عملياً لا قيمة لها ، وعندما اتخذ (بركة) هذا القرار تخلى عن انتمائه للمجتمع المغولي الدولي ولو معنوياً ، هذا المجتمع الذي كان لا يزال يؤلف إمبراطورية على رأسها الخان الأعظم ، وقد كان هذا الخرق نتيجة هامة للحرب التي تبعت موت (مونكو) ، فقد هزم (قوبيلاي) أخاه (بوقا) ونفاه عن المسرح السياسي ، ولكن مجتمع العشائر الذهبية لا يمكن الاستخفاف به بهذا الشكل ، وإن إحدى السمات التي تميز هذه الحالة الجديدة اختفاء اسم الذهبية ، ولقد بدأ هذا الأمر عام ١٢٦٠م ، وكانت له أهميته بصورة خاصة لأن العملة في تلك الأيام شأنها شأن طوابع البريد في هذه الأيام ، كانت رمزاً لوجود السلطة الشرعية .

لقد كان الاتجاه الجديد للحوادث بعد عام ١٢٥٨م ليس وليد العوامل الجغرافية ، أو العوامل السياسية ، أو انتقال مراكز القوة ، أو الضغوط الدينية ، أو

الثقافية ، بل كان يرافقه وعلى نحوٍ موازٍ التغير الشامل في بنية الأمة المغولية ككل ، وهذا يعكس الظواهر المذكورة أعلاه ، وهي التي أسهمت في تفسخ الإمبراطورية المغولية ، وذلك لأن المغول عندما بدؤوا بالفتوحات في خلال أواسط آسيا وشرقها وغربها واجهوا مناطق مختلفة جغرافياً تتمتع شعوبها بشعور ديني وثقافي مختلف تماماً بعضها عن بعض ، ولقد لاحظنا في ما ذكرنا سابقاً أنه خلال الحرب الأهلية عام ١٢٦٠م كان المغول يحتلون مناطق ذات حضارات عميقة قديمة ، أي حضارة الفرس والصين ، وكانت هذه الأقطار المتحضرة ، تعامل تعاملاً يختلف عن معاملة سكان السهوب ، مثل منطقة الفولغا ، ومنطقة ما وراء النهر ، وفوق ذلك فقد كانت هاتان المنطقتان مأهولتين بشعوب تركية أو شعوب ذات تعاطف مع الأتراك ، وهؤلاء هم بلغار الفولغا (مع أن هنالك مجموعات أخرى غير هؤلاء) وكانت ثقافة هذه الشعوب تشبه نسبياً الثقافة المغولية ، وهكذا حدث انصهار واندماج بين هذه الشعوب وبين المغول ، مما جعل كثيراً منهم يلتحقون بالجيوش المغولية المحاربة في آسيا الوسطى ، وأوروبا الشرقية ، وقد حدث الاندماج بين القادمين الجدد والوطنيين بشكل جعل القبائل الذهبية وشعوب ما وراء النهر يصبحون شعوباً متناسقة متفاهمة على حين كانت الحال في بلاد العجم والصين تختلف تماماً ، إذ استمر المغول هناك يمثلون دور الحاكم المتسلط على المناطق ، التي يختلف سكانها عنهم في لغتهم ، وبالنسبة لبلاد العجم خلال العقود القليلة القادمة سيختلفون عنهم في الدين أيضاً .


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

جريدة بأهم المصادر والمراجع

- ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي) ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٢٤٨ هـ ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، القاهرة ١٩٧٣م .
- الإيربلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو) ، خلاصة الذهب المسبوك ، بغداد ، مكتبة المثنى .
- الأزدي (أبو زكريا) ، تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦٧ .
- الأزدي (محمد بن عبد الله) ، فتوح الشام ، القاهرة ١٩٧٠ .
- الأزرقي (أبو الوليد محمد عبد الله) ، كتاب أخبار مكة ، مكتبة خياط ، بيروت .
- ابن إسحق (محمد) ، سيرة ابن إسحق ، برواية يونبس بين يكير (نسخة مصورة في مكتبتي) .
- الأشعري (علي بن إسماعيل) ، مقالات الإسلاميين ، القاهرة ١٩٥٠ .
- الاصطخري ، المسالك والممالك ، ليدن ١٩٢٧ .
- الأصفهاني (حمزة بن الحسن) ، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، بيروت ١٩٦١ .
- الأصفهاني (أبو الفرج) ، الأغاني ، طبع دار الكتب المصرية ،مقاتل الطالبين القاهرة ١٩٤٩ .
- الأصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب) ، تاريخ دولة آل سلجوق هذبه الفتح البنداري ، القاهرة ١٩٠٠ .

Damascus University

- الأصفهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله) ، دلائل النبوة ، حيدر أباد ١٩٥٠ .
- ابن الأعثم الكوفي (أحمد) ، كتاب الفتوح ، (نسخة مصورة في مكتبتي) .
- ابن أنس (مالك) ، الموطأ ، بيروت ١٩٧١ .
- الأنطاكي (يحيى بن سعيد) ، بيروت ١٩٠٩ ، تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي .
- ابن ايبك الدواداري (عبد الله) ، الدرة المعنية في أخبار الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦١ .
- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) ، صحيح البخاري ، دار الفكر ، بيروت .
- البغدادي (الخطيب أحمد بن علي) ، تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي.
- البغدادي (عبد القاهر) ، الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ابن بكار (الزبير) ، جمهرة نسب قريش ، القاهرة ، دار العروبة .
- البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز) ، معجم ما استعجم ، القاهرة ١٩٦٥.
- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ، أنساب الأشراف ، طبع منه المجلدان الرابع والخامس ، القدس ١٩٣٨-١٩٧٠ ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢.
- البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل) ، البدء والتاريخ ، باريس ١٩١٦ .
- البلوي (أبو محمد عبد الله بن محمد) ، سيرة أحمد بن طولون ، دمشق ١٣٥٨ هـ .
- البنداري (الفتح بن علي) ، سنا البرق الشامي ، دمشق ١٩٧١ .

- البياسي (محمد) ، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ، (نسخة مصورة في مكتبتي) .
- البيروني (أبو الريحان) ، الآثار الباقية من القرون الخالية ليبزغ ، ١٩٢٣ .
- البيهقي (أبو الفضل) ، تاريخ البيهقي ، صحائف مسعودي ألفه بالفارسية ، الترجمة العربية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- التجاني (عبد الله بن محمد) ، رحلة التجاني ، تونس ١٩٥٨ .
- ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٢٩ .
- التوحيدي (أبو حيان) ، رواية السقيفة في المقابسات ، القاهرة ١٩٢٩ .
- الثعالبي (عبد الملك بن محمد) ، لطائف المعارف ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية .
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، البيان والتبيين ، القاهرة ١٣١١ هـ ، التاج في أخلاق الملوك ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، الحيوان ، القاهرة ١٣٥٧ هـ ، العثمانية ، القاهرة ، دون تاريخ ، مجموعة من رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٩٣٨.
- الجهشياري (ابن عبدوس) ، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ .
- نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب جمعها وعلق عليها ميخائيل عواد ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني .
- ابن الجوزي (عبد الرحمن) ، تاريخ عمر بن الخطاب ، القاهرة ، مناقب عمر بن عبد العزيز ، ليبزغ ، ١٨٩٩م ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ .

- ابن حبيب (محمد) كتاب المحبر ، حيدر أباد الدكن ١٩٢٤ .
- ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي) جهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٦٢ ، كتاب الفصل في الملك والنحل وبهامشه كتاب الملك والنحل للشهرستاني ، بغداد مكتبة المثنى .
- الحسيني (أبو الحسن على بن أبي الفوارس ناصر بن علي) ، أخبار الدولة السجوقية ، زبدة التواريخ لاهور ١٩٣٣ .
- الحلي (الحسن بن يوسف) ، الألفين في إمامة أمير المؤمنين علي النجف ١٩٥٣ .
- الحمادي (محمد بن مالك) ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، القاهرة ١٩٣٩ .
- الحموي (محمد) ، التاريخ المنصوري ، موسكو ١٩٦٠ .
- الحموي (ياقوت بن عبد الله) ، إرشاد اللاريب إلى معرفة الأديب ، معجم الأدباء ، القاهرة ١٩٠٧-١٩٢٧ ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٨ .
- ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .
- الحميدي (محمد بن فتوح) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، القاهرة ١٩٥٣
- ابن حيان (أبو مروان) ، المقتبس في أخبار الأندلس ، بيروت ١٩٦٥ ، قطعة منه القاهرة ١٩٧١ ، قطعة منه .
- الخزرجي (علي بن الحسن) ، المسجد المسبوك مخطوطة الحرم الملكي + مخطوطة الجامع الكبير في صنعاء .
- ابن خزيمة (محمد بن إسحق) ، الصحيح ، بيروت ، المكتب الإسلامي .

- ابن خلدون (عبد الرحمن) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٨ .
- ابن خلكان (أحمد بن محمد) ، وفيات الأعيان ، القاهرة ١٣١٠ هـ .
- خليفة (حاجي) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ليبزغ ١٨٥٨
ابن خياط (خليفة) ، تاريخ خليفة بن خياط ، دمشق ١٩٦٧ ، طبقات خليفة بن خياط ، دمشق ١٩٦٦-١٩٦٧ .
- أبو داود (سليمان بن الأشعث) ، ألسن بيروت ، دار الفكر .
- دحلان (أحمد بن زيني) ، الفتوحات الإسلامية ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .
- الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود) ، الأخبار الطوال ، القاهرة ١٩٦٠ .
- الذهبي (محمد بن أحمد) ، تاريخ الإسلام (نسخة مصورة في مكتبتي تشمل الأخبار فقط) ، دول الإسلام حيدر أباد الدكن ١٩١٩ .
- الرازي (أحمد بن عبد الله) ، تاريخ مدينة صنعاء ، دمشق ١٩٧٤ .
- الراوندي (محمد بن علي بن سليمان) ، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السجوقية ، ألفه بالفارسية ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- الرقيق القيرواني (إبراهيم بن القاسم) ، تاريخ أفريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٨ .
- الزركشي (محمد بن إبراهيم) ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ١٩٦٦ .
- سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن قزا أوغلي) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، نسخ مصورة تضم حوادث من (٣٠٠-٥٠٠ هـ) في مكتبتي ، الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة ، أنقرة ١٩٦٨ . مجلدان لحوادث ما بعد ٥٠٠ هـ حيدر أباد الدكن .

ستة من علماء الأندلس ، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ١٩٧٠ .
ابن سعد (محمد بن منيع) ، كتاب الطبقات ، بيروت ١٩٥٨ .
ابن سلام (أبو عبيد القاسم) ، كتاب الأموال ، القاهرة .
السمهوري (أبو الحسن بن عبد الله) ، كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى القاهرة ١٣٢٦ هـ .
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٦٤ ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ .
الشابشتي ، كتاب الديارات ، بغداد ١٩٥١ .
ابن أبي شبه (عمر) ، تاريخ المدينة ، نسخة مصورة في مكتبتي .
الصابئ (ثابت بن سنان) مع ابن العديم والمقريزي ، تاريخ أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق سهيل زكار ، بيروت ١٩٧١ .
الصابئ (هلال بن المحسن) ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ ، رسوم دار الخلافة ، بغداد ١٩٦٤ .
الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) ، كتاب الأوراق ، القاهرة ١٩٣٥ .
الصيرفي (علي بن منجب) ، الإشارة إلى مانال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٣ .
ابن طباطب (المعروف بابن الطقطق) ، الفخري في الآداب السلطانية ، بيروت ١٩٦٦ .
الطبري (محمد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، طبع دار المعارف .
ابن طولون (محمد) الأئمة الاثنى عشرية، بيروت ١٩٥٨ .
ابن طيفور (أحمد بن طاهر) ، كتاب بغداد ، القاهرة ١٩٤٩ .

- العباسي العلوي (علي بن محمد) ، سيرة الهادي إلى الحق ، يحيى بن الحسين ، بيروت ١٩٧٢ .
- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق سعيد العريان ، القاهرة .
- ابن عبد الحكم) أبو القاسم عبد الرحمن) ، فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ١٩٢٠ .
- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد) ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، نسخة مصورة في مكتبتي قيد التحقيق ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، دمشق ١٩٥٨-١٩٦٨ .
- ابن العبري (غريغوريوس) ، تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية من أجل تاريخه الكبير ، انظر المصادر غير العربية ، بيروت ١٩٦٨ .
- ابن العربي ، العواصم من القواصم ، قطعة منه ، القاهرة ١٣٧١ هـ .
- العروضي (النظامي) ، جهاز مقالة ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ابن عساكر (علي بن الحسن) ، تاريخ مدينة دمشق ، مخطوطات ومصورات المكتبة الظاهرية بدمشق ، المجلد الأول ونصف الثاني ، دمشق ١٩٥١ ، المجلد العاشر ، دمشق ١٩٦٣ .
- العظيمي (محمد بن علي) ، تاريخ العظيمي ، نسخة مصورة في مكتبتي .
- ابن العميد (جرجس) ، تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥ .
- العيني (البدر محمد بن أحمد) ، عقد الجمان في تاريخ الزمان ، مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧ .

- الغزالي (أبو حامد) ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، القاهرة ١٩٦١ ، فضـائح الباطـنية ، القاهرة ١٩٦٤ ، قواصم الباطنية ، استانبول ١٩٥٤ ، البتر المسبوك في نصيحة الملوك ، القاهرة ١٩٦٨ .
- الفارقي (ابن الأزرق) ،تاريخ الفارقي ، القاهرة ١٩٥٩ .
- أبـو الفداء (إسماعيل بن محمد بن عمر) ، تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م ، المختصر في أسماء البشر ، استانبول ١٨٦٩ .
- ابن قاضي شهبه (بدر الدين) ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، بيروت ١٩٧١ .
- القاضي عياض ، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، تونس ١٩٦٨ .
- ابـن قتيـبة (أبـو محمـد عبد الله بن مسلم) ، كتاب المعارف ، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، عيون الأخبار ، القاهرة ١٩٦٣ .
- القرشي (يحيى بن آدم) ، كتاب الخراج ، القاهرة .
- ابن القلانسي (حمزة) ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ .
- القلقشندي (أحمد بن عبد الله) ، صبح الأعشى ، دار الكتب المصرية ، مآثر الأنفة في عالم الخلافة ، الكويت ١٩٦٤ .
- القيرواني (أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم) ، طبقات علماء أفريقية وتونس تونس ١٩٦٨ .
- الكاشـغري (محمـود بـن الحسين بن محمد) كتاب ديوان لغات الترك ، استانبول ١٣٣٣ هـ .
- ابن كثير (إسماعيل بن عمر) ، البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٣٢ .

- الكرماني (أحمد حميد الدين) ، المصابيح من إثبات الإمامة ، بيروت ١٩٦٩
- الكشي (محمد بن عمرو) ، رجال الكشي ، مؤسسة الأعلمي ، كربلاء .
- ابـــن الكلبي (محمد وابنه هشام) ، النسب الكبير ، جمهرة أنساب العرب ، نسخة مصورة في مكتبتي ، الأصنام ، القاهرة ١٩٦٥ .
- الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨ .
- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد) ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٠
- المبرد (أبو العباس) ، الكامل في الأدب ، القاهرة .
- ابن محمد (القاضي النعمان) ، اختلاف أصول المذاهب ، بيروت ١٩٧٣ . ، الأرجـــوزة المخـــتاره ، مونتريال ١٩٧٠ ، دعائم الإسلام مع التأويل ، دار المعارف ، القاهرة ، راسلة افتتاح الدعوة ، بيروت ١٩٧٠ .
- المراكشـــي (عـــبد الواحـــد) ، المعجب في تخليص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٤٩ .
- المسبحي (محمد بن عبيد الله) ، أخبار مصر ، نسخة مصورة في مكتبتي .
- المسعودي (علي بن الحسين) ، التنبيه والأشراف ، بيروت ١٩٦٥ .
- مروج الذهب ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ابن مسكويه (أحمد بن محمد) ، تجارب الأمم وذيله ، القاهرة ١٩١٤ .
- ابـــن المعمـــار الحنبلي (أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم) ، كتاب الفتوة ، بغداد ١٩٦٠ .
- المقـــري (أحمد بن محمد) ، نفح الطيب من عفن الأندلس الرطيب ، القاهرة ١٩٤٩ .

- المقريزي (أحمد بن علي) ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، نسخة مصورة في مكتبتي .
- المقفى ، مجلد باريس ، مجلدات ليدن ، مجلد برثاث ، نسخة مصورة في مكتبتي ، الخطط ، القاهرة ١٩٠٦-١٩٠٨ .
- ابن المقفع (سايروس) ، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- الملطي (محمد بن أحمد) ، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، بغداد ١٩٦٨ .
- ابن منبه (وهب) ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر أباد ١٣٤٧ هـ .
- المنقري (نصر بن مزاحم) ، وقعة صفين ، القاهرة ١٣٦٥ هـ .
- المؤيد في الدين (هبة الله موسى) ، سير المؤيد في الدين راعي الدعاة ، القاهرة ١٩٤٩ .
- مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية ، وفيه أخبار العباس وولده ، بيروت ١٩٧١ .
- مؤلف مجهول من القرن الحادي عشر الميلادي ، تاريخ الخلفاء ، موسكو ١٩٦٦
- مؤلف مجهول ، العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، ليدن ١٨٦٩ ، دمشق ١٩٧٢-١٩٧٤ .
- مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، مدريد ١٨٦٧ .
- الميداني (أحمد بن محمد بن أحمد) ، مجمع الامثال ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ابن ميسر (محمد بن علي) ، أخبار مصر ، القاهرة ١٩١٩ .
- الناشئ الأكبر ، مسائل الإمامة ، بيروت ١٩٧١ .

- ابن النديم (محمد بن أبي يعقوب) ، كتاب الفهرست ، طهران ١٩٧١ .
- الفرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر) ، تاريخ بخارى ، ترجمة عربية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- النوبختي (الحسن بن موسى) ، كتاب فرق الشيعة ، استانبول ١٩٣١ .
- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) ، كتاب السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- الهمذاني (القاضي عبد الجبار) ، تثبيت دلائل النبوة ، بيروت ١٩٦٦ .
- ابن أبي الهيجا ، المكتبة الأحمدية بتونس رقم ٩٥١٤ .
- ابن واصل الحموي (محمد بن سالم) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، القاهرة ١٩٥٣ .
- الواقدي (محمد بن محمد) ، كتاب المغازي ، أكسفورد .
- ابن الوردي (عمر) ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٨٦٨ .
- اليافعي (محمد بن عبد الله) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، حيدر أباد ١٩١٩
- اليامي (محمد بن حاتم) كتاب السمط الغالي الثمن ، بيروت ١٩٧٤ .
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٩٦٠
- أبو يوسف القاضي (يعقوب) ، كتاب الخراج ، القاهرة .

Damascus University

المراجع

- الأحمدي (علي بن حسين علي) مكاتيب الرسول ، بيروت دار المهاجر
- أرسلان (شكيب) ، تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وأيطالياوجزر البحر المتوسط ، القاهرة مكتبة البابي .
- أرنولد (توماس) ، الخلافة ، دمشق ، دار اليقظة ، الدعوة إلى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الأفغاني (سعيد) أسواق العرب ، دمشق ١٩٣٧ ، عائشة والسياسة ، بيروت ١٩٧١ .
- أمير (علي) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ترجمة عربية ، القاهرة ١٩٣٨ .
- أمين (حسين) ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ١٩٦٥ .
- أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة عربية ، القاهرة ١٩٥٣ .
- الباز العريني (السيد) ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- الباشا (حسن) الألقاب الإسلامية ، القاهرة .
- باشميل (محمد أحمد) ، العرب في الشام قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٣ .
- بتلر ، فتوح العرب لمصر ، ترجمة عربية ، القاهرة ١٩٣٣ .

- بروكلمان (كارل) ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة عربية ، بيروت ١٩٤٨
- تيمور (أحمد) الرتب والألقاب المصرية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي .
- الجارم (محمد نعمان) ، أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٢٣ .
- حب (هاملتون) ، دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة إحسان عباس ، ومحمد نجم ومحمود زايد ، بيروت ١٩٦٤ .
- حوزي (بندلي) ، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، بيروت ، دار الروائع .
- حتي (فيليب) ، تاريخ العرب ، بيروت ، دار الكشاف .
- حركات (إبراهيم) ، المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ١٩٦٥ .
- حسن (حسن إبراهيم) ، تاريخ الإسلام السياسي ، القاهرة ١٩٥٩ ، النظم الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ ، المعز لدين الله ، القاهرة ١٩٦٤ .
- حسن (علي إبراهيم) ، تاريخ جوهر الصقلي ، القاهرة ، مكتبة النهضة
- حميد الله (محمد) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية ، بيروت ، دار الإرشاد .
- الخربوطلي (علي حسني) ، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، القاهرة ، دار المعارف .
- الخشاب (يحيى) ، كتاب تنسر ، القاهرة ١٩٥٤ .
- خطاب (محمود شيت) ، قادة الفتح الإسلامي ، بيروت ١٩٦٦ .
- الخطيب (عبد الكريم) ، الخلافة والإمامة ، القاهرة ١٩٦٣ .

- الخليفة (عبد الله بن خالد) ، البحرين عبر التاريخ ، بيروت ١٩٦٩ .
- خليل (خليل) ، مضمون الأسطورة في الفكر العربي ، بيروت ١٩٧٣ .
- خليل (عماد الدين) ، معالم الانقلاب الإسلامي ، بيروت ، عماد الدين زنكي ، بيروت .
- الـــدوري (عبد العزيز) ، العصر العباسي الأول ، بغداد ، دراسات في العصـــور العباسية المتأخرة ، بغداد ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، بيروت ، الجذور التاريخية للشعوبية ، بيروت دار الطليعة .
- دوزي ، تاريخ مسلمي إسبانيا ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ديسو ، العرب في سورية قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٥٩ .
- رودولف (ملهلم) ، صلة القرآن باليهودية والمسيحية ، بيروت ١٩٧٤ .
- الريس (ضياء الدين) ، الخراج في الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الزركلي (خير الدين) ، الأعلام ، الطبعة الثانية ، القاهرة .
- زكار (سهيل) ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ١٩٧٣ ، التأريخ عند العرب ، دمشق ١٩٧٤ .
- ســالم (الســيد عــبد العزيز) ، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٧ ، تاريخ الدولة العربية ، بيروت ١٩٧١ .
- السامر (فيصل) ، الدولة الحمدانية في الموصل ، بغداد ١٩٧٠ .
- الســامرائي (حســام قوام) ، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية ، دمشق ١٩٧١ .

Damascus University

- سرور (محمد جمال الدين) ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٦٤ ، قيام الدولة العربية ، بيروت ١٩٧١ ، الحياة السياسية في الدولة العربية خلال القرنين الأول والثاني ، القاهرة ١٩٦٠ .
- الشريف (أحمد إبراهيم) ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٧ ، الدولة الإسلامية الأولى ، القاهرة ١٩٦٥ ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني .
- شمس الدين (محمد مهدي) ، أنصار الحسين ، بيروت ١٩٧٥ .
- صالح (أحمد عباس) ، اليمين واليسار في الإسلام ، بيروت ١٩٧٠ .
- الصالح (صبحي) ، النظم الإسلامية ، بيروت ، دار العلم للملايين .
- عاقل (نبيه) ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ١٩٧٢ ، تاريخ خلفاء بني أمية ، دمشق ١٩٧٣ .
- العبادي (أحمد مختار) ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٦٩ .
- عباس (إحسان) ، العرب في صقيلية ، القاهرة ١٩٥٩ ، عهد أردشير ، بيروت ، دار صادر .
- عبد الحميد (سعد زغلول) ، تاريخ المغربي العربي ، القاهرة ١٩٦٥ .
- العزيز (حسين قاسم) ، البابكية ، بيروت .
- علي (جواد) ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، بغداد ١٩٥٠ .
- العلي (صالح) ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بغداد ١٩٥٩ ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بيروت ، دار الطليعة ،

تنظـيمات الرسول الإدارية في المدينة في مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٦٩ .
- علیان (محمد بن عبد الفتاح) ، قرامطة العراق ، القاهرة ١٩٧٠ .
- عمـر (فـاروق) ، طـبيعة الدعوة العباسية ، بيروت ، دار الإرشاد ، العباسيون الأوائل ، بيروت دار الإرشاد ، العباسييون الأوائل ، دمشق ، دار الفكر .
- عـنان (محمد عبد الله) ، الحكام بأمر الله وأسر الدعوة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٩
- غالب (مصطفى) ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، دار اليقظة ، دمشق .
- غرايبه (عبد الكريم) ، العرب والأتراك ، دمشق ١٩٦١ .
- غـلوب (جون باجوت) ، الفتوحات العربية الكبرى ، مكتبة المثنى ، بغداد .
- فازيليف ، العرب والروم ، القاهرة ، دار الفكر العربي .
- فلهاوزن (يوليوس) ، الدولة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- فلوتن (خان) السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أميه ، القاهرة ١٩٦٥ .
- القاسمي (ظافر) ، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ، بيروت ١٩٧٤ .
- قـدوره (زاهيـة) ، عائشـة ، بيروت ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني .

Damascus University

- آل كاشــف الغطاء ، محمد (الحسين) ، أصل الشيعة وأصولها ، مكتبة العرفان بيروت .
- كانار (موريس) ، نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني الجزائر ١٩٣٠ .
- كاهين (كلود) ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، بيروت ١٩٧٢ .
- كمال (أحمد عادل) ، فتوح الشرق بعد القادسية ، بيروت ، دار الفكر
- لويس (برنارد) ، أصول الإسماعيلية ، بغداد ١٩٤٧ ، الدعوة الإسماعيلية الجديدة
- المنجد (صلاح) ، معجم بني أميه ، بيروت ١٩٧٠ .
- مؤنس حسين) ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٨ ، فجر الأندلس القاهرة .
- ناجي (عبد الجبار) ، الإمارة المزيدية ، البصرة ١٩٧٠ .
- نيلسن (ديتلف ورفاقه) ، التاريخ العربي القديم ، القاهرة ١٩٥٨ .

Damascus University

المصادر الأجنبية

- Anonymous Ceograplher Hudud At-Alan English Translation London 1973 .
- Atiya (Azi z) The Crusade historigraphy and biblio Graphapliy Oxford 962 .
- Belier (E-A) Arabs islam and the Arab Califate jeru salem 1969 .
- Bar hebreaue (Abu'l-Farajson of Aron) history of history of the world English Translation by Ernest A.Wallis Budge-oxford 1932 .
- Barhold (W) A-four Studies on the Hietory of Central Asia. English Translation . London 1962. Turkestan Douln to the Mongol In Vasion English Translation. lnndon 1963 .
- Boworth (Califford) A- the Chaznavid Edinburgh 1963 .

  B- the Islamic Dynasties - Edinburgh 1607 .

- Gahen (Claude) A-Movemeuts Populaire et Atounomis me Urbanis Dane l' Asie Muslmate Du Moyen Age Arabica Vol. V . Paris 1958 .
  B-Pre ottoman Turkey (Eng trans) London 1969 .
- Cohn (Norman) the Pursuit of the Milleniuw London 1970 .
- The Cambridge History of Iran VoI-V-Caobridge 1968 .
- Catmbridge History of Islam Cambridge 1970 .
- Cambridge Medieval History VoL-IV : Ed . Joan M.Hussey Cambridge 1966 .
- Dunlop (D.M.) The History of Jewish Kazars new Gork I967 .
- Elisseef Nikitee - nur - Addin llamas 1967 .
- Enegelopedia of Islam New Eden London 1960 .
- Gabriel (Francesca) A- muha and theConquests of Islam London 1968 .
  B-Ashort History of the Arabe London 1965 .
- Gibb (Hia.r.) Mohammed anis M.oxford 1969 .
- Elhajji (Abdul-rahman) Aadalusian .
  Dilplomatic Relations With Western Europe Duin the Umayyad Beirut 1970 .

- Kabir (Mafizullah) the Buwaghid Dynasty of Baghdad Calcuta 1964 .
- Lambton (A. K . S) Land-Lord and Poasantin Persia-Oxford 1969.
- Lane-Poole (Stanley) tine Moors in Spain .
- Lewis (Bernard) A-the Arab in Hiastory London 1968 .
  B-Race and Color lit Islam London 1971 .
- Meweill (W . and Sedlarcj) the Clasical Miditerranean World 1969 .
- Nisan Al Mulk the Book of Government English Translation by Herbert Drate London 1969 .
- Ostrayosky (D) Hostory of Eke Byzantine Statengl . Trans . J . Hussey Oxford 1968 .
- Partington (J.R) Ahistory of thr Greek fire and Gunpouder Cambbridge 1960 .
- Pearson (J . D) Index Islam'cus Csmbridge 1961-1962-1967 .
- Watt (M) I-Muhammed Prpphet and Statwent Oxford 1961 .
  2- Ahistory of Islamic Spain . Edinhurgh .
- Widen Gren (Geo) Mani and Manic haeism London 1963

- Zakkar (Suhayl) the Emirate of Aleppo 1004-1094
  Beirut 1971 .
- Zaehneav (R.C)
  The Dawn and Twilight of Zoroastrianism London 1961 .

Damascus University

المقومون العلميون

أ. د . سـهيل زكّـار .

أ. د . ابراهيم زعرور .

أ . م. د . وفاء جونـي .

المقـوم اللغـوي

د. علي أبو زيـد

- حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات

Damascus University